

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٤

جامعة أم القرى
بمكة المكرمة
كلية اللغة العربية وآدابها



١٠٢١٨٧

أدب الخيفية في العصر الجاهلي

لعمرو الطالب

جيب غنش عمران الزهراني

١١١٨



رسالة تخريري

لشؤون

الاستاذ الدكتور / فتحي محمد أبو عيسى

شكر وتقدير

لا يقوتني بعد أن من الله تعالى بظهور هذا البحث ، واستوائه على سوقه أن أحمدا لله وأشكره ،
فله سبحانه الفضل ، وله الأثر من قبل ومن بعد .

والآن من يشكره تعالى أن يذكرنا لاهتمامه بالعلم ، والجميل لزمه ، إيماناً بأيدٍ كريمة لها معروف لا
ينكر ، ساعدت في خروج هذا الموضوع للوجود .

فأتيت جامعة أم القرى على اهتمامها بالعلم وطلابه ، وتخصتها بالسبل لكثرة لائحتها الدارسين .
وأشكر سعادة عميد كلية اللغة العربية الدكتور عليان الحازمي على ما بذره من عنايته ومساعدته أمام كثير
من المعضلات ، وتقديره لطلبة العلم .

كما أقدم بشكري للأخ الكريم عزيز محمد حسن الذي ساعدني على اختيار هذا الموضوع ، وأرشدني لبعض اللبس
المفيدة ، كما أشكر سعادة عميد شؤون المكتبات في الجامعة الإسلامية بالمدنية المنورة ، الدكتور علي سلطان الحكي
لما قدمه من عون في تصوير بعض الكتب التي أفدت منها . ولا أنسى بالفضل والتقدير صديقي الاستاذ : عبد الله
ابراهيم الزهراني ، فقد كان نبي في أيام مخاض هذا الموضوع وخروجه . وأقدم وأفر السكراً والاعزاز لأخوتي البار
علي العزيز جنش فقد كان ولوجي في الدرايات العليا مدمجة رأيه المبارك ، كما أنني أشكر له تحمله كثيراً من الأعباء
الأسرية عني ، مما يسرني التفخي لهذه الدراسة .

إني قل هولاء وكل مهتم لي أي عون كان إياها لله أن يجزيهم عن خير الجزاء فذاك ما أملكه .

ولكن لاتحان الدهر عندي وعند الله تجزيته الرجاء

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله نعمده ونستعينه ونستغفره ، ونتوب اليه ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا
ومن سيئات أعمالنا .

من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلن تجد له وليا مرشدا . وأشهد
الا اله الا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدا عبده ورسوله صلى الله تعالى عليه
وعلى آله وأصحابه الى يوم الدين وسلم تسليما كثيرا .

أما بعد : فلا يخفى مالأدبنا العربى بعمامة من تأثير على النفوس والمشاعر ، وإذا كان أدبنا
العربى على تلك الصورة فإن الأدب الجاهلى منه يحتل المكانة الأصيلية ، حيث يشمل
من هذا الأدب - على امتداده - المركز الاساسى ، أو ان شئت اللبنة الاولى التى قام
عليها صرح الأدب بعد ذلك متمثلا فى شعره ونثره بأنواعه ، وألوانه .

وهذا الأدب الذى ينسب الى أولئك القوم الذين عاشوا قبل بعثة " محمد " عليه
الصلاة والسلام لا يخلو من كثير من المعانى الأخلاقية الرفيعة ، والآداب السلوكية
القوية ، من عديد من الفضائل التى تغنى بها القوم ، ثم رويت لنا عنهم .

وبجانب ذلك تلوح لنا من خلال هذا الأدب لآلى ايمانية ، وتسبيحات روحية ،
تختفى كثيرا فى غمار العصر ، وتتجلى واضحة عند بعض الأفراد ، تطورها كثرة الأصنام
المشهوة ، وتعنى عليها تلك الانصاب التى لطمخوها بدماء العتائر والقربان .

وقد كانت هذه الاشارات مما اضطرت فيها الافهام بين رافض لها ، وآخر لا يرى
غضاظة فى أن يحمل الأدب الجاهلى تلك الاشارات ، تعبيرا أو رجعا لما دار على
سرح الحياة الجاهلية يؤخذ ومضت التساؤلات تلتف حول هذه الحقيقة ، تريد
أن تجد جوابا شافيا عن أصل هذه الاشارات التى رسمت معالم فى حياة هؤلاء
الجاهليين .

وقد لاحظت ذلك وأمعنت فيه حتى رأيت أن بعض المعانى التى جاء الاسلام بها

بعدئذ على مشابه من هذا الذى عرف عند هذا الرهط من الجاهليين ، بل لعلى
ألفت من هذه الاشارات كثرة كاثرة على ما سيأتى فى ثنايا الدراسة ان شاء الله .

وقد دفعنى الى هذه الوجهة ما كاد يغلب على نظرة كثير من الباحثين أو الدارسين
من القول فى عشوائية ومجازفة عن مثل هذه الاشارات انها مما انتحله الرواة وقنعوا
به هذا الأدب الجاهلى إبان تدوينه وجمعه .

ولا غرو أن ذلك من آثار تلك الهزات العنيفة التي رمى بها هذا الأدب ، وكانت
فى الحق عند دارسيه دليلا على أصالته والوثوق به ، الا أن من لم يتحقق من ذلك
يكتفى بترديد ذلك الرأى ويستعمره .

ولما ظهر فى جزيرة العرب عدد من رسل الله الكرام ، وكانت رسالة " ابراهيم "
الخليل عليه السلام وابنه اسماعيل هى التي انتشرت فى جزيرة العرب قبل العصر
الجاهلى كما اتفق على ذلك المؤرخون ، وبقي العرب ينسبون أنفسهم اليها حتى وهم
مشركون ، أردت أن أقف على هذه الحنيفية ، وأتلمس بقاياها فى طوايا الأخبار وجنبات
الاشعار والروايات .

ولما بعث الله نبيا محمدا صلى الله عليه وسلم بالحنيفية السمحة ، عرفنا الكثير
من جوانب تلك الحنيفية ، وما أقره منها ، وما تدخل فيه بالتقويم والتشذيب ، ^{رسمنا}
يسر لنا تتبعها والوقوف عليها .

والحق أن ما يحمله هذا الأدب من اشارات الى معتقدات أو أحكام أو عبادات وأيتها
تلتقى بسبيل مع هذه الحنيفية قد مال بى الى دراسة أدب هذه الحنيفية وشجعنى
على المضى فيه .

ولعل أهمية هذا الموضوع - فى تقديرى - تكمن من وراء تلك التفسيرات التي فسرت
على غير وجهها هذه الاشارات والمعانى الحنيفية .

فمن قائل باختلاقها على الجاهليين وتحلهم اياها ، ومن زاعم أنها من آثار
الديانة اليهودية أو النصرانية فى العرب وتغلغلها بينهم ، ومن قائل بتطور الاسلام ^{بفريق}
عن تلك الارهاصات ، ومن حاقد جعل هذه الاشارات احدى مصادر القرآن الكريم ،

وأن الرسول عليه الصلاة والسلام أستعان بها فيما جاء به ، وأنه أفاد من أحكام أهل مكة والمدينة فيما شرّعه لقومه كما تصور هذا بعض المستشرقين وأذاعوه بين الناس.

ولعل هذا البحث يسهم في تصور تلك الجوانب المشرقة التي وجدت عند العرب ، والتي تقابلها أبعاد حياتهم المظلمة الأخرى ، وتدفع ما يحدث من حيرة ولبلاسة عند ما يتوارد هذان النقيضان ويراد التوفيق بينهما .

وربما كان من الاسباب التي جعلت هذا الموضوع غاية في الاهمية عندى قلـــــة الدراسات التي تناولته أو تعرضت للحديث عنه على قدر ما اطلعت عليه .

ولا أزعج بذلك أنني أبوعذرتها - كما يقال - بل هناك إشارات ودراسات لمست بعض ما يطرقة هذا الموضوع . ولا ضير علينا من ذكر ذلك والاشارة إليه ، ان لولا تلك الجهود الكثيرة التي بذلت لنا العقبات ، وراحت بعض الطرق لما استطاع دراس أن يلم بأطراف موضوعه وقضاياه المتشعبة .

فالحق أن كتب أسلافنا لم تعدم بعض الإشارات التي أفدنا منها ، كالكتب التي تتحدث عن أعلام النبوة ، وكذلك المجموعات الشعرية وكتب التاريخ وكتب الطبقات وغيرها .

وفي العصر الحديث يبدو أن المستشرقين تناولوا كثيرا من قضايا الأدب الجاهلي ، وعنوا بهذه الاشارات الدينية في الشعر الجاهلي كما يلاحظ من دائرة المعارف الاسلامية ، والذي وقفت عليه من دراساتهم مما كان مترجما أو أشار اليه أحد الباحثين .

وعند العرب ظهرت بعض كتابات أفدت منها كذلك ، فقد كتب الدكتور جواد علي * في الفصل من تاريخ العرب ^(١) بحثا طويلا عن الحنفاء أفدت منه ، وألف الدكتور أحمد جمال العمري كتابا وسماه (الشعراء الحنفاء) طبعته دار المعارف بمصر سنة ١٩٨١ للميلاد . وقد كان لهذا الباحث زيادة هذا الموضوع وطرقه بشئ من التوسع والتناول المستقل . وفي تقديري أن هذا الباحث فاته بعض جوانب على صلة

بالشعراء الحنفاء كموقفهم من الإسلام ، وتنصر بعض منهم ، والتاريخ المحدد الذى عاشوا فيه .

ثم إن حصره لدراسة الشعر الدينى فقط فى فصل الشعر وترك الأغراض الأخرى - وأن أعان حصره هذا على تصوّر التحنف عند الشعراء وستر ما قد يناقضه عند بعضهم ليسلم القول بتحنفهم - فيه اجحاف بالشاعرية التى وسم بها د راسته ، والفروق بينها وبين شاعرية غير الحنفاء وشعرهم . ومن العجيب أن الباحث عند ما أتى الى موضوعات شعر الحنفاء استشهد بشعر من لم يذكره لنا من الحنفاء كالأعشى وغيره .

وكل ذلك لا يقلل من جهد الباحث ومكابدة موضوع الحنفاء الذى أعلم وعورة البحث فيه تماما ، وحسبه أنه أخرج للناس هذه الطائفة فى بحث على متناسق ، تأخذ مباحثه بحجز بعضها ، وتجلى كثيرا من جوانب الحنفاء ، راد بها الطريق ، وفتح بها الباب لمن أراد التوسع أو الدراسة .

ونشر الدكتور : " عادل جاسم البياتى " مقالا بعنوان " شعر الأحناف : دراسة وتحليل " فى مجلة آداب المستنصرية ، والتى تصدرها كلية الآداب بالجامعة المستنصرية فى بغداد ^(١) ، رأيته مرة أخرى فى بعض ^(٢) المجلات فيما عدا نتفا يسيرة منسـه ، أسهم فيه بجهد طيب حول الحنفاء ، والشعر الذى يروى لهم ومدى الفائدة مما نحل عليهم من الأشعار .

وكتب فى مجلة الأزهر ^(٣) عدد من المقالات عن الشعراء المتألهين فى العصر الجاهلى لا تخرج عن تعريف بعض الحنفاء وحياتهم وطرف من أشعارهم . ولا تغفل هنا كثيرا من الدراسات التى انفردت ببعض الحنفاء ، وبخاصة الشعراء كأمية بن أبى الصلت فهى كثيرة جدا .

والحق أنى أفدت منها فيما يختص بالحنفاء أما لب البحث وهو أدب الحنيفية على

(١) العدد الخامس ١٤٠٠هـ / ١٩٨٠م .

(٢) مجلة الشعر ، العدد ٣٦ أكتوبر ١٩٨٤م .

(٣) بعض الأعداد الصادرة سنة ١٣٦٠هـ ، ١٣٦١هـ .

التحوى الذى صورته عند معنى الحنيفية فى بعض مباحث هذه الدراسة فذاك أمر آخر وإن أفاد من أدب الحنفاء .

والحنيفية التى بقيت عند أولئك القوم لا ينهض أدب الحنفاء ببيانها ، بل لا بد من الاستعانة بجميع طوائف شعراء الجاهلية حتى نقف عليها ، وربما لا نكتفى بذلك ، بل نحتاج إلى إشارات بعض الشعراء المخضرمين لأنهم عاشوا فى الجاهلية حقبة من الزمان وربما أفادنا بعض شعرهم فى ذلك .

ولعل هذا يدفعنا إلى الحديث عن الصعوبات التى واجهها هذا البحث وموقفه منها .

ولا غربة أن يجد كل باحث كثيرا من العقبات التى قد تعترضه ، ولا سيما فى المراحل الأولى التى يبروز فيها كلمه على أن يخوض مخاضات الدراسة العلمية . فما واجهته من تلك الصعوبات التى تقابل من يريد دراسة الحنفاء وحنيفيتهم ، أن الأخبار قليلة ومع ذلك فهى معثرة ولا تخلو من التضارب أو الاضطراب كما سترى عند الحديث عن الحنفاء ، ثم تحديد الحنيفية واختلاف الأعمال وتصورات الحنفاء لها لأنها لم تكن واضحة لهم مما يفضى إلى الحيرة التى تستبد بالدارس ، إن هو حاول توضيح قسما أدبهم ، وتأطيره فى إطاره الصحيح .

وما واجه هذا البحث - أيضا - صعوبة تحديد الحنيفية وأبعادها عند أولئك الجاهليين ، فهم مشركون ، والحنيفية هى الاسلام ، فكيف نطلب وجود شيء من ذلك عندهم ، على فرض أنهم نزلوا على " الحنيفية " وما تتقاضاه مبنى ومعنى ، فقد تقع الانطباعة للوهلة الأولى فى الذهن أنهم سيمثلون هذه الحنيفية ، وما إن يذهب الدارس فى التقصى والتتبع حتى يجد المحصلة من ذلك لا تشفى غليلا ، أو تنقع أواما ، ذلك أن النصوص التى بين يديه قد تخذله عما عسى أن تكون هذه الحنيفية عند العرب الجاهليين .

كان لا مناص إذا من تتبع ذلك عند سائر الشعراء حتى نقف على الايماءات التى تدلنا على شيء من الحنيفية ، غير أننا نجد بعض هؤلاء الجاهليين ومنهم بعض

الحنفاء أدركهم الاسلام ودخلوا فيه ، فهل نأخذ شعرهم أم نطرحه ؟ وكيف يصح لنا أن نعد ما نجده عند هم من حنيفة الجاهلية مع ترجيح الظن أن مطارحتهم لمعاني " الحنيفة " كان بعد أن شرفوا بالاسلام .

وأمر آخر واجه هذا البحث ، ذلك هو الظن بوضع هذه الأشعار ونحلها عن الجاهليين فكيف يسوغ لنا أن نثق بصحتها ثم نبني عليها هذه الدراسة ؟ وقد وقف الانتحال بالمرصاد لقمع كل ما يظن أنه من معاني الاسلام عند أى شاعر جاهلى ، فإذا نعمل وقد أوصدت الأبواب أمام هذا الأدب الحنيفى ، والذى هو من روح الاسلام ويطابق تعاليمه وأبعاده ؟

ومن الصعوبات فى هذا المضمار حاجة هذا البحث إلى المصادر المختلفة ، ولئن كان هذا البحث فى الأدب لقد مضى بطبيعته إلى بعض مصادر العلوم الأخرى . وهذا يقتضى تنوع مصادر البحث ومراجعته ، حيث كان ضروريا أن يُبَيَّن هذه الدراسة صوب المصادر التاريخية الأولى ، ومنها على سبيل المثال " تاريخ الطبرى " وتاريخ ابن الاثير وغيرهما ، كما أننا أفدنا من الكتابات المحدثه كالمفصل فى تاريخ العرب قبل الاسلام وغيره مما ستزى فى صلب الدراسة .

ولعل ما يدخل فى المراجع التاريخية كتب السيرة النبوية فهى بلا شك كانت لنا ذات عون كبير فى ما كان من أخبار وافقت أحداث حياة النبى عليه الصلاة والسلام ، ولا شك أن سيرة ابن اسحاق على رأس ذلك ، ومثلها تلك الكتب التى تتحدث عن أعلام النبوة ودلائلها فهى تتحرش كثيرا بالأحوال الدينية ، عند العرب وما كان على صلة بأحداث حياة صاحب الرسالة عليه الصلاة والسلام .

وبجانب المصادر التاريخية هناك " القرآن الكريم " وتفسيره ، والحق أن فائدتى منها كانت ركيزة دارت معظم قضايا هذه الدراسة حولها ، وذلك ما يجعلها فى المقام الاول .

ولا شك أن أحكام الاسلام ، ومعالجة آيات القرآن الكريم لكثير من القضايا والأحكام المتنوعة فى ذلك المجتمع كانت لنا خير دليل على كشف جوانب حياتهم

الدينية والاجتماعية والتشريعية ، ما نريد الوقوف عليه ، وقد كانت أسباب النزول وكثير من التأويلات لآى الذكر الحكيم تهدنا بملاحظات ذات شأن غير قليل . وقد عولت كثيرا على تفسير " ابن جرير الطبرى " و " ابن كثير " و " القرطبى " رحمهم الله أكثر من غيرها من كتب التفسير .

والحديث النبوى لا مراة من الاستفادة من معينه ، والأخذ من رواياته التى أفدنا منها جانبا طيبا هنا ، وإن وقفنا عند الصحيحين أكثر من غيرهما .

أما المراجع الأدبية فقد دفعنا هذا البحث إلى أن نتلص معانى هذه الحنيفية فى قراءة ما وقع لى من دواوين شعراء الجاهلية ، ثم بحثت بعد ذلك فى كثير من المجموعات الشعرية المعروفة ومنها " كتب الحماسة " و " الأمالى " و " الطبقات " . كما أتت عدت كما يقتضى هذا البحث الى كتاب " الأمثال " ، ووقفت بخاصة منها عند كتاب الأمثال " لأبى عبيد القاسم بن سلام " و " مجمع الامثال " للميدانى .

ولا ريب أن هناك باحث وكتبا حديثة أفدت منها وهى كثيرة جدا ، وعلى صلوة بالأدب الجاهلى ترى كثيرا منها تعكسه هذه الدراسة فى مواطن متفرقة .

وأحب أن أتوه هنا أن ماسلف من مصاعب وما أشرت اليه من كثرة المراجع ليس مما أزهى به فى هذا البحث أو ألبسه ما لا يستحقه ، بل هى تزيدنى عناة الى عناء ، وتشغل كاهل من لم يحسن استخدامها ، وإنما ذلك هو طبيعة هذا الموضوع وأنا أعايشه . ولعل من حقى أن أذكر أن هناك عددا من الدواوين أو الكتب التى قلبت صفحاتها وأنا أجمع مادة هذا البحث ثم أخرج منها بلا غنم يخدم هذا الموضوع .

والحق أن ما يمثل أدب الحنيفية كما وضع له فى هذا البحث عزيز فى المصادر نزر فى بطون الكتب ، وهذا إجماع المشقة ، ومصدر العناء .

ومنهج هذا البحث فى العموم أدبى تاريخى جمعى تحليلى ، فهو أدبى يتخذ من الشعر والنثر قواما له فى تصوير " الحنيفية " ، وتاريخى تعضده الحوادث والروايات المستمدة من كتب التاريخ ، وهو جمعى ذهينا فى تتبع أشلائه المبعثرة ليتمكن رؤيتها فى إطار متسق ، يجمعهما نظام واحد ، ويطرده فى صورة مقبولة ان حسن الجمع

وحالفنا التوفيق فى عرض أجزاءه وجزئياته . وهو أخيرا تحليلى إن لم نرد كل ما نجد دون تحليل أو تفصيل ، وقد نألف بعض الدارسين فى بعض الآراء التى قد تتصل بهذا الموضوع من طرف قريب أو بعيد ، كما أننا قد نعلل بعض الأمور ونناقش بعض الظواهر وندرس بعض القضايا التى نرغبها فى بعض وجازة يضطرننا إليها المنهج الذى قامت عليه هذه الدراسة .

وبرغم ما واجه البحث من عقبات من الله بتذليلها خرج على صورته الأخيرة فى تمهيد وبابين .

تناول التمهيد ثلاثة مباحث . تحدثت فى الاول عن المراد بالحنيفية مستفيدا من كتابات السابقين وأبحاث المحدثين الذين تطرقوا لها ، وابتدأت آخر ذلك أن المراد بها حنيفية إبراهيم عليه السلام وما نجد عند العرب من آثارها حتى وإن اعترى بعضها التحريف بزيادة أو نقصان .

وتعرضت فى الثانى لجذور هذه الحنيفية ، وكيف بقيت هذه الملة أو بعضها فى العرب من تلك الأصول القديمة ، وأشارت إلى دور الرسالات السماوية التى عرفت بها جزيرة العرب ودورها فى إرساء أصول هذه الحنيفية إذ أن دين الانبياء فى أصوله وقواعده واحد وإن تباينوا فى الشرائع أو بعض ما يتفرع منها .

وعرضت فى الثالث للحديث عن أديان الغرب ، وحال هذه الأديان التى كثرت فى ذلك العصر ، ولا مندوحة عن ذلك إن يوضح لنا ما سياتى عن الحنفاء الذين قضوا حياتهم يتطلعون الى الحنيفية القويمة ، ومكانة هذه الحنيفية ازاء تلك الأديان الأخرى .

وفى الباب الاول تحدثت عن الحنفاء ، وكان ذلك فى فصلين :

الاول منها حول معنى " الحنفاء " ، وصعوبة الكلام عن أفرادهم دون اعطاء دراسة تسهم فى تجلية كيف كان هؤلاء الحنفاء ، وما هى الحنيفية التى يريدون أو يتصورون ؟ ثم عرضت لبيان عقيدتهم وتشريعاتهم .

وفى الفصل الثانى ترجمت لهؤلاء الحنفاء الذين رأيت أن ما قدم عنهم من دراسة ربما لا تعطى التصور الكامل لهؤلاء الناس .

وقد لاحظت أن من التيسير أن نقسمهم إلى مشاهير درج ذكرهم في كتب التاريخ والأدب وعرفوا بالتحنف ، ومجاهيل^{ترد} أخبار تحنفهم في صورة باهتة مطورة يقتضى البحث أن نسلكهم مع أعدائهم الآخرين .

ولم يكن هنا أن نفصل حياة هؤلاء الأشخاص بقدر ما ركزنا على إيضاح تحنف كل منهم إذ ذلك مانسعى إليه .

وفي الباب الثاني تحدثت عن أدب الحنيفية وتحت هذا الباب أربعة فصول . عرضت في الأول منها لقضية " الانتحال التي تعترض هذا البحث وأبنت عن اعتمادى في هذا البحث على ماصح ووثق من هذا الشعر والنثر ، وجمعت بعض أطراف ما قيل عن مثل هذا الشعر الدينى ، وكيف تأخذ منه ونرد ، مع الاستفادة من آراء علمائنا السابقين الذين أخرجوا لنا كثيرا من شعر الجاهليين في الدواوين أو المجموعات الشعرية الموثوق بها بوجه عام .

وفي الفصل الثاني تحدثت عن الحنيفية وجاء هذا الفصل في ثلاثة مباحث : الأول في " المعتقدات " ، شمل التأمل في آيات الكون وأخبار الام السابقة وأنبيائها ، ثم تعرض للإيمان بالله ووصفه بكثير من الاسماء والصفات اللائقة به سبحانه ، ومنه القسم به في كثير من ايمانهم التي أعظمها أن يقسموا به . ثم الايمان بالملائكة ثم الاستبشار بقرب ظهور النبى . ثم الايمان بالبعث والثواب والعقاب . ثم الحقنا بآخرة عدم التطير من الحيوان وغيره عند بعض من وجدنا ذلك عندهم .

وفي البحث الثاني : تحدثت عن العبادات عندهم وكان من ذلك سنن الفطرة كالختان واعفاء اللحية والسواك وغيرها ، كما تعرضنا لكثير من شعائر الحج والعمرة وتعظيم الحرم ، والوفاء بالنذر وغير ذلك .

وفي البحث الثالث تحدثت عن تشريعات الحنيفية التي ساد بعضها عندهم وكان مما وقفنا عليه من ذلك تحريم الخمر ، وتحريم الزنى ، والتمتره عن أكل الميتة .

ثم تعرضت بعد ذلك لأحكامهم في بعض الجنايات كالسرقة وقتل النفس بغير حق ،

وما كان من أمر الدية عند هم ، ودفعها لأهل المقتول ، وتفاوت مقدارها بينهم .
ثم طرقتنا بعض أحكامهم في المنازعات التي يختلفون فيها ، وكان ما أخذوا به
من ذلك قبول الايمان المغلظة والحكم بالقسامة عند انعدام البينات عند المتنازعين .
ثم خرجنا بعد ذلك الى ما كان من تشريعات الحنيفية التي وجدت في أحكام النساء
وما يتعلق بهن .

وكان من ذلك النكاح المشروع ، ومنه المهر الذي يدفعه الزوج الى ولي زوجته .
وما كان عند هم من طلاق في ملابس تستدعي ذلك ، وقد يكون خلعا يسترجع به
ما أمهر زوجه .

وذكرنا بجانب ذلك تحريمهم للمحارم اللاتي حرمن الاسلام على الرجل من قريباته
وتجنب الحائض ومعرفة الحجاب وما الى ذلك .

ويجدر بنا التنبيه هنا أننا لسنا بصدور الاستقصاء في كل ما يرد في ثنايا هذا
الفصل وانما نرمي الى الابانة عن نماذج ، توميء الى غيرها .

وفي الفصل الثالث اتجهت الى النشر فهو القيم الآخر من هذا الأدب ، وأشهرت
الى مدى الافادة من هذا النشر الذي ليس على صورته الصحيحة التي نطق بها قائلوه ،
ومن هناك اتجهت الى الامثال فهي أصح ما في ذلك وما يمكن أن يطمأن إليه ، وعليها
عولت وان أخذت من بعض النشر الذي يوميء الى أصوله التي عفت عليها الزمان .

وفي الفصل الرابع : حاولنا أن نحلل بعض قضايا تتصل بهذه الإشارات والمعاني
الدينية عند الجاهليين ، ومدى الاستفادة منها في تصوير عقائد الجاهليين وأديانهم
ثم وجود بعض هذه الإشارات حتى عند بعض من عرف بالتبذل والمجون من شعراء
هذا العصر ، ثم حاولنا أن نصحح ما شاع من قول بعدم معرفة العرب لكلمة الرحمن ،
ووجود ذلك في شعر القوم مستفيدين من إشارات بعض السلف الى ذلك .

وحاولنا كذلك أن نوضح الفرق بين المعاني الدينية عند الحنفاء وعند غيرهم

ودلالة ذلك .

وتعرضنا فى هذا الفصل لما قد فسرت به هذه الاشارات والمعانى الدينية ودلالة ذلك على الزهد أو علاقته بالخضرة .

وأخيرا لسنا خصائص أدب الحنيفية الفنية وأنه أدب سهل الاسلوب واضح المعانى وما الى ذلك ، على الرغم من أن هذه الدراسة استمدت هيكلها من أبيات مفرقة من الشعر الجاهلى ، مما لا يتيح التوسع فى بسط القول فى هذه الدراسة .

وأود فى النهاية أن أنوه بالجهد الذى بذله معى الاستاذ الدكتور محمد عبد العزيز الكفراوى الذى تعهد هذا الموضوع منذ البداية بالاشراف وحسن التوجيه فى مراحلہ الاولى .

كما لا أنسى بخالص التقدير والاعتراف ان أشكر سعادة الاستاذ الدكتور فتحى محمد أبو عيسى والذى تولى اشراف هذا البحث بعد ذلك ، ورعاه بحسن التوجيه وجدية الدرس ، حتى أخذ طريقه القوية واستوى على سوقه . مع ما أفدت من علمه وثاقب نظراته .

فالى استاذى الكريمين أدعو الله مخلصا أن يجزيهم عنى خير الجزاء .
ويعد . .

فهذه الابعاد التى تكفلت بتبيانها تلك الدراسة انما برزت الى حيز الوجود ، بعد أن عشت فى محرابها قارئاً متقصياً أحاول كل وكدى أن يجرى البحث فى اهاب مشرق وصى ، يقدم للدراسات الأدبية لسة وفاً للفتنا العربية التى نزل بها القرآن الكريم ، ولأدبنا العربى الذى ينبغى أن نتصدى لدراسته على نحو أمثل ، حتى لا يرمى بالجمود أو التخلف ، وذلك لا يتأتى الا بالاحتشاد الحى لهذه الدراسة وشيلائها . . وبخاصة وأن الأدب العربى الجاهلى كم تتعقبه أقلام تريد النيل منه ،

والغرض من شأنه . . وأرجو أن أكون بذلك قد أوفيت على الغاية ، أو بتعبير آخرى
أن أكون كما قال الرسول الكريم قاربت وسددت . . والله حسبي وهو نعم الوكيل .

تَحْيِير

٢- الحنيفة

ب. جذور الحنيفة

ج. أديان العرب في الجاهلية

(١)

" الحنيفية "

ينبغي لنا ونحن بصدد الحديث عن " الحنيفية " أن نقف أولاً على المراد به هذه اللفظة (الحنيفية) . فلا شك أن معرفة ذلك فوق أنه يحدد لنا معنى الحنيفية ويوضحها يعيننا على فهم ما يأتي في طوايا البحث من حديث وما يبنى على هذا الأساس من أفكار .

وواضح أن مادة " الحنيفية " اللغوية ترجع إلى أصلها الثلاثي (ح ن ف) وسأحاول أن أتتبع " الأصل " وما اشتق منه في معارض عديدة بغية إيضاح مدلوله قديماً وحديثاً على سوا ، وسنبحث عنها فيما اشتق من هذا الأصل ، وسنربها استفيد من دراسة من تعرض لها في القديم والحديث .

ولفظه " الحنيفية " في معاجم اللغة متشعبة المعنى متباينة الدلالات ، لا تتضح للناظر في يسر وعجلة بل تحتاج إلى تراث وتدقيق . ولعل هذا ما دفع أحد الباحثين عند مروره بها في إحدى كتاباته أن يقول : " وكلمة الحنفاً من الكلمات الغامضة جداً ^(١) " . وقد ورد أن " الحنْف " : " الميل عن الضلال إلى الاستقامة ، والحنْف ميل عن الاستقامة إلى الضلال " ^(٢) أي أن أحدهما عكس الأخرى .

وسا ورد في المعاجم من ذلك أن " الحنْف " : إقبال القدم بأصابعها على القدم الأخرى ، وأنشد لدابة الأحنف ^(٣) وكانت ترقصه وهو طفل :

(١) فيض الخاطر : أحمد أمين : ٣٠٨ / ٩ - ط ١ (١٩٥٥ م) - مكتبة النهضة المصرية

(٢) المفردات في غريب القرآن الحسين بن محمد (الراغب الاصفهاني) : ١٣٣ .

تحقيق : محمد سيد كيلاني ، ط مصطفى الحلبي - ١٣٨١ هـ .

(٣) الداية : هي الظئر . وهي من تحنو على الصغير عند فقد أمه .

والأحنف هو ابن قيس التميمي سيد تميم ، ومن يضرب به المثل في الحكمة

والحلم ، أسلم ووفد على عمر بن الخطاب وتوفي سنة ٧٢ للهجرة ، وانظر :

الاستيعاب في معرفة الاصحاب : أبي عمر يوسف بن عبد الله " بن عبد البر " :

١ / ٤٤٤ . تحقيق : علي محمد البجاوي . ط - مطبعة نهضة مصر .

الاصابة في تمييز الصحابة : العلامة أحمد بن علي " بن حجر العسقلاني " :

١ / ٨٧ - تحقيق علي محمد البجاوي ط . دار نهضة مصر - القاهرة .

وَاللَّهُ لَوْلَا حَنْفُ بَرَجْلِهِ مَا كَانَ فِي فِتْيَانِكُمْ مِنْ مِثْلِهِ
 وَ"الْحَنِيفُ" : المائل من خير إلى شر أو من شر إلى خير ، و" حنف عن الشيء
 وتحنّف " : مال .

والحنيف : المسلم الذي يتحنّف عن الأديان أي يميل إلى الحق ، وقيل : هو
 الذي يستقبل قبلة البيت الحرام على ملة إبراهيم ، وقيل هو المخلص ، وقيل كلّ
 من أسلم لأمر الله تعالى ولم يلتو فهو حنيف .

والحنيف : المستقيم ، وأنشد :

تَعْلَمُ أَنَّ سَيِّهْدُكُمْ إِلَيْنَا طَرِيقُ لَا يَجُورُ بِكُمْ حَنِيفٌ (١)

ومع هذه الدلالات للفظتنا هذه فإنّ المعاجم تسعفنا بتحليلات قيّة وأقوال
 أخرى تعين على دراسة اللفظة وفهم دلالاتها، وما طرأ عليها من تطور، وقد ورد من
 ذلك أنّ الحنيف " من كان على دين إبراهيم فهو حنيف عند العرب ، وكان عبدة
 الأوثان في الجاهلية يقولون : نحن حنفاً على دين إبراهيم ، فلما جاء الإسلام
 سمّوا المسلم حنيفاً ، والحنيف : المسلم ، وكان في الجاهلية يقال من أختتن وحجّ
 البيت حنيف لأن العرب لم تتمسك في الجاهلية بشيء من دين إبراهيم غير الختان
 وحج البيت .

وقد قيل إنّ الحنّف : الاستقامة ، وأننا قيل للمائل الرّجل أحنف تنفأؤلا
 بالاستقامة .

والحنيف المسلم وقد سمّي المستقيم بذلك كما سمّي الغراب أعور . وتحنّف
 الرّجل عمل عمل الحنيفية ، ويقال اختتن ، ويقال اعتزل الأصنام وتعبّد ، قال
 جبران العود : (٢)

(١) لسان العرب : لأبي الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور . (حنف)

٥٧/٩ ط دار صادر - بيروت .

(٢) جبران العود : شاعر جاهلي واسمه عامر بن الحارث النميري ، ولقب بذلك

لتخويفه زوجته بسوط صنعه من أسفل جلد عنق البعير وهو الجران وكان الرّحال
 الشاعر خدنا له ، وانظر : الشعر والشعراء : عبد الله بن مسلم بن قتيبيه :

وَلَمَّسَارَيْنِ الصُّبْحِ بَادَرْنَ ضَوْؤُهُ
رَسِيمٌ قَطَا الْبُطْحَاءُ أَوْهَنَّ أَقْطَفُ
وَأَذْرَكَنْ أَعْجَارًا مِنَ اللَّيْلِ بَعْدَ مَا
أَقَامَ الصَّلَاةَ الْعَابِدُ الْمُتَحَنِّنُ

وفي الحديث القدسي " خلقت عبادي حنفاً " أي ظاهري الأعضاء من المعاصي ،
لا أنهم خلقهم مسلمين كلهم لقوله تعالى : " هو الذي خلقكم فمنكم كافر ومنكم مؤمن " ،
وقيل أراد أنهم خلقهم حنفاً مؤمنين لنا أخذ عليهم الميثاق " ألست بربكم " ، فلا يوجد
أحد إلا وهو مقرباً له رباً وإن أشرك به ، واختلفوا فيه " (١)

ولا غرو فهذه الاشارات السابقة تتقاضانا أن نقول : ان لهذه اللفظة معنى فى
الجاهلية وقد طرأ عليه تغير فى الاسلام وان اتفقا فى بعض الجزئيات ، كما أنها
تحصر لنا هذه الدلالات وتقرّب لنا هذه المعاني ، فهي فى الجاهلية تدلّ على كثير
من الأمور التى تدخل فى الدين عندهم ، وهي فى الاسلام الدين كله . أما دلالة
اللفظة على الميل وعلى الاستقامة فهذا ليس غريباً على اللغة ان تتسع لمثل هذا وهو
التفاوت الذى أشار اليه علماء اللغة .

ولا نقف باللفظة عند معاجم اللغة فلا بد من انعطافه إلى القرآن الكريم لنرى كيف
جاء الكلام عن الحنيفية " . جاءت اللفظة مفردة ، ومجموعة فى غير موضع منه " (٢) ومن
ذلك قوله عزّ ذكره : " وقالوا كونوا هوداً أو نصارى تهتدوا قل بل ملة ابراهيم حنيفاً
وما كان من المشركين " . (٣)

= ٧١٨/٢ تحقيق وشرح : أحمد محمد شاكر - ط دار المعارف بمصر - القاهرة ،
العمدة فى صناعة الشعر وآدابه ونقده : الحسن بن رشيق القيروانى : ٤٨/١ -
تحقيق الشيخ محمد محي الدين عبد الحميد - بدون ذكر طابعه .

(١) لسان العرب (حنف) ٥٧/٩ ، ٥٨ ، تاج العروس من جواهر القاموس -

محمد مرتضى الزبيدى (حنف) ٧٧/٦ - ط - دار مكتبة الحياة - بيروت .

(٢) انظر : المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم . محمد فؤاد عبد الباقي :

٢٢٠ . ط . دار الفكر - بيروت .

(٣) البقرة : ١٣٥ .

وقال تعالى : " وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاً ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيمة " (١)

وكما وردت اللفظة في الكتاب العزيز فقد جاءت في عدد من الأحاديث ، — من ذلك ما جاء في الصحيح عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : " أحب الدين إلى الله الحنيفية السمحة " (٢) وفي حديث آخر : " . . . وإني خلقت عبادي حنفاً كلهم . . . " (٣)

ويتبين لنا من الآيات القرآنية خاصة أمران :

أحدهما أن هذه اللفظة كثيراً ما اقترنت بذكر خليل الرحمن - إبراهيم عليه الصلاة والسلام ، وسيأتى لهذا حديث أن شاء الله .

والآخر : التعقيب عليها بنفي الشرك " وما كان من المشركين " . وهذا يعنى أن الحنيفية تضاد الشرك تماماً فلا بد مما يحصى معناها : أن تكون التوحيد الخالص والعبادة المنزهة عن الشركاء ٢ .

وللمفسرين آراء كثيرة حول معنى الحنيف والحنيفية وذلك لورودها في عدد من المواضع في القرآن الكريم ، إلا أن هذه التفسيرات عند هم تتفق كثيراً مع ما ذهب إليه اللغويون من معان .

ومما ذهب إليه بعضهم أن الحنيف : المائل عن كل دين باطل إلى دين الحق (٤) وقد أوجز " الفخر الرازي " والطبرسي " آراء المفسرين لها في أربعة أقوال : (٥)

(١) البينة : ٥ .

(٢) فتح الباري بشرح صحيح الامام البخاري : أحمد بن علي بن حجر العسقلاني : ٩٣ / ١ ط - المكتبة السلفية - القاهرة .

(٣) مسند الامام أحمد - للامام : أحمد بن حنبل الشيباني - ١٦٢ / ٤ عن عياض ابن حمار - ط - المكتبة الاسلامي - بيروت .

(٤) الكشف : ابي عمر جلاله محمود بن عمر الزمخشري : ٩٦ / ١ ط دار المعرفة

- بيروت ، تفسير النسفي - عبدالله بن أحمد بن محمود النسفي ٧٧ / ١ ط دار احياء الكتب العربية - القاهرة .

(٥) مجمع البيان في تفسير القرآن : الفضل بن الحسن الطبرسي : ٤٨٧ / ١ ط =

أحدها : حج البيت .

ثانيها : اتباع الحق .

ثالثها : اتباع ابراهيم فيما أتى به من الشريعة التي صار بها اماما للناس بعمده من الحج والختان وغير ذلك من شرائع الاسلام .

رابعها : الاخلاص لله وحده في الاقرار بالربوبية والانعان للعبودية . وقد ذكر الامام ابن جرير الطبري " - رحمه الله - بعض ما ذهب اليه أهل التأويل عند تأويلهم معنى الحنيف ، ورأى أن بعض هذه التأويلات لا تنكف لمعنى الحنيف أو الحنيفية ، ولعل مراد ذلك أنها جزء أو جانب من جوانب الحنيفية ثم قال : ^(١)

" الحنف عندي : هو الاستقامة على دين ابراهيم واتباعه على ملته ، وذلك أن الحنيفية لو كانت حج البيت لوجب أن يكون الذين كانوا يحجون في الجاهلية من أهل الشرك (كانوا) حنفاً . وقد نفى الله أن يكون ذلك تحنفاً بقوله : " ولكن كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين " .

فذلك القول في الختان . لأن الحنيفية لو كانت هي الختان لوجب أن يكون اليهود حنفاً ، وقد أخرجهم الله من ذلك بقوله : " ما كان ابراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً " .

فقد صح إذا أن الحنيفية ليست الختان وحده ، ولا حج البيت وحده ، ولكنه ما وصفناه من الاستقامة على ملّة ابراهيم واتباعه عليها ، والالتزام به فيها " .

وقد تناولت دائرة المعارف الاسلامية ^(٢) لفظتنا هذه بدراسة ضافية ، وكان لها

= (١٣٨٠) دار مكتبة الحياة ، بيروت ، التفسير الكبير : الفخر الرازي :

٨١ / ٤ - ط ٢ - دار الكتب العلمية - طهران .

(١) تفسير الطبري " جامع البيان عن تأويل أي القرآن " - أبي جعفر محمد بن جرير الطبري : ١٠٢ / ٣ ، ١٠٨ ، تحقيق وتخرّيج : محمود محمد شاكر - ط ٢ - دار المعارف بمصر .

(٢) انظرها في ترجمتها العربية : ابراهيم زكي خورشيد وآخرون : ١٢٤ / ٨ - ١٢٩ -

" بدون تاريخ " .

إشارات دقيقة في تلك الدراسة ، وقد تنبعت اللفظة عند الجاهليين فيما ورد من نصوص لهم توضحها ، وما كان لها من دلالة في العصر الاسلامي . وكان مما تنبهت له دلالة الآية الكريمة " فأقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله . (١) " فرأت أن معناها الدين الفطرى القديم فى مقابل ذلك الدين الذى ظهر بعده أى الشرك . وقد رأت أن معناها فى العصر الجاهلى خلوص العبادة ، وقد يرد مرادفا للدخول فى الاسلام ، كما تبين أن معناها فى الاسلام هو المسلم .

وقد أشار " السعدوى " الى أن هذه اللفظة معربة من السريانية ، واستعملها فى عدد من المواضع أى كلمة الحنفا مرادفا للصائبين . (٢)

وكانت إشارة " السعدوى " هذه حافزا لعدد من المستشرقين لدراسة أصل الكلمة حتى خرجت نتائج بحوثهم متباينة كما ذكرت دائرة المعارف الاسلامية .

حيث ذكرت أن " فلهوزن " يرى أن كلمة حنيف تدل على التّأهب النصرانى ، ويفسرها " كى غوى " بالكافر ، ويظن " مرجليوث " أن معناها فى كل ماوردت فيه المسلم .

وانتهت دائرة المعارف - من غير اقتناع منها - أن الحنيف : العناق أو الملحّد أو الوثني أو الكافر ، وأن حنّف يمكن أن تكون بمعنى (كسر أو شق) .

ولاريب أن ما انتهت اليه " دائرة المعارف " بعد ذلك العرض لا يخرج فى نطاقه عن المدلول اللغوى لهذه اللفظة وهو الميل ، فمن خرج على الدين المألوف جاز أن يقال عنه كافر أو منشق أو ملحد ، وذلك لشقّه الأمر وخروجه عن الدين فهو منشق قد كسر أحكام الدين وخرج عليها .

وإذا أمعنا النظر فيما تشتمل عليه لفظة " الحنيفة " من معان فانها على ما يظهر تنحصر فى معنيين فقط : أحدهما الاستقامة ، والآخر الميل . ويبدو أن المعنيين

(١) الروم : ٣٠ .

(٢) التنبيه والإشراف : على بن الحسن السعدوى : ٩٠ ، ٩١ . تصحيح : عبد الله الصاوى ط (١٣٥٧) .

(٣) انظر : ص ٤ ، ١٦٠ ، ١٣٧ ، ٧٩ .

مختلفان ولكنهما مع هذا يلتقيان " فان الميل عن الاعوجاج هو الاستقامة ذاتها^(١) .
كما أن الانحراف عن الاستقامة هو الميل والعوج ، " ولذلك يستعمل اللفظ للدلالة
على أحد المعنيين ويعين السياق حقيقة المراد ، كما يعين الدلالات الأخرى
الفرعية التي تدل عليها الكلمة^(٢) .

وعلى ذلك قال أحد العلماء : " كل موضع في القرآن ذكر الحنيف مع السلم فهو
الحاج " ولكن كان حنيفا مسلما " وفي كل موضع ذكر وحده فهو السلم...^(٣) .
ولعل من الأفضل أن نعود بلفظتنا هذه الى أصلها لنرى المراد منه فهو أمر
مهمّ يعيننا بلا شك في معرفة ما تدل عليه اللفظة بعد ذلك .

ومن حسن الحظ أن معاجم اللغة تعيننا على ذلك ، وقد جاء " أن الحنف : أعوجاج
في الرجل الى داخل . ورجل أحنف أى مائل الرجلين ، . . والحنيف المائل الى الدين
المستقيم ، قال الله تعالى " ولكن كان حنيفا مسلما " ، والأصل هذا ثم يتسع فـى
تفسيره فيقال : الحنيف : الناسك ، ويقال هو المختون ، ويقال هو المستقيم
الطريقه^(٤) .

وجاء في لسان العرب : " ومعنى الحنيفية في اللغة الميل^(٥) " وإذا انتهينا الى
ذلك فبالوسع إمكان تفسير معاني كلمتنا هذه في ضوء من ذلك ، إذ أن الميل يحتصل
وجود أمرين أو شيئين ترك أحدهما وانتقل الى الآخر ، وبذلك يُحمل معنى من فسرهما
بالكافر أو المنشق أو الطحد ، وهذا الميل هنا عن دين مألوف^(٦) ، ولعل ما فسرهما

(١) مجلة التضامن الاسلامي : العدد السابع - المحرم ١٣٩٢ هـ ص ٢٩٦ .

(٢) السابق نفسه : ٢٩٦ .

(٣) الكليات لابي البقاء الكوفي : ١٨٥ / ٢ . تحقيق عدنان درويش ومحمد المصدي ط وزارة الثقافة
١٩٥٦

(٤) معجم مقاييس اللغة . أبو الحسين أحمد بن فارس : ١١٠ / ٢ - ١١١ - تحقيق

عبد السلام هارون - ط ٢ - ١٣٨٩ - مصطفى الحلبي - القاهرة .

(٥) لسان العرب : ٥٧ / ٩ .

(٦) انظر : فيض الخاطر : ٣٠٨ / ٩ .

به " المسعودى " ومن تابعه من المستشرقين (بالصائين) قريب من ذلك فقد كان الجاهليون يرون أن الرسول صلى الله عليه وسلم ومن اتبعه صباة لخروجهم على دين قومهم .

والميل أيضا قد يكون الى شيء أو امرأ ، وعلى هذا يقال : مال اليه ورغب فيه ، وبذا يفسر من قال إن معناها الاستقامة أو صحة الميل الى دين والثبات عليه ونحو ذلك .

وبذلك لا أرى حاجة تدعو الى ترجيح احد المعنيين على الآخر كما يرى بعض الدارسين ^(١) لاسيما وسياق الكلام يساعد على تحديد المراد .

وهناك امر جدير بالانتباه نذكره ما دنا نريد معرفة الحنيفية ، ذلك هو مدلول هذه اللفظة عند الجاهليين فلا شك أنه سيدفع بنا الى زيادة فهم هذه اللفظة التي جاءت هذه الدراسة تضي في موكبها .

وهناك - بحمد الله - من سبقنا الى ذلك ^(٢) مما يسر لنا الاموراد لنا الطريق وقد جاء أن " الحنيف في الجاهلية من كان يحج البيت ويفتسل من الجنابة ويختتن . وقال " أبو عبيدة " : من كان على دين ابراهيم ، فهو حنيف عند العرب ، وكان عبدة الاوثان في الجاهلية يقولون نحن حنفاء على دين ابراهيم ، فلما جاء الاسلام سمو المسلم حنيفا ^(٣) . وقال أبو عبيدة " الحنيف في الجاهلية من كان على دين ابراهيم ، ثم سمي من اختتن وحج البيت حنيفا لما ثناسخت السنون وبقي من يعبد الاوثان من العرب قالوا : نحن حنفاء على دين ابراهيم ، ولم يتسكوا منه إلا بحج البيت والختان ^(٤) .

(١) الاستاذ عبدالعزيز الرفاعي في مجلة التضامن الاسلامي : العدد السابع

محرم ١٣٩٢ ، ٢٩٦ ، ٢٩٧ .

(٢) دائرة المعارف الاسلامية : ١٢٥ / ٨ - ١٢٧ .

(٣) لسان العرب (حنف) ٥٧ / ٩ - ٥٨ .

(٤) مجاز القرآن لأبي عبيدة : ٥٨ / ١ - تحقيق : د . فؤاد سزكين - ط (١٩٥٤ م)

مطبعة السعادة - مصر .

وجاء من ذلك أن " الحنيف في الجاهلية من كان يحج البيت ويغتسل من الجنباء ويغسل موته ويختتن " (١)

ويضاف الى هذه الأقوال بعض من الحوادث التي تدل على ذلك . وقد جاء فى قصة النفر الذين اجتمعوا يتباحثون امر دينهم من قريش أنهم اتفقوا ان قومهم اخطأوا دين ابيهم ابراهيم " فتفرقوا في البلدان يلتسبون الحنيفية دين ابراهيم " (٢)

ولعل ماورد فى قصة بسطام بن قيس (٣) حين اسرو قوله لأخيه الذى حاول انقاده وقد خشي عليه " ان كررت يا بجاد فانا حنيف " (٤) وذلك ان بسطاما هذا يزجر أخاه بذلك، وكأنه يزجره بالخروج من دينه الى الحنيفية ، ولعله يريد بها الشرك ، وان سماها بذلك لأن أهل الكتاب كانوا يرون أن العرب مشركون فيما يبدو .

وقد كنا نودّ فى مثل هذه الدراسة للغة عند الجاهليين أن يسعفنا شعرهم بذلك ، الا أن ما اطلعنا عليه منه لم يقدر لنا ان نظفر فيه بلفظتنا هذه سوى قول جبران العود السابق الذكر:

وأدركن أعجازا من الليل بعدما أقام الصلاة العابد المتحنف

(١) أمالى الزجاجي : ص ٢ . عبد الرحمن اسحاق . تحقيق عبد السلام هارون ط ١٣٨٢ المؤسسة العربية الحديثة - القاهرة .
(٢) السيرة النبوية : عبد الملك بن هشام الحميري : القسم الاول : ٢٢٣ - تحقيق مصطفى السقا وآخرون . ط - مؤسسة علوم القرآن .

(٣) بسطام بن قيس الشيباني كان سيد قومه شيان في الجاهلية ، وهو من الفرسان المعدودين ومن الشعراء أسير في الجاهلية وضرب العثل بفدائه في الكثرة والعند ومات قتيلًا ، ويفهم من بعض المصادر أنه ربما كان مسيحيا ، انظر : جمهرة أنساب العرب : على بن أحمد بن حزم الاندلسي : ٢٠٦ ، ٣٢٦ . تحقيق عبد السلام هارون - ط ٤ - دار المعارف بمصر ، الكامل فى التاريخ - أبى الحسن على بن أبى الكرم بن الاثير الجزري ١ / ٣٦٤ ، ٣٦٧ ، ٣٧٣ ، ٣٧٥ . ط ٤ - ١٤٠٣ - دار الكتاب العربى - بيروت .

(٤) الكامل فى اللغة والادب : / أبى العباس محمد بن يزيد المبرد ١ / ١٣٤ ، ١٣٥ ط مكتبة المعارف - بيروت ، النقائض بين جرير والفرزدق : أبو عبيدة معمر بن

العتى : ١ / ٣١٤ - تحقيق بيقان - ط ١٩٠٥ - ليدن .

والتحنف هنا أى العابد المتبتل للعبادة من ترك الأصنام . وهذا المعنى
 أيضا ما تدل عليه هذه اللفظة ، وقد يقولون فى مثل ذلك تحنث .^(١)
 ومن كل ما سلف وما يماثله^(٢) يترجح أن الجاهليين كانوا يريدون الحنيفية د ينهم
 وأنهم حنفاً ، كما يقال لغيرهم يهود أو نصارى لمن يدينون باليهودية أو النصرانية .
 ولما كان الجاهليون يدعون الحنيفية وقد أشركوا بعبادتهم للأصنام ، فقد
 تنبه القرآن الى أن الحنيفية لا يشوبها شرك ، بل تقوم على الاخلاص عند ما يذكر
 الحنيفية والحنفاً . وقد تنبه لذلك الامام الرازى في تفسيره عند مروره بذلك فقال
 " ان الحنيف اسم لمن كان يدين بدين ابراهيم ، ومعلوم أنه عليه الصلاة والسلام
 أتى بشرائع مخصوصة من حج البيت والختان وغيرها ، فمن دان بذلك فهو حنيف .
 وكانت العرب تدعى بذلك ثم كانت تشرك فقليل من أجل ذلك " حنيفا وما كان من
 المشركين " ، ونظيره قوله : " حنفاً لله غير مشركين به " وقوله " وما يؤمن أكثرهم بالله
 الا وهم مشركون " .^(٣)

وبعد استعراض آراء القدماء ودراسات المحدثين - وبخاصة المستشرقين - لمعنى
 الحنيفية يرى أحد الباحثين أن المحدثين ضيقوا معنى الحنيفية عند ما أريد بها
 " فرقة جاهلية صغيرة أو أفراد متفرقون لا يكونون جماعة ، وذلك على عكس رأى القدماء
 الذين يذهبون الى أن الحنيفية دين ابراهيم عليه السلام وأن العرب ورثوه منه ثم
 خلطوه بالشرك ، وأنهم احتفظوا بالتسمية علماً على شركهم " .^(٤) ثم ذكر اقتناعه برأى
 القدماء مدللاً على ذلك .

(١) السيرة النبوية لابن هشام : القسم الاول : ٢٣٥ ، لسان العرب (حنث)

٠١٣٩٠١٣٨ / ٢

(٢) انظر : دائرة المعارف الاسلامية : ١٢٤ / ٨ - ١٢٩ ، الشعراء الحنفاً :

د . أحمد جمال العمرى : ١١ - ١٥ ط ١ - ١٩٨١ م - دار المعارف بمصر .

(٣) التفسير الكبير : ٩٠ / ٤ م .

(٤) الحياة والموت فى الشعر الجاهلى : د . مصطفى عبد اللطيف جاووك : ١٦ ، ١٧

ط (١٩٧٧ م) وزارة الاعلام العراقية .

ولا ريب أن هذه نظرة ثاقبة ولمعة ساطعة لا تغفل يجب التنبيه لها ، ولكن كثيرا من الباحثين عن الحنيفية في العصر الجاهلي تعودوا أن يقصروها على طائفة الحنفا^١ التي سترد معنا في هذا البحث ، وهو منظور اسلامي لمعنى الحنيفية يرى الى التوحيد والبعد عن الشرك الذي يتركز عليه الحنيفية وقد قام على ذلك أولئك الاشخاص الذين سمو بالحنفا^٢ ، أما من أشرك في عبادته فلم يسلكهم الباحثون في زمره الحنفا^٣ من ذلك المنظور الاسلامي الذي سمي من لم يفرد الله بالعبادة مشركا . وبهذا أرى انتفا^٤ التعارض بين كل من الرؤيتين اللتين تلتقيان في أمر واحد لمعنى الحنيفية وهي دين ابراهيم الخالص لله من كل شرك .

غير أن هذه النظرة من ذلك الباحث لها دلالة أخرى كبيرة ، ذلك أن حنيفية ابراهيم^٥ دين الجاهليين ، وإن دخلها الشرك فانه يبقى لهذه الملة كثير من معتقداتها وجانب رجب من عباداتها وطرف من أحكامها بين أولئك المشركين ، فهي لم تجتث جذورها وما تزال عليهم آثارها وأفكارها . وبذلك فانتا بجانب الواقع كثيرا ان ظننا أن ملة ابراهيم انحصرت في أولئك الحنفا^٦ فقط ولم يبق لها أثر فيمن سواهم .

والذي استطيع أن أخلص اليه من معنى الحنيفية بعد هذا الاستعراض أنها دين ابراهيم^٧ عليه الصلاة والسلام - وطلته السمحة المسلمة التي دان بها العرب وظلموا يزعمون أنها دينهم حتى حين أدخلوا الشرك اليها وبقوا كذلك الى أن بعث الله فيهم رسولنا^٨ " محمدا " - صلى الله عليه وسلم .

وقد يتبادر الى الذهن تساؤل مؤداه ، أى حنيفية كانت عند العرب في الجاهلية ؟ وفيما إذا كان صحت محمد - عليه الصلاة والسلام ؟ . وينبغي أن يكون واردا أننا لا ندعى للعرب بذلك دينا قويا ، فلا شك أنهم كانوا منحرفي العقيدة ، قد فسد دينهم حين بعث الله فيهم خاتم رسله - صلى الله عليه وسلم - وإنما مراد هذا البحث ما وجد من بقايا دين ابراهيم^٩ واسماعيل^{١٠} عليهما السلام (الحنيفية) بين هؤلاء الناس وما نعهه أثرا نجم عن تلك الملة . ويدخل في ذلك أيضا ما وجد من أحكام أو عبادات عرفت في الجاهلية وأقرها الاسلام فانه لا يقر إلا ما كان من تلك الملة ، خاصة

وأن الله سبحانه قد أمرني به باتباعها عند ما قال عز وجل : " ثم أوحينا إليك أن اتبع
 مله إبراهيم حنيفا . . " (١) وكما قال : " قد كان لكم أسوة حسنة في إبراهيم والذي سن
 معه . . (٢) . ولا شك أنه بفضل الله ثم بفضل الاسلام استطعنا أن نعلم أحكام حنيفية
 إبراهيم في العرب وذلك بموقفه من أحكامهم تلك بالموافقة والرضا أو الرفض والتهذيب .
 إن أن الأصل في كافة ما يأتي به الرسل من عند الله الاسلام ، ومن تتبع ذلك فسي
 القرآن الكريم أدركه ووعاه .

ومما يندخل في هذا البحث ما وجد من أحكام عند العرب أخذوها من أهل
 الكتاب شريطة أن تكون مما أقره الاسلام وأخذ به إن قيل أنهم كانوا عليها .
 ولا عجب أن تكون طائفة الحنفاء التي ظهرت في جاهلية العرب داعية إلى نبذ
 الأوثان والعودة إلى حنيفية إبراهيم النقية المخلصة خير من ظهرت فيهم روح تلك الملّة
 في زمانهم، وظهرت آثارها فيما روى لنا من تاريخهم وآثارهم . ولا يفوتنا أن نذكر أخيرا
 أن هذا الذي ارتضيناه ————— للكلمة يسمح لنا أن ندخل في أطواره كل ما نراه
 في آثار الجاهليين مما هو موافق الاسلام في الأحكام والعبادات والمعتقدات ، إن
 لا يخرج ذلك عن الحنيفية وما أتت به الرسل من عند الله .

فكل ما ذكره هو مدار هذا البحث من خلال النصوص الشعرية والنثرية لأدباء
 الجاهلية التي نراها تمت إلى الحنيفية بسبيل وتلتقي معها في أي فرع من فروعها
 السابقة .

وقد لا نعدم بعض الإشارات إلى شيء من ذلك عند بعض الشعراء المخضرمين الذين
 قضوا ردا من حياتهم في الجاهلية ، فقد يذكرون شيئا على ربح بأبعاد هذا البحث
 حين نعدم الإشارة إليه عند الشعراء الجاهليين الاتحاح .

كل ذلك ما ندعو الله أن يوفقنا لإبرازه للعيان ، فهو المأمول وحده ونعمم
 المستعان .

(١) النحل : ١٢٣ .

(٢) المستحقة : ٤ .

(ب)

جذور الحنيفية

خلق الله الانسان والكون بما فيه مغطورين على معرفة الله وعلى الايمان به ، بل لقد أخذ الله العهد على بنى آدم - قبل وجودهم - انه ربهم وخالقهم ، وله عليهم أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً ، والانسان عندما يبقى على هذه الفطرة الصافية فانه مساير وموافق لهذا الكون فى عود يته لله وخضوعه له " وله أسلم من فى السموات والارض طوعاً وكرهاً " (١) ألم تر أن الله يسجد له من فى السموات ومن فى الأرض والشمس والقمر والنجوم والجبـال والشجر والدواب وكثير من الناس . (٢)

هذا آدم " - أبو البشر - " يهبط الى هذه الارض مؤمناً بربه مستغفراً لذنبه ، مأخوذاً عليه عهد الخلافة : ان يتبع ما ياتيه من ربه ولا يتبع الشيطان ولا الهوى ، مزوداً بتلك التجربة الاولى فى حياته . (٣)

ولاشك أن الفطرة التى فطر الله الناس عليها تعدّ أهم اساس تبنى عليه الحنيفية ، وقد اشار القرآن الكريم الى ذلك " فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم " (٤)

ومع ما قد تفسره الفطرة وما تحتله من دلالات (٥) فان مانعني منها هنا ما رجحه بعض المحققين عند تفسير الآية السابقة " وأن الذى يعتمد عليه فى تفسير هذه اللفظة أنها الخلقة والهيئة التى فى نفس الطفل التى هى معدّة ومهيأة لان يميز بها مصنوعات الله تعالى ، ويستدل بها على ربه ويعرف شرائعه ويؤمن به ، فكأنه تعالى قال : أقم وجهك للدين الذى هو الحنيف ، وهو فطرة الله الذى على الاعداد له فطر

(١) آل عمران : ٨٣ .

(٢) الحج : ١٨ .

(٣) فى ظلال القرآن ، سيد قطب : ٣ / ١٣٠٣ . ط ٨ (١٣٩٩) دار الشروق .

(٤) الروم : ٣٠ .

(٥) انظر ذلك فى تفسير القرطبي (الجامع لأحكام القرآن) ٢٥ / ١٤ وما بعد ها . نشر : دار الكاتب العربى بالقاهرة (١٣٨٧) مصورة عن طبعة دار الكتب .

البشر ، (أو من قال) ان الله تعالى خلق قلوب بني آدم مؤهلة لقبول الحق ، كما خلق أعينهم وأسماعهم قابلة للمرئيات والسموعات ، فما دامت باقية على ذلك القبول وعلى تلك الاهلية أدركت الحق ودين الاسلام وهو الدين الحق ^(١) .

ان هذه الفطرة مهيأة للخضوع لله ومقرّة برؤيته تأخذ بالانسان الى الاسلام لله والخضوع له بالطاعة عندما يخلو لها الجو ، ويسلم من العوارض والعراقيل . والذي نفهمه من ديننا الحنيف أن هذه الفطرة لا تنفرد بطريق البشر وحدها ، بل تزاخمها عوارض أخرى تريد التوجه بهذه البشرية الى غير الوجهة التي تقصد ها الفطرة لو خلالها ذلك السبيل .

لقد كان من أمر الله تعالى أن يبتلي الانسان بالشیطان بدءاً بأبى البشر - آدم عليه السلام - ثم يستمر هذا الابتلاء في بنیه الى أن يرث الله الارض ومن عليها ، والذي يقوم به ذلك الشيطان الرجيم في هذه المدة الطويلة له هي اغواء بني آدم ، واذلالهم عن الصراط المستقيم الذي أمرهم الله أن يكونوا عليه لا يحيدون . وفي الكتاب العزيز كثير من الآيات التي تأمر الناس بالحذر من طاعة الشيطان واتباع سبله ^(٢) . ونفى الحديث القدسي ما يدل على دور الشياطين في اغواء الناس ان يقول الرب جلّ وعلا : " انى خلقت عبادى حنفاً ، فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم وحرمت عليهم ما أحللت لهم " ^(٣) .

ومثل ذلك ما قد يكون من تأثير المجتمعات أو الآباء والأمهات في توجيه الابناء على ما يدينون به حتى وان خالف دين الله الحق ، وفي الحديث الصحيح أنه - عليه الصلاة والسلام - قال : " كل مولود يولد على الفطرة ، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه " ^(٤) .

(١) ذاته : ٢٩/١٤ .

(٢) انظر المعجم المفهرس لالفاظ القرآن الكريم : ٣٨٢ - ٣٨٣ .

(٣) صحيح مسلم (بشرح النووي) ١٧/١٩٢ ، ط ٢ دار احياء التراث العربى -

بيروت - ١٣٩٢ هـ .

(٤) فتح البارى شرح صحيح البخارى : ٥١٢/٨ (تفسير سورة الروم) .

وواقع الأمر أن كثرة من العواري رقت من تلك " الفطرة " وغيرت منها ، بدليل ما تغشى من شرك ووثنيات وعصيان ، وعلم الله سبحانه ألا ضعف هذا الإنسان وجهله - إن لم يمهده بعونه وتوفيقه - وقوة عدوه الرجيم وغلبيته له ، كما علم أن هذا البشر ينسى كثيرا من الأمور ، فهو بحاجة إلى من يذكره ويأخذ بيده ويعينه على ضعفه فيغلب عليه ، وعلى شيطانه فيقهره ولا يذل له . ولما كان الأمر كذلك .

، كان من عدل الله ورحمته بهذا الإنسان ألا يأخذه بالعذاب ويحاسبه إن لم يسر على مقتضى هذه الفطرة ، بل جعل من عباده رسلا يبعثهم إلى الخلق عند ما تنحرف فطرتهم ليردوهم إليها ويذكروهم بها ، ويبشروهم وينذروهم بما عند الله " وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا " . (١)

مشاعل الحنيفية في بلاد العرب.

لم يكن ظهور طائفة - فيما نسميه بالعصر الجاهلي - تدعو الى نبذ الأوثان والعودة الى شريعة ابراهيم قد أتى من فراغ ، أو أنه ظهر موافقا لما يزمع به بعض دارسي الأديان من أن التوحيد (أى عبادة اله واحد) قد مرّ براحل من الشرك والخرافة حتى وصل الى التوحيد ^(١) ، بل لقد عرفت جزيرة العرب في عدد من المواضع طائفة من أنبياء الله ورسله الكرام ، خطوا معهم نور التوحيد ، ودعوا الى عبادة الله ، وحذروا من الشرك به من أرسلوا اليهم من الأقوام .

إن بعثه أولئك السفراء بين الله وعباده لا يأتي الا على فساد في الدين وبعد عن عبادة الله في أغلب الأحوال ، وعند طغيان الشرك ، وتفشي المعتقدات الفاسدة ، وظهور المنكرات واستفحال الباطل ، وساعتئذ يذوى بصيص الحق وتخبو جذوته فسي الحياة .

ولولا عناية الله ولطفه بهذه البشرية ونظره لها بعين الرحمة ، وتداركه لها بهؤلاء الرسل والانبياء من حقبة الى أخرى - حسب - حكمة الله وقدره - لعاش الانسان أسوأ من الحيوان بكثير جدا في أغلب شئون حياته ، وربما ماتت النزعة الانسانية التي كرم الله بها هذا الانسان في طفولة البشرية المبكرة . وحتى نرى تلك النبوات ينبغى أن ننعطف سريعا الى ما قبل العصر الجاهلي بآساد وقرون كثيرة حتى يتضح لنا ذلك .

ولما كان سام بن بنى الله نوح هو أبوالعرب على ما روى من قوله - صلى الله عليه وسلم - " سام أبوالعرب ، وحام أبوالحبش ، ويافت أبو الروم " ^(٢) وجب أن يكون هذا منطلقا لنرى تلك النبوات التي أرى تجاوزها غمطا للحق والتاريخ عندما يتناول خاليا من ذكر

(١) انظر : كتاب " الدين " د . محمد عبد الله دراز وما بعده ط (١٣٩٠) دار القلم الكويت وتسمى هذه الدراسة " مذهب التطور التقدمي " .

(٢) رواء أحمد في مسنده عن سمرة بن جندب : ٩ / ٥ ، ١٠٠ .

هذه النبوات ، سواء كان جهلا أم تجاهلا بهذه الرسالات ودورها الخطير في حياة
الأمم والشعوب. (١)

"وقد قيل إن جميع العرب ينتمون إلى اسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام . .
والصحيح المشهور أن العرب العاربة قبل اسماعيل . . وأن العرب العاربة منهم عاد
وثمود وطسم وجد يس وأسيم وجهم والعماليق وأم أخرى كانوا قبل الخليل عليه الصلاة
والسلام وفي زمانه أيضا". (٢)

وإذا ما بدأنا بذكر هؤلاء الأنبياء الكرام فإن أول ما نواجهه ما روى عنه صلى الله
عليه وسلم أنه قال "أربعة أنبياء من العرب. هود وصالح وشعيب واسماعيل ، ونبينا
يا أبا نزر". (٣)

وقد أرسل الله "هوداً إلى" عاد "الذين كانت منازلهم وجماعتهم بالأحقاف،
"والأحقاف الرمل ، فيما بين عمان وحضرموت فاليمين كله". (٤) كما بعث الله رسوله
صالحا - عليه السلام - إلى ثمود الذين كانوا يسكنون الحجر ، وهو الذى يسمى مدائن
صالح الآن ، وكان شعيب - عليه السلام - رسولا من عند الله إلى مدين ، وهي "قريفة
من أرض معان من أطراف الشام مما يلي ناحية الحجاز". (٥)

هؤلاء الرسل الثلاثة الكرام ، وما كان من شأنهم وما أجابتهم به أتوأمهم حفيل
بذكرهم القرآن الكريم في كثير من آياته ، وفصل القصص في حوادث تلك السير وما كان

(١) انظر في إيضاح ذلك : جزيرة العرب منذ أقدم العصور : ٢٨ وما بعدها
ان ضرب أمثلة لتلك الكتابات ، ص : ٨٣ ، ٨٤ ، وما بعدها . للدكتور وفاء محمد
رفعت ، الدكتور جمال عبدالهادى . ط سنة ١٣٩٨ هـ . ج ١ .

(٢) البداية والنهاية : أبو الفداء اسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي : ١٥٦/٢ -
ط ٣ - ١٩٢٩ م - مكتبة المعارف - بيروت .

(٣) رواه ابن حبان ، وانظر جامع الرسائل لابن تيمية (المجموعة الأولى) : ٦٣ تحقيق
د . محمد رشاد سالم . ط . المدني بمصر .

(٤) تفسير الطبرى : ٥٥٠/١٢ . الاثر (١٤٨٠٤) .

(٥) قصص الأنبياء : للحافظ أبو الفداء اسماعيل بن عمر بن كثير : ٢٢٢ - ط دار
القلم - بيروت .

ينتهي اليه أمر كل قوم وما يختم به لكل رسول .

ونبي الله ورسوله "إسماعيل بن إبراهيم" عليهما السلام - ذو رسالة في مكة وما حولها ، ولهذه الرسالة أهمية كبيرة في بلاد العرب إذ إنها انتشرت انتشاراً واسعاً فـ "إسماعيل" كان رسولا الى تلك الناحية - مكة - وما والاها من قبائل جرهم والعماليق وأهل اليمن" (١) .

ولا يفتيب عن البال أن خليل الرحمن قد استجاب الله دعوته عندما أتى بها جرهم وابنها إسماعيل وتركهما في الخلا "ربنا إني أسكنت من ذريتى بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون" (٢) كما دعا ربه وهو يرفع قواعد البيت وإسماعيل "ربنا اجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك" (٣) .

لقد كان لدعوة إسماعيل وإبراهيم أثر في جزيرة العرب لا يمكن اغفاله أو التقليل من شأنه ، تجلّى في انتشار الحنيفية في أرجاء جزيرة العرب ودان بها غالبيتهم ، حتى لقد ذهب الرواة أن العرب كانت على ملّة إبراهيم من الإيمان بالله واحد ، اعتقدت به ، وحجت الى بيته ، وعظمت حرمه ، وبقيت على ذلك ، ثم سلخ بهم الى عبادة الأصنام التي دخلت عليهم ونسوا ما كانوا عليه ، واستبدلوا بدين إبراهيم وإسماعيل غيره ، وابتعدوا بعد ذلك عن دين أسلافهم وتفشّت بينهم الوثنية (٤) .

ولقد اقترن ذكر الحنيفية بإبراهيم - عليه الصلاة والسلام - كما هو معلوم من القرآن الكريم ، وذلك لما قام به من أجداد ، وما ضربه من أمثلة الانقياد لأوامر الله ، فقد ابتلاه الله بالكلمات (٥) فاتّمن ، وأمر يذبح ابنه قتله للجبين ، وجاهل

(١) تاريخ الأمم والملوك (تاريخ الطبرى) : لأبى جعفر محمد بن جرير الطبرى :

٣١٤/١ . تحقيق : محمد ابى الفضل إبراهيم . ط . دار المعارف بمصر .

(٢) إبراهيم : ٣٧ . (٣) البقرة : ١٢٨ .

(٤) أيمان العرب في الجاهلية : لأبى إسحاق ، إبراهيم بن عبد الله الشجيري - تحقيق :

محب الدين الخطيب ص ١٢ . ط ٢ - ١٣٨٢ - المطبعة السلفية بمصر ، الأصنام :

لابن الكلبي تحقيق : أحمد زكي باشا - ط ٢ - دار الكتب المصرية - ١٩٢٥ -

القاهرة ص ٦ ، السيرة النبوية : القسم الاول : ٧٧ .

(٥) انظر الجامع لاحكام القرآن : ٩٦/٢ وما بعدها .

أعداء الله حتى القوه في النار ، وأمره الله ببناء بيته الحرام ، وأن في الناس بالحج
الى غير ذلك ، فكان ابراهيم باحثاله وطاعته لله أمة ، مخلصا لله في حياته كلها ،
فاستطاع الله خليلا ، وجعله للناس اماما ، فهو امام الحنفا ، والناس إنما أمروا
باتباعه ، والاعتداء به ، واليهود والنصارى والعرب يدعون الصلّة به ويفخرون بها .

لم يكن حظ جزيرة العرب من حمل الاسلام مقصورا على من سلف من رسل
رب العالمين ، بل لقد وردت إشارات في القرآن الكريم الى أقوام آخرين بهذه الجزيرة
منهم من كذب ومنهم من آمن ، وهذا يدل - بلا ريب - على وجود من دعا هذه الامم
الى الاسلام . والحق أن القرآن في ذكره لبعض هذه الامم وموقفهم من رسلهم ليدلنا
صراحة على أن الحجة قد بلغتهم ، وأنهم قد أنذروا ولكنهم خالفوا وعصوا كما كفرت
قوم هود وثمود .

ومن هذه الأقوام أصحاب الرّس الذين أنبأنا الله عنهم في قوله جل وعلا :
" كذبت قبلهم قوم نوح وأصحاب الرّس وثمود " (١) .

ومنهم أيضا قوم تبع وهم الحميريون أو ما يسمى في التاريخ بدولة حمير ، والتبع
حاكمهم وسلطانهم كالقيصر عند الروم أو كسرى عند الفرس . وكانوا ممن يسكن اليمن
وجنوب الجزيرة ، وقد اشتهر في التاريخ عدد من التبابعة ، ولعل في ذلك ما يدل
على عظمة ملكهم وقوة سلطانهم في زمانهم . (٢)

وقد ذكروا في القرآن في عداد الأمم المكذبة لرسولها ، ومنه قوله تعالى :
" كذبت قبلهم قوم نوح وأصحاب الرّس وثمود . وعاد وفرعون وأخوان لوط . وأصحاب
الأيكة وقوم تبع كل كذب الرسل فحق وعيد " (٣) .

ولاشك أن الآية تدلنا على أنهم بلغتهم الرسالة وأقيمت عليهم الحجة .

(١) سورة ق : ١٤ . وعن أصحاب الرّس . انظر تفسير البحر المحيط لابي حيان :

٤٩٨ / ٦ ، ٤٩٩ . ط بيروت .

(٢) انظر السيرة النبوية لابن هشام : القسم الاول : ١٩ وما بعدها .

(٣) سورة ق : ١٢ - ١٤ .

ومثل التبابعة السبيثون الذين اشتهرت دولتهم في تاريخ دول جنوب الجزيرة ، وقد كانوا قبل التبابعة . والذي يفهم من ذكرهم في القرآن أنهم خالفوا أمر الله ولم يتبعوا دعوته فعاقبهم بسلب ما اسبح عليهم من نعم ، وتشتيتهم مع ضيق العيش وضنك الحياة بسبب اعراضهم ، وصدق الله " لقد كان لسبأ في مسكنهم آية جنتان عن يمين وشمال كلوا من رزق ربكم واشكروا له بلدة طيبة ورب غفور . فاعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم وبدّلناهم بجنتيهم جنتين ذواتي أكل خبط وأثل وشئ من سدر قليل ذلك جزيناهم بما كفروا وهل نجازى إلا الكفور " (١)

وإذا كان ما سبق ذكره من هذه الأمم تأخذ صوراً مقاربة تتخلل في ارسال رسل من عند الله اليهم ليلفغهم دعوة الله فإنا نجد القرآن الكريم يذكر لنا جماعة مؤمنة تعيش فيما يمكن تسميته بالعصر الجاهلي يبطش بها أعداؤها ، لا لشئ إلا لانها تؤمن بالله ، وهؤلاء هم الذين أحرقتهم أصحاب الأخدود فيما ذكره القرآن ، " قتل أصحاب الأخدود . النار ذات الوقود . إذ هم عليها قعود . وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود . وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد . " (٢) وهؤلاء الذين نرى القرآن على إيمانهم كانوا على ما سلم وضح من دين عيسى - عليه السلام - والذي حرقه النصارى عن أصله الصحيح .

إن هذه المشاغل التي حملت الاسلام في جزيرة العرب ، على ما ذكرنا منها تصور لنا كيف تحركت العقيدة الاسلامية مع التاريخ في جزيرة العرب ، هذا فضلا عن قوله تعالى : " ولقد أرسلنا رسلا من قبلك منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص عليك " (٣) مع كثرة النذر " وإن من أمة إلا خلا فيها نذير " (٤) ، كما تدلنا على ما حبا الله به هذه

(١) سبأ : ١٥ - ١٧ . وانظر في كفر سبأ : تفسير القرآن العظيم : للحافظ ابي الفداء اسماعيل بن عمر بن كثير ٤٩٥ / ٦ . تحقيق : محمد عبد الغني عني وآخرون . ط . دار الشعب - القاهرة ، في ظلال القرآن : ٢٩ / ٥ وما بعدها ، وانظر قصة سبأ في : جزيرة العرب منذ أقدم العصور : ١٨٧ وما بعدها .

(٢) البروج : ٤ - ٨ .

(٣) غافر : ٢٨ .

(٤) فاطر : ٢٤ .

الجزيرة من أنوار النبوة ومن يدعو الناس الى دين الله وطاعته .
 وإذا كان كثير من هذه الامم خالف أمر الله وعصى رسله - كما يعلم من أخبارها -
 فإن ذلك لا يدعونا الى تصور أن دعوات تلك الرسل ذهبت أدراج الرياح ، خاصة
 وأن الله أهلك أولئك المكذبين ، ولكنه بالمقابل كان ينجي ذلك الرسول ومن آمن معه ،
 وبهذه القلة المؤمنة ينشأ جيل جديد على الاسلام والايمان ويتناسل ويعمر الارض حتى
 اذا خبت جذوة الايمان في نفوسهم بعد ~~سبع~~ وتمكن الشيطان من اجتياهم عن دينهم
 وعبدوا غير الله . هنا يبعث الله المهيمن من يعيدهم الى توحيد الله وعدم الاشراك به
 كما قال أحد المفسرين : " إن البشرية تبدأ طريقها مهتدية مؤمنة موحدة . . ثم
 تنحرف الى جاهلية ضالة مشرقة - بفعل العوامل المتشابكة المعقدة في تركيب الانسان
 ذاته ، وفي العوالم والعناصر التي يتعامل معها - وهنا يأتيها رسول بذات الحقيقة
 التي كانت عليها قبل أن تضل وتشرك فيهلك من يهلك ، ويحيى من يحيى . والذين
 يحيون هم الذين آتوا الى الحقيقة الايمانية الواحدة . هم الذين علموا أن لهم إلهاً
 واحداً ، واستسلموا بكليتهم الى هذا الاله الواحد . هم الذين سمعوا قول رسولهم :
 " يا قوم اعبدوا الله ما لكم من اله غيره " فهي حقيقة واحدة يقوم عليها دين الله كله ،
 ويتعاقب بها الرسل جميعا على مدار التاريخ . فكل رسول نجي إنما يقول هذه الكلمة
 لقومه ، الذين اجتالهم الشيطان عنها ، ففسوها وضلوا عنها ، وأشركوا مع الله آلهة
 أخرى - على اختلاف هذه الآلهة في الجاهليات المختلفة - وعلى أساسها تدور المعركة
 بين الحق والباطل . . وعلى أساسها يأخذ الله المكذبين وينجي المؤمنين " (١)

وينبغي لنا ألا نغفل أن ثمة قلة مؤمنة من بقايا أهل الكتاب - كانوا في العصر
 الجاهلي - على ما صح لهم من دين عيسى بن مريم - عليه السلام - ولم يجاوروا من
 حرف ويدل ، ولا نستبعد أن يكون هؤلاء هم المعنيون في الحديث القدسي
 " . . وإن الله نظر الى أهل الأرض فمقتهم عربهم وعجمهم إلا بقايا من أهل الكتاب " (٢)

(١) في ظلال القرآن : ١٣٠٤ / ٣

(٢) رواء مسلم (بشرح النووي) ١٩٧ / ١٧ ، وأحمد في المسند : ٢٦٦ / ٤

وثبّه اليهم القرآن في قوله تعالى : ^(١) " لتجدنّ أشدّ الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا ولتجدنّ أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى ذلك بأنّ منهم قسيسين ورهبانا وأنهم لا يستكبرون . وإذا سمعوا ما أنزل الى الرسول تسمى أعينهم تغيض من الدمع ما عرفوا من الحق يقولون ربنا آتانا فما كتبنا مع الشاهد يمين . وما لنا لانؤّ من بالله وما جاءنا من الحق ونطمع أن يدخلنا ربنا مع القوم الصالحين فأتاهم الله بما قالوا جنات تجري من تحتها الأنهار . . . "

ومثل هذه القلة كانت لا تخلو من تأثير على من سألها أو عاشرها ببيان الصحيح من الباطل في دين الجاهليين ، ومن أمثالهم أولئك الرهبان الذين تدرج " سلمان الفارسي " - رضى الله عنه - في سؤالهم ومتابعتهم حتى دلّوه الى الاسلام ^(٢) ، كما أن من آمن من يهود يثرب بمحمد - صلى الله عليه وسلم - وصدق ما جاء به يدخل في جملتهم والله أعلم .

من كل هذه الإشارات السابقة يتضح لنا أن جزيرة العرب لم تكن خالية من أنوار الايمان ونبراس التوحيد وقداسة النبوة قبل العصر الجاهلى ، بل على العكس من ذلك ، كانت هنا وهناك دعوات ورسول ، ثم هلاك للكافرين وحياة جديدة لجيل ينشأ على الاسلام حتى يمتدع عن دينه فيبعث الله من يدعوه الى الرجعة اليه .

وما دام حال الجزيرة في معرفة الدعوات الى الاسلام كذلك ، فالحق أن من حمل شيئا من مبادئ دعوة أولئك الرسل ، أو دعا الى عبادة الله وحده في العصر الجاهلى يعدّ أمرا طبيعيا لا غرابة فيه ، ولا يظن أن القرآن الكريم وهو يخاطب كفار قريش ويذكرهم بهؤلاء الرسل وقومهم يعرفهم على شيء لم يألفوه ولم يكونوا منه على علم ان لم يكن كثيرا فهو أمر معلوم عندهم .

وما ينبغي التنبيه له هنا أننا لا ندعى للعرب قوامة الدين وصفاء العقيدة على امتداد تاريخهم وتباين عصورهم ، ان لا شك في ظهور الشرك والوثنيات بينهم ، حتى

(١) الآيات في سورة المائدة : ٨٣ - ٨٥ ، :

(٢) انظر قصة اسلام سلمان - رضى الله عنه - في السيرة النبوية لابن هشام : القسم

الاول : ٢١٤ - ٢٢١ .

كان الله يتعهدهم بالأنبياء والرسل عندما تغلب عليهم الوثنية وتضرب بأطنابها ، ومن غير الصحيح أن يقرّ ، الذين يرون أنّ المسلمين قد أرادوا أن يثبتوا أنّ للاسلام اقدمية وسابقة في بلاد العرب ، وأنهم ظنوا أن خلاصة الدين الاسلامي وصفوته هي خلاصة الدين الحق الذي أوحاه الله الى الأنبياء من قبل^(١) لأن آيات الله البينات قاطعة في ذلك ، ومن أصدق من الله قيلا ؟ .

(١) في الادب الجاهلي - د. طه حسين : ١٤١ - ط. ١٠ - دار المعارف بمصر
التفكير الفلسفي الاسلامي : د. سليمان دنيا : ٣٢٠ - ط ١ (١٣٢٨) الخانجي
بمصر .

(الحقبة الزمنية للعرب قبل البعثة)

إن ما سلف من أنوار الايمان في بلاد العرب لا تدعونا الى التعصب للعرب فننسى وثنية العرب وبخاصة وقد تغشت قبل البعثة النبوية في أرجاء جزيرتهم ، فبعد ذلك الثور الذى دبّ في الجزيرة منطلقا من مكة بدعوة ابراهيم واسماعيل عليهما السلام - واستمر مدة مديدة بدأ الضعف يطرأ والتهاون بالحنيفية يزداد حتى سؤل لهم الشيطان عبادة الاصنام ويحاول الرواة تحديد ظهور الشرك إن " يرجع المؤرخون تلك الوثنية الى قبيلة خزاعة والتي أخذت الحكم والقيام بأمر البيت من جرهم الذين تولوا البيت بعد وفاة نابت بن اسماعيل طمعا فى بني أختهم ، فحكموا بمكة وما والاها عوضا عن بنى اسماعيل مدة طويلة . . . وقد كانت ولاية خزاعة على البيت نحو من ثلاثائة سنة ، وقبيل خمسمائة ، وفي زمانهم كان أول عبادة للأوثان بالحجاز ، وذلك بسبب رئيسهم " عمرو ابن الحي " فانه أول من دعاهم الى ذلك " (١)

غير أن هناك أمرا نبه القرآن عليه من شئون العرب ، ذلك ماكانت عليه حالة العرب قبل العصر الجاهلي وفي العصر الجاهلي نفسه من مرورهم بفترة توقّف إرسال الرسل فيها اليهم ، وقد نبه الله " لذلك عند ما قال " لتتذّر قوما ما أنذر آبائهم فهم غافلون " (٢) ، وذكرت هذه الفترة في قوله جل وعلا " يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم على فترة من الرسل أن تقولوا ما جاءنا من بشير ولا نذير . . . " (٣)

ولاشك أن الفترة التي تشير اليها الآية الكريمة هي الزمن الذي كان بين عيسى ابن مريم آخر انبياء بني اسرائيل ، وبين نبيينا محمد - صلى الله عليه وسلم - ، وقد ثبت فسى الصحيح أنه - عليه الصلاة والسلام قال : " أنا أولى الناس بابن مريم ، والأنبياء أولاد علات ، ليس بيني وبينه نبي " (٤)

وقال بعض العلماء " قال غير واحد من العلماء إن الله تعالى لم يبعث بعهد

(١) البداية والنهاية : ١٨٤/٢ .

(٢) سورة يس : ٦ .

(٣) المائدة : ١٩ .

(٤) فتح الباري شرح صحيح البخارى : ٤٧٢/٦ ، ٤٧٨ " كتاب الأنبياء " .

اسماعيل نبيا في العرب الا محمدا صلى الله عليه وسلم خاتم الانبياء الذي دعا به
 "ابراهيم الخليل باني الكعبة . . . وبشرت به الانبياء لقومهم حتى كان آخر من بشر به
 عيسى ابن مريم عليه السلام" (١).

ومقدار هذه المدة على ما قيل فيه ، ستائة سنة كما هو المشهور عند العلماء
 المحققين . (٢)

ان هذه الفترة طويلة حقا ، وكان المجال أمام الوثنيات واسعا لكي تطبق على
 نور تلك النبوات ، وكان ذلك ما تم ، الا أن المؤرخين يؤكدون لنا انه برغم ظهور
 الوثنية بقي في العرب بعض بقايا من دين ابراهيم واسماعيل ، وأن خلوا على بعض
 البقايا ما ليس منها كتعظيم الحرم ، واهدا البدن ، والاهلال بالحج والعمرة
 وغيرها . (٣)

ولقد ذكر أحد المفسرين عند قوله تعالى " لتنذر قوما ما أنذرتهم فهم غافلون" (٤)
 " عن الله اذا أرسل رسولا فما دام في القوم من يبين دينك النبي وأمر به لا يرسل
 الرسول في أكثر الأمر ، فاذا لم يبق فيهم من يبين ويضل الكل ويتباعد العهد ويفشو
 الكفر يبعث رسولا آخر . . . وقوله " لتنذر قوما ما أنذرتهم . أي ما أنذروا بعدما
 ضلوا عن طريق الرسول المتقدم" . (٥)

ولا شك أن ذلك لا يخرج بنا من أن النبوة والرسالة من قدر الله وحكمته بمن
 بها على من يشاء الى من يشاء متى يريد .

كل تلك المشاغل الايمانية في تاريخ العرب وما كان لبقايا أهل الكتاب الذين
 لم يدلوا الصحيح من دينهم في فترة العرب أورت عرب الجاهلية بعض الافكار

(١) البداية والنهاية : ٢١٢ / ٢ .

(٢) انظر تفسير ابن كثير : ٦٥ / ٣ ، ٦٦٠ .

(٣) الأصنام : ٦ ، أيمان العرب في الجاهلية : ١٢ ، ١٣ ، البداية والنهاية :

١٨٤ / ٢ .

(٤) سورة يس : ٦ .

(٥) الامام الفخر الرازي في التفسير الكبير : ٤٢ / ٢٦ ، ٤٣ .

الدينية والتي نجد منها شيئاً في أدبهم والتي ترى بعضاً منها يوافق ما جاء به
 الاسلام مما سبق به الأنبياء السابقون وكلهم يأخذون من مشكاة واحدة وان تباينوا
 في الشرائع والاحكام ، وصدق الله " ان الدين عند الله الاسلام " (١)

أديان الجاهليين

بدأت البشرية في أصلها على التوحيد بلا شريك ، وكان الاسلام دينهم —
الذي جُبلت عليه وتعبدت به قبل أمة ملة على وجه الارض ، ثم ان البشرية كانت
كلما أجتيلت عن ذلك بعث الله اليها رسولا يدعوها الى العودة الى الايمان
ويستحثها اليه .

والناس مغطورون على الحياة بدين يقيمون عليه ، ويرون له في نفوسهم —
المكانة والشعور مالا يمكن تجاهله ، حتى ولو كان دينهم على أي صورة من السذاجة
أو الخرافة في التصورات والشعائر والمعتقدات ، وذلك في كل عصر وفي كل مصر ،
إن أن النفس الانسانية لا تسكن وتصلح لها الحياة عندما تخلو من ذلك .

ومع عدم تجاهلنا لما يسبغه دين الاسلام على النفس البشرية من أمن وسعادة
ونظرة الى الحياة وما بعدها بصغة عامة مما لا يمكن لدين سابق أن يطاوله أيا كان ،
إن نزعة الدين " فكرة مشاعة لم تخل عنها أمة من الأمم في القديم والحديث ،
رغم تفاوتهم في مدارج الرقي ودرجات الهرمية . وهكذا ظهر أنها أقدم فـنـى
المجتمعات من كل حضارة مادية ، وأنها لم تقم على خداع الرؤساء وتضليل
الدعاة ، ولم تتركز على أسباب طارئة أو ظروف خاصة ، بل كانت تعبر عن نزعة
أصلية مشتركة بين الناس " (١)

ويرى المؤرخون أن العرب كانوا في الأصل على ديانة التوحيد - ملة ابراهيم
واسماعيل - عليهما السلام ، ثم أضلهم الشيطان عنها ودخلتهم الوثنية وعبدوا
الأصنام (٢)

وقد كانت جزيرة العرب في العصر الجاهلي مسرحا لعدد من العقائد
والاديان المختلفة ، عجزت في ربوعها وتناثرت في أقاليمها الواسعة ،

(١) الدين (د . د . راز) : ٨٢ .

(٢) الأصنام : ٦ .

وطمع كلّ منها فى اخضاعها له والسيطرة عليها ، وكان منها اليهودية والنصرانية والمجوسية والصابئة وعبادة الأصنام .

والذى بيد و للتأمل فى أديان العرب فى هذا العصر أنهم اعتنقوها بالمجاورة وأخذوها بالمعايشة لأهل تلك الأديان فلم يكن الأصل عند العرب . وقد احتك العرب فى جزيرتهم بأسم كثيرة كاليهود والنصارى فى بلاد الشام ، واحتكوا بالفرس فى ما نسميه اليوم بالعراق ، وعرفوا الأحباش فى ديارهم وفى جنوب الجزيرة ، وهذا يدل على مدى اتصالهم بغيرهم ونشاطهم ومعرفتهم بمن حولهم ، (١) إلا أن من عاش فى وسط الجزيرة وفى صحاريها لم تسمح له ظروف الحياة بمعرفة تلك الأمم التى عرفها من كان من العرب فى المدن المتحضرة أو مراكز التجارة ، ومن عاش بأطراف الجزيرة وبخاصة الجنوبية والشمالية منها .

وقد كانت هذه الأديان مختلفة الطقوس متباينة الآراء ، كما كانت مختلفة أيضا من حيث أتباعها ومن يدين بها ، فعباد الأصنام لا يقاس بهم الصابئون أو من ديان من العرب بالمجوسية ، كما كانت النصرانية أكثر اتبعا وانتشارا من اليهودية . والصراع بين هذه الأديان كان قائما ، فالمجوسية والسيحية من أشد هذه الديانات صراعا ، إذ كانت لكل منهما دولة كبرى - آنذاك - تحميها وتدعو إليها ، فدولة الروم سيحية ، والفرس على المجوسية ، وقد كان الصراع بينهما قائما ، ولا يظن أن ما دار بين تلك الدولتين من خلافات وشبهت من معارك مقصور على أطماع مادية إن لم يكن مبنيا على ذلك الصراع الدينى العائدى .

وكان اليهود يستخفون بالنصارى ، والنصارى لا يرونهم على دين حتى قال الله تعالى عنهم " وقالت اليهود ليست النصارى على شيء " وقالت النصارى ليست اليهود على شيء " وهم يتلون الكتاب . . . (٢)

(١) انظر: فجر الاسلام : أحمد أمين ، ١٢ (الفصل الثانى : اتصال العرب

بمن جاوهم من الام) . ط ١١٠ - ١٩٧٩ م - دار الكتاب العربى - بيروت .

(٢) البقرة : ١١٣ .

ولعلّ ما حدث في جنوب جزيرة العرب - آنذاك - من أحداث وما نجم عنها من النتائج والتفجيرات خير ما ندلّ به على ذلك .^(١)

ويتعدى ذلك الصراع هذه الأديان فيما بينها لنراه داخل المذهب الواحد ، فالنصرانية مثلا فيها المذهب النسطوري واليعقوبي ، وبينهما انفصام وخلاف ، ومفاهيمهما عن المسيح متباينة ، وكل لا يقر للآخر برأى^(٢) . ونجد اليهودية فيها مثل ذلك ، فيهود فلسطين وبلاد الشام يتنكرون لاخوانهم يهود الجزيرة ، ولا يأبهن بهم وينفونهم من الديانة اليهودية^(٣) . وأمّا عبّاد الأوثان فكل حزب بما لديهم فرحون ، وكل قبيلة لها صنم تعظمه وترى أنه أعظم الأصنام ، وتحترق أصنام القبائل الأخرى ، بل من المحتمل لو حدثت حرب بينهما ، فإن القبيلة المنتصرة ربما تحطم صنم القبيلة المغلوبة وتقضى عليه .^(٤)

والذي نحب أن نشير إليه هنا أن في ذكرنا لهذه الأديان ومعرفتها في ذلك العصر فائدة تتعلق بموضوع هذا البحث وتقتضيه ، حيث قد ظهرت الحنيفية في العصر الجاهلي رغم وجود هذه الديانات المتنوعة متمثلة في طوائف النفر الذين سمّوا بالحنفاء على قدر اجتهداهم في الوقوف على هذه الحنيفية ، ومعرفة هذه الديانات سوف يطلعنا على مكانة هذه الحنيفية منها ، ونظرتها الى تلك الأديان ، أضف الى ذلك أن أصحاب هذه الحنيفية ومعتنقيها ظن أنهم من الصابئة يوظفون أنهم فرقة من النصارى ، كما ظن أن هذه الحنيفية أخذت من هذه الديانات واستفادت من بعضها ، أو كان لها علاقة ما بإحداها كما سنبين ذلك فيما بعد إن شاء الله . كل ذلك قادنا الى الحديث عن تلك الديانات في ذلك

-
- (١) انظر : السيرة لابن هشام : القسم الاول : ٢٣ - ٤٢ .
 (٢) انظر : الدعوة الى الاسلام : أرنولد : ٧١-٧٣ ، ترجمة : حسن ابراهيم حسن وآخرون . ط٣ (١٩٧١م) - مكتبة النهضة المصرية - القاهرة .
 (٣) تاريخ اليهود في بلاد العرب : اسرائيل ولفنسون : ١٣-ط (١٩٢٧م) القاهرة .
 (٤) انظر : الفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام : د . جواد علي : ٢٩٠ ، ٢٩١ - ط٣ - ١٩٨٠م ، دار العلم للملايين - بيروت .

الزمان ، وسوف يكون حد يثنا عنها مقتضيا للوقوف منها على ما يعنيننا دون خوض
في تفاصيل تلك الأديان ، وسبيل من أراد المزيد منها الرجوع الى مفاصلها
من كتب الأديان والفرق والعقائد وغيرها .

(١) اليهودية :

ينبغي أن يعلم أن ما يتعارف عليه باليهودية من ديانة مستقلة ليس ديننا
صحيحا على أصوله التي جاء بها الأنبياء الذين بعثهم الله إلى اليهود ، فالرسل
جاءوا بالاسلام ودعوا إليه ثم حرق اليهود ما جاءهم من عند الله ، بل وأدخلوا
الشرك في دينهم كما أخبر الله تعالى عنهم : " وقالت اليهود عزير ابن الله " (١)
ثم بقوا يتوارثون هذه الديانة الباطلة فماخرين ينافحون عنها حتى اليوم .
ويقال ذلك على المسيحية التي لا تزال قائمة على أصول سابقة وباطلة ، ويدين بها
ثلاثة من العالم في وقتنا الراهن . (٢)

وقد دخل اليهود جزيرة العرب قبل البعثة بقرون كثيرة اذ لم يأت الاسلام
الا ولهم مستوطنات في " يثرب " وماحولها " كدك " و " خير " و " تيماء " ، كما وجد
بعض منهم في أماكن أخرى " كاليمين " و " والبحرين " (٣) وغيرها . (٤)

ويرى المؤرخون أن اليهود " دخلوا يثرب وأطراف الحجاز على أثر ظهور
الروم على بلاد الشام وقتكهم بالعبرانيين وتنكيلهم بهم مما اضطر بعضهم الى الفرار

(١) التوبة : ٣٠ .

(٢) انظر : مايتصل بهذا المعنى : روح المعاني : محمود شكرى الألويسى :

١ / ٣٩٤ ، ٣٩٣ ط ٢ - دار لإحياء التراث العربى - بيروت .

فى ظلال القرآن : ١ / ١٠٤ ، ١٠٥ ، ١١١ ، ١١٢ .

(٣) تاريخ يعقوبى : أحمد بن أبى يعقوب يعقوبى : ١ / ٢٥٧ ط (٣٧٩ هـ)

دار صادر ، دار بيروت .

(٤) فتوح البلدان : ٩٨ ، ٩٥ . أحمد بن يحيى البلاذرى . نشره د . صلاح

الدين المنجد . ط . مكتبة النهضة المصرية .

الى تلك الأنحاء الآمنة البعيدة عن مجالات الروم^(١) . أما وجودها في اليمن فلا نستبعد هذا السبب وان دعاهم اليها التجارة وما تتمتع به اليمن من ثراء ووفرة المعيشة . كما أن من الرواة من يذكر لنا غير ذلك^(٢) .

وقد عرف العرب اليهود وخالطوهم وذكروا عبادهم في شعرهم^(٣) ، وكانت لهم قبائل من أشهرها " بنو قريظة " و " بنو النضير " و " بنو قينقاع " .

وقد كان اليهود يعملون في الزراعة كما عملوا في صناعة المعادن من حدادة وصناعة أسلحة ومصوغات وغيرها^(٤) ، غير أن أشهر أعمالهم التجارة ، وقد كانت تدرك عليهم أرباحا طائلة . وصور التجار اليهود أصحاب حانات الخمر مألوفة في الشعر الجاهلي كما قال الاعشى^(٥) :

وصهباء طاف يهوديها .. وأبرزها وعليها خُتِمُ^(٦) .

ومع ما كان يتصف به اليهود من انطوائية وانعزالية عن غيرهم دللنا المصادر على أن نفرا من العرب قد تهودوا وإن كانوا قلة ، وأن من أسلم من أهل يثرب قد تهود ابنه أو قريبا له أرادوا ادخالهم في الاسلام واجبارهم عليه فأنزل الله تعالى

(١) تاريخ ابن خلدون^{٥٩٦٥٩٧} (العبرود ويوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم

والبربر ومن عاصرهم من ذوى السلطان الأكبر) ، ط ١٩٥٦ م - بيروت .

(٢) السيرة لابن هشام : ١٩/١ - ٢٧ .

(٣) من ذلك ماورد في ديوان زهير :

سوى ربيع لم يأت فيها مخافة .. ولا رهقا من عابد متهود

ديون زهير (صنعة ثعلب) : ١٧٠ . تحقيق : د . فخر الدين قباوة ، ط ١ ،

(١٤٠٢ هـ) دار الافاق الجديدة : بيروت .

(٤) فجر الاسلام : ٢٤ .

(٥) ديوان الاعشى : ميمون بن قيس : تحقيق د . محمد محمد حسين : ٨٥ .

ط ٧ - ١٤٠٣ هـ ، مؤسسة الرسالة بيروت ، وانظر المفضليات : للمفضل

ابن محمد الضبي ص : ٢٤٢ . تحقيق : الشيخ أحمد محمد شاكر ، وعبد السلام

هارون . ط ٦ - بيروت .

(٦) الصهباء : الخمر ، والصهباء الحمرة . ختم : أى مختومة لم تفتح بعد .

الآية " لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى " (١)

والذى بيد وأن ديانة اليهود لم تكن صالحة لحمل عقيدة وشريعة توائم النفس البشرية ، وغير كافية لاقامة مجتمع صالح فى ظل حياة سوية ، حتى أنصف العرب من هذه الديانة ولم يعبثوا بها إن لم يكونوا قد سخروا منها ومن أهلها (٢) .
وبالمقابل فقد غلا اليهود بأنفسهم كما بين لنا القرآن الكريم ، فزعموا أنهم أبناء الله وأحباؤه ، وأنهم شعب الله المختار ، كما أباحوا لأنفسهم إيقاع الأذى بمن سواهم فى سبيل ما يرغبون " ذلك بأنهم قالوا ليس علينا فى الأميين سبيل ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون " (٣)

وقد كان اليهود يتكلمون باللسان العربى كالعرب أنفسهم ، حتى عدّ لنا الرواة شعراء اليهود طبقة من طبقات الشعراء العرب فى الجاهلية وصدر الاسلام (٤) . وذكروا لنا عددا منهم مع أطراف من شعرهم .

ولم يكن اليهود مختلفين فى حياتهم وبيئتهم العامة عن غيرهم من مشركى العرب ، ولم يكن تعصبهم لدينهم فى جاهليتهم الى تلك الدرجة التى قاوموا بها الاسلام وأهله عندما كان للاسلام سلطان فى " يثرب " .

وبصور لنا أحد المؤرخين علم اليهود الذين كانوا ببلاد العرب وثقافتهم فيقول : " وأهل التوراة الذين بين العرب يومئذ بادية مثلهم ، ولا يعرفون من ذلك - أى أسباب المكونات وبدء الخليقة واسرار الوجود - الا ما تعرفه العامة

(١) سورة البقرة : ٢٥٦ . وأنظر تفسير الطبرى .

(٢) انظر رسائل الجاحظ (رسالة الرد على النصارى) : لأبى عثمان عمرو

ابن بحر الجاحظ : ٣ / ٣١٦ - تحقيق : عبد السلام هارون ، ط ١ (١٣٩٩ هـ)

الخانجى بمصر ، تاريخ اليهود فى بلاد العرب : ٧٢ .

(٣) آل عمران : ٧٥ .

(٤) طبقات فحول الشعراء " شعراء يهود " لمحمد بن سلام الجعفى : ٢٧٩ .

بشرح : محمود محمد شاكر . ط . مطبعة المدنى - القاهرة .

من أهل الكتاب^(١) ومع ذلك فقد روى أنه كانت لهم دور تسمى (المدارس) يعلمون فيها أبناءهم دينهم وعبادتهم^(٢) .

ويعلم من القرآن الكريم أن اليهود كانوا يهدون العرب بظهور نبي منهم وبه ، يسلطهم الله عليهم ، فلما بعث الله رسوله محمداً صلى الله عليه وسلم - من العرب كذبوه وكانوا من اللذ خصومه ، قال تعالى " ولما جاءهم كتاب من عند الله صدق لما معهم وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به ... " ^(٣)

والذى يمكن قوله فيما كان لليهود من تأثير على العرب أن ذلك كان ضعيفاً وغير مبین إن لا يصح البالغة في ذلك ، وما يراه بعض الباحثين من ادخالهم بعض المصطلحات في اللغة العربية وغير ذلك^(٤) لا يؤخذ على إطلاقه إذ لديهم من الكلمات ما كان يحمل تلك المدلولات ، بل إن أثرهم إن لم يكن شيئاً فسي جملته فهو يقترب من ذلك حتى قال بعث الباحثين " إن أثر اليهود في العرب كان خافتاً من الناحية النظرية أم الناحية العملية .

فأما الناحية النظرية فانهم لم يجدوا في نشر دينهم بين العرب الوثنيين ، ليرفعوهم من وهدة الشرك إلى سماء التوحيد ، وكذلك لم ينشروا بينهم ثقافة دينية أو خلقية .

وأما من الناحية العملية فقد كان لهم أثر في بلاد العرب ، لأنهم انصرفوا إلى كسب المال من طرقه المشروعة وغير المشروعة ، فكانوا هم الذين يرايون ويعلمون الناس الربا ، وكانوا يوقعون بين القبائل العربية ، ويفرون الأوس بالخزرج والخزرج بالأوس ، ولم يعينهم من أمر العرب المشهودين إلا أن ينتفعوا بهم لحمايتهم ولحماية متاجرهم " ^(٥)

(١) تاريخ ابن خلدون : ٤٣٩ / ١ ، وانظر : المفضل في تاريخ العرب : ٥٣٢ / ٦ .

(٢) لسان العرب (درس) : ٨٠ / ٦ ، ... : ...

(٣) البقرة : ٨٩ .

(٤) فجر الاسلام : ٢٤ ، ٢٥ .

(٥) الحياة العربية من الشعر الجاهلي : د . أحمد محمد الحوفي : ١٤١ .

ط . دار القلم - بيروت .

(ب) النصرانية

نود أن نشير الى أن ما تسمية بالنصرانية لم يأخذ هذه التسمية الا في وقت متأخر بعد أن رفع الله رسوله " عيسى عليه السلام " إليه ، إذ أنه جاء بالاسلام من عند الله ودعا اليه في رسالته التي كانت رحمة لبني اسرائيل ، بعد أن عاقبهم الله قبل ذلك بالولان من الجزاء عند ما عصوا رسل الله وقتلوه واستحلوا محارمه .

ولعل هذه التسمية مأخوذة من الناصرة ، وهي " قرية بينها وبين طبرية ثلاثة عشر ميلا فيها كان مولد المسيح . . ومنها اشتق اسم النصارى ^(١) أو راجعة الى النصارى أتباع عيسى وأنصاره كما جاء في القرآن الكريم " قال الحواريون نحن أنصار الله " ^(٢) .

أما دخول النصرانية بلاد العرب فذلك قبل العصر الجاهلي بفترة طويلة فيما يبدو ، إذ أن من كانوا عليها يومئذ ليسوا أول من دان بها ، وفي بعض الأماكن كشمال الجزيرة بيد وأنها قد رسخت أقدامها من فترة متقدمة .

وقد كانت النصرانية تنتشر في بلاد العرب وغيرها بفضل العبادة والرهبان الذين كانوا ينتشرون في الأرض ثم لا يلبثون أن يدعوا الناس ويرغبوهم ويبشروا بدينهم ، ولعل هؤلاء المبشرين كانوا على حظ من الجدل والاقناع حتى يتمكنوا مما يريدون . ولما آلت النصرانية الى دولة الروم وأصبحت دين حكامها كان لها الدور الأكبر في انتشارها في أوروبا وشمال وشرق أفريقيا وبلاد الشام وما حولها ^(٣) . وفي العصر الجاهلي نجد النصرانية في شمال الجزيرة ، في بلاد الشام وبلاد الرافدين ، ويذكر الرواة أنها كانت في ربيعة ، وضان وبعض قضاة ^(٤) .

(١) معجم البلدان : لياقوت بن عبد الله الحموي (الناصره) : ٢٥١ / ٥ . ط دار

صادر - ١٣٩٧ - بيروت ، لسان العرب : نصر : ٩١٥ / ٥ ،

(٢) الصف : ١٤ .

(٣) انظر المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام : ٥٨٧ / ٦ ، ٥٨٨ ، ٥٩٠ ، ٥٩١ .

(٤) المعارف : عبد الله بن مسلم بن قتيبة : ٦٢١ ، تحقيق ثروت عكاشة . ط دار المعارف بمصر .

كما وجدت بين الفساسنة وتغلب ، وتنوخ ، وشليح ، ولخم ، وإياد ، وسهراء ، وطى
وبعض أحياء من العرب (١) .

وقد كان الفساسنة في بلاد الشام يرجعون الى " قبصر " وينتمون اليه وفي ذلك
ما يبين العلاقة التي كانت قائمة بينهما ، ولما جاء الاسلام وقف الروم من وراء نصارى
العرب في بلاد الشام يؤازرونهم في حرب المسلمين .

وكانت النصرانية ببلاد العراق الا أنها لم تكن كحالها ببلاد الشام اذ العراق
تخضع للفرس الذين يدعون بالمجوسية ، ولا ريب في انتشارها هناك اذ تدلنا
المصادر على العديد من الأديرة التي انتشرت في الحيرة وما حولها اذ كانت
مقلا للأخبار والرهبان وغيرهم من أهل دينهم (٢) ، والعباديون في الحيرة هم
أظهر من عرف بالنصرانية ، غير أن ما يفهم من دراسات الباحثين أن نصارى العراق
كانوا على المذهب النسطوري الذي يختلف عن المذهب اليعقوبي الذي كان عليه
نصارى بلاد الشام (٣) .

وعرفت النصرانية في بعض أجزاء اليمن وجنوب جزيرة العرب ، وقد كانت
" نجران " أهم موطن لها في " اليمن " ، وبقيت بها حتى جاء الاسلام ، وقدم وفد
نجران على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان فيهم العاقب والسيد والأسقف (٤) ،
ودعاهم الى المباحلة (٥) ، وكعبة نجران التي كان يقوم عليها بنو عبد المطلب

(١) تاريخ اليعقوبي : (أديان العرب) : ٢٢٧/١ ، رسائل الجاحظ (رسالة

الرد على النصارى) : ٣١٣/٣ .

(٢) انظر ذكر هذه الأديرة في معجم ما استعجم : ٥٦٧/٢ . أبو عبيدة البكري

تحقيق مصطفى السقا وآخرون ط ١ ، ١٣٦٤ لجنة التأليف والترجمة - مصر ، معجم

(٣) انظر الفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام : ٦/٥٩١ ، ٥٩٢ ، ٥٩٥ ، ٩٥٠ ، العصر

الجاهلي : د . شوقي ضيف : ١٠٠ - ط ٧ - دار المعارف بمصر .

(٤) العاقب : أمير القوم وذو الرأي فيهم وصاحب مشورتهم الذي لا يصدرون الا عن
رأيه ، والسيد : من يقوم بأمرهم وشئونهم وصاحب رحلتهم ومجتمعهم ، والأسقف :

حبرهم وأماهم .

(٥) السيرة لابن هشام : المجلد الثاني : ٥٧٣ وما بعدها .

التي اذاجأها الخائف أمن ، أو طالب حاجة قضيت مشهورة عند الرواة (١) .
ولما دخل الأحباش اليمن وأخذوا سلطته كان للنصرانية شأن بارز ، حاولت
به أن تنتشر ، وبنيت كثير من البيع والكنايس ، وكانت القليس التي بناها " أبرهة " .
في " صنعاء " ، وبالغ في احكام بناءها وتزيينها ليصرف العرب عن الكعبة اليها
خير شاهد على ذلك (٢) .

ولا ريب أن ما ذكرناه عن النصرانية في ماسلف وان ظهر على شكل جماعات
كثيرة في تلك الأماكن لا ينفي وجود بعض نافر أو جماعات قليلة غيرها من المناطق (٣) ،
إن من المعلوم أن ظروف الحياة وحركة التجارة ورغبة النصارى في التبشير قد تدعوا
الى ذلك أو تشجع عليه .

وقد حفل الشعر الجاهلي ببعض الصور النصرانية التي عرفها العرب ، ومن
هذه الصور ذكر الراهب المتبتل لعبادته المنقطع عن شئون الحياة وشهواتها ،
وذكر النابغة الذبياني أن (المتجردة) لو عرضت لراهب أشمط لربنا لها (٤) .
لو أنها عرّضت لأشمط راهب .. يخشى الإله ضرورة متعبدا (٥)
لربنا لروءيتها وحسن حديثها .. ولخاله رشد أو إن لم يرشد (٦)
وصورة مصباح الراهب الذي يضئ في جوف الليل كوجه محبوبه امرئ القيس (٧) :
تضيء الظلام بالعشاء كأنها .. مناره من راهب تبتل

(١) معجم البلدان (نجران) : ٢٦٨/٥ ، ٢٦٩ ، تاج العروس : (نجر) :

٥٥٦/٣ ، ديوان الأعشى : ٢٢٣ .

(٢) انظر السيرة لابن هشام : المجلد الاول : ٤٣ .

(٣) انظر المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام : ٦٢١/٦ .

(٤) ديوان النابغة الذبياني : تحقيق : محمد الطاهر بن عاشور : ٩٨ . نشر

الشركة التونسية للتوزيع ، والشركة الوطنية للنشر - الجزائر .

(٥) الأشمط : الذي خالط بياض شعره سواده أي دخله كبر السن ، الصرورة :

الذي لا يتزوج لثلا تشغله امرأته عن مداومة العبادة .

(٦) رنا : أي أدام النظر .

(٧) ديوان امرئ القيس : تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم ، ط . دار المعارف بمصر . ١٧٧ .

ونواقيس الأديرة وأصوات قاعاتها ما ذكره الأعشى (١) :

وكأني كمين الديك باكرتُ حدّها . . بفتيانٍ صدّقٍ والنواقيسُ تُضربُ .
ونجد اضافة الى ذلك عددا من الاشارات الى الكنائس والبيع والدي والصلبان ،
وثوب الرّاهب وأيام أعيادهم . (٢)

ولم تكن النصرانية في طبيعتها قادرة على تأسيس أمة ذات عقيدة ومنهج
سوى ، فقد دخلها الشرك عندما جعلوا الله ثالث ثلاثة - تعالى الله عن ذلك علوا
كبيرا * يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم ولا تقولوا على الله الا الحق انما
المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلته ألقاها الى مريم وروح منه فآمنوا بالله
ورسله ولا تقولوا ثلاثة انتهوا خيرا لكم إنما الله واحد سبحانه أن يكون له ولد (٣) ،
كما كانت النصرانية معقّدة لا يُحْكَمُ كنهها ، برمت بها النفوس عندما أصبحت
مزيجا من الخرافات اليونانية والوثنية الرومية والافلاطونية المصرية والرهبانية
اضمحلت في جنبها تعالم المسيح (البسيطة) كما تتلاشى القطرة في اليم ،
وعادت نسيجا خشبيا من معتقدات وتقاليد لا تغذى الروح ، ولا تمد العقل
ولا تشعل العاطفة ، ولا تحل مغضلات الحياة ولا تنير السبيل ، بل أصبحت
بزيادات المحرفين وتأويل الجاهلين تحول بين الانسان والعلم والفكر ، وأصبحت
على تعاقب العصور ديانة وثنية (٤) .

وبرغم هذا الغموض والاسفاف في هذه الديانة فقد تصدعت من داخلها
الى فرق متناحرة ، تختلف حول فهم المسيح وتتجادل في أسس الديانة ،

(١) ديوانه : ٢٥٣ ، وحّد الخمر : سورتها وحدّتها .

(٢) انظر في ذلك الحياة العربية من الشعر الجاهلي : ٤١٩-٤٢١ ، الصورة
الفنية في الشعر الجاهلي في ضوء النقد الحديث . د . نصرت عبدالرحمن :

٢٣ ، ٢٢ ط ١٩٧٦ م ، مكتبة الاقصى - عمان .

(٣) النساء : ١٧١ .

(٤) ماذا خسّر العالم بانحطاط المسلمين لأبى الحسن على الحسنى الندوى :

٤٢ ط الاتحاد الاسلامي العالمي للمنظمات الطلابية (١٤٠١ هـ) .

وأشهر فرقها (اليعقوبية أصحاب يعقوب والملكية أهل دين الملك، والنسطورية أصحاب نسطورس) .^(١)

والذين وجدت بينهم النصرانية من عرب الجاهلية ينفي أن يفهم أنها، لم تكن متعمقة في نفوسهم، أو كانوا ملتزمين بأحكامها بدقة، فهم لم يكونوا مخلصي النية في اعتناقها ولم يختلفوا كثيرا عن غيرهم من الوثنيين، وظلوا يخلطونها بغير قليل من وثنياتهم، وربما لم يتسكروا إلا بما وافق هواهم من هذه الديانة،^(٢) حتى ذكر "ابن كثير" عند قوله تعالى "اليوم أحلّ لكم الطيبات وطعام الذين أوتوا الكتاب حلّ لكم" . . .^(٣) "أن نصارى العرب كبني تغلب وتنوخ وبهرا، وجدّام ولخم وعاملة ومن أشبههم لا تؤكل ذبائحهم عند الجمهور"، وعلل ذلك بما روى عن "علي بن أبي طالب رضی الله عنه" أنه قال: "لا تأكلوا ذبائح بني تغلب لأنهم إنما يتسكون من النصرانية بشرب الخمر" .^(٤)

ويقوى ذلك أن عدّهم الرواة نصارى من شعراء الجاهلية وأشهرهم عدى بن زيد العبادي^(٥) لم يرد في ما يروى له من الشعر ما يتحدث عن عقيدة التثليث ويوضح آراء النصاري ومعتقداتهم وأفكارهم، بل قد روى أنه حلف بمكة في قوله:^(٦)

سعى الأعداء لا يألون شـراً .. على وربّ مكة والصليب

(١) تلبس إبليس: لأبي الفرج عبد الرحمن ابن الجوزي: ٧٣. ط دار الكتب العلمية - بيروت .

(٢) انظر: العصر الجاهلي: ١٠١، ١٠٠ .

(٣) المائدة: ٥ .

(٤) تفسير ابن كثير: ٣٧/٣ .

(٥) عدى ابن زيد العبادي: شاعر نصراني متقدم، كتب بالعربية والفارسية لدى كسرى، وكان معاصراً للنعمان ابن المنذر ملك الحيرة الذي حبسه حتى مات. انظر: طبقات فحول الشعراء: ١٥٠/١، الاغانى: ٩٧/٣ .

(٦) الاغانى: لأبي الفرج علي بن الحسين الأصبهاني: ١١١/٢. نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب - نشر - دار احياء التراث العربي - بيروت .

وما يروى له انما هو ذكر لبعض مظاهر النصرانية نجدها عند غيره من ليسوا على دينه كما أكد ذلك من تعمقوا في دراسة حياة عدى وشعره (١) والاعشى - ميمون - ابن قيس - الذي بدت آثار النصرانية واضحة في بعض صوره - أثر اتصا له بالعباديين في الحيرة وآل جفنه في الشام ، حتى زعم بعض من ترجم له من القدماء والمحدثين أنه كان نصرانيا ، وأن العباديين هم الذين لقنوه هذا الدين عندما كان يغد إليهم (٢) ، لا يمكن الجزم بنصرانيته ، وكيف هشت نفسه عندما علم بالإسلام فمدح الرسول - عليه الصلاة والسلام - وكان يدخله لولا أن خدعه القرشيون (٣) ، والواقع أن كل مانجده من آثار النصرانية في أخبار الاعشى ، هو أن رايته كان نصرانيا اسمه يحيى بن متى ، وأنه كان يزور بعض أشراف النصارى وسادتهم مثل بنى الحارث - بن كعب في نجران ، فيمدحهم وينال عطاءهم ، ويقيم عندهم يسقونه الخمر ويسمعونه الفناء الرومي . ثم لانجد بعد هذا في شعره إلا بعض الصور والتشبيهات مثل تشبيه قيس بن معدى كرب (٤) بالرهبان في عدله وتقواه ، ومثل حلفه برهبان دير هند وشارته الى عيد الفصح والى طوفان نوح (٥) . ولكنه مع هذه الآثار النصرانية في شعره ظل يدويا في أعماقه

(١) عدى بن زيد العبادى : د . محمد على الهاشمى : ٦٠ ، ٦١ . ط ١٣٨٧ هـ
المكتبة العربية - حلب .

(٢) ديوان الاعشى : ٣٨ .

(٣) السيرة النبوية لابن هشام : المجلد الاول : ٣٨٦ - ٣٨٨ ، ديوان الاعشى : ١٨٤ .

(٤) قيس بن معدى كرب الكندى : ملك جاهلى يمانى ، وهو والد الأشعث بن قيس صاحب الثورة على الأمويين ، وكان صاحب مربع حضر موت الذى خلف والده عليه ، وقتل في احدى وقائعه مع مراد .

وانظر خزنة الادب : لعبد القادر بن عمر البغدادى : ٣ / ٢٣٩ . تحقيق : عبد السلام هارون . ط الخانجى بالقاهرة ، الاعلام : خير الدين الزركلى : ٢٠٨ / ٥ ط ١٩٨٠ م . دار العلم للملايين بيروت .

(٥) انظر ديوانه ، القصائد : ٦٢ : ٦٤ ، ١٣ : ٦٩ ، ٢٣ : ٢٤ ، ١٦ : ٢٨ ، ٢٩ ،

٣٥ - ٦١ .

وفى تصويره للأشياء ، لا يجد إلا القوة ^(١) وشعره خير ميسر لذلك ^(٢) .

والذين أخذوا على عاتقهم تنصير عرب الجاهلية ليقولوا ان النصرانية ديانته السائدة ، وجاوزوا ذلك لظن بأن الكعبة إنما هي فى الأصل كنيسة أو صومعة ^(٣) ، وما شابه ذلك من مزاعم تدور حول التنصير ، هؤلاء قوم طمس التعصب بصائرهم وأظهر الله حقدهم فيما سطره من كتابات لا تصمد أمام الحقائق العلمية التى تسير البحوث القويمة الهادفة على ضوئها ، وحسبى أن أذكر مثلين يكفيان فى بيان مدى المجازفة الباطلة فى قلب الحقائق والجهل أو التجاهل فى تحريف الكلم وادعاء الباطل الذى وقع فيه هؤلاء القوم .

لقد زعم "لويس شيخو" أن "جابر بن حنّى" كان نصرانيا ، واستدل بقوله مقتخرا بنصرانيته :

وقد زعمت بهراً أن رماحننا .. رماح نصارى لا تخوض إلى دم ^(٤)

ومثل هذا البيت فى وضوح معناه وقوة دلالة على أنفة قائله من النصرانية التى لا تسيل إلى الحرب مالا يحتاج معه إلى أعمال فكر أو مزيد تأمل وإنما هو التعصب المقيت ^(٥) .

وقد زعم أيضاً أن "حاتماً الطائى من النصارى ، وما رواه من شعره قوله :

وما زلت أسعى بين ناب ودائرة .. بلحيان حتى خفت أن أتصرفا ^(٦)

(١) السابق ٣٨٠ .

(٢) السابق (القوائد) : ١١ : ٣٠ - ٣١ ، ٤٠ ، ١٣ - ١٤ ، ٢١ ، ٣٥ ، ٤٢ ، ٤٣ .

(٣) انظر الفصل فى تاريخ العرب قبل الاسلام : ٦ / ٦٦٦ .

(٤) شعراء النصرانية : لويس شيخو : ١٨٨ . ط . مكتبة الاداب بالقاهرة .

(٥) انظر : المفضليات : ٢٠٨ .

(٦) شعراء النصرانية : ١ / ١٠٧ ، وناب ودائرة موضعان ، وانظر فى مثل ذلك أدبان

العرب فى الجاهلية : محمد نعمان الجارم : ٢٠٥ . ط ١ - مطبعة السعادة

بمصر - ١٣٤١ هـ .

فحاتم كاره للنصرانية يخشى على نفسه من التأثر بها مما يلاحظه من أهلها ، وهذا يدعى له النصرانية لأنه ذكرها وليس ذلك بشيء .

وقد تبين أن الكنسية الكاثوليكية اعتبرت من توفرت فيه أخلاق معينه مسيحيًا وان لم يكن على دينها حتى قال أحد الكاثولوكيين : " فالوثنى مهما كانت ديانتها اذا كان يحافظ على شريعة الله بقدر ما يعرفها ، أى الشريعة الطبيعية الصارخة بضمير الانسان أعمل الخير وهو متحد بنفس الكنيسة أم لم يعمله فهو يخلص أنه منها " (١) .

أما تأثير النصرانية على العرب فلا شك أن التأثير والتأثر ظاهرة طبيعية بين الأمم والشعوب . ويعدّ من تنصر من العرب انما كان لتأثير هذه الديانة التي آزرتها السلطة في الغالب ، ولا شك في دخول الأفكار النصرانية على هؤلاء ، وربما أنفذوها الى من حولهم ، ومن المصادر ما يشير الى وعظ القس والرهبان للناس في المجتمعات والأسواق ، يذكرونهم بالبعث والحساب والجنة والنار ، (٢) غير أن ذلك فيما يبدو كان نادرا ، والشعر الجاهلي حافل بكثير من الصور النصرانية التي أشرنا اليها كالنواقيص والرهبان وأيام الاعياد وغيرها . ولا شك أن من ترهب من العرب ولبس السمو أو بنى بيعة أو ديرا اعتزل فيها وتعبّد كان من أشر ذلك الديمن .

وخلاصة ما يقال في ذلك أن النصرانية لم تكن لتترك آثارا واضحة في حياة الجاهليين حتى يصعب التعرف عليها لمن أراد التماسها ، بل ويحتاج الى اطلاع واسع يمكنه من ذلك ، وقد عجزت النصرانية أن تقتحم وثنية العرب ، وما يروى

(١) وثنية العرب وأثرها في الادب الجاهلي : على أحمد على الخطيب : ١١٤ .

رسالة ماجستير - جامعة الأزهر ١٣٨٩ هـ .

(٢) نقد النشر . المنسوب لقدامة بن جعفر : ٩٨ . ط . لجنة التأليف والترجمة

والنشر . مصر .

من أمور تدل على النصرانية لا يدل على ايمان متمكن عميق ، بقدر ما يدل على
وصف أمور مشاهد (١) .

(١) انظر الجاهلية : مقدمة في الحياة العربية لدراسة الادب الجاهلي :
د . يحيى الجبورى : ١١٤ ، ١١٥ ط ١٣٨٨ ، مطبعة المعارف -
بغداد ، الحياة العربية من الشعر الجاهلي : ١٤٩ ، ١٥٠ .

(ج) المجوسية

وأصحاب هذه النحلة هم المجوس ، وهم القائلون بالأصلين " وهما النور والظلمة ، يزعمون أن الخير من فعل النور ، وأن الشر من فعل الظلمة " (١) . وقد أشار اليهم القرآن الكريم في الآية " إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئين والنصارى والمجوس والذين أشركوا إن الله يفضل بينهم يوم القيامة . . . " (٢) .

ونجد في الشعر الجاهلي بعض اشارات تدل على معرفة بالمجوس ووقوف على أحوالهم ، وقد قال شاعرهم " كنار مجوس تشتعل اشتعالا " (٣) ، ويدلنا امرؤ القيس على مشية الاختيال التي رآها في قوّة بيت النار التي يعبد ها المجوس عندما قال :

مشى الهيربذى في دقّه ثم فرّقا (٤) .

وقد ورد عن عقيدتهم " أن الله تعالى شخص روحانى ظهر فظهرت معه الاشياء روحانية تامة ، فقال : لا يتهيأ لغيرى أن يبتدع مثل هذه التي ابتدعتها ، فتولد عن فكرته هذه الظلمة ، إذ كان فيها جحود لقدرة غيره فقامت الظلمة تغالبه .

(١) لسان العرب: ٦/٢١٣ ، تاج العروس: ٤/٢٤٥ (مجس) .

(٢) الحج : ١٧ .

(٣) هذا عجز بيت أجاز به التوأم الهشكرى امرأ القيس عندما طلب منه ذلك ثم قال : أصاح أريك برقاً هب وهنا كما فى لسان العرب: ٦/٢١٣ ، ولم نجد في ديوان امرؤ القيس .

(٤) هذه رواية لسان العرب (هريذ) ٣/٥١٨ ، والبيت كما فى الديوان يصف الحصان ص ٦٧ :

إذا زعته من جانبيه كليهما . . . فشى الهيدى فى دقّه ثم فرّقا
: وجاء فى شرحه : إذا عطفته وأملته بالتركش والزجر من جانبه تبختر فى مشيه ، ومال فى أحد جانبيه ، ثم حرك فمه باللجام عبثاً ونشاطاً ، والهيدى ، بالذال : مشية فيها تبختر ، واشتاقها من الثوب ذى الهدب ، لأنه مما يتبختر فيه ، ويروى : " الهيدى " بالذال المعجمة ، وهو من أهدب فى سيره إذا أسرع ، ومعنى : " فرفر " حرك اللجام فى فمه .

أما شريعتهم التي شرعها زرادشت (١) فهي عبادة النار والصلاة الشمس
والشمس ويتأولون فيها أنها ملكة العالم ، وهي التي تأتي بالنهار وتذهب بالليل ،
وتحيى النباتات والحيوانات ، وترد الحركات الى أجسادها ، وكانوا لا يدفنون
موتاهم في الأرض تعظيما لها ، ويقولون إنها نشوء الحيوانات فلا نقدرها ، وكانوا
لا يفتسلون بالماء تعظيما له ، لأن به حياة كل شيء ، بل يغسلون وجوههم ببول
الابل تبركا به ، لذلك فهم لا يرون قتل الحيوانات ولا ذبحها ، وكانوا يستحلون
فروج الأمهات ، . . وهم يرون في الافعال خيرا وشرا ، وأن فاعل الخير لا يفعل
الشر ، فأثبتوا الهين ، وقالوا : أحدهما نور حكيم لا يفعل الا الخير ، والاخر
شيطان هو ظلمة لا يفعل الا الشر . (٢)

ويبدو أن عبادة النار مرت بمراحل " من عبادة الله والسجود له الى عبادة
عدد من الكواكب ، ثم تحريم الاشتغال بالاشياء التي تستلزم النار فاقصروا نفوس
أعمالهم على الفلاحة والتجارة ، ومن تمجيدهم للنار واتخاذها قبلة تدرج الامر بهم
الى أن عبدوا عين النار " . (٣)

لقد كانت ديانة المجوس " عبارة عن طقوس وتقاليد يهودونها في أمكنة خاصة .
أما في خارج المعابد ، وفي دورهم ودوائر حكمهم وتصرفهم ، وفي السياسة
والاجتماع فكانوا أحرارا يسيرون على هواهم وما تملئ عليهم نفوسهم " . (٤)

(١) قال الأزهرى : وليس هو زرادشت الفارسي (أي الذي وضع دين المجوس)
كما قاله بعض لأنه كان بعد إبراهيم عليه السلام ، والمجوسية دين قديم
وانما زرادشت جدده وأظهره وزاد فيه (تاج العروس : ٤ / ٢٤٥) .

(٢) تلبس إبليس : ٧٥ ، ٧٦ .

(٣) ماذا خسّر العالم بانحطاط المسلمين : ٦٣ .

(٤) السابق : ٦٣ ، ٦٤ .

وقد أخذت العرب المجوسية عن أهل فارس إذ هي ديانتهم، والحسيرة
أكبر المراكز التي احتك العرب بالفرس فيها، وذكر الرواة أن أشتاتاً من العرب
قد عبد النار^(١) كما يبد وأن شمة مجوساً كانوا في بعض المناطق عندما بدأ
الاسلام ينتشر في أرجاء الجزيرة، ومن ذلك "عمان" و"البحرين" و"هجر"^(٢)،
وروى أن المجوسية كانت في تميم^(٣).

وقد ذكرت بعض المراجع أسماء بعض العرب اعتنقوا هذا المذهب منهم
"زرارة بن عدس التميمي" وابنه "حاجب بن زرارة" وهما من سادات تميم، ومنهم
"الأقرع بن حابس" و"أبو الأسود جند" و"كيعب بن حسان"^(٤).

كذلك اليمن لا يستبعد أن يكون بها بعض أشخاص اعتنقوا المجوسية إذ كان
للفرس دور كبير في طرد الأحباش من اليمن، وقد جاء الاسلام وفي اليمن جالية
من الفرس عرفوا فيما بين العرب بالابناء^(٥).

ومع ما سلف من ذكر للمجوسية بين العرب إلا أن أثر المجوسية في العرب كان
ضئيلاً جداً، ونعني بذلك من اعتقد المجوسية واتخذها ديناً له، وقد ورد أن
للعرب في جاهليتهم نيراناً كثيرة لا يستبعد تأثرهم ببعضها من المجوس فـ
الغالب، إذ هم عبّادها وخدمها، وقد كانت النصارى أيضاً توقد النار فـ
معابدها ولكنهم لم يعبدوها ولا عظموها وإنما زعموا أنهم أمروا بذلك، وقد أفاض
"الجاحظ" وأسهب كثيراً عن نيران العرب والعجم، وعن نيران الديانات وغير
الديانات، وعن عظمها وعن استهان بها، وعن أنفراط في تعظيمها

(١) بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب : محمود شكرى الألوسى : ٢٣٣/٢ .

ط ٣ - دار الكتب الحديثة - القاهرة .

(٢) فتوح البلدان : ٩٣ ، ٩٥ .

(٣) المعارف : ٦٢١ .

(٤) السابق : ٦٢١ .

(٥) انظر السيرة لابن هشام : المجلد الأول : ٦٨-٧٠، فتوح البلدان : ١٢٥ ،

حتى عبدها ^(١) ومن تلك النيران : نار القربان ، ونار الاستمطار ، ونار السافر ،
ونار الحرب ، نار الحرتين ، نار الصيد ، نار القرى ^(٢) ، وغيرها .

وينبغي أن يفهم أن المجوسية تحتوى على كثير من الفرق المتشابهة ، والتي
ترجع في جملتها الى الثنوية ، ومن ذلك : المانوية ، والزرادشتية ، والمزدكية
وغيرها ^(٣) .

(١) الحيوان : لأبى عثمان عمرو بن بحر الجاحظ : ٤ / ٤٦١ ، تحقيق عبد السلام
هارون . ط ٢ - ١٣٨٥ - مصطفى الحلبي - مصر .

(٢) نار القربان هي التي كانت لبنى اسرائيل كما أشار اليها القرآن ، في موضع
امتحان اخلاصهم ، وتعرف صدق نياتهم ، فكانوا يتقربون بالقربان . فمن
كان منهم مخلصا نزلت نار من قبل السماء حتى تحيط به فتأكله ، فاذا فعلت
ذلك كان صاحب القربان مخلصا في تقربه ، وستى لم يروها وبقي القربان
على حالة قصصوا بأنه كان مدخول القلب فاسد النية ، ومثلها ما يروى عن
النار التي يحتكمون اليها في اليمن . انظر السيرة : المجلد الاول : ٢٦ .
نار السافر : ويؤكدونها خلف السافر والزائر الذي لا يحبون رجوعه ، وكانوا
يقولون في الدعاء : أبعد الله وأسحقه وأوقد نارا خلفه .

نار الاستمطار : سيرد الحديث عنها في قسم العبادات من فصل أدب
الحنيفية بان الله .

نار الحرب : هي النار التي كانوا اذا أرادوا حربا ، وتوقعوا جيشا عظيما ،
وأرادوا الاجتماع أوقدوا ليلا على جبلهم نارا ليبلغ الخبر أصحابهم .

نار الحرتين : سترد معنا عند الحديث عن خالد بن سنان أحد الحنفاء .
نار الصيد : توقد للصيد لتعشى اذا أدامت النظر اليها ، وقد يوقدون
النيران يهللون بها على الأسد اذا أخافوها لانها تشغلها عن السابلة .

نار القرى : من النيران التي افتخريها العرب وهي التي ترفع للسفر
ولمن يلتس القرى ، فكلما كان موضعها أرفع كان أفخر .

(٣) انظر : الملل والنحل : محمد بن عبد الكريم الشهرستاني : ٢ / ٧٠ وما بعدها

على هامش الفصل في الملل والاهواء والنحل لابن حزم . ط ٢ - ١٣٩٥ -

دار المعرفة بيروت .

(د) الصابئة

يبدو أن هناك من العرب من كان على علم بأصحاب هذه الديانة، إذ نجد المشركين يبنزون من كان يدخل في الاسلام بالصابي. ومع ما تدلّ عليه لفظ الصابي من خروج من الدين المألوف عند قوم فقد ورد أن الصابئة "أهل دين من الأديان كانوا بجزيرة الموصل يقولون : لا إله إلا الله وليس لهم عمل ولا كتاب ولا نبي إلا قول لا إله إلا الله ... ولم يؤمنوا برسول فمن أجل ذلك كان المشركون يقولون للنبي وأصحابه : هؤلاء الصابئون ، يشبهونهم بهم ، يعنى فى قول لا إله إلا الله " (١) .

والمطلع على ما يروى عن تفسيرات لهذه الصابئة وتحديد دينهم يقف حائراً بين جملة من الآراء الكثيرة المتباعدة حتى يصعب الخروج منها بنتيجة مرضية تسدل على حقيقته هذه الطائفة وتصور لنا دينها . (٢)

وفي العصر الحديث ظهرت دراسات جادة أفاضت اللثام عن هذه الطائفة ، وقد أسهم فيها المسلمون والمستشرقون على السواء ، ومن خير ما تميزت به هذه الدراسات مشاركة بعض أبناء هذه الطائفة فى تقويم ما كتب عنها . (٣)

وقد تبين من خلال هذه الدراسات أن الصابئين " اسم لطائفة دينية قديمة جداً ، لا يزال لأتباعها بقية باقية فى "العراق" و"جنوب إيران" حتى يومنا هذا . ولا يزال لهؤلاء الاتباع قيم وطقوس وشعائر دينية خاصة ، ولغة وحروف أبجدية مستقلة ، وكتب مستقلة " . (٤)

(١) تفسير ابن كثير : ١٤٩/١ .

(٢) انظر فى ذلك تلبيس ابليس : ٧٤ ، ٧٥ ، تفسير البحر المحيط : ٢٣٩/١ .

(٣) انظر ذكر هذه الدراسات : الصابئة المندائيون : الليدى دراوو . ترجمة :

نعيم بدوى ، غضبان روى : (الكتاب الاول : ٤ ، ٥) ط ١٩٦٩ م ، مطبعة

الارشاد - بغداد .

(٤) الصابئون حرانين ومندائيين ، رشدى عليان : ١٦ ، ط ١٩٧٦ - دار

السلام - بغداد .

وسبب اختلاف العلماء - قد يما وحد يثا - يرجع الى الصعوبات التي تعترض البحث في هذا الموضوع ان " أن رجال الدين الصابئ يتكلمون على معتقدات دينهم حتى على معتنقى هذا الدين انفسهم ، ولا يقرّون علنيّتها بأى حال من الأحوال ، وأن المثقفين من أبناء هذه الطائفة يتهيّبون البحث في أمور الدين لعدم احاطتهم بها من جهة ، ولعدم معرفتهم الكافية باللغة التي دوت بها كتبهم الدينية من جهة أخرى ، فضلا عن أن الصابئين عموما يصطنعون التقية ، ويؤثرون العزلة والانزواء عن غيرهم من أهل الأديان الأخرى فلا يخالطونهم ولا يواكلونهم ما استطاعوا " (١)

ويذكر الرواة أن هناك من انتحل ديانة الصابئين كأهل " حران " في عصر " المأمون " مع أنهم ليسوا على دينهم ان هم يعبدون النجوم والكواكب (٢) وتشتبه كثير من شعائر الصابئة بما يوجد في الملل الأخرى المختلفة ، ولا يعرف دين من الأديان تخلو الصابئة من مشابهة له في احدى الشعائر (٣) وكل ذلك مما كشف الحجب دون حقيقة هذه الديانة .

وهم يعتقدون بالحي الأزلّى ، والثواب والعقاب ، وينكرون النبوة ، كما يرون أن للملائكة التي يسمونها (الروحانيات) تأثيرا على مصير الاحياء (٤)

وتدل الدراسات أن من أهم شعائر الصابئة الانغماس في الماء والاغتسال بكثرة منه ، ويسمّون ذلك " مصبته " أى التعميد . ويتوجهون في عبادتهم الى القطب الشمالى ، ولهم ثلاث صلوات فى اليوم يكفون بالقيام والركوع فيها ،

(١) الصابئون حرانيّين ومندائيّين : ١٧ .

(٢) انظر الفهرست : محمد بن اسحاق النديم : ٤٤٥ ، ٤٤٦ . ط . دار المعرفة

- بيروت .

(٣) موسوعة العقاد الاسلامية (المجلد الاول) - ابراهيم أبو الانبياء :

عباس محمود العقاد : ٤١٢ . ط . ١ (١٩٧٠ م) دار الكتاب العربى - بيروت .

(٤) الصابئة المندائيّون : ١٩ .

وهم يصومون بتحريم اللحم فقط عند ذلك ، كما اشتهر عنهم توقيع الكعبسة (١) .
 ومن أشهر فرقهم : أصحاب الروحانيات " المندائيون " وأصحاب الهياكل
 وأصحاب الأشخاص ، وأصحاب الحلول " الحرانيون " .
 وهناك من يرى أن الصابئة هم الحنفاء وستتضح هذه الرواية عند حديثنا
 عن الحنفاء بمشيئة الله .

(١) الصابئون : حرانيون ومندائيين : ٢٠، ٩٧ وما بعدها .

(هـ) عبادة الأصنام :

تعدّ عبادة الأصنام أشهر أديان العرب جميعا وكانها المعنوية عند ذكر دين العرب بصيغة عامة ، ويرجع ذلك الى كثرة عددها وسعة انتشارها . فالقبائل بأصنامها ونواحي الجزيرة - في الغالب - لا تخلو منها ، بل كل بيت له صنم خاص حتى " كان لأهل كل دار من مكة صنم في دارهم يعبدونه ، فاذا أراد أحد هم السفر كان آخر ما يصنع من منزله أن يتمسح به ، واذا قدم من سفر كان أول ما يصنع اذا دخل منزله ان يتمسح به أيضا " (١) . وازدحم عند الكعبة حتى كانت على ما قيل في جوف الكعبة وفي فنائمها ثلاثمائة وستون صنما (٢) .

وقد بلغ من عبادتهم هذه أن عبدوا الأحجار وفاعلوا بينها حتى جاء في الصحيح أنهم قالوا " كنا نعبد الحجر ، فاذا وجدنا حجرا هو خيرا منه ألقيناه وأخذنا الآخر ، فاذا لم نجد حجرا جمعنا حشوة من تراب ، ثم جئنا بالشاة فحلبنا عليه ثم طفنا به " (٣) وهم لا يتركونها في تنقلاتهم فاذا سافر أحد هم أخذ أربعة أحجار ، فنظر الى أحسنها فاتخذها ربا وجعل ثلاثة أثافي لقدره واذا ارتحل تركه لياخذ غيره (٤) . واستهترت العرب في عبادة الأصنام ، فمنهم من اتخذ بيتا ، ومنهم من اتخذ صنما ، ومن لم يقدر عليه ولا على بناء بيت نصب حجرا امام الحرم ، وامام غيره - مما استحسن - ثم طاف به كطوافه بالبيت وسموها الأنصاب (٥) .

وأصل هذه العبادة فيما يروى أنها تطورت ومرت بمراحل حتى وصلت الى صورتها التي جاء الاسلام وهي عليها ، وأن سبب ذلك انتشار بنى اسماعيل في الجزيرة وصبايتهم بالحرم وأخذهم من حجارته حتى لا ينسوه ويعظموه ويجهتدوا في العبادة ، ثم خلفت

(١) الأصنام : ٣٣ .

(٢) فتح الباري شرح صحيح البخاري : ٨ / ١٦٠١٥ " كتاب المغازي " .

(٣) السابق : ٩٠ / ٨ .

(٤) الأصنام : ٣٢ ، ٣٣ .

(٥) السابق : ٣٣ .

الخلوف ونسوا السبب الذى دفع أجدادهم الى تعظيمها فزين لهم الشيطان عبادتها
فعبدها. (١)

وهذا التعليل لظهور عبادة الأصنام مقبول ، وقد وقع مثله في قوم نوح حتى
عبدا والأوثان ، إلا أن الرّاجح أن العرب كانت على دين ابراهيم واسماعيل حتى بعد
بهم الزّمان وجاء عمرو بن لحي الخزاعي فكان أول من غير ذلك ، وقد جاء عنه صلى الله
عليه وسلم أنه قال : " إن أول من سبب السوائب وعبد الأصنام أبوخزاعة عمرو بن عامر ، واني
رأيت يجر أفعاء في النار " . (٢)

وتذكر المصادر من قصة ذلك أن عمرو بن لحي هذا ذهب الى الشام فرأى قوما
يعبدون الأصنام فسألهم عنها ، ثم طلب منهم أن يعطوه منها فجلبها الى الجزيرة
ودعا العرب الى عبادتها . (٣)

ويبدو أن الذى ساعد على استجابة هذا الأمر وقوى انتشاره ما كان يتمتع به ابن
لحي من مكانة رفيعة ان هو حاكم مكة وولي بيتها العتيق ، ويضاف الى ذلك ما يقوم به
من اكرام الحجيج ، فهنا ذبح أيام وفود الحجيج عشرة آلاف بدنه ، وكما عشرة
آلاف حلة ، ويطعم العرب الحيس ويبت لهم السوق ما جعل قوله وفعله فيهم كالشرع
المتبع لشرفه فيهم ومحلته عند هم وكرمه عليهم . (٤)

وبهذا لا يمكن الركون الى من يرى أن عبادة الاوثان عند العرب يمكن أن تكون
بقايا طوطمية (٥) بعد ما تبين دخولها الى جزيرتهم من ناحية بلاد الشام . ولعل من
ظهرت عليهم تلك الاصنام قد ضعفت في نفوسهم حنيفية ابراهيم لما تطاول عليها من
الزمان مما ثبتت هذه الأصنام وجعل الشيطان يحب اليهم عبادتها .

(١) السيرة النبوية لابن هشام : ٧٧/١ .

(٢) رواه أحمد : ٤٤٦/١ وانظر السيرة النبوية : لابي الحسن على السجستاني .

الندوي : ٦٥ ط ٣ (٤٠ هـ) - دار الشروق جده حيث خرج الحديث .

(٣) السيرة النبوية : المجلد الاول : ٧٧ .

(٤) البداية والنهاية : ١٨٧/٢ .

(٥) موسوعة التاريخ الاسلامي : د . أحمد شلبي : ١٦٥/١ ط ٨ - ١٩٧٨ م .

والشعر الجاهلي حافل بذكر كثير من أصنام الجاهليين ، فأوس بن حجر يقسم
باللات والعزى : (١)

وباللات والعزى ومن دان دينها وبالله إن الله منهم أكبر
وزهير يقسم بأنصاب الأقيصر : (٢)

حلفت بأنصاب الأقيصر جاهداً وما سحقت فيه العقاديم والقمل
وهناك ذكر للمعجوب وود ، وهما من أصنام العرب - وغيرها ، كما أن صور الأنصاب
والحلف بها كثير في الشعر الجاهلي . (٤)

والأصنام التي عرفها الجاهليون على اختلاف صورها وتباين موادها ، وما كان منها
حجراً أو شجراً لم تكن على درجة واحدة من التعظيم والتقدیس ، بل يفاضلون بينها ،
وبعضها لا يتم حجهم - فيما يرون - إلا بالتعبد لها والوقوف عندها كسائر الشعائر
الأخرى . وقد ورد أن الأوس والخزرج " كانوا يحجون ويقفون مع الناس المواقف كلها
ولا يخلقون رؤوسهم ، فإذا نفروا أتوا غناتاً وحلقوا رؤوسهم عنده وأقاموا عنده لا يبرون
لحجهم تماماً إلا بذلك " . (٥)

ومع كثرة الأصنام حول الكعبة وفي جوفها إلا أن هبل أعظمها عند قريش ،
فكانوا لا يضربون القداح إلا عنده ، وكان يصل قربانه إلى مائة بعير . (٦)

وقد كانت العرب تقوم بكثير من الأعمال والشعائر يتقربون بها لأصنامهم ، وقد
كانوا يتقربون لها بالذبح عندها وأداء الشعائر اليها ، حتى سبوا لها السوائب

(١) ديوانه : ٣٦ . تحقيق : محمد يوسف نجم - ط (١٣٨٠) دار صادر ، دار
بيروت .

(٢) هذه رواية كتاب الأصنام : ٣٠ ، ومثله تاج العروس : ٤٩٧/٣ ، ولم أجده
صدر البيت في ديوان زهير .

(٣) سحقت : حلفت ، العقاديم : جمع مقدمة . أي مقدمة الرأس والشعر الذي به
القمل .

(٤) انظر الصورة الفنية في الشعر الجاهلي في ضوء النقد الحديث : ٢٥ - ٢٧ .

(٥) معجم البلدان : ٢٠٥/٥ .

(٦) الأصنام : ٢٧ ، أخبار مكة : لابی الوليد الرزقي : ١١٧/١ - ١١٩ - تحقيق
رشدی الصالح ملحق - ط ٣ (١٣٩٨) دار الثقافة - مكة المكرمة .

والبحائر وحجوا إليها . وكانوا يسبحون ويصلون إليها كما استقسموا بالأزلام عند ها ،
 وكانوا يقفون لها الاوقاف ويسمون ابناءهم بعبيد ها كما أقسموا لها ونذروا لها .
 وربما جعلوا لها أعيادا يخرجون إليها يعظمونها ويتقربون إليها ويرزقونها في ذلك
 اليوم . وان اذبحوا القرابين عند ها لطخوا الاصنام بدائها حتى تبارك في أموالهم
 وتدفع المكروه عنها . (١)

والذى يفهم من القرآن الكريم ان عبادة الاصنام لم تكن لذاتها عند العرب ، وانما
 لتشفع لهم عند الله " والذين اتخذوا من دونه أولياء " مانعبد هم الا ليقربونا الى الله
 زلفى . . . (٢)

غير ان ذلك وان وجد فانه لا يمنع من وجود بعض من يرى في هذه الاصنام القدرة
 على الأمور العظيمة كشفا المرضى وجلب الخير ودفع الضر وغير ذلك ، والآيات القرآنية
 التى جادلت المشركين في أصنامهم تبين ذلك ، كما يؤكد ذلك ما كان يفعله أهل
 الأصنام عند ما دخلوا في الاسلام وامتنعوا من تكسير أصنامهم خوفا على انفسهم من مغبة
 ذلك العمل .

ونجد في تاريخ العرب بعض حوادث ظهر فيها الاستخفاف بالأصنام وعـدم
 الاهتمام بها ، ومن ذلك ما حدث للذى استقسم عند (نى الخلصة) لياخذ بشأرا
 ابيه ، فخرجت القداح تنهـاء عن ذلك ، فسب ذا الخلصة وبطشه وقال :

لو كُنْتُ يا ذا الخلص الموتورا مثلي وشيخك المقبورورا
 لم تنه عن قتل العداة زورا (٣)

ومثله ما حدث عند (سعد) وقد آتاه رجل بابله حتى يمن عليها بالبركة والكثرة
 فلما نفرت من الصنم ابله غضب عليه وسبه ورماء وقال : (٤)

(١) أدیان العرب فی الجاهلیة : ١٥٩ - ١٦٢ .

(٢) الزمر : ٣ .

* انظر فی ذلك آية (١٤) من سورة (فاطر) وكذلك آية (٢٨) الأحقاف .

(٣) الاصنام : ٢٢ ، ٣٥ ، ديوان امرئ القيس : ٤٦٠ .

(٤) السابق : ٣٧ ، الملل والتحل للشهرستاني : ٢٢٢ ، ٢٢٣ .

أَتَيْنَا إِلَى سَعْدٍ لِيَجْمَعَ شَعْلَنَا فَشَتَّتْنَا سَعْدٌ فَلَا نَحْنُ مِنْ سَعْدٍ
وَهَلْ سَعْدٌ إِلَّا صَخْرَةٌ بَتَفُوقَةٍ مِنَ الْأَرْضِ لَا تَهْدِي لَفِي وَلَا تُرْشِدُ

ومن هذه الظواهر وامثالها يبدو لنا عمق هذه العبادة في نفوس العرب وانها لم تكن عميقة في نفوس بعضهم وذلك ما دفع بعضهم الى الشك فيها ، ولعل ذلك أخذ يغشو قبل البعثة النبوية . " والدلائل تشير الى ان الوثني في الجاهلية على العموم لم يكن يتمسك في دينه بعبقيدة نابعة من شعور ديني عميق ، أو عاطفة روحية شديدة ، قائمة على عقل سديد ، أو تفكير سليم ، وإنما هي عادات تأصلت في نفوسهم تقليدا لغيرهم أو تسكا بسلوك آبائهم وأجدادهم السابقين " (١)

ولا يحسب أحد أن " سراب العبادة المكية ما " ، فقد كانوا يقيمون الحج ويحشدون الأصنام ويزينون الكعبة بتهاويل الآلهة وتساوير الأنبياء . ويقدمون القرابين ويطعمون الحجاج ويسقونهم ويرفدوهم ويحونهم لا حثا في دج أعين الأرباب والأصنام ، ولا ايمانا بقوتها ولا ثقة باستجابتها للدعاء ، ولكن فعلوا ذلك وغيره بقصد التجارة بالدين ، وجلبا للمنافع المادية ، لأن تجارتهم تدور حول موسم الحج والاعمال التي تسبقه وتلحقه والاسواق التي تصحبه أو تتلوه " (٢)

ويضاف الى ما سبق للعرب من عادات ما يدل على من عبد منهم الملائكة والجن والكواكب ، فكانوا يعتقدون أن الملائكة بنات الله ، فيتخذونهم شفعا لهم عند الله ويعبدونهم قال تعالى " ويوم نحشرهم جميعا / نقول للملائكة أهؤلاء اياكم كانوا يعبدون قالوا سبحانك أنت ولينا من دونهم بل كانوا يعبدون الجن اكثرهم بهم مؤمنون " (٣)

واتخذوا من الجن شركا لله وآمنوا بقدرتهم وتأثيرهم حتى قال الرواة " كانت بنو طليح من خزاعة يعبدون الجن " (٤) . أما عبادة الكواكب فقد كانت حمير تعبد الشمس وكنانة القمر وتميم الدبران . ولخم وجذان المشتري ، وطى سهيلا ، وقيس الشعري العيور ، وأسد عطارا " (٥)

(١) تاريخ الادب الجاهلي : د . علي الجندى : ١ / ١١٢ . ط ٣ (١٩٦٩ م) مكتبة الانجلو المصرية .

(٢) الاديان في القرآن : د . محمود بن الشريف : ٤٥ ط ٣ (١٩٧٩ م) دار عكاظ للطباعة والنشر - جدة .

(٣) سبأ : ٤٠ (٤) الأصنام : ٣٤ .

(٥) طبقات الامم : صاعد الاندلسي : ٤٣ . المطبعة الكاثوليكية ١٩١٢ م بيروت .

الباب الأول

الحنفاء

الفصل الأول : حول معنى الحنفاء

الفصل الثاني : الحنفاء

الفصل الاول

(أ) حول معنى الحنفاء :

لما كان هذا البحث يتخذ من الحنيفة أساسا له ومحورا يدور حوله ، وكان ثمة أناس نسبهم الرواة بحق أو بغير حق الى هذه الحنيفة ، وكانوا بذلك خير ممن تمسك بها وأخذوا بها في حياتهم في العصر الجاهلي ، وجب علينا الوقوف على ذلك ، ومعرفة هذه الحنيفة في تصورهم ، وطرفا من حياة هؤلاء الأشخاص الذين انتسبوا اليها فكل ذلك بالاربع يساعدنا على دراسة هذه الحنيفة وفهم جوانبها .

وقد أمأنا فيما سبق من هذا البحث الى معنى الحنيفة ، وقد تبين لنا ثمة عددا من الآراء المتباينة حول معنى الحنيفة ، وانتهى بنا الامر على أن الحنيفة : ملة ابراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام وهي الاسلام الذي جاء به خاتم الرسل محمد صلى الله عليه وسلم .

وقد كان من السهولة أن نقول هنا إن الحنيف هو من دخل في هذه الملة ودان بها ، وإن الحنفاء هم الذين دانوا وتعبدوا بهذه الملة أيضا ، ولكن الواقع وما بين أيدينا من نصوص لا يسلم لنا أو يسمح بذلك بمثل هذه البساطة ، ذلك لأن الزمن الذي جاء فيه ابراهيم واسماعيل وانتشرت بعده الحنيفة يبعد كثيرا عن عصر الجاهلية التي بعث في آخره محمد صلى الله عليه وسلم ، وفي هذه الفترة الزمنية الطويلة ، ضعفت تلك الملة وجاء من أدخل عليها الشرك الذي طمس بعض معالمها مع تعاقب العصور ، فمادام بقي من هذه الملة حتى يدخلها من يدخلها بعد هذه الاحداث ؟

وهناك امر آخر يضاف الى ذلك وهو صعوبة التوصل الى معنى محدد لهذه الحنفاء عند المؤرخين وعدم الجزم بتحديد معالم ما يمكن أن نسميهم الحنفاء نظرا لغموض الكثير من اخبارهم ، وعسر الاستنتاج من ما نجد من أقوال عنهم هي لا تخلو من التعارض في كثير من الاحيان .

مناء على ذلك فلا بد من دراسة ما قيل عن من سمووا بالحنفاء — في رأي — أن إن ذلك بالاربع يقودنا الى معرفة من يكون هؤلاء الحنفاء ؟

وأول ما يتبادر لنا وأحب البدء به — هو الزمن الذي عاش فيه هؤلاء الحنفاء ،

فليس سهلاً أن نحصرهم في حقبة واضحة تبدأ وتنتهي بسنين معينة ، وقد عدا المسعودي من ذكر من الأحناف أنهم من أهل الفترة التي بين عيسى ابن مريم ومحمد عليهم الصلاة والسلام^(١) ، ولا شك أنها حقبة واسعة تقدر بستة قرون تقريباً ، كما سبق أن بينا ذلك ، ولكن الملاحظ أن أكثر من ذكر من الأحناف عاشوا في الجاهلية قبيـل مبعث الرسول صلى الله عليه وسلم ، ومن هؤلاء من مات ولم يدرك الرسول (صلى الله عليه وسلم) ولم يره وإنما أدركه بنوه^{بنـت} من ذلك مثلاً خالد بن سنان التي جاءت إلى الرسول عليه الصلاة والسلام وبسط لها ثوبه^(٢) ، ومن ذلك أيضاً كعب وبجير ابننا زهير بن أبي سلمى اللذان أدركا الرسول وأسلموا وغيرهم .

ومنهم من أدرك الرسول وراه وكلمه كأبي عامر بن صيفي — المعروف بالراهب لأنه قد تهرب في الجاهلية وليس المسوح — الذي قدم المدينة وسأل الرسول عما جاء به^(٣) . وقد أدرك زيد بن عمرو بن نفيل الرسول أيضاً وكلمه^(٤) ، ولكن إدراك زيد له صلى الله عليه وسلم كان قبل البعثة ، وقريب منه ورقة الذي تدل المصادر أنه كان حياً عند بدء نزول الوحي ، وذلك عند سؤال خديجة له عما حدث للرسول عليه الصلاة والسلام ومن هؤلاء من أدرك الإسلام ودخل فيه ويعد من الصحابة كأبي قيس صرمه بن أبي أنس^(٥) ، ومثله لبید بن ربيعة^(٦) والناطقة الجعدى^(٧) .

و لا شك أن من هؤلاء الأحناف من تقدم به العهد عن مولد المصطفى عليه الصلاة والسلام ومبعثه بما يزيد على القرن كأسعد أبو كرب الحميري .

(١) مروج الذهب ١/٧٨ ، المسعودي . تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ط دار الاندلس

(٢) البداية والنهاية ٢/٢١١

(٣) مجمع البيان (٩/٦٤٤ و ٣/٥٠٠)

(٤) فتح الباري شرح صحيح البخاري : ١٠٨/٧ " باب الذبائح " ما ذبح على النصب والأصنام "

(٥) الإصابة ٣/٤٢٢ (٤٠٦٥)

(٦) الإصابة ٥/٦٧٥ ، ٦٨٠ (٧٥٤٧)

(٧) السابق ٦/٣٩١ (٨٦٤٥)

و اذا أردنا أن نتبين العلة في تجنب ما كان ما عليه مجتمعهم و بروز نزعة التحنّف فيهم تبين لنا كما أسلفنا القول أن عددًا غير قليل من الأنبياء حملوا الاسلام في ارجاء الجزيرة و عملوا على نشره ، و قد كان ابراهيم و اسماعيل أهم و أشهر من أخذت و عرفت عنه العرب الاسلام و انتشر في جزيرة العرب ، و نحن نعلم أيضًا ان الشرك و عبادة الاصنام عند ما ظهرت و انتشرت لم تطمس كل شيء من تلك الديانة بل بقي بعض الشعائر و ظهر التحريف في بعض آخر و نسي و طمس أجزاء أخرى .

ولا نزال نذكر أيضًا أن اليهودية انتشرت في بعض مناطق من الجزيرة و مثلهم — النصرانية ، و لا ريب أن من أتباعها من كان يحمل العقيدة الصحيحة ، و قد كانت النصرانية أوسع انتشارًا و أكثر تأثيرًا من اليهودية ، و لا ريب كذلك ان لكل من الديانتين تأثيرًا في تعريف هؤلاء الحنفاء الدين الصحيح و البعد عن الخرافات و دين الاساطير و بيد و لى أن هناك أمرًا ثالثًا لا يقل عن سابقة ساعد على معرفة زيف الوثنية و الدعوة الى الحنيفية الا و هو العقل ، اذ تدل سير بعض من منهم أنهم أعلموا عقولهم و لم يكونوا مقلدين ، و قد استغلوا فطرتهم السليمة فقادتهم الى معرفة الحق من الباطل .

و معلوم أن الفطرة السليمة اذا نجت من عوامل الغواية و الاضلال تقود صاحبها الى الحق و بالرغم من هذه المشاغل الهداية التي ساعدت على ظهور الحنيفية ، و على اضاءة الطريق لأهلها لم تستطع تلك المشاغل القضاء على الظلمات و الجهالات التي كانت سائدة في العصر الجاهلي بجانب عبادة الاوثان اذ لا شك أن مجتمع الجاهلية السدى بعث فيه رسولنا محمد صلى الله عليه و سلم — كان به الكثير من قبيح الأعمال و سوء الفعال من ذلك الاسراف في شرب الخمر و تفشى الزنى و لعب القمار و عبادة الاوثان و وأد البنات و غير ذلك .

على أننا لا نستطيع تعميم كل هذه القبائح على العرب كافة اللهم الا عبادة الأصنام بشيء من العجز اذ ان الحنفاء كان تركهم عبادة الاصنام من أهم ما خالفوا به الجاهلييه و قد اشبه موقف الحنفاء موقف المصلحين و الدعاة فيهم " من هذا الطراز الذي يريه اصلاح الاوضاع و رفع مستوى العقل ، فمنهم جماعة ضد الاوضاع الاجتماعية السائدة في

أيامهم لأنها في نظرهم أوضاع مؤخرة تمنع الإنسان من التقدم ومن ادراك الواقع ، وقد رأت ان العقل لا يقر التقرب الى أحجار و الى التبرك بها والذبح لها ، لأنها حجارة لا تعى ولا تفهم و ليس فى إمكانها أن تسمع أو تجيب لذلك نفرت منها (١) .

وقد جاء أن من العرب من لم يرض بعبادة الأصنام بل سخر منها و من يعبد هـا اذ هى لا تملك لنفسها شيئاً فكيف تملك شيئاً من أمر غيرها . وقد ورد أن عمرو بن عبسة ابن عامر بن خالد السلمى رغب عن الهبة قومه . . . و رأى أنها . . . باطلة لا تنفع ولا تضر (٢) . ولا شك أن الحنفاء قد شكوا فى عبادة الاصنام و رأوا ان ذلك لئدعى شيئاً من الدين الصحيح و اجتمع نفر منهم على ذلك .

جاء فى السيرة النبوية : " اجتمعت قريش يوماً فى عيد لهم عند صنم من أصنامهم كانوا يعظمونه وينحرون له ، و يعكفون عنده ، و يدسرون به و كان ذلك عيداً لهم فى كل سنة يوماً ، فخلص منهم أربعة نفر نجياً ، ثم قال بعضهم لبعض : تصادقوا و ليكنكم بعضكم على بعض ، قالوا : أجل . و هم ، ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى و عبید الله بن جحش . . . و عثمان بن الحويرث . . . و زيد بن عمرو بن نفيل . . . فقال بعضهم لبعض : تعلموا و الله ما قومكم على شئ . لقد أخطأوا دين أبيهم ابراهيم ما حجر نظيف به لا يسمع و لا يبصر و لا يضر و لا ينفع ، يا قوم التمسوا لانفسكم فانكم و الله ما أنتم على شئ ، ففرقوا فى البلاد ان يلتمسون الحنيفة دين ابراهيم " (٣)

إن الذى يفهم مما حدث فى هذا العصر من شكوك فى عبادة الاوثان ، و ما تعدى ذلك من حوادث تحطيم بعض الأصنام و عدم المبالاة بها ليد لنا على أن الوثنية كانت على وشك الانحلال ، و لم تعد كافية للاقتناع بعبادتها ، و ذلك واحداً ببعض العرب و على رأسهم الكثير من هؤلاء الحنفاء عن البحث عن دين أفضل و معبود أحق بالعبادة من تلك المعبودات .

و الذى يفهم من أخبار الحنفاء أيضاً أنهم جاسوا الديار و قطعوا الفياقى و تحملوا

(١) الفصل فى تاريخ العرب قبل الاسلام ٤٥٧/٦

(٢) أنظر هذا فى قصته و خبره الاستيعاب ٤٩١/٢ ، الاصابة : ٦٥٨/٤ (٥٩٠٧)

(٣) سيرة ابن هشام ٢٢٢/١ ، ٢٢٣ .

أعباء السفر ، وقد وصلوا الى أماكن كثيرة فجمعهم الى تلك الأسفار البحث عن الدين الصحيح الذي يرتضونه ويريدون الدخول فيه وهود بين ابراهيم .

ومن أمثله سفر هؤلاء ما ذكره بن هشام بعد أن ذكر قصة الذين اجتمعوا يوم عيد قريش ورأوا ان قومهم ليسوا على شيء ، وكانوا أربعة رجال ثم قال : (٠٠٠) وأما عثمان بن الحويرث (أحد المجتمعين الأربعة) فقدم على ملك الروم فتنصر (١) وهذا زيد بن عمرو بن نفيل يخرج الى الشام والبلقاء يسأل عن الدين ويتبعه (٢) ، ومن أشهر هؤلاء الحنفاء ضربا في الأرض أمية بن أبى الصلت الذي تدل كثير من أخباره على تنقله وكثرة أسفاره وان كنت لا أستبعد أيضا أن وراء أسفاره هذه أمر آخر فهو شاعر ، ومن شأن أكثر شعراء عصره التكسب بالشعر ومدح الملوك وذوى الجاه من الناس ، وقد ورد أنه مدح عبد الله بن جدعان (٣) أحد أجواد الجاهلية ، كما زعم بعض المؤرخين أنه مدح ملك اليمن سيف بن ذي يزن في قصيدة ذكر فيها قصة سيف بن ذي يزن واستنصاره بقيصر وكسرى حتى ملك اليمن (٤) فهو اذا : قد سافر ومع تكسبه بشعره أو سفره لتجارته تدل أخباره أيضا أنه يبحث عن الحنيفية ، ومع أنه ثقف من الطوائف فقد سافر الى اليمن كما سبق وتردد كثيرا الى مكة ، ورجل الى الشام وكان له اتصال بالرهبان والأخبار (٥) .

وتدل بعض الأخبار على كثرة أسفار بعض هؤلاء ومخاصة أمية وزيد وسؤالهم فسي تلك الأسفار ، جاء في طبقات ابن سلام : " ٠٠٠ ان أمية مر يزيد بن عمرو بن نفيل

(١) السابق ٢٢٤/١

(٢) عدة القارى شرح صحيح البخارى بدر الدين أحمد المعينى : ٢٨٦/١٦

ط (المطبعة المنيرية - بيروت) ، مجمع البيان ٢٥٢/٧ ، ١٣٧/١٤ .

(٣) البداية والنهاية ٢١٧/٢ .

(٤) الشعر والشعراء ٣٦٩/١

(٥) البداية والنهاية ٢٢١/٢ ، ٢٢٢ .

أخى عدى بن كعب ، وكان قد طلب الدين فى الجاهلية هو وورقة ، فقال له
أمية : يا باغى الخير هل وجدت ؟ قال : لا ، ولم أوت من طلب ، قال أبى
علماء أهل الكتاب الا أنه منا أو منكم أو من أهل فلسطين (١) ، ويد ومن هذه
الحادثة انها جاءت بعد ما تبين لبعض هؤلاء الحنفاء أنه سيبعث نبي يحمل الدين
الصحيح مما علم من أهل الكتاب .

واذا انتقلنا لنرى الدين الذى يبحث عنه هؤلاء الحنفاء ، وهل لنا أن نفهم
أنهم كانوا على ديانة معينة ، أو أنهم اختلفوا فى ذلك ؟

وما أطلقه المؤرخون على هذه الفئة بصفة عامة كان موهوماً وغير واضح فى بعض
الاحيان ومع ذلك فلانكر قيمة هذه المعلومات ومدى الاستفادة منها .

قد وصفهم ابن الجوزى : (بمن كان يقر بالخالق والابتداء والاعادة والثواب
والعقاب) ثم ذكر عدداً منهم (٢) ، وسماههم ابن حبيب " بالذين رفضوا عبادة
الاشوان (٣) وذكر اكثرهم ممن حرم فى الجاهلية الخمر والسكر والازلام (٤) ، وقد جاء
ذكرهم عند ابن قتيبة بأنهم من كان على دين قبل مبعث النبى - صلى الله عليه وسلم ،
ثم ذكر عدداً منهم (٥) ، وقد سماهم الالوسى بالموحدين من العرب (٦) ، وقال
الشهرستانى (٧) : (ومن العرب من كان يؤمن بالله واليوم الآخر ينتظر النبوة ،
وكان لهم سنن وشرائع) والذى اشتهروا به وتداوله الكتب متعارف عليه فى الغالب
قدما وحديثا ان يطلق عليهم الحنفاء - على قدر ما اطلعت عليه - وقد يقال المتألهون .

(١) طبقات فحول الشعراء ٢٦٣/١

(٢) تلبيس إبليس : ٦٣ ، ٦٤

(٣) المخبر : ١٧١ ، ١٧٢

(٤) السابق : ٢٣٧

(٥) المعارف : ٥٨ - ٦٢ .

(٦) بلوغ الارب : ١٩٦/٢

(٧) الملل والنحل لشهرستانى : ٢٥٠/٢ ، تحقيق د . محمد فتح الله ، ط

الحلبى - القاهرة .

والذى يستشف من اخبارهم انهم ليسوا على دين واحد - ان جاز لنا ان نسمى
مذبههم الذى أخذ به اكثرهم ديناً - وسيتضح لنا ذلك عند الحديث عن أفرادهم فيما
سيأتى ان شاء الله .

وفهم من كلام الرواة أن بعض هؤلاء الحنفاء كانوا نصارى مثل ورقة بن نوفل ، أى على
عكس ما يذكره الرواة أنفسهم من أن هؤلاء كانوا قد تجنبوا اليهودية والنصرانية متبعين
ديانة ابراهيم ، والظاهر ان الرواة قد اشتبه عليهم الأمر فخلطوا فى بعض الاحايين
بين النصرانية وبين هؤلاء الذين أنكروا عبادة الاصنام واعتقدوا التوحيد (١) .

والمشهور من أمر هؤلاء انهم عندما مالوا عن الوثنية الجاهلية كانوا يرغبون فى
البحث عن ملقة ابراهيم كما جاء فى السيرة (٢) ، وكما هو واضح من قصة زيد بن عمرو بن
نفيل - كما سيأتى - ولكن من المؤرخين من نص على أن منهم من دخل النصرانية
وميز بينها بين من دخل النصرانية ومن لم يدخلها منهم ، من ذلك أن
(عثمان بن الحويرث بن اسد بن عبد العزى ، تنصر مات على النصرانية ، و (ورقة)
ابن نوفل بن اسد بن عبد العزى تنصر واستحكم فى النصرانية وقرأ الكتب مات عليها ،
وزيد بن عمرو بن نفيل لم يتنصر ولم يتهود ، و (عبيد الله بن جحش)
ابن رغب الاسدى ثم الغنمى حليف بنى أمية اسلم وهاجر الى الحبشة فقرأى النصارى
هناك فأعجبته النصرانية فتنصر مات عليها) (٣) .

واذا كان هذا النص أفادنا بديانة هؤلاء فان من الحنفاء من لا نستطيع الجزم
بنصرانية او حنيفية وان ذكرناه منهم ، كوكيع بن سلمة بن سلمة ، وعبيد بن الابصر
مثلاً ، كما ان منهم من لم يدخل فى دين معين ولكنه سخر من عباد الاصنام وقى على
حالته حتى مات وهؤلاء هم الذين كانوا ينتظرون ظهور النبی فيما علموا من ذلك .

وأغلب الظن ان اسعد ابو كرب الحميرى كان على اليهودية فيما ورد من أخباره وأنه
الذى أدخل اليهودية الى اليمن .

(١) المفصل فى تاريخ العرب قبل الاسلام : ٦ / ٤٦١

(٢) السيرة النبوة لابن هشام : ١ / ٢٤٣

(٣) المحابر : ١٢١ ، ١٢٢

واذا أردنا أن ندقق النظر في هذا اللبس في ديانة هؤلاء الحنفاء فإن القرآن فيما يتضح من آياته يدل على أن الحنيفية مخالفة لليهودية والنصرانية ، كما قال تعالى (وقالوا كونوا هودا أو نصارى تهتدوا قل بل ملة ابراهيم حنيفا وما كان من المشركين) (١) والمعروف عن أهل الكتاب أنهم حرقوا الكثير مما جاءهم به انبياءهم حتى أن اليهودية والنصرانية التي كانت في العصر الجاهلي لا تخلو من شرك كما استدل على ذلك بعض المفسرين من الآية السابقة (٢) ، وكما أشار القرآن : (وقالت اليهود عتبر ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله . . .) (٣) ، ومادامت الحنيفية على هذا مخالفة لليهودية والنصرانية فالذي يترجح لنا أن هؤلاء الحنفاء كانوا على ديانة ابراهيم وأرادوا البحث عنها والاقتداء بها ، وأن من دخل منهم في النصرانية لم يعتقدهما فيها من الشرك كنبوة عيسى وغيرها ، وقد رد ابن حجر - رحمه الله - على السهيلي الذي توهم ذلك في ورقة بن نوفل فقال : (أما ما تحلل له السهيلي من أن ورقة كان على اعتقاد النصارى في عدم نبوة عيسى ودعواهم أنه أحد الاقانيم ، فهو محال لا يعرج عليه في حق ورقة وأشباهه ممن لم يدخل في التبديل ولم يأخذ عن بدل) (٤) . ولعل في تنصر بعض الحنفاء ما دعا الأب ليس شيخوان يظن أن الحنفاء فرقتهم من فرق النصارى ليبالغ في سعة النصرانية وتغلغلها بين العرب . (٥)

(وقد عدَّ بعض المستشرقين الحنفاء شيعة من شيع النصرانية ، ودعاهم نصارى عربا زهادا كيفوا النصرانية بعض التكليف ، وخلطوا فيها بعض تعاليم من غيرها . وقد استدلوا على ذلك بما ورد في بعض الأشعار الجاهلية من مواضع يفهم منها على تفسيرهم أن المراد بهم شيعة من شيع النصرانية ، غير أن القرآن الكريم نص صراحة صريحا على أن الحنفاء لم يكونوا يهودا ولا نصارى ، وأنهم ينتمون في عقيدتهم إلى

(١) البقرة : ١٣٥

(٢) الفخر الرازي في التفسير الكبير : ٨٠ / ٤ ، روح المعاني : ٣٩٣ / ١ ، ٣٩٤

(٣) سورة التوبة : ٣٠

(٤) فتح الباري ١ / ٢٩ (ط الحلي)

(٥) مجلة المشرق مجلد ١٥ / ٥٤٦

ابراهيم . ثم إن الاخباريين وان ادخلوا في الاحناف أناسا نصوا على أنهم كانوا نصارى ، الا أنهم نصوا في الوقت نفسه نصا صريحا على ان البقية الباقية ، كانت واقفة مالم تدخل في يهودية ولا نصرانية اذ وجدت في كل من الديانتين أمورا جعلتها تنزيت ، فلم تدخل في احدهما ومقت مخصصة لسنة ابراهيم ، لذلك فلا يمكن اعتبار الأحناف نصارى خلاصا او شيعة من شيع النصرانية (١) .

وأكبر الظن ان الذي حال بينهم وبين الدخول في اليهودية أو النصرانية أنهم رأوا فيهما تحريفا وانهما لا تخلوان مما لا يقدره العقل السليم ولا ترتاح له الفطرة النقية .

ان ما وجد عند هؤلاء مما يشابه النصرانية كلبس المسيح ، والسياسة فـسـى الارض بحثا عن الدين ، والعيش في مناطق منعزلة عن الناس وما شابه ذلك من أعمال الرهبان لتوحى بأن بعضا من الحنفاء تأثروا بالنصرانية ، وغير مستبعد أن منهم من ظن أن ذلك من الحنيفية التي يريدونها .

وكمثال على هذا التأثير ماورد أن أبا عامر الراهب قدم المدينة ورأى الرسول — صلى الله عليه وسلم — وكان (ابو عامر) قد تهرب في الجاهلية ولبس المسحوق (٢) وكذلك أمية .

وأما السياحة في الارض بحثا عن الدين فمعروف ومشهور عن أكثرهم وخاصة أمية بن أبى الصلت وزيد بن عمرو وعبيد الله بن جحش وعثمان بن الحويرث وغيرهم ، وقد ورد أن وكيع بن سلمة بن زهير اليماني بنى صرحا بأسفل مكة يعتزل فيه هزيم أنسه يتاجى الله (٣) .

(١) المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام : ٤٥٦/٦

(٢) تفسير الطبرسي (مجمع البيان) : ٥٠٠/٣ ، ٦٤/٩ ، وانظر تاريخ الطبري ٥١٢ ، ٥١١/٢

(٣) المجمر : ١٣٦ ، بلوغ الارب ٢٦٠/٢

و مع ما قيل عن هذه الفئة من الناس فإنه ينبغي ألا يتصور أنهم كانوا جماعة متحدة
أو منظمة يمكن أن تنضبط وتعيش على أسس وأراء متحدة يجتمعون عليها .

فالواقع أنهم كانوا فئة من الناس مفرقة في قبائل متعددة ومنهم من لم يعلم عن بعض كما
أن منهم من تعاصروا وتعارفوا وهذا واضح فيمن عاش منهم في مراكز المدنية أو ما يشبه
المدن التي تعد أكثر حضارة من البادية كمكة ويثرب والطائف .

وقد رد بعض الباحثين على المستشرق (شبرنكر) الذي ظن أن الحنفاء طائفه
دينية منظمة (١) إذ أن ذلك لا يمكن تصوره بما ظهر لنا من أخبارهم ولا نستطيع
استنتاجه من تلك الأخبار المبعثرة .

ومما يسترعى النظر في أمر الحنفاء أن جلهم كانوا يتقنون القراءة ويحسنون الكتابة
وليس هذا فحسب ، بل إن منهم من كان يجيد بعض اللغات الأخرى قراءة وكتابة ،
ولا مشاحة أن ذلك يؤخذ مما ورد في أخبارهم إذ قد ساحوا في البلاد واختلطوا بأهل
الكتاب ، ولعلمهم ، تعلموا عنهم اللغات الأخرى ، وأفادوها من تلك الأسفار ، وخاصة
معايشتهم للوهبان وسؤالهم إياهم ، ولا ريب أن من كان أمره البحث ، وقراءة بعض
الكتب الأخرى بحثا عن الدين أو غيره سيكون له بلا ريب نصيب من المعرفة يرتفع به كثيرا
عن عامة أهل عصره .

ومما يدل على معرفتهم بالقراءة والكتابة ما ورد أن سويد بن الصامت قدم مكة حاجا
أومعترا ، وتصدى له الرسول صلى الله عليه وسلم — ودعاه إلى الله ، فقال سويد :
لعل الذي معك مثل الذي معي ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " وما الذي
معك ؟ " قال : مجلة لقمان ، وقد أخبره الرسول أن ما جاء به خير له مما في تلك
المجلة وهي حكمة لقمان (٢) . .

(١) د . جواد على (المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام) : ٤٥٨/٦

(٢) تاريخ الإسلام وطبقات المشاهير والأعلام الحافظ محمد بن أحمد الذهبي

١٩٠/٢ . تحقيق حسام الدين المقدسي . ط ١ - المدنى - القاهرة .

ومن هذا يتبين أن سويدا هذا كان يصطحب معه تلك المجلة ليأخذ ويفيد مما فيها بالقراءة . ومن كان يقرأ ويكتب أمية بن أبى الصلت^(١) والذي يدل من أخباره وما ينسب اليه من أشعار أنه كان كثير الاطلاع على الكتب التى تتحدث عن الدين ، والذي يفهم من قصة عامر بن الظرب مع الملك الفسانى أنه كان يعرف القراءة فسى الكوز التى معه (٢) وكان قسرين ساعدة كاتباً (٣) .

ومن ورد أنه كان يؤمن بالله ويحسن الكتابة لبيد بن ربيعة الشاعر المخضرم ، وقد كان عمر بن الخطاب أرسل اليه يطلب منه أن يكتب ما قاله فى الاسلام من الشعر ، فانطلق لبيد الى بيته فكتب سورة البقرة فى صحيفة ثم أتى بها ، فقال : أبدلنى الله هذه فسى الاسلام مكان الشعر (٤) .

وخير من يمثل الذين كان لهم علم بلغة أخرى قراءة وكفاية ورقة بن نوفل ، وقد جاء فى صحيح البخارى فى (باب كيف كان بدء الوحي الى رسول الله صلى الله عليه وسلم) ما نصه : (. . . فانطلقت به خديجة حتى أتت ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى بن عم خديجة ، وكان امرأ تنصر فى الجاهلية ، وكان يكتب الكتاب العبرانى فيكتب من الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب) (٥)

وتأسيساً على هذا يمكن القول ان هؤلاء الناس كانوا من طبقة المثقفين فى عصرهم

(١) المعارف : ٢٨ ، الأغانى ١٢١/٤ - ١٢٢

(٢) جاء فى المعمرين لابی حاتم السجستاني ص ٤٨ ، ٤٩ ، قول عامر للملك الفسانى (ان لى كنز علم وان الذى أعجز من علم . انما هو من ذلك الكنز أحتذى عليه وقد خلفه خلفى . . .) وانظر مصادر الشعر الجاهلى د . ناصر الدين الأسد : ١٦٥ ، ١٦٦ ط ٨ (١٩٨٢م) دار المعارف بمصر .

(٣) مصادر الشعر الجاهلى : ١٦٥ ، ١٦٦

(٤) خزانة الأدب : ٢٤٧/٢ ، ٢٤٨ .

(٥) عدة القارى ٤٦/١ ، ٤٧

ولا ريب أنه لولا تلك الثقافة التي تساعد العقل على معرفة الحق وإتارة السبيل لما كان لهم أن يذهبوا إلى هذا المذهب الذي خرجوا به على عامة ^{أهلهم} ~~أهلهم~~ ، ولا يظن بأناس من هؤلاء وأكثرهم من الشعراء والخطباء والحكماء أن يكونوا من سواد الناس وعوامهم ، ولولا اقتناعهم بمهادتهم إليه ^{قطيعة} ~~قطيعة~~هم ، السليمة وثقافتهم الواسعة لما كان لهم أن يقفوا مخالفين لعامة الناس في ذلك الزمان ، بل ولا أستبعد قدرتهم على إقناع غيرهم فيما يذهبون إليه ، مع علمهم بما يدور في عصرهم من آراء وأحداث .

وبمناسبة الحديث عن الكتابة في العصر الجاهلي بين هذه الطائفة ، فنحن نذهب إلى وجود القراءة والكتابة في العصر الجاهلي وليس العرب كما ظن بهم أنهم أمة أمية تماماً وهذا يتفق بالريب مع ما ذهب إليه أحد الباحثين المعاصرين عندما قال " وقد كان أكثر هؤلاء الذين كانوا على دين في الجاهلية يحسنون الكتابة " (١) .

ولا ريب أننا نعلم أن أكثر العرب كانوا لا يقرءون ولا يكتبون ولكن مرادنا أن القراءة والكتابة معروفة لديهم وبإمكانهم أن يجدوا بينهم من يكتب لهم عندما يحتاجون كتابة أمر من الأمور وليست أميتهم على تلك الفخامة التي ترد عن بعض المؤرخين وربما بالغ فيها بعض المستشرقين .

ومع ما ذكر من عدم تحديد المؤرخين لمذهب هؤلاء الخنفاء والظن أنهم من كان على حياة الرهبنة والتشف ، فقد ظن أنهم أنبياء ذكرهم المسعودي في أهل الفترة وعقب بقوله : (وقد اختلف الناس فيهم ، فمن الناس من رأى أنهم أنبياء ومنهم من رأى غير ذلك) (٢) .

وقالوا إن خالد بن سنان العيسى كان نبيا وزعوا أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال عنه " ذاك نبي أضاع قومه " (٣) ، ويذكرون عنه أنه أطفأ نار الحرتين (٤) التي

(١) (مصادر الشعر الجاهلي) د . ناصر الدين الأسد ١١٦ وقد أفاض وأفاد عن الكتابة وموضوعاتها في العصر الجاهلي .

(٢) مروج الذهب ١/ ٧٨

(٣) الحيوان : ٤/ ٤٧٦ ، مروج الذهب ١/ ٦٧ ، الاشتقاق : ٢٧٨

(٤) سيرد الحديث عنها عند حديثنا عن خالد بن سنان إن شاء الله .

كانت بيلاده بنى عيس ، و أن ابنته قدمت على النبی صلى الله عليه و سلم و بسط لهما
رداه .

و من رد غد أهل الاخبار أنهم من الأنبياء (حنظلة بن صفوان) و يزعمون أنه
عاش في أيام (بختنصر) ، و كان نبيا بعثه الله الى أهل الرس ، فذبوه و قتلوه
و يزعم أهل الاخبار أنه هو الذي دعا على العنقاء ، فانقطع نسلها (١) .
و لعل من ذهب الى أن بعض هؤلاء الحنفاء أنبياء لم يكن لديهم أخبار وافية و ليس
لديهم معلومات كثيرة عنهم .

... كما أن المكانة التي كان بها هؤلاء

غد أقوامهم و شهرتهم بينهم و ما كان لهم من أحكام و أفعال غريبة مما يشبه أعمال الكهان
مما لا يستطيع عمله عامة الناس ، ظن أنهم أنبياء ، فخالد بن سنان أطفأ تلك النار
العظيمة التي اضرت بمن حولها ، و حنظلة أراح قومه من العنقاء التي ربما اختطف الناس
و لعل من الجائر أن يكون حنظلة صفوان هذا نبى على رأى من يرون ذلك ، و لكن
هذا ان صح فانه لا يعد بحال من أهل الفترة بل هو متقدم عليهم و سابق لظهور عيسى
ابن مريم عليه السلام .

و الحجة البينة في نفى النبوة عن هؤلاء الذين عاشوا في الفترة الزمنية التي بين
عيسى ابن مريم و محمد — عليهما الصلاة و السلام — ما ورد عنه صلى الله عليه و سلم أنه
قال : (أنا أولى الناس بابن مريم ، و الانبياء أولاد علات ، ليس بيني و بينه نبى) (٢)
و قد عقب الجاحظ على قصة خالد بن سنان منبها على كون نبوته لا تصح قائللا :
(و المتكلمون لا يؤمنون بهذا ، و يزعمون أن خالدا هذا كان أعرابيا و بريئا من أهل

(١) مروج الذهب ٦٥ / ١ ، مجمع الأمثال ٤٢٩ / ١ للميداني تحقيق محمد محي الدين
عبد الحميد ط ١٣٧٤ السنة المحمدية القلعة
(٢) فتح الباري شرح صحيح البخارى : ٤٧٧ / ٦ ، ٤٧٨ .

شرح وناظرة (١) ، ولم يبعث الله نبي قط من الاعراب ولا من الفدادين أهـ
الوبر . وانما يبعثهم من أهل القرى وسكان المدن (٢) .

وتدل حالة عرب الجاهلية وأخبارهم أنهم لم يكن منهم من يدعى النبوة كما حدث
بعد في الاسلام ، يقول (أبو العلاء المعري) : * ولم تكن العرب في الجاهلية
تقدم على هذه العظام ، والأمور النواظم ، بل كانت قولهم تنجح السرى رأى
الحكماء ، وما سلف من كتب القدماء ، إذ كان أكثر الفلاسفة لا يقولون بنبي ، ومنظرون
الى من زعم ذلك بعين الغبى (٣) .

والذى يظهر لنا أمر من زعمت نبوتهم (ان هؤلاء قوم صالحون يدعون الى الخير ..
ولعله كان لهم احوال وكرامات (٤) .

وقد رد بن كثير رحمه الله على هؤلاء الزاعمين بحديث البخارى السابق ، ويقول
تعالى (لتندرقوا ما آتاهم من نذير من قبلك) (٥) ، ثم قال : (وقد قال غير
واحد من العلماء ان الله تعالى لم يبعث بعد اسماعيل نبيا من العرب الا محمداً
(صلى الله عليه وسلم) خاتم الانبياء الذى دعا به ابراهيم الخليل بانى الكعبة
المكربة .. وشرب به الانبياء لقومهم حتى كان آخر من بشر به (عيسى ابن مريم)
عليه السلام ، وهذا المسلك بعينه يرد ما ذكره السهيلي وغيره من ارسال نبي من العرب
يقال له شعيب بن ذى مهزم ... ومعت الى العرب ايضا حنظلة بن
صفوان (٦) .

(١) ما ان لعبس ، كما فى معجم البلدان

(٢) الحيوان : ٤ / ٤٧٨

(٣) رسالة الغفران : ٤٤٠ / ابوالعلاء المعري تحقيق ودراسة عائشة عبد الرحمن
ط. دار المعارف بمصر

(٤) البداية والنهاية ٢ / ٢١٢

(٥) السجدة : ٣

(٦) البداية والنهاية (٢ / ٢١٢)

ولا ينبغي أن يفوتنا هنا أن أمية بن أبى الصلت كان يطمع أن يكون نبيا ويبد ومن أخباره أنه صرح بذلك — كما سيأتى ذلك أن شاء الله — وعرف أمره ، وهذا ما جعله يكثر السفر والتردد على الرهبان ويقرأ الكتب الدينية .
وهذه الإشارة تقودنا الى الحديث عن جانب من أمر هؤلاء الحنفاء حتى نزيد أمرهم وضوحا .

ذلك أن من هؤلاء الحنفاء من لم يكن مخلصا لدينه هذا وإنما كان يخفى وراء تحنفه أمورا أخرى وكان من المناسب فى رأيه أن يذهب ذلك المذهب على يوصله الى ما يرمى اليه . فأمية بن أبى الصلت — فيما بلغنا من أخباره — مثلا ما يدل على علمه بقرب ظمهور نبى ، وكان كثيرا ما يسأل عنه أهل الكتاب وعند ما علم أنه سيخرج من مكة كان يسأل عن رجال من مكة كان يتوسم النبوة فيهم بما عده من علم وتؤكد أخباره استشرافه وتطلعته أن يكون هو ذلك النبى (١) .

ولما بحث الله رسوله صلى الله عليه وسلم — وتأكد الخبر لأمية بيد وأنه حسده على ذلك وأن العصبية القبلية جعلته يقول : (والله ما كنت لأومن برسول من غير ثقيف أبدا) (٢) . وفى رواية : " ما يمنعنى من (من أتباع النبى صلى الله عليه وسلم) الا الاستحياء من نساء ثقيف انى كنت أحد شهن أنى هو ثم يريننى تابعا لفلان من بنى عبد مناف " (٣) .

وقد حفل كتاب الأغانى بكثير من الروايات التى تشرح حالات الرجل وتطلعاته الى النبوة وأمانيه بما يناله منها من حظ ومكانة ، وسؤدد ، فى (٤) الدنيا والآخرة . وكل ذلك فى نظرنا — دليل على عدم اخلاص أمية فى تحنفه ، وان كان لا ينكر

(١) الأغانى : ١٢٣/٤ ، ١٢٣ ، البداية والنهاية ٢/٢٢٢ .

(٢) البداية والنهاية : ٢/٢٢٣ .

(٣) السابق ٢/٢٢٤ .

(٤) الأغانى : ١٢٣/٤ ، ١٢٤ .

أنه من الحنفاء • وقريب من أمية في عدم الاخلاص لدينه والطمع من وراء التحنف الى ما رب أخرى ما قام به عثمان بن الحويرث - أحد الحنفاء - اذ يعم الشام و لحق بقيصر ، و يقال انه تنصر هناك و طلب من قيصر أن يملكه على قریش^(١) ، و في رواية أن عثمان هذا : ((كان يطمع أن يملك قریشا •• حتى قدم على قيصر و قد رأى موضع حاجتهم (أى قریش) اليه و متجرهم ببلاده ، فذكر له مكة و رغبه فيها • و قال : تكون زيادة في ملكك كما ملك كسرى صنعا فملكه عليهم •••••))^(٢) • و مهما يكن من أمر الرويات التي تدل على أن قيصر أراد تنصيبه ملكا على مكة^(٣) ، فان هذا يدل على ضعف تحنفه من جهة و رغبته في الملك من جهة أخرى ، كما أن في علاقته بقيصر و ثقته به الى هذه الدرجة ، ما يدل على اخلاصه في النصرانية اخلاصا يضاعف ما بداخله من نزعة التحنف • و سيرد خبره و ما انتهى اليه أمره عندما نخّصه ببعض هذه المعاني فيما سيأتى بحول الله وقوته •

ونظرا لان بعض هؤلاء المتحنفين قد ادرك ظهور النبی و علم به فان مواقف بعضهم منه لتدلنا على ما ذهبنا اليه من عدم اخلاصهم للحنيفية •

فهذا (عبيد الله بن جحش) عندما اسلم و كان من الحنفاء قبل ذلك تنصر عندما هاجر مع مهاجري المسلمين الى الحبشة عندما أذن لهم الرسول عليه الصلاة والسلام بذلك فرارا بدینهم ، وهذا سويد بن الصامت و كان يسمى الكامل ، يقابل الرسول بمكة أول مرة ثم يدعوه الى الاسلام فلم يستجب وان كان وعد انه لن يبعد عن ذلك • و في رواية - ان امية عندما سمع القرآن من الرسول كاد يسلم ولكنه اخر ذلك حتى يعمل عقله و تفكر في أمره •

وكل هذا يدل ايضا على عدم وضوح الحنيفية عند هؤلاء الرجال •

(١) نسب قریش : المصعب بن عبد الله الزبيري : ٢٠٩ ، ٢١٠ ، تحقيق : بروفنسال ط ٣ - دار المعارف بمصر •

(٢) جمرة نسب قریش و اخبارها : الزبير بن الكار : ٤٢٥/١ ، تحقيق محمود شاكر ط (١٣٨١) المدنی - القاهرة •

(٣) ابن هشام ٢٢٤/١ ، الروض الانف : ١٤٦/١ ، عبد الرحمن السهيلي ، تحقيق عبد الرحمن الوكيل ١٣٨٩ ط دار الكتب الحديثة ، القاهرة •

والحنفاء بصفة عامة تغلب عليهم رجاحة العقل ، وتنطق الحكمة السنتمهم ، ونجد منهم من كان من حكماء العرب كعامر بن الظرب ، ومنهم من كان يحكم قومه ، فأسد الحميري يحكم تبسج ، وسيف بن ذي يزن يلى أمر اليمن ، وعبد المطلب بن هاشم وكعب بن لؤى سدنة البيت فى مكة ، وهم على العموم فى مكانة عالية من أقوامهم ومن خيارهم وأولى الفضل فيهم .

والحكم كثيرة على لسان الخطباء كقسن ساعدة ، وكيع بن سلمة الايادى ، أما الشعراء منهم فلم يعدوا ذلك ، ولا تخفى علينا كثير من حكم زهير بن ابى سلمس ، وعبيد بن الابرس وأمية بن أبى الصلت .

والعجيب ان تورّد المصادر لكثير منهم شعرا ، وكأنما غلب عليهم الشعر حتى رأينا من الباحثين من كتب كتابا عن (الشعراء الحنفاء) (١)

والملاحظ ان الاساطير تحف طرفا من اخبارهم ، مما قد يوقع فى اللبس ، فأبيصة ابن ابى الصلت (كما فى الاغانى) يفهم ثغلاء الشاة ، وجاء طائران وهو نائم فشقا صدره ، وأسد الحميري يخرج بجيوشه يقاتل خارج الجزيرة جهة المشرق ، وكعب ابن لؤى يعلم أن النبى من سلالة ، وعير بن جندب يموت ثم يحيا مرة أخرى الى غير ذلك . . . ولعلنا نلمس شيئا من ذلك فيما يرد من حديث باذن الله .

والذى يلاحظ بالنسبة لآثار بعض الحنفاء أن من المؤرخين من بالغ فى تطوّل اعارهم كأن تزيد عن ثلاثمائة سنة (٢) ، وهذا مما لا نطمئن الى صحته .

وقد حاول احد الباحثين فى العصر الحديث (الويل بين ظهور الحنفاء وبين حدوث تطورات سياسية جديدة فى الجزيرة العربية منها : تفجر الصراع السياسى الذى اتخذ بعد حملة أبرهة الحبشية الفاشلة - على مكة - مضمونا تاريخيا حدد وجهته كصراع بين قوى داخلية من أهل البلاد وقوى خارجية كالحيش والفرس ، ومنها حادثى قار الشهير سنة ٦٠٩م الذى كان تعبيرا عن الرغبة فى نمط جديد من العلاقات الاجتماعية بين القبائل التى تسمو على التعدد وتطلع الى ما يشبه الوحدة القومية .

(١) الدكتور احمد جمال العنرى

(٢) انظر فى ذلك : المعمرون والوضايا : ٨٧ ، ٥٦ ، ٥٨

وفى هذه الظروف السياسية نشأت ظاهرة الحنيفية تدعو الى اقتلاع جذور الوثنية بوصفها مرتبطة بقبيلة تعددية تقسم جماعة العرب الى وحدات متصارعة (فليس من معنى لتعددية الآلهة فى الوثنية الا انها الصورة القائمة فى وعى الانسان القديم عن تعددية الأطر البدوية) (١) .

والذى افهمه من هذا أنه يزعم أن ظهور الحنيفية انما هى دعوة الى الوحدة القومية لمجابهة القوى الخارجية التى تحيط بالعرب .

وعندى ان هذا لا يتفق وما نعلمه عن الحنيفية ولا بسات ظهورها ، اذ هى فئسة أعلت العقل وشكت فى دين الوثنية وكانت تدعو الى العودة الى الدين الصحيح — دين ابراهيم — وحاولت الاصلاح فى تلك البيئة التى كثر فيها الباطل ومعدوا عن عبادة الخالق التى جاء بها ابراهيم واسماعيل وانتظروا الفرج بظهور نبي فيهم ، ولا يظهر من هذه الحنيفية الدعوة الى جمع آلهة الوثنية على اله واحد ونبت ما سواء ، لانها تناقض الوثنية فى أصلها .

وكثيرا ما يربط بعض الباحثين بين ظاهرة التحنف هذه والاسلام بأن الحنيفية كانت ارهاصات للمسالة المحمدية وهذا ما دفع اناسا الى القول بأن الاسلام امتداد لظاهرة عرفت بين الجاهليين .

وكان معنى هذه ارهاصات انها مقدمة للاسلام وايدان به (٢) ، (وان الاسلام كان امتدادا لفكرة بين الناس على النبي صلى الله عليه وسلم . على اظهارها وتوكيدها كما قد يزعم من ينكر فضل الرسول وقدسية الاسلام) (٣) ، وسيرد بنا الحديث عن هذا الامر فيما بعد بحول الله .

(١) دروس ينصوص فى قضايا الادب الجاهلى ، د . غت الشرقاوى ، ط ١٩٧٩ ، دار النهضة العربية بيروت .

(٢) تاج العروس : رهص ٤٠٠ / ٤

(٣) الجاهلية ، مقدمة فى الحياة العربية لدراسة الادب الجاهلى

والذى يخلص اليه من هذا الفصل ان الحنفاء فئة قليلة من الناس عاشوا فى
اماكن متفرقة وقد شكوا فى دين قومهم ، وثاروا على اوضاع عصرهم السائدة التى
لا يقرها العقل (وظلوا يبحثون باذلين تضاراهم ، مجتدين طلاقتهم العقلية والفكرية
فى البحث للوصول الى العقيدة الدينية التى يرتضونها ومطمئنون اليها ، فمنهم من
هدى الله فاهتدى بالالهام من الله الى ملة ابراهيم خليل الله ، فعبد الله على هذه
الملة ، ومنهم من تنصر أو تهود ، ومنهم من لم يقم وزنا لشعائر قومه وعقيدته أهله ،
فظل كما هو حيران تائهها ضالا حتى قضى وهو على حيرته (١) .

ولعل هذا القول هو خير ما يمكن أن يصور الحنفاء - فيما ارى - وهذه الرؤية
قد تتعرض للنقد عند من يستبعدون من دخل النصرانية أو اليهودية من هؤلاء بوصفهم
يهودا أو نصارى ، مما يترتب عليه اخراجهم من الحنفاء .

وهذا القول يمكن ان يصح فى الاسلام اذ الحنيفية واضحة المعالم ، بل هى
دين معترف به بين اليهودية والنصرانية وغيرها ، ولعل هذا رأى يستقيم اذا نظرنا
الى هؤلاء بنظرة الاسلام الواضحة ، ولكننا - هنا - ننظر اليهم من واقع مفهوم التحنف
الذى تصوره الجاهليون أو تصوره هؤلاء الحنفاء ، واخبارهم - كما سنرى فيما بعد -
تنطق أنهم لم يكونوا يعلمون اى دين ووجه أحب الى الله فيتبعونه ولكنهم لا يعلمون .
ولربما كانت اليهودية أو النصرانية فى ذلك الوقت أحسن حالا من الوثنية وخاصة
أننا نعلم ان من أهل الكتاب (أمة يهدون بالحق) وه يعدلون (وهم قلة فى ذلك
الوقت ، ولعل اليهودية والنصرانية المشتركة آنذاك كان بها من الروحية التى تمسك
فراغ هؤلاء الحنفاء الروحي ما يفوق الوثنية فكيف بالقلة التى تؤمن منهم كما ورد
فى القرآن (٣) .

(١) الاديان فى القرآن : ٧٣

(٢) الاعراف : ١٥٩

(٣) قال تعالى (ليسوا سواء) اهل الكتاب امة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل
وهم يسجدون . يؤمنون بالله واليوم الآخر وأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر
وسارعون فى الخيرات وأولئك من الصالحين) آل عمران : ١١٣ ، ١١٤

ولا ريب ان اليهودية والنصرانية كانت اقرب وأيسر بد فكل يأخذ به ————— هؤلاء
 الشاكّون في دينهم في الجزيرة العربية ، فطبيعي أن يدخل بعض هؤلاء فيهما .
 وهذا لا نستغرب ما يناقض التحنف عند هؤلاء بل ربما وجد الشرك فيهم ، قال
 ابن الجوزي — رحمه الله — بعد ان ذكر من كان يقر بالخالق والابتداء والاعادة والثواب
 والعقاب وذكر عددا من الحنفاء ؛ (وأكثر هؤلاء لم يزل عن الشرك وانما تمسك منهم بالتوحيد
 ورفض الاصنام القليل كقس بن ساعدة وزيد) (١) .

ولا بد من الاشارة وقد تحدثنا عن (الحنفاء) الى ان تلك الابعاد وحدها لا تنهض
 برسم صورة كاملة لهم ، فربما كان الوقوف على عقيدتهم وشريعتهم واحكامهم من خلال آثارهم
 مما يبيلور هذه الصورة وقوى وضوحها وهذا ما استكمل به الصفحات التالية بحول الله .

(١) تلبيس ابليس : ٦٣ ٦٤

(ب)

عقيدة الحنفاً وشريعتهم

يأتى هذا البحث متما لما أسلفناه من قول عن الحنفاً ، وقد كان من اليسير أن يدرج هناك لكناً آثرنا أن نغرد به بحث مستقل ، لأنه يمثل حجر الزاوية عند هم ، حيث تمثل الشرائع والسنن وما يمكن أن تعتقده هذه الجماعة نبضاً لحياتهم .

وبادى ندى بدء أحب أن أؤكد أن الحديث عن عقيدة الحنفاً وشريعتهم يكتنفه عن شرائع ومعتقدات في حياتهم في بعض جوانبه الغموض ، ومرّت ذلك إلى قلة أخبار ، ورغم ما أسلفناه عنهم مما استنبطناه من كثير من أخبارهم المضطربة المبعثرة فواقع الأمر أن المرء ليجهد كثيراً حتى يخرج من تلك الأخبار بتصوير يراه واضحاً ولا ريب أن ذلك قد دفع أحد الباحثين المعاصرين أن يقول :

" وليست الصورة التي رسمها المفسرون وأهل الأخبار عن عقيدة الحنفاً واضحة ، فهي صورة غامضة مطموسة في كثير من النواحي ، تخصّ الناحية الخلقية أكثر مما تخصّ الناحية الدينية . فليس فيها شيء عن عقيدتهم في الله وكيفية تصورهم وعبادتهم لله ، وليس فيها شيء من كتاب كانوا يتبعونه أو كتب كانوا يسرون عليها . نعم أنّ نفراً منهم كما ذكر الرواة كانوا قد قرأوا الكتب ووقفوا عليها ، ولكن ما تلك الكتب التي قرأوها ، وما أسماؤها . وهل هي التوراة والإنجيل ؟ ولكن أيّ توراة وإنجيل ؟ التوراة التي كانت بين أيدي الناس أو غيرها ؟ فالذي يفهم من كلام الرواة أن الحنفاً كانوا يرون تحريفاً في الكتابين ، وأن هناك تبايناً قليلاً أو كثيراً بين الأصل الذي أوحاه الله وبين الذي كان بين أيدي الناس ، وأنهم لذلك مالوا عن اليهودية والنصرانية إلى دين إبراهيم الحنيف ، فقرأوا كتبه وتعبدوا بعبادة إبراهيم . ولكن ماهي كتب إبراهيم وماهي عبادته ؟ " (١)

ومع ما قيل عن التزام بعض الحنفاً بدين إبراهيم فإن الذي يبدو أنهم لم يكونوا

يعلمون كثيرا عن عقيدة ابراهيم وشريعته كما كانت عليه في أصولها الصحيحة .
وبما نعلمه أن حنيفيه ابراهيم هي الاسلام ، وأن المعتقدات واحدة في دين
ابراهيم ومحمد ، عليهما الصلاة والسلام ، فرجع احتمال في اختلاف الشرائع
والعبادات بينهما ، فان هذا الاتحاد يعيننا على معرفة التزام هؤلاء الحنفاء بدين
ابراهيم أم عدمه ، ولكن ما يظهر من أخبار الحنفاء أن دين ابراهيم غير واضح
ولا معلوم لديهم فهم بحاجة من يعرفهم به ، وهذا ما يجعلنا نحيف في الحكم على
هؤلاء الحنفاء فيما خالفوا به دين ابراهيم ، ان طلبنا منهم الوقوف عليه .

"والأمر الواضح في كل أخبارهم - أنهم وان تعددت طرقهم في طلب الدين
وتباينت مشاربهم واختلفت مفاهيمهم في ملة ابراهيم - إلا ان مفهوم الدين القيم
عندهم جميعا ، يركز حول فكرة التوحيد الخالص ، التوحيد الذي لا يشوبه شك ،
ولا يكدره شرك ، وقد ارتبطت هذه الفكرة عندهم بطلب الدين والبحث عنه . والسدى
يبدو من أخبارهم أن مفهوم هذا الدين غير واضح بالنسبة اليهم لعدم وجود مرشد
أو موجه يرجعون اليه . فهم لا يعرفون عن هذا الدين غير أمور محدودة ، ولا يدركون
من شعائره غير ما يعرفه سائر الجاهليين . لذلك سمعنا احدهم وهو زيد بن عمرو
وهو في قمة التحير - يناجي ربه " اللهم لو أني أعلم أي الوجوه احب اليك عبادتك به
ولكنني لا أعلم . ثم يسجد على راحته .

ومن المؤكد أن جهلهم بالدين كان سببا في أن معظمهم ساحوا في الارض زاهدين
عابدين متحطين كل مشاق ، في سبيل حصولهم على معلومة توصلهم الى بغيتهم ،
وتطفئ ظمأ حيرتهم وتعطشهم " (١)

ومن أوضح ما في عقيدتهم أنهم عبدوا الله وحده ورغبوا عن عبادة ما سواه فلم
يتقربوا الى صنم ولا وثن ، وهذا ما جعلهم يلقبون بالموحدين ، وغير بعيد أن من دخل
في النصرانية لم يكن ليعتقد بما فيها من شرك ووثنية ، ومعلوم أن من الحنفاء من هم
بالدخول في النصرانية لكنه أسك ورغب عنها وبقي في حيرته ، ومن تيقن ببطولان

(٢) بلوغ الارب ١٩٦/٢ .

(١) الشعراء الحنفاء : ١١١ ، ١١٢ .

النصرانية لم يلتفت اليها .

ثم ان الحنفا رفضوا عبادة الاوثان^(١) التي كان عليها قومهم فلم يلتفتوا اليها وقالوا : " ما جبر نظيف به لا يسمع ولا يبصر ولا يضر ولا ينفع .^(٢) بل انهم عابوا على قومهم وسخروا منهم في الخضوع لهذه التماثيل .

وما هو معلوم من أمرهم - مع ايمانهم بالله كما يؤمن به الكافر والفاسق - أنهم كانوا يعلمون أن الله على ما يشاء قدير وأنه محيط ومطلع على أعمال العباد ، وان الله متصف بصفات الكمال ، وأنه الذي يلجأون اليه في أمورهم ، الى غير ذلك من الكثير من صفات الباري وقدرته في تدبير الخلق وأمورهم وغيره من كثير مما ذكره القرآن من مثل ذلك . ومع ايمانهم بالله فلا ريب أنهم كانوا يؤمنون بالابتداء والاعادة ، والثواب والعقاب^(٣) وأن الناس سيبعثون بعد موتهم ويسألون عن أعمالهم التي أحصاها الله عليهم في كتاب عنده ، وأنه يجزي المحسنين خير الجزاء ، وان من أساء فله عند الله عقاب وتكال يصيبه .

ونظرا لما عرف عنهم من كثرة السباحة في الارض بحثا عن الدين فقد كانوا كثيرى التأمل في الكون ومخلوقات الله فيه ، وما فيها من جمال وحكمة ودقة ، تحار الابصار في الا حاطة بها ، ولا ريب أن عقولهم الذكية التي أعلوها في حياتهم زادت ايمانهم أثناء تأملهم هذا بالله وأنه قدير حكيم فلا يظن أن هذه المخلوقات كثرة وحكمة وجمالا جاءت من دون خالق ، أو أنها خلقت أنفسها وأن خالقها قوى عزيز .

وقد كان الحنفا يرون في القضاء والقدر ما يحيرهم ، وأن الدهر كثير ما يصيبهم بالنكبات والمصائب وما تكرهه النفوس ، لكننا نلاحظ ان بعضا منهم من يصبر ويتجلد امام هذه الكوارث وأن ذلك خير من الخور والجزع ، ومنهم من يرى أن ذلك مكتوب على كل انسان وما قدر له فلا بد يأتيه لا محالة ، وأن الله هو مقدر ذلك ، فلا مفر من قضاائه ، فلا بد من التسليم والانحان لما أراده الله .

(١) المحبر : ١٧١ . محمد بن حبيب البغدادي رواية الحسن بن الحسين السكري
(٢) السيرة النبوية لابن هشام : ٢٢٣ / ١ . تصحيح د . ايلزه طالمكتب التجارى . بيروت .
(٣) تليس ابليس : ٦٣ .

ونجد في اشعار أمية بن أبي الصلت اشارات الى قصص الانبياء والأمم السابقة كما سيرد فيما بعد ، ولعل في هذا ما قد يوحي لنا بايمان بعض الحنفاء بهؤلاء الرسل ، وأن على الناس - الذين في عصرهم - ان يعتبروا بتلك الامم المكذبة التي خالفت ما جاءها به الانبياء فكان عاقبتهم الهلاك والدمار ، ولعل اشارة الحنفاء الى ذلك كانت كعزاء وتخفيف عن نفوسهم مما يجدونه ويرونه من قومهم من مخالفة لرأى الحنفاء .

والذى يفهم ايضا من اخبار الحنفاء ان منهم من أخذ على نفسه دعوة قومه الى الحق واصلاح ما هم فيه من فساد ، وكانوا يطالبون قومهم باعمال عقولهم في هذه الديانة التي يخضعون لها ويقدمون لها رأوا بطلان دين قومهم .

وما يؤكد هذا ان من هؤلاء من أصابه الأذى والعذاب ، ونكّل به من قبل قومه عند ما عرف واشتهر أمره ، وخير من يمثل هذه الظاهرة فيما نعلم زيد بن عمرو بن نفيل كما سيرد في خبره .

وقد كان من أمر الحنفاء البعد عن أهل الوثنية والخلوة في أماكن للعبادة يتحنثون فيها ويتعبدون ، ولعل هذا كان في نظرهم من تعاليم الدين ، الذى يريدون .

ويظهر من شرع هؤلاء الحنفاء أنهم حرموا على أنفسهم الخمر والسكر والازلام^(١) ، لما رأوه فيها من مفساد ، وما تؤدى اليه من افعال رذيلة وأخلاق ذميمة . والعجيب من أمر هؤلاء الأحناف ترك الخمر التي كانت لا تخلو منها أندية الجاهلية وأسواقها ، وكانوا ينفقون فيها من الأموال ما قد يفوق ما يحتاجون إليه من ضرورات الحياة ، ولا شك أن تدرج تحريم الخمر في الإسلام ليدلنا على إسراف ورضوخ كبير في تعاطيها عند عرب الجاهلية حتى لنجد أن من الناس من ترك الاسلام عند ما علم بتحريمه الخمر . وهذا الذى نعجب منه يدلنا صراحة على أن في العرب قبيل الاسلام من كان عاقلا وحازما ، لا يرتكب القبائح ولا يقترب المنكرات ، بل يعمل بالفضائل ويستنكر الرذائل ، من غيرهم الحنفاء .

ومع ما ذكر أنهم أشخاص قليلون وذكرتهم المصاد رباً سمائهم فغير بعيد أن يكون هناك أشخاص آخرون يعتقدون هذه العبادات الصالحة ويحطلونها في ذلك المجتمع .
ولا شك أن جاهلية ما قبل الاسلام عرفت الكثير من أرباب الفضائل والاجساد والحكماء وأنصار الضعفاء، ومن كان يرمى للجار والضيف حقاً وللمظلوم ناصراً ومعيناً إلى غير ذلك من الفضائل التي جاء بها الاسلام فيما بعد .

ولعل هذه الامور التي كان العرب بها آنذاك أحسن حالا من غيرهم من الامم وغيرها من الامور - والله أعلم - جعلت أمة العرب أنسب وأفضل من يبعث رسول اليهم ليتسم مكارم الاخلاق " الله أعلم حيث يجعل رسالته " (١)

ولا يفوتنا ونحن بصدد الحديث عن الخمر أن ننبه إلى ورود بعض الروايات أن أمية ابن الصلت شرب الخمر (٢)، والذي يظهر من القصص الذي وردت فيه أنها غير صحيحة، بل مصطنعة من وضع الرواة، إذ في القصة بعد ما شرب شعب غراب فأخبر قومه بكلام الغراب وكأنه أوتى منطق الطير، ولو صح ذلك فاني لا أستبعد ذلك من مثل أمية الذي عرف عنه عدم الإخلاص في تعنفه وإنما يهدف من وراء ذلك إلى جدارته بالنبوة التي ينتظرها.

وقريب من الخمر ما ورد من تحريم زيد بن عمرو بن نفيل على نفسه أكل ذبائح الأصنام التي كان يذبحها المشركون لأنهم ويرى أن الذي خلق الذبيحة هو الله، فيجب أن تذبح له فهو أعظم من ذبح له وأحق بها من أي معبود آخر لأنه خالقها، كما ترد في أشعارهم تحريمهم الميتة فلا يأكلونها.

والذي يظهر أيضاً من أخبار الحنفا أنهم كانوا يذكرون الله ويسبحونه، بل أنهم يستغفرونه (٣) ويتوبون مما سلف من أعمال خاطئة تستوجب العقاب وتخجل الضمير. ويشير أخبار بعضهم إلى أنهم اتخذوا لهم مواضع يتعبدون فيها (٤)، ويعتزلون

(١) الأنعام : ١٢٤ .

(٢) الأغاني ١٣٢/٤ - ١٣٣ .

(٣) البداية والنهاية : ٢٤٠/٢ ، الأغاني : ١٣٢/٤ .

(٤) مثل صرمة بن أبي أنس، ووكيع بن زهير الأيادي . بلوغ الأرب : ٢٦٦/٢ .

الناس ، وربما منعوا دخول هذه المواضع التي يرونها مقدسة على من لم يكن طاهرا من الرجال أو النساء ، وكأنهم بهذا يعرفون الوضوء والطهارة .

وأكبر الظن أن من هؤلاء الحنفاء من كان يعلم ويحافظ على سنن الغطرة كما ذكر الشهرستاني أنهم يداومون على طهارات الغطرة^(١) ، وكما ورد في تعريف الحنيف نسي بعض المعاجم اللغوية فيما سبق ، وهذه الطهارات عشر .

منها خمس في الرأس : وهي : المضمضة ، والاستنشاق ، وقص الشارب ، والسواك وفرق الشعر . وخمس في الجسد وهي : الختان ، والاستنجا ، وحلق العانة ، وتنف الإبط ، وقص الأظفار .

وبعد هذه الدراسة التي كانت بمثابة الاضواء الكاشفة لمعرفة هؤلاء الحنفاء مغربلة من أخبارهم بعد أن أوامنا إلى معتقداتهم وطرفا من أحكامهم - لا سيبل لنا من التعرض لذكر سير مجلة لهؤلاء الافراد الذين دلت المصادر على أنهم من الحنفاء ، ومع أهمية هذه الدراسة السابقة لهم الا أنني أرى أنها غير كافية تماما لأخذ الصورة العامة لهؤلاء الحنفاء دون وقوف على سيرهم .

ولعل هذه الدراسة تظهر تصوري وفهي لهم ، غير أن ترجمة هؤلاء الرجال كما وردت في المصادر قد يفتح للنظر في هذا البحث آراء غير مابدى لى فلا ينظر بمعنى أو يكون أسيرا لفكرى .

ولعلنا بذلك نوضح سمات حياتهم ونجلى صفحة من تاريخهم ، وبخاصة أن أكثرهم غير معلوم بين المتخصصين فما بالننا بغيرهم ، والحق أن منزلة هؤلاء الحنفاء بغض النظر عن حقهم من هذا البحث - تستحق الذكر وتثال الاعجاب ، وليس بكثير - من حقهم - ان نفرد فصلا عنهم من بين فصول هذا الموضوع .

الفصل الثاني: الحنفاء (٩٤)

المشاهير (١)

ليس يعنينا هنا أن نترجم للحنفاء ترجمة تاريخية معروفة ، ولكن الذى يعنينا أن نشير اليه أن هؤلاء الحنفاء يمكن تصنيفهم الى فئتين :

أ - فئة كانت من المشاهير المعروفين ، وقد أوّلت إلى هؤلاء كتب الأدب والتراجم

ب - أخرى عاشت مغمورة مطمورة ، تغفلها كثرة المراجع والمطّان ، مع أن تلمى

ما كتب عنهم من شذرات متفرقة يجعل من واجب البحث العلمى أن ننظمهم

فى سلك الحنفاء فى هذا الفصل . . .

وسنحاول البدء بالمشاهير من هؤلاء ثم نفضى بعد ذلك على المغمورين منهم املا

فى رسم صورة متكاملة ، وتقديم ما عسى الا يكون جهيرا من أمراؤلك المغمورين ويأتى

على رأس هؤلاء المشاهير :

١ - قس بن ساعدة الإيادى :

هو قس بن قاف معجزة مضمومة ، وسين مهلة مشددة ، بن ساعدة بن حذافة بن

زهر (١) الإيادى نسبة الى قبيلته اياد .

وكانت اياد منتشرة فى شمال وشرق الجزيرة العربية فى الجاهلية وذلك بعهد

«خروجهم من اليمن فصاروا الى السواد - سواد العراق - فالتحت عليهم الغرس فى الفسارة

فدخلوا الروم فتنتصروا وجهل الناس أنسابهم» (٢).

ويبدو أن (قسا) نشأ فى اسيرة على نصيب جيد من ثقافة عصره ، وربما كان لها

سعة المال مما أتاح له كثرة الاسفار ، والإلمام بالثقافة فى ذلك الزمان ، ولم يظهر

لنا من أخبار أسرته شئ فيما نعلم غير أن له أولادا قد وصّاهم فى حياته ، وأدرك حياة

والده على حد قوله :

وَجَذِيَّةُ الْوَصَّاحِ خَبَّرَنِي أَبِي عَنْهُ فَيَا لَجَذِيَّةِ الْوَصَّاحِ (٣)

(١) فى نسبه خلاف وانظره فى خزنة الادب ٩١/٢ ،

(٢) الاشتقاق لابي بكر محمد بن الحسين بن دريد ص ١٦٩ ، تحقيق :

عبد السلام هارون . ط الخانجى ، مصر ١٣٧٨ .

(٣) الاكليل : أبو محمد بن أحمد الهمداني . تحقيق : محمد على الاكوع : ١٤٠/٢

ط (١٩٦٣م) السنة المحمدية القاهرة .

ولا يتضح من المصادر التاريخية ما يمكننا من تحديد ميلاده على سبيل التقريب — غير أن ما هو معروف في كثير من أخباره أنه عاش في الفترة القريبة جدا من حياة الرسول وأنه ربما أدرك مولد الرسول ولكنه توفي قبل أن يبعث عليه الصلاة والسلام*.

وتذهب بعض المصادر إلى الأساطير التي لا تصدق في إطالة عمره والمبالغة فيه (١) وقد تمحل لذلك أحد الباحثين وأجهد نفسه في تتبع هذه المقولات التي لا طائل من ورائها غير دلالتها على أنه طال به العمر في الحياة (٢). وقد ذهب المستشرق "لامانس" إلى التشكيك في قس أن يكون شخصية تاريخية حقا لأن ما ورد عنه من قصص صيرته شخصيته خرافية (٣).

ويرى أنه لو يصح أن قسا شخصيته حقيقه فانه لا يعقل تصور حياته في الوقت القريب من مولد الرسول بل يستبعد ذلك ، وأن بينهما فترة زمنية غير يسيره ! ونحن لا ننكر عليه اجتهاده الأخير هذا ورأيه ، وإنما لا يصح له التشكيك في انكار شخصيته وقد أطلعت شهرته الاتفاق في عصر الجاهلية وفي ما جاء بعدها من عصور.

وهذا لبید بن ربیعۃ العامری الشاعر المخضرم ، عاش عمرا طويلا أكثره في الجاهلية يذكر قسا بالحكمة معليا شأنه بقوله : (٤)

وأخلف قساً لبنتى ولو أنسى .. وأعيا على لقمان حُكم التدبير

وهذا الحظيفة في الاسلام يذكر قسا لان ذكره ليس بمجهول في عصره في قصيدة

= وجذيمة الوضاح : ملك من ملوك الحيرة ، سعى بذلك لبياضه ووضوح لونه ، وهو جذيمة الابرش الذي قتلته الزباء ، ثارا لأبيها ، وانظر : الكامل فـسـى التاريخ : ١١٩/١ ، تاريخ اليعقوبي : ١٦٩/١ .

* والذي جعلنا نذهب إلى ما ذهبنا إليه ، أنه ذكر في تراجم الصحابة ومع انه ليس صاحبى الا أن هذا يدل على قرب عهده من النبى . وهناك أخبار ضعيفة تدل على

رؤية النبى له . أبى حاتم السجستاني تحقيق عبد النعم عامر ط (١٩٦١) دار احياء الكتب . القا هو المعمرون والوصايا : ٨٢ / تهذيب تاريخ دمشق : على بن الحسن (بن عساكر) : ٣٥٦/١ (جعله سبع مائة سنة) ط (١٣٣٢) روضة الشام .

(٢) كتاب قس بن ساعدة د . احمد الربيعى : ١٢٦ - ١٣٩ ط (١٩٧٤ م) مطبعة النعمان بغداد .

(٣) المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام : ٤٦٨/٦ .

(٤) ديوان لبید : ص ٥٦ تحقيق د . احسان عباس . ط (١٩٦٢ م) الكويت .

لأحد مدوحيه : (١)

وَأَخْطَبُ مَنْ قَسَّ وَأَنْضَى إِذَا مَضَى . . . من السيفِ إِنَّ من النفوس نكالها
ولم ينقطع ذكر قس على مدار التاريخ ويتكرر ذكره على اللسان عند ذكر الفصاحة والخطابة
وفى الكتب التاريخية والأدبية ما يدل على ذكره فى مختلف القرون الغابرة عند المسلمين
كعصر الأمويين والعباسيين إلى عصرنا اليوم .

ولا تخلو كتب الأمثال (٢) من عبارات تؤيد ذلك كقولهم : أخطب من قس وأبلغ من
قس وأفصح من قس وانطق من قس ، وأقول من قس ، وأبين من قس .*

وقد تتبع الدكتور أحمد الربيعي (٣) طرفاً ممن ذكر قس على مدار اثني عشر قرناً من
الزمان . وهذا بلا ريب يدحض تلك الشبهة عند لا مانس ويرد لقس شخصيته ويقم له
مكانته التاريخية التي لا ينساها أرباب البيان وعشاق تركيب الكلام .

وقد كان قس يجمع بين عدد من الخصال الحميدة التي جعلته أحد مشاهير
الجاهلية بل تعدى ذلك إلى مشاهير التاريخ ، من ذلك شهرته بالحلم والحكمة والحنكة
حتى كان الجاهليون يتخذونه قاضياً يحكم لهم معضلات الأمور ويفصل الخلافات .
أما شهرته بالحلم والحكمة فلا تكاد تخلو منها أخباره عند من تحدث عنه من
المؤرخين .

* ولم تذكر المصادر حادثة توضح حلمه (٤) ولكن هذا ربما استبطن من أخباره
ومكانته .

وأما شهرته بالحكمة وضرب المثل فهذا يظهر فيما زعم من مسألة قيصر له عن ذلك

(١) ديوان الحطيفة : ٥٤ " بشرح ابن السكيت " تحقيق : نعمان أمين ط —
ط (١٩٥٨ م) مصطفى الحلبي - القاهرة .

(٢) مجمع الأمثال : أحمد بن محمد الميداني . تحقيق : محي الدين عبد الحميد
ط دار المعرفة : ١١ / ١ ، المستقصى في الأمثال : جلاله محمود بن عمر
الزمخشري : ٣٢ / ١ ط (١٣٨١ هـ) دائرة المعارف العثمانية - حيدرآباد
الهند .

(٣) قس بن ساعدة : ٢١٤ - ٢٣٤ .

(٤) السابق : ٢٠٠ .

وعن مراسلاته له وكأن قيصر يستفيد من حكمة هذا الرجل (١).

ومن أقواله في الحكمة وقد سئل عن أفضل العلم فقال : معرفة الرجل بنفسه ، وعن أفضل العقل فقال : وقوف المرء عند علمه ، وعن أفضل الأدب قوله : استبقاء الرجل ما وجهه ، ومن ذلك قوله : من فاته حسب نفسه لم ينفعه حسب أبيه ، وغير ذلك .

ومع ما سلف من اشتهاره بالحكمة بقدر قيل عنه أنه كان مشهورا في الحكومة والقضاء بين المتنازعين (٢) وكان على حظ كبير من الدهاء والنكرا (٣) ،

وتضيف بعض المصادر أن له معرفة في الطب ، وربما سئل عن ذلك (٤) .

وقد بالغ الرواة في أخبار قسّ إذ جعلوه كما قال الدكتور جواد علي * من أصفى البشر والمخترع للعرب أشياء جديدة لم يسميها أحد اليها (٥) .

من ذلك ما ينسب اليه أنه أول من كتب في رسائله من فلان الى فلان أما بعد وقالها في خطبه .

وأنه أول من توكأ على عصا أو رمح أو سيف أثناء خطبه وأنه أول من خطب على نشز من الارض أو على الراحلة ، كما يزعمون أنه أول من آمن بالبعث من الجاهلية ، وأنه أول من قال " البيئنة على من ادعى " (٦) .

ولا ريب أن الكثير من هذه المزاعم ما لا يطمئن الى صوابه ، وأنه منحول وجاء متأخرا عن قسّ ، ولعل القصاصين الذين اشتهر أمرهم في القرون الاسلامية الاولى

(١) انظر قصته مع قيصر وبعض من حكمه في : العقد الفريد : أحمد بن محمد (بن عبد ربه) ٣٧٦ ، ٣٨٥ . تحقيق : أحمد أمين وآخرون ، ط (١٩٤٦ م) لجنة التأليف والترجمة والنشر - مصر .

(٢) العقد للفريد ٢ / ٢٩١ .

(٣) المزمع - في علوم اللغة : جلال الدين السيوطي :

٥٠٣ / ١ . تحقيق : علي الجاوي وآخرون . ط . دار احياء الكتب العربية القاهرة .

(٤) العقد الفريد ٣٧٦ ، ٣٨٥ .

(٥) الفصل في تاريخ العرب ٦ / ٤٦٤ ، ٤٦٥ .

(٦) الاوائل ٥٢ - ٥٤ ، لابي هلال العسكري : تحقيق محمد السيد الوكيل . ط (١٩٦٦) دار أمل المغرب .

وضعوا ذلك ، ان أن منهم من لم يتحاشى الوضع على الرسول صلى الله عليه وسلم - فما بالك بسواه .

ومن أوضح ما يدل على بطلان أنه أول من آمن بالبعث أو تحنّف في الجاهلية مع العلم بتحنّفه كمثل واحد من هذه المزاعم أن جزيرة العرب لم تكن خالية ممن كان على الصحيح من دين عيسى وموسى حتى بعث الله رسوله الخاتم كما دلّ على ذلك محكم التنزيل .

ولا ريب أن الشهرة الكبرى والمنزلة العليا التي خلد بها " قس " هي قدرته الكبيرة على التصرف في فنون القول ان كان قوى الجنان فصيح اللسان .

ومن المناسب هنا أن نذكر واحدة من خطبه كمثل على بيانه ، قال :^(١)

شرق وغرب ، وسلم وحرب ، وبابس ورطب ، وأجاج وعذب ، وحب ونبات ، وآباء وأمهات ، وجمع وأشتات ، وآيات في أثرها آيات ، ونور وظلام ، ويسر واعدام ، ورب واصنام ، لقد ضل الانام . نشؤ مولود ، ولّد مفقود ، وتربية محصود ، وفقير وغنى ومحسن وسى . تبا لأرباب الغفلة ، ليصلحن العامل عله ، أو ليفقدن الآمل أمله ، كلا بل هو اله واحد ، ليس بمولود ولا والد ، أعاد فأبدى ، وأمات وأحيا ، وخلق الذكر والانثى ، رب الآخرة والاولى . أما بعد :

فيا معشر اياي ، أين ثود وعان ، وأين الآباء والاجداد ، وأين العليل والمعوّاد كل له معاد يقسم قس برب العباد ، وساطح المهاد ، لتحشرون على الانفراد في يوم التناد ، فاذا نفخ في الصور ، ونقر في الناقور ، وأشرقت الأرض بالنور ، فقد وعظ الواعظ وانتبه القاطظ ، وابصر اللا حظ ، ولغظ اللا فظ ، فويل لمن صدق عن الحق الأشهر ، والنور الأزهر ، والعرض الأكبر ، في يوم الفصل ، وميزان العدل ، اذا حكم القدير ، وشهد النذير ، وبعد النصير ، ففريق في الجنة وفريق في السعير

ولا شك أن الوضع في هذه الخطبة جليّ بنفسه ، ان الآيات القرآنية بنصها تذكر وأنى لقس السبق في ذلك أو ورود مثل هذه الآيات على خاطره ؟

وقد ورد له عدد من الخطب بلغت عند بعضهم من تخصص في دراسته الى ثمانى

لم أدر ما يقضيه حكمٌ غدي . . ومضى بفضل قضاءه أئس
وقد أورد صاحب كتاب قس بن ساعدة بقية الأبيات وهي طويلة وخرجها (١)

وما ينبغى الا يفوتنا ونحن نتحدث عن قس بن ساعدة أن نشير الى ما رواه الاخباريون من رؤية النبي لقس وسماعه لخطبته وسؤاله عنه لبعض الوفود عندما قدمت عليه ، فـ قد درس ابن حجر رحمه الله طرق رواية حديث قس ثم قال : " وقد أفرد بعض الرواة طريق حديث قس ، وفيه شعره ، وخطبته ، وهو في المطولات للطبراني وغيرها ، وطرقه كلها ضعيفة .

وقد ذكر ابن حجر قسا في القسم الرابع - من حرف القاف - وهذا القسم خاص بمن ذكر في عداد الصحابة على سبيل الوهم والغلط مستخدما طريقة أهل الحديث في ذلك ، على حسب تقسيمه لكتابه العظيم ، والذي عبر فيه عن هذا القسم بقوله :

" وهذا القسم الرابع لا أعلم من سبقني اليه ، ولا من حام طائر فكره عليه ، وهو الضالة المطلوبه في هذا الباب الزاهر ، وزهد ما يخضه من هذا الفن اللبيب الماهز (٢)

وهذا القول من عالم محقق كابن حجر رحمه الله يؤكد كثرة الوضع واللبس في بعض أخبار قس وما نسب اليه من خطب وأشعار ، ومع هذا فينبغى لنا التنبيه الى ما ضعفه ابن حجر من رؤية النبي عليه الصلاة والسلام لقس ، وأما قصة قس وإيمانه بالبعث وخطبته المشهورة ، وما كان من أمره عند قبري صاحبيه . . فقد نبه ابن كثير - رحمه الله - بعد دراسته لرواة السند في طرقه التي تتوزع وروده بها على طريقة المحدثين وذكر قول البيهقي الذي ذكر ذلك في دلائل النبوة وقال أي البيهقي - " وإذا روى الحديث من أوجه آخر وان كان بعضها ضعيفا دل على أن للحديث أصلا والله أعلم " (٣)

قال ابن كثير - رحمه الله - " وهذه الطرق [أي طرق رواية قصة قس] على ضعفها كالتعاضدة على اثبات أصل القصة " (٤)

(١) قس بن ساعدة : ٤٠٧ - ٤٠٩ .

(٢) الاصابة - المقدمة - ١ / ٥٠ .

(٣) البداية والنهاية : ٢ / ٢٣٧ .

(٤) البداية والنهاية : ٢ / ٢٣٦ .

٢ - زيد بن عمرو بن نفيل

هو زيد بن عمرو بن نفيل بن عبد العزى بن رياح بن عبد الله بن قرط بن رزاح بن عدى بن كعب بن لؤى بن غالب بن فهر ، القرشي العدوي . (١)

وزيد من بنى عدى أحد بطون قريش ، ويبدو أنه نشأ حتى ترعرع في مكة ، وأسرته - بنو عدى - معروفة في مكة وهو ابن عم عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - تزوج من صفية بنت الحزرمي . (٢) ومن فاطمة بنت بعجة . (٣)

وكان له ابن يدعى "سعيد بن زيد" (٤) وهو أحد السابقين الى الاسلام وأحد العشرة الذين بشرهم الرسول - صلى الله عليه وسلم - بالجنة ، ويبدو من اسراره فنى دخول الاسلام أن والده زيدا - قد حثه ووصاه باتباع ذلك .

وقد نبه ابن حجر - رحمه الله - على من ظن زيدا من الصحابة بقوله " . . وفيه نظر لأنه مات قبل البعثة بخمسين سنين ، ولكنه يجيئ على أحد الاحتمالين فى تعريف الصحابي وهو أنه من رأى النبی صلى الله عليه وسلم مؤمنا به هل يشترط فى كونه مؤمنا به أن تقع رؤيته له بعد البعثة فيؤمن به حين يراه أو بعد ذلك ، أو يكفي كونه مؤمنا به أنه سيعت كما فى قصة هذا وغيره " . (٥)

وبعد زيد أشهر الحنفا وخير من تمسك بالحنيفية منهم ، وهي وان لم تتضح له على كثرة أسفاره وبحته عنها فقد كان يعمل عقله ويميز ما فى الايمان من أباطيل حتى إنه امتنع عن الدخول فى يهودية أو نصرانية وظل يبحث عن دين ابراهيم عليه يظفر به . وبعد زيد من مشاهير الجاهلية بالتحنف حتى سموه موحد الجاهلية ، ولا ريب (٦)

(١) خزانة الأدب : ٤١٦/٦ ، الاغانى ١٢٣/٣ .

(٢) سيرة ابن هشام : القسم الاول : ٢٢٩/١ .

(٣) الاصابة ١٠٣/٣ ، دائرة المعارف الاسلامية : ١٤١٣/١١ .

(٤) ترجمته فى الطبقات الكبرى : محمد بن سعد : ٣٧٦/٣ ط (١٣٧٧) دار صادر

دار بيروت - بيروت .

(٥) الاصابة : ٦١٣/٢ ، ٦١٤ .

(٦) تفسير البهضاوى انوار التنزيل واسرار التأويل : عبد الله بن عمر البهضاوى : ١١٠/١

ط . مؤسسة شعبان . بيروت ، خزانة الادب : ٤١٩/٦ .

أنه كان أعلم المتحنفين وأصدقهم فيما ذهبوا إليه ، ولم نعلم أحدا منهم عذب وصبر ، ثم لم يرجع عن دينه مع ما لقيه في سبيل ذلك من سجن واضطهاد .

وكان زيد أحد الذين شكوا في عبادة الاوثان وانفقوا على الخروج لالتباس الدين الصحيح .

ومن قصته في سؤاله عن الدين أنه " خرج الى الشام يسأل عن الدين ويتبعه فلقى عالما من اليهود فسأله عن دينهم فقال : إني لعلي أن أدين دينكم فأخبرني ، فقال لا تكون على ديننا حتى تأخذ بمنصيك من غضب الله . قال زيد : ما أفرألا من غضب الله ، ولا أحمل من غضب الله شيئا أبدا ، وأنا أستطيعه فهل تدلني على غيره ؟ قال ما أعلمه الا أن يكون حنيفا . قال زيد : وما الحنيف ؟ قال : دين ابراهيم لم يكن يهوديا ولا نصرانيا ولا يعبد الا الله . فخرج زيد فلقى عالما من النصارى فذكر مثله فقال : لن تكون على ديننا حتى تأخذ بمنصيك من لعنة الله . قال ما أفرألا من لعنة الله ولا أحمل من لعنة الله ولا من غضبه شيئا أبدا وأنا أستطيعه فهل تدلني على غيره ؟ قال : ما أعلمه الا أن يكون حنيفا . قال : وما الحنيف ؟ قال : دين ابراهيم لم يكن يهوديا ولا نصرانيا ولا يعبد الا الله . فلما رأى زيد قولهم في ابراهيم عليه السلام خرج ، فلما برز رفع يديه فقال اللهم اني أشهدك اني على دين ابراهيم (١) .

وقد وردت قصته باختلافات بسيطة (٢) تدور كلها حول بحثه عن الدين وانما اخترنا أوثقها عند العلماء والمحدثين .

ولما كان زيد أفضل المتحنفين تسكا بدينه وثباتا عليه فقد رويت عنه بعض الاخبار التي تدل على أن ما فعله زيد كان براء من الحنيفية وان خالف في ذلك قومه - ، ومن ذلك أنه لم يدخل في يهودية ولا نصرانية بل كرهتها (٣) ، وكان زيد لا يأكل مما يذبحه

(١) عمدة القارى شرح صحيح البخارى بدو الدين محمود بن أحمد اللخيني ط. المنيرية بيروت ٢٨٧ ، ٢٨٦ / ١٦
(٢) انظر في ذلك مثلا : سيرة ابن هشام ٢٣٤ / ١ - ٢٣٢ ، الاغانى ١٢٦ / ٣ -

المشركون^(١) لأصنامهم لأنه يرى أن الله الذى خلق الذبيحة فيجب أن تذبح له .
 " وكان لا يذبح للأصنام ولا يأكل الميتة والدم " ^(٢) ، وكان يعتزل الاوثان ويصرى
 سخف من يعبد ها ، وقال أعبد ربّ ابراهيم ، وربما قال منها قريشاً : " يا معشر
 قريش والله ما نكم على دين ابراهيم غيرى ، وكان يحى العوادة ويقول للرجل اذا أراد
 أن يذبح ابنته : لا تقتلها أنا أكفيكها عونتها ، فياخذها فاذا ترعرت قال لأبيها :
 ان شئت دفعتها اليك وان شئت كفيتك مؤنتها ^(٤) .

وأما عبادته لله فالذى يبدو أنه كان حائرا فيها ولا يعلم كيف يعبد الله ، خاصة
 وأنه قد تيقن وشهد لنفسه أنه على دين ابراهيم ، وتدل المصادر على حيرته بقوله
 " اللهم انى لو أعلم أى الوجوه أحب اليك عبدتك به ولكنى لا أعلم ثم يسجد على
 راحته " ^(٥) ، وروى انه كان يستقبل الكعبة داخل السجد ويقول : " لبيك حقا حقاً ،
 تعبداً ورقاً ، عذبت بما عان به ابراهيم ، مستقبل الكعبة وهو قائم " وربما قال :
 أنفى لك اللهم عانٍ راغم . . . مهما تجشعنى فانى جاشم ^(٦) .

وقد ورد أنه كان يراقب الشمس ، فاذا زالت استقبل الكعبة ، صلى وسجد
 سجدتين ، ثم يقول : هذه قبله ابراهيم واسماعيل لا أعبد حجرا ، ولا أصلى له ولا أكل
 ما ذبح له ، ولا استقسم بالأزلام ، وإنما أصلى لهذا البيت حتى أموت . وكان يحج
 فيقف بعرفة ، وكان يلبى ، فيقول : لبيك لا شريك لك ، ولا نذل لك ، ثم يدفع من عرفة
 ماشيا ، وهو يقول : لبيك متعبدا مرقوقا ^(٧) .

ويبدو ان زيدا هذا كان متفاعلا مع قومه لم ترضه حالتهم الدينية السيئة فبادى

(١) عمدة القارى شرح صحيح البخارى : ٢٨٥ / ١٦ .

(٢) الاستيعاب : ٦١٥ / ٢ .

(٣) سيرة ابن هشام : ٢٢٥ / ١ .

(٤) عمدة القارى : ٢٨٧ / ١٦ .

(٥) سيرة ابن هشام : القسم ١ / ٢٢٥ .

(٦) السابق : ٢٣٤ / ١ .

(٧) البداية والنهاية : ٢٤٠ / ٢ .

قومه بعيب ما هم فيه ، فقد روى أن "أسما" بنت أبي بكر^١ رضى الله عنهما قالت :
لقد رأيت زيد بن عمرو بن نفيل مشيخا كبيرا سندا ظهره الى الكعبة وهو يقول :
يا معشر قريش والذى نفسى زيد بن عمرو بيده ما أصبح منكم أحد على دين ابراهيم
غيرى . . . (١)

وهذا يدل على اقتناعه بدينه ورفضه لعبادة الاوثان ، ومع ذلك فيبدو أنه كان ينتزه
عن المنكرات التى يراها كشرب الخمر والقمار ونحو ذلك وتدل المصادر على وقوفه لمن
أراد وأدأهته بالنصح والتوجيه وأخذها من أبيها اذا عزم وألح على هذا الفعل
النكرا .

ولما كانت نفس زيد بهذه الدرجة من الصفا والشفافية وسلامة الرأى ، لم يكن
له كل ما يريد ان هو طراز من جيل يعد غريبا فى جيل زمانه ، وقد وقف له خصومه
بالمرصاد والنكال ، وهذا شأن المصلحين فى كل زمان ومكان لا يخلو طريق الاصلاح
أمامهم من البلايا والعراقيل .

جاء فى السيرة^(٢) ان زيد بن عمرو قد أجمع الخروج من مكة ليضرب فـمـى
الارض يطلب الحنيفية دين ابراهيم - صلى الله عليه وسلم - فكانت صفية بنت الحزرمـى
(زوجة زيد) كلما رآته تهيبا للخروج وأراد ان تذهب الخطاب بن نفيل ، وكان
الخطاب بن نفيل عمه وأخاه لأمه وكان يعاتبه على فراق دين قومه ، وكان الخطاب قد
وكل صفية به وقال : إذا رأيته قد همّ بأمر فادنينى به . فقال زيد :

لا تحبسينى فى الهـوا . . . نِ صَفِيٍّ مَا دَابَى وَدَابُّهُ
إِنِّ إِذَا خَفْتُ الهـوا . . . نَ شَيْخٌ ذُكِرَ رِكَابُهُ (٣)

وقد كان الخطاب يعيب عليه خروجه من مكة وطلبه الدين ، وخلاف قومه وكان
يؤذيه وأمر أمراءه أن تعاتبه وتأخذ به لسانها . . .^(٤) ويبدو أن زيدا مع ذلك تمكن

(١) سيرة ابن هشام : ٢٢٥/١ .

(٢) السابق : ٢٢٩/١ .

(٣) المشيع : الجرى الشجاع . الذلل : السهلة قد ارتاضت ، يريد نفسه .

(٤) الخزائن : ٤١٥/٦ .

من الخروج للبحث عن الدين ولكنه ربما منع دخولها عند عودته فقد روى أن "الخطاب ابن نغيل قد أخرج زيد بن عمرو من مكة وجماعة من قريش ومنعوه أن يدخلها حين فارق أهل الاوثان ، وكان أشد هم عليه الخطاب بن نغيل" (١) .

وأما رؤية زيد للنبي صلى الله عليه وسلم قبل البعثة فتدل المصادر على ذلك ، وقد روى أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لقي زيد بن عمرو بن نغيل بأسفل بلدح (٢) قبل أن ينزل على النبي صلى الله عليه وسلم الوحي ، فقد مات إلى النبي سفرة فأبى أن يأكل منها ثم قال زيد : انى لست آكل ما تذبحون على أنصابكم ، ولا أكل الا ما ذكر اسم الله عليه . . . (٣) .

ومع هذه الرؤية فالرسول لم يبعث بعد وزيد مع ذلك يعلم أن هناك نبيا سيعت وقد قرب زمانه .

روى أن زيدا كان خارج مكة فلقيه عامر بن ربعة وما قاله له : " وأنا انتظر نبيا من ولد اسماعيل ثم من ولد عبد المطلب ، وما أرانى أدركه ، وأنا أومن به وأصدقه وأشهد أنه نبي فان طالبت بك مدة فرأيت فافترته مني السلام ، وسأخبرك مانعته حتى لا يخفى عليك ثم وصفه . . (٤) .

وقد اختلفت الروايات في تحديد مكان وفاته ، فمن قائل أنه مات بالسم في بلاد الشام وقد سمه بعض ملوك غسان (٥) ، وجاء في رواية أخرى أن مقتله بمكان يقال له ميفعة من أرض الشام وتذكر أن قتلته من قبيلة لخم. (٦) .

وهناك روايات تخالف ذلك تغيد رجوع زيد إلى قومه بعد رحلاته في بلاد الشام ووفاته بمكة وتقول " توفي وقريش تهني الكعبة قبل أن ينزل الوحي على رسول الله بخمسة

(١) الاغانى : ١٢٣/٣ .

(٢) بلدح : واد قبل مكة جهة المغرب . . (معجم البلدان - بلدح : ٤٨٠/٢) .

(٣) عدة القارى : ٢٨٥/١٦ .

(٤) تاريخ الطبرى : ٢٩٩/٢ ، الخزائن : ٤١٧/٦ ، الاصابة

٠٦١٦/٢

(٥) مروج الذهب : ٥٦/٢ . على بن الحسن السعوى تحقيق محمد محى الدين عبد الحميد

طدار لا ندلس

(٦) البداية والنهاية : ٢٤١/٢ .

سنتين* ودفن بأصل حراء^(١)، وورد أنه شارك في حرب الفجار^(٢).

ويبدو أن الرواية الأولى أرجح إذ هي أكثر وروداً عند المؤرخين، ويقويها ما ذكر من أن أمة عمه الخطاب له وطرد له مع نفر من أهل مكة عند ما لم يرجع عن دينه بعد ما آذوه وحبسوه من الخروج حتى كان لا يدخل مكة إلا سرا^(٣).

ولا شك أن طردهم له مخافة أن ينتشر مذهبه، الذي يقضى أول ما يقضى على هذه الأصنام التي لا يخلو معاشهم مما يفيدونه عن طريقها ممن يأتون معظمين لهذه الأصنام. وتتراعى في بعض الروايات السابقة أنه انتظر في مكة ولم ير شيئا من النبوة وأوصى من يبلغ سلامه للرسول وأنه يظن أنه ربما لا يدركه فلعله سافر ليزداد علما بخبـره، وما يجده عند رهبان النصارى خيرآله مما يلاقيه من أذى في مكة.

وقد روى أن الرسول شهد له بالجنة*.

وقد ذكر له الرواة شيئا من الشعر نجسئ منه قوله^(٤) في فراق دين قومه :

أَرَبًا وَاحِدًا أَمِ الْفَرَسِ .. أَدِينٌ إِذَا تَقَسَّمَتِ الْأُمُورُ
عَزَلْتُ اللَّاتَ وَالْعَزَى جَمِيعًا .. كَذَلِكَ يَفْعَلُ الْجِلْدُ الصُّبُورُ
فَلَا الْعَزَى أَدِينٌ وَلَا ابْتِنِيهَا .. وَلَا صَنِي بَنَى عَمْرُو أَزُورُ
وَلَا هَيْلًا أَدِينٌ وَكَانَ رَبًّا .. لَنَا فِي الدَّهْرِ إِذَا حُلِمَ صَغِيرُ
عَجِبْتُ وَفِي اللَّيَالِي مَعْجَبَات .. وَفِي الْأَيَّامِ يَعْرِفُهَا الْبَصِيرُ

(٥)

وما يروى له قوله :

وَأَسْلَمْتُ وَجْهِي لِمَنْ أَسْلَمْتُ .. لَهُ الْأَرْضُ تَحْمِلُ صَخْرًا ثَقُلَا

(١) طبقات ابن سعد : ٣/٣٧٩، ٣٨٠، البداية : ٢/٢٤١.

(٢) انساب الاشراف : ١٠٢. ^{الحمد لله} يحيى البلاذري تحقيق محمد حميد الله ط معهد المخطوطات العربية دار المعارف - مصر.

(٣) مروج الذهب : ١/٧٠، السيرة : ١/٢٣١، وما بعدها.

* الاصابة : ٢/٦١٤، ٦١٦.

(٤) سيرة ابن هشام : ١/٢٤٦، البداية : ٢/٢٤٢، ٢٤٣.

(٥) سيرة ابن هشام : ١/٢٣١.

- دحاها فلما رآها استوت . . على الماء أرسى عليها الجبال^(١)
 وأسلمت وجهي لمن أسلمت . . له المزن تحمل عذبا زلا
 اذا هي سبقت الى بلدة . . أطاعت فصبت عليه سجلا^(٢)

(١) دحاها : بسطها .

(٢) السجال : جمع سجل ، وهي الدلو المملوءة يريد كثرة المطر وغزارته .

٣ - ورقة بن نوفل ———

هو ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى بن قصي القرشي الاسدي ، ذكر في بنى
أسد بن عبد العزى (١) وأمه هند بنت أبي كثير (٢) وهو ابن عم السيدة خديجة بنت
خويلد بن أسد أم المؤمنين وزوج نبينا عليه الصلاة والسلام ، مات ولم يعقب ولدا من
بعده .

وأخبره في أول عمره ومقتبل شبابه لانعلم منها شيئا ، غير أن مناسب له في بعض
القصائد ربما توحى لنا بتمتعه بشئ من اللهب الذي تدفع اليه ثورة الشباب وفسورة
الفراخز ، وقد روى له من ذلك قوله : (٣)

رحلتُ قَتِيلَةً عَيْرَهَا قَبْلَ الضحَى .. وَإِخَالُ إِنِّ شَحَطْتُ بِجَارَتِكَ النَّوَى (٤)
أو كلما رحلتُ قَتِيلَةً غُدْوَةً .. وَغَدْتُ مَفَارِقَةً لَأَرْضِيَهُمْ بِكُمَى
ولقد ركبْتُ على السَّافِينِ مُلْجَجًا .. أُنْزِلُ الصَّدِيقَ وَأَنْتَحَى دَارَ الْعَدَى
ولقد دَخَلْتُ الْبَيْتَ يُخْشَى أَهْلُهُ .. بَعْدَ الْهَدْوِ وَبَعْدَ مَا سَقَطَ النَّدى (٥)
فوجدتُ فِيهِ طِفْلَةً قَدْ زَيَّنَتْ .. بِالْحَلِيِّ تَحْسِبُهُ بِهَا جُمُرَ الْغَضَا (٦)
فَنَعَمْتُ بِهَا إِنْ أَتَيْتُ فَرَاشَهَا .. وَسَقَطَتْ مِنْهَا حَيْثُ جِئْتُ عَلَى هَوَى
فَيْتَلِكْ لَذَاتُ الشَّبَابِ قُضِيَّتُهَا .. عَنِّي فَسَاءُ لِّبَعْضِهِمْ مَاذَا قُضَى

(١) جمهرة نسب قريش : ٤٠٨ ، الزبير بن بكار . تحقيق محمود شاكر ط ١٣٨١ المدينى القاهرة

(٢) الاغانى ١١٩/٣ .

(٣) جمهرة نسب قريش : (٤٠٨) وعلق محققه/الابيات بتمامها رواها ابو الفرج

في اغانيه عن الزبير ١١٨/٣ ، وروى الاخيرين في ١١٢/٣ وقد خرجهم

المعنى في سبط اللاكئ ٢٠٦/١ ، وروى الاخيرين المصعب أيضا في نسب

قريش : ٢٠٨ .

(٤) العير : القافلة من الابل ، شحطت : نأت وبعدت ، النوى : الغراق

(٥) الهدو : الهدوء أى بعد ان سكن الليل ، سقوط الندى : في أقصى الليل .

(٦) الطفلة : البنت الرخصة الناعمة الشابة ، الغضا : شجر من نبات الرمل وهو

أحسن الحطب نارا وأزهره .

قَدَحَ الذِّبَابُ فَلَيْسَ يُورَى قَدْحُهُ . . . لَا حَاجَةَ قَضَى وَلَا مَالًا نَمْسَى (١)
 فَارْفَعُ ضَعِيفَكَ لَا يَحِلَّ بِكَ ضَعْفُهُ . . . يَوْمًا فَتَدْرِكُهُ الْعَوَاقِبُ قَدْ نَمَا (٢)
 يُجْزِيكَ أَوْ يُثْنِي عَلَيْكَ وَإِنَّ مَن . . . أَثْنَى عَلَيْكَ بِمَا فَعَلْتَ كَمَنْ جَزَى

ومع الشك في نسبة البيتين الأخيرين لورقة فان ماسبقهما من القصيدة لتدل أكثر المراجع على قوله لها ، ولكن مع ذلك فنحن لا نظن أن ورقة كان من الاسراف والتبذل في الشبهوات كعامة شباب زمانه .

وقد مربنا أنه أحد رجالات قريش الذين اجتمعوا في أحد أعيادهم ويحثوا نسي حقيقة الدين وشكوا في عبادة قومهم واتفقوا على البحث عن الدين الذي ضل عنه قومهم .

وغير بعيد أنه كان يعين أهله أو أقاربه في التجارة من بلاد الشام أو اليمن شأن أكثر شبان أسرمكة في ذلك الوقت . فتعلم بذلك سلوك الطرق الموصلة الى العراق أو بلاد الشام ، ومن هنا اندفع نحو خارج الجزيرة يلتمس الحكمة والوصول الى رأى يقنعه في الحياة .

ويظهر أنه غير سلك حياته بعد شبابه فلم يكن من الرجال الخاطين الذين كانوا يصرفون وقتهم في فراغ دائم ، دون عمل ولا تفكير ، متوسدين الأرض يقتلون فراغهم في ترهات الكلام ، كما أنه لم يكن من أولئك الطائشين التزقين الذين يقضون وقتهم في النزاع والخصومة وشرب الخمر والاعتداء على الناس ، والحصول على المال للانفاق على اللهو بأية طريقة كانت ، بل كان رجلاً متأملاً مفكراً منكشاً على نفسه ، مكنه علمه بالكتابة والقراءة من قراءة الكتب والاطلاع على آراء الماضين والحاضرين ، حتى

(١) قدح الذباب : أصله من ضرب بالزناد ليورى النار ، والذباب يضرب بيد يده كأنه قاذح نار من زناد كما قال عنترة في صفته

وخلأ الذبابُ بها فليس ببإرح . . . غرداً كفعل الشارب المترنم
 هزجاً يحك نراعه بذراعيه . . . قدح المكب على الزناد الاجدم

(٢) أرفع ضعيفك : أى أعنه وخذ بضعفه ، حال : انتقل من مكان لآخر ، نمّا : ارتفع وعلا .

جاء يوم ، دفعه أجتهد، الذي وصل اليه على الخروج على تقاليد قومه وانتقــــــــــــاد
الاوضاع التي كانوا عليها".^(١)

ونظرا لادراك ورقة لمبعثة النبي صلى الله عليه وسلم فقد اختلف في صحبته ، خاصة وأنه كان يستبشر بظهور النبي ويعلم أن نبيا سيبعث ، وقد ذكر ابن حجر ذلك وقال " وفي إثبات الصحبة له نظر " وذكر أن الذي في الصحيحين - كما سيرد - يدل على أنه أقرب نبوته لكنه مات قبل أن يدعو رسول الله الناس الى الاسلام ، وهذا ما جعل له نظير في صحبته . (٢)

وتدل المصادر أن ورقة ضرب في الأرض بحثا عن الدين شأن الكثير من الحنفاء ، وكان زيد بن عمرو صديقه وصاحبه سافرا معا بحثا عن الدين ^(٣) حتى بلاد الشام .
والذى تدل عليه المصادر أن ورقة دخل النصرانية وآمن بها وربما دخل فيها مؤقتا حتى يظهر النبي الذى يعلم شأنه فيتركها ، وتؤكد المصادر أن ورقة استحكم في النصرانية وتبحر في قراءة الانجيل وغيره من كتب النصارى . ^(٤)

والذى ينبغي أن يفهم من أمر هذه النصرانية التى كان عليها ورقة أنها مخالفة للنصرانية الكافرة التى تدعى أن عيسى أحد الأقانيم الثلاثة (الله - روح القدس - عيسى) والتى كانت ملوثة بالتعقيدات التى لا تفهم والخرافات التى لا تصدق ، بل المشهور عن ورقة أنه كان رجلا عاقلا متفكرا ، وكان على علم كثير ويحسن القراءة والكتابة التى كان بها الانجيل آنذاك ، فغير طبيعى أن يكون على هذا المستوى ويرضى بتلك الديانة الباطلة ان نصرانية ورقة كانت على الصحيح من دين عيسى ولعله تعلمها من لم يبدها من علماء النصارى ، وخير ما يؤكد ذلك أنه عندما وصفت له خديجة ما حدث لمحمد - عليه الصلاة والسلام - استبشر بذلك وصدق بنبوته وأوصاه بالثبات عند مجئ الناموس

(١) انظر : المفصل في تاريخ العرب : ٦ / ٥٠١ .

(٢) انظر تفصيل الخلاف في ذلك في الاصابة ٦٠٧/٦.

(٣) البداية والنهاية : ٢٣٩/٢ .

(٤) ابن هشام : ٢٢٣/١ ، البداية والنهاية : ٢٣١/٢ ، الاشتقاق : ١٦٤ .

اليه ، بل تمنى أن يمتد به العمر حتى يناصره عند ما يخالفه قومه .

وقد رد ابن حجر على من زعم أن نصراية ورقة من النصراية الباطلة بقوله * أما ما تحمل له السهيلي من أن ورقة كان على اعتقاد النصارى فى عدم نبوة عيسى ودعواهم أنه أحد الأتانيم ، فهو محال لا يعرج عليه فى حق ورقة وأشباهه ممن لم يدخل نفسى التبديل ولم يأخذ عن بدل * (١)

ولاشك أن هذه النصراية خير من دين قريش ، ومع ذلك فنحن لانخرج ورقة من الحنفاء لانه دخل النصراية ، فقد جاء أنه كان يقول : * دينى دين زيد ، والهى اله زيد * (٢) ، بل هذه مرحلة من مراحل تحنفه ، إن سرعان ما استبشر عند ما علم بمبعث الرسول وصدقه وفرح بذلك ، وتدل المصادر الصحيحة (٣) على وفاته مؤمنا بالرسول .

ولو كان * مَصْرًا * أو مُقْتَنِعًا بنصرايته لما آمن بمحمد عند علمه بذلك فى الوهلة الاولى ، وقبل ذلك لم يكن على دين حتى اجتمع مع النفر الذين شكوا فى عبادة قومهم .

وقد علمنا أن ورقة كان رجلا يقرأ ويكتب ولا ريب أن هذا يدل على سعة اطلاعه على ما يدور فى كتب عصره وخاصة كتب أهل الكتاب ان الذى يفهم من أخباره * أنه كان يعلم الكتابة العبرانية ويكتب من الانجيل بالعبرانية ، ولا يلزم من ذلك أن يكون الانجيل عبرانيا ، لأنه يجوز أن يكون سريانيا . وكان ورقة ينقل منه باللغة العبرانية ، وهذا يدل على علمه بالألسن الثلاثة وتمكنه فيها * (٤)

ومن المؤكد أن ورقة أدرك الرسول فى أول البعثة فقد روى البخارى (٥) عن عائشة أم المؤمنين أنها قالت : أول ما بدئ به رسول الله صلى الله عليه وسلم من الوحي الرؤيا الصالحة فى النوم . . ، فانطلقت به خديجة / بعد نزول جبريل عليه فى الفار /

(٢) فتح البارى : ٢٦ / ١٣

(٣) الاصابة : ٦٠٩ / ٦

(٤) الصَّحِيحَيْن * حديث أول ما بدئ به رسول الله . . فى مجئ جبريل بحرا * .

(٥) عدة القارى : ٥٤ / ١

(٥) السابق : ٤٦ / ١ ، ٤٧

حتى أتت به ورقة بن نوفل . . . وكان شيخا كبيرا قد عى . فقالت له خديجة يابن عم
اسمع من ابن أخيك ؟ فقال ورقة : يابن أخى ماذا ترى ؟ فأخبره رسول الله صلى الله
عليه وسلم خبر ما رأى . فقال له ورقة : هذا الناموس الذى نزل الله على موسى ، ياليتنى
فيها جذعا^(١) . ليتنى أكون حيا ان يخرجك قومك . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم
أو مخرجي هم ؟ قال : نعم . لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودى ، وان يدركنى
يومك أنصرك نصرا مؤزرا . ثم لم ينشب ورقة أن توفي وفتر الوحي . . .

وتدل العديد من الاخبار أن خديجة - رضى الله عنها - كانت تتردد عليه وتسأله
عن أمر زوجها محمد حتى أخبرها أنه نبي هذه الامة الذى يبشر به أهل الكتاب ، وقد
كان يعلم ذلك وينتظره ، فلما وصفت له خديجة خبره مع خادها ميسرة فى رحلته السى
الشام ، جعل يستبطن الامر ويقول حتى متى وقال فى ذلك :^(٢)

لججتُ وكنت فى الذكري لجوجا .. لهم طالما بعث النشيجا
ووصف من خديجة بعد وصف .. لقد طال انتظارى ياخذ بيجا
ببطن المكين على رجائي .. حد يثك أن أرى منه خروجا^(٣)
بما خبرتنا من قول قيس .. من الرهبان أكره أن يعوجا
بأن محمداً سيسود يوماً .. ويخصم من يكون له حجيجا
ويظهر فى البلاد ضياء نور .. يقيم به البرية أن تموجا

وتدل بعض الاخبار أن ورقة عاش فترة من الاسلام ، رأى فيها كفار قريش
يضطهدون المسلمين^(٤) ، أنه كان يمر ببلال وهو يعذب بمرضاة مكة ويلصقون

(١) أى ليتنى كنت شابا عند ظهور النبوة .

(٢) الخزائن : ٣ / ٣٩٢ .

(٣) ثنى مكة لان قريش قبل الاسلام فريقان : أحدهما قريش الظواهر ، وهم الذين
يتخرجون أن يبنوا الى جنب بيت الله بيوتا فنزلوا فى ظواهر مكة ، والآخرون
المقيمون ببطحاء مكة مجاورين البيت ، كان يقال لهم قريش البطاح . عن محقق
الخزائن ٣ / ٣٩٢ .

(٤) جمهرة نسب قريش : ٤١٢ ، الاصابة ٦ / ٦٠٨ .

ظهره بها لكي يشرك ، فيقول : أحدا أحد ، فيقول له ورقة : أحد أحد يابلال والله
لئن قتلتموه لاتخذته حنانا . (١)

والذى فى الصحيح * أنه لم ينشب ورقة أن توفى * أى بعد فترة نزول الوحي .
وقد وفق ابن حجر - رحمه الله - بين الروایتين بقوله * والجمع بين هذا / ادراكه
تعذيب بلال / وبين حديث عائشة أن يحمل قوله * ولم ينشب ورقة أن توفى * أى قبل
أن يشتهر الاسلام ويؤمر النبى صلى الله عليه وآله وسلم بالجهاد * . (٢)
قال العيني فى شرح البخارى ٦٢/١ :

ماروى فى السيرة لا يقاوم الذى فى الصحيح ولئن سلطنا فلعل الراوى لما فى الصحيح
لم يحفظ لورقة بعد ذلك شيئا من الامور فلذلك جعل هذه القصة انتهاء أمره بالنسبة
الى ما علمه منه لا بالنسبة الى نفس الامر .

وجاء فى المصادر ما يدل على أن النبى مدحه ونهى عن سبه مما يدل على رضا عن
دينه الذى مات عليه ، وأن الرسول رآه فى منامه وعليه ثياب بيض ، وهي مما لا يلبسه
أهل النار ، وربما أبصره فى بعض الروايات فى بطنان الجنة . (٣)
وتدل بعض المصادر على أن لورقة شعرا ، وقد ذكرنا طرفا منه ، وقد وردت له
قصيدة رثى فيها صديقه زيد بن عمرو ونديه الحميم ، ومنها : (٤)

رَشِدَتْ وَأَنْعَمَتْ بَنُ عَمْرٍو وَإِنَّمَا . . . تَجَنَّبَتْ تَنَوُّراً مِنَ النَّارِ حَامِيَا
بَدِينِكَ يَا لَيْسَ رَبُّكَ كَمَثَلِهِ . . . وَتَرَكَّ جَنَّاتِ الْجِبَالِ * كَاهِيَا

(١) الحنان : * كما فى النهاية * الرحمة والعطف : الرزق والبركة ، أراد لأجعلن
قبره موضع حنان أى مظنة من رحمة الله فاتسح به متبركا كما يتمسح بقبور
الصالحين ، فيرجع ذلك عاراً عليكم وسبة عند الناس . (كعادة الجاهليين)

(٢) الاصابة : ٦ / ٦٠٨ .

(٣) الاصابة : ٦ / ٦٠٩ .

(٤) الأغاني : ٣ / ١٢٥ .

* جنات الجبال : الذين يأمرون بالفساد من شياطين الانس أو الجن كما فى
لسان العرب * جنن * .

أقولُ إذا ما زرتُ أرضاً مخوفةً .. حنانيك لا تُظهِرُ على الأعداءِ
 حنانيك إِنَّ الجنَّ كانتُ رجاءُهم .. وأنتَ إلهي ربُّنا ورجاءُنا
 ومن جيد شعره ما ذكره البغدادى في أخبار خديجة له : (١)

يا للرجالِ وصرفِ الدهرِ والقدرِ .. وما لشيءٍ قضاءُ الله من غيرِ
 جاءتْ خديجةُ تدعوني لأخبرها .. وما لنا بخفي الغيبِ من خبرِ
 جاءتْ لتسألني عنه لأخبرها .. أمراً أراه سيأتي الناس من آخرِ
 فخبرتني بأمرٍ قد سمعتُ به .. فيما مضى من قديم الدهر والعصرِ

٤ - عثمان بن الحويرث

هو عثمان بن الحويرث بن أسد بن عبدالمعز بن قصى القرشي الجاهلي (١) ، وهو واحد من النفر القرشيين الذين شكّوا في دينهم ، واتفقوا على البحث عن الدين فسي الاتفاق .

ولم تتح لنا المصادر شيئا كثيرا من أخباره قبل ذلك ،

والذى نعلمه منها أن الرجل كان من أشرف قريش في الجاهلية (٢) ، وأدرك حرب الفجار وكان على رأس بني أسد فيها (٣) ، وكان نديما لشيبة بن ربيعة بن عبد شمس الذى قتل يوم بدر كافرا (٤) .

والذى كان من قصة عثمان أنه سافر الى بلاد الشام بعد الاتفاق على البحث عن الدين ، ولكنه سرعان ما تنصّر ، وتدل قصته على عدم إخلاصه في ذلك ، ويبدو أنه كان لا يخلو من الدهاء والحكمة ، وليس خلوا من الخبرة بعظما القبائل ومجالسة ذوى الجاه والسلطان .

(٥)

جاء في جمهرة نسب قريش :

" خرج عثمان بن الحويرث وكان يطمع أن يملك قريشا وكان من أطرف قريش وأعقلها حتى يقدم على قبصر ، وقد رأى موضع حاجتهم اليه ، ومتجرهم ببلاد ، فذكر مكة ورغبه فيها ، وقال : تكون زيادة في ملكك ، كما ملك كسرى صنعا ، فملكه عليهم ، وكتب له اليهم ، فلما قدم عليهم قال : يا قوم ، ان قبصرا من قد علمتم ، أما انكم ببلاد وما تصيرون من التجارة في كنفه ، وقد ملكني عليكم ، وأنا أنا ابن عمكم وأحدكم ، واتسا

(١) معجم الشعراء : ٢٥٣ . محمد بن عمران المرزباني تصحيح كركو ط دار الكتب العلمية بيروت .

(٢) المحبر : ١٦٥ .

(٣) السابق : ١٢٠ .

(٤) السابق : ١٢٥ .

(٥) ص ٤٢٥ ، ٤٢٦ .

آخذ الجراب من القرظ^(١)، والعكّة من السّمن والاهاب^(٢)، فأجمع ذلك ثم أبعثه اليه ، وأنا أخاف إن أبيتم ذلك أن يمنع منكم الشّام فلا تتجروا به ، ويقطع مَرَفَتكم منه .
فلما قال لهم ذلك خافوا قيصر ، وأخذ يقلوبهم ما ذكر من متجرهم ، فأجمعوا على أن يعقدوا على رأسه التاج عشية ، وفارقوه على ذلك . فلما طافوا عشية ، بعث الله عليه ابن عمه أبا زمعة الاسود بن عبد المطلب بن أسد^(٣)، فصاح على أحفل ما كانت قريش في الطواف ، يأل عباد الله ، ملك بتهامة ! فأنحاشوا^(٤) أنحاش حصر الوحش ، ثم قالوا : صدق واللات والعزى ، ما كان بتهامة ذلك قط . فانتفضت قريش عما كانت قالت له ولحق بقيصر ليُعلمه* .

وتدل المصادر أيضا أنّ عثمان وجد حظوة عند قيصر حتى منحه ذلك اللقب الذي يدل على الرّفعة والقداسة عند النصارى وهو (البطريق) ، كما أنه قيصر حمله على بغلة عليها سرج عليه الذهب حين نوى أن يملكه^(٥) على مكة .
وقد ذكر الزبير بن بكار قصة عودته ووفاته بعد ذلك^(٦) ، وموجزها أن تجارا من قريش سألوا " عمرو بن جفنة الغساني " أن يرسل عند قيصر من يفسد على عثمان خبره وما جرى له ، وتمّ ذلك ولكن عثمان تمكن من افهام قيصر بعد ذلك ، فأرسل قيصر الى

(١) القرظ : شجر عظام ، له سوق غلاظ ، له حب يُدبغ بورقه وشعره ، وينبت بأرض اليمن .

(٢) العكّة : اصفر من القرية من الجلد ، الاهاب : جلد البقر والغنم والوحش مالم

يدبغ .
(٣) بن عبد الله بن الزبير . تحقيق بروفتسال ٣ دار المعارف مصر .
(٤) جاء في نسب قريش للعصب^{٢١٨} : الاسود بن عبد المطلب ، وهو ابو زمعة ، وأمه قهيرة بنت أبي قيس . وهو أحد المستهزئين الذين ذكر الله في القرآن فقال " انا كفيناك المستهزئين " / الحجر : ٩٥ . قالوا رعى جبريل في وجهه بورقة فعمى ، وكان من كبراء قريش . وقتل له أبنا يوم بدر مع المشركين . وانظر باقى ترجمته هناك .

(٤) أنحاشوا : فزعوا ونفروا .

(٥) جمهرة نسب قريش : ٤٢٦ ، الروض الأنف : ١ / ١٤٦ .

(٦) جمهرة نسب قريش : ٤٢٧ ، ٤٢٨ .

عمرو بن جفنة بسجن من يأمر عثمان بسجنه من تجار قريش بالشام ، فوجد بها أحبحة ابن سعيد بن العاص وابن اخته أبا ذيب فحبسهما ، فمات أبو ذيب في الحبس ، وسم عمرو بن جفنة عثمان بن الحويرث فمات بالشام .

وتدل بعض المراجع أن قيصر أرسل الى ابن جفنة أن يجهز معه جيشا لحرب قريش فكاد عمرو بن جفنة أن يفعل ، لولا نصح كثير من العرب له بعدم الاقدام على ذلك ، وتخويفه بما وقع لأصحاب الغيل الذين أهلكهم الله بطير أبا بيل ، اعظاما لمكة ، فعند ذلك كسأه ابن جفنة قميصا مسموما فمات به . (١)

ولما كان عثمان أحد الحنفا - كما نعلم - رثاه زيد بن عمرو عندما علم بوفاة - وقال ورقة بن نوفل يرثيه : (٢)

ألا هل أتى ابتنى عثمان أن أباهما .. حانت منيته بجنب الغرَضِ
ركب البريد مَخْطراً عن نفسه .. مَيِّتَ الْمَضَرَّةِ لِلْبَرِيدِ الْمُقْصِدِ (٤)
فلا بُكَيْنَ عثمانَ حَقَّ بكَائِله .. ولأُتَشَدَّنْ عمراً وإن لم يُنْشَدْ

وقد كانت وفاته قبل البعثة بنحو ثلاث سنين ، (٥) وقد كان عثمان مع مكانته في قريش هجاء لها ، عالما بمثالها * ، ونحن لانعلم سبب هذا الهجاء فيما بين ايدينا من مراجع ، الا أن يكون بعد فشله في ولاية " مكة " من قبل قيصر ، وورد اليها أبيات معدودة من شعر منسوب له وهذا الشعر لا ينير لنا طريقا الى سبب انشاده له . وما يروى له قوله يهجو أحد رجالات قريش : (٦)

وانى امرؤ من جذم كعبٍ مقابلٍ .. وأنت ضعيف الجَدِّ ألصقُ طصقُ
من القوم تذلّ ليس يُعْلَمَ علمُه .. من الناس الا العالم المتعمق

(١) البداية والنهاية : ٢٤٣ / ٢ .

(٢) الابيات في جهمرة نسب قريش : ٤١٩ ، نسب قريش للمصعب : ٢١٠ .

(٣) الغرصد : موضع بالشام .

(٤) قال محقق جهمرة نسب قريش : " علق المصعب على هذا البيت فقال : " كأنه قال أنا الرجل البريد المقصد " وهذا البيان مستغلق استغلاق الشعر نفسه ، ولذلك تركت شرح هذا الشعر حتى أقف على وجه معناه .

(٥) البداية والنهاية : ٢٤٣ / ٢ . * الاشتقاق : ٩٥ .

(٦) معجم الشعراء : ٢٥٣ .

هـ - عبيد الله بن جحش

هو عبيد الله بن جحش بن رثاب بن يعمر الاسدي ، من بني أسد بن خزيمة ^(١) ، وكان يكنى بأبي جحش ، وأمه أمية بنت عبد المطلب ، وله عدد من الاخوة دخلوا الاسلام ^(٢) ، منهم أم المؤمنين زينب بنت جحش ^(٣) .

وأخباره - فيما نعلم - يسيرة وغير مفصلة ، وقد سبق أن علمنا أنه أحد القرشيين الذين اجتمعوا في يوم عيد لهم - على حدة - واتفقوا على البحث عن الدين الذي ضل عنه قومهم .

وخلاصة أمره أنه بقي بعد ذلك مرتابا في دين قومه ، ويعيدا عنهم وعن عبادتهم ملتبسا عليه الامر حتى أنقذه الله ببعثته خاتم الرسل فدخل في الاسلام .

وبعد أن بدأت هجرة المسلمين الى الحبشة كان ممن هاجر في المرة الثانية ولكنه عند ما وصل الحبشة فارق الاسلام وتنصر وهلك هناك ^(٤) .

ونحن نعجب من قصته هذه ، ولا ندري ما الذي أعجبه من النصرانية حتى ترك الاسلام ، ولم يتنصر قبل ذلك وهو في شك من الدين ؟ ومن الجائز أن يكون غير مخلص في تحققه ، ولعله لم يفقه كثيرا في الاسلام . وغير بعيد أن الحبشة لا تخلو من النصاري المخلصين ، الذين يدعون الناس الى دينهم حتى استمالوه الى ذلك ، وقبل ذلك كله فنحن نؤمن حق اليقين أن الله يهدي من يشاء ، ومن يضل الله فليس له من هاد .

وقد هاجر الرجل ومعه زوجته " أم حبيبة بنت أبي سفيان " ^(٥) ولكنها ثبتت على

(١) الاصابة : ٦٥١/٧ .

(٢) انظر أخبارهم في انساب الاشراف : ١٩٩ - ٢٠١ .

(٣) انظر ترجمتها رقم " ١١٢٢١ " . الاصابة : ٦٦٧/٧ .

(٤) سيرة ابن هشام : ٣٤٤/١ ، انساب الاشراف : ١٩٩ ، ٢٠٠ .

مروج الذهب : ٧٤/١ ، ٧٥ .

(٥) انظر ترجمتها وزواجها في انساب الاشراف : ٤٣٨ ، الاصابة : ٦٥١/٧ .

الاسلام ، وعوضها الله خيرا منه اذ تزوجها بعده سيدنا محمد - عليه الصلاة والسلام -
فكانت احدى امهات المؤمنين .

ويقال انه كان يقول للمسلمين - بعد ما تنصر - " انا فقّحنا وصاّصاتم " ^(١) يريد
أبصرنا وأنتم تلتسون البصر .

وكانت وفاته فيما قيل أنه أسرف في الشراب من الخمر حتى مات غرقا منها ، وقيل بل
غرق في البحر ، ولعل القول الاخير أرجح والله أعلم . ^(٢)

(١) هذا مثل : يقال للكلب اذا فتح عينيه بعد ما يولد وهو جرو : فقد فقّح ،

واذا كان يريد فتحها ولم تفتح صاّصا .

(٢) مروج الذهب : ١ / ٢٤٠ .

٦ - أمية بن أبي الصلت

يعتبر أمية بن أبي الصلت أشهر الحنفا قاطبة ، وذلك لكثرة ما روت المصادر من شعر ينسب له ، وشعره هذا كما يكشف لنا جزئيا طيبا من حياة أمية فانه يبين لنا شيئا لا يستهان به من جوانب التحف عند هؤلاء الحنفا .

عاش أمية في الجاهلية وأدرك الاسلام ، ولم يسلم ، فهو شاعر جاهلي لأنه قضى أكبر حياته في الجاهلية ، وهو ثقفي نسبة الى قبيلته ثقيف التي كانت تقطن الطائف وما حولها آنذاك ، وقد اشار اليها مفتخرا بها من قصيدة له :

قومي ثقيف ان سألت وأشرتسى . . . وبهم أدافع ركن من عاد انسي (١)

وينتسب أمية الى أصل شريف ومحمد كريم ، فأمه رقية بنت عبد شمس بن عبد مناف (٢) حيث يلتقى مع الرسول في النسب الكريم ، فأمية له ختوله في بني عبد مناف ، ولهذا نرى له أخبارا كثيرة في مكة ان كان له بها نسب ومقام كريم في فترات من حياته ، فهو فيما يبدو على صلة لا تنقطع بها وما يدور فيها .

أما أبوه أبو الصلت فاسمه عبد الله بن أبي ربيعة بن عوف بن عقدة بن قسي ، ويقال (٣) :

هو أبو الصلت بن وهب بن علاج بن أبي سلمة ، يكنى أبا عثمان ، ويقال أبا القاسم .

وأبو الصلت هذا أحد مشاهير الطائف ، ومن شعرائها المعدودين ، وتذكر له المصادر شعرا في مدح الفرس وسيف بن ذي يزن في طرد الحبشة من اليمن (٥) ، لاتصاله بهم ومشاركته فرحة ذلك النصر العجيب .

ومن قول أبي الصلت في ذلك (٦) :

لله دَرَهُمْ من عصبة خرجوا . . . ما إن ترى لهم في الناس أشالا

(١) ديوان أمية ص ٥٠٠ ، صنعه د . عبد الحفيظ السطلي ، ط ٢ (١٩٧٢) دمشق .

(٢) جمهرة أنساب العرب لابن حزم ٢٦٩ ، الاصابة ٥٥٣ / ١ ٢٥٠ / ١ .

(٣) الاغانى ٤ / ١٢٠ .

(٤) الاصابة ١ / ٢٥١ .

(٥) انظر هذه القصة في السيرة لابن هشام ٦٢ / ١ وما بعدها .

(٦) اختلف في نسبة هذه القصيدة الى أبي الصلت ، وقد قيل هي لأمية قاله ابن هشام =

يَيْضًا مَرَايَةً غَلِيًّا اسْأَوْرَهُ . . أَشَدَّ تَرَبُّبُ فِي الْفَيْضَاتِ أَشْبَالًا

وكان لأمية بن أبي الصلت عدد من الاخوة أشارت اليهم المصادر منهم هذيل بن أبي الصلت (١) وذكر الجاحظ (٢) ربيعة بن أبي الصلت ، ولعل الجاحظ وهم في ذلك والذي أشار اليه صاحب الاغانى (٣) أنه ربيعة هو ابن أمية بن أبي الصلت الشاعر . وله بجانب ذلك اختان هما عاتكة بنت أبي الصلت الشقمية (٤) والفارعة بنت أبي الصلت (٥) .

وقد دلت المصادر على أن له عددًا من الاولاد ، جاء ذكرهم في الاغانى (٦) ، وكانوا أربعة بنين هم : عمرو وربيعة وهوب والقاسم ، وقد توارث الشعر في هذه الاسرة ، فكما كان والد أمية وجده شاعرين ، فقد كان القاسم وربيعة ابني أمية شاعرين ، ذكر فسى الاغانى بعض أبيات لهما .

حياته :

نشأ أمية بن أبي الصلت واشتهر أمره بتطلعه للنبوة ، ولا تظهر لنا حياة صباه وأيام شبابه واضحة فيما نملك من مصادر ، والملاحظ لنا من شعره أنه لا يخلو من

= ١/٦٥،٦٦ . الا أن آخرها بيتا نسبته للنايفة ، الا أن ابن سلام قال :

(١/٥٨،٥٩) ان النايفة اجتلبه في شعره ، والرواة مجمعون أن أبا الصلت بن ابي ربيعة قاله ، وهذا ما يقوى نسبة القصيدة لابي الصلت ، ويبعد ها عن أمية ، المرادية جمع مرزبان . مُعَرَّب من الفارسية وهو عند هم رئيس القوم ، الفارس الشجاع المقدم عليهم ، عَرَّ : جمع أغر وهو الابيض الوجه المتلألئ ، الفيضات : جمع غيضة وهي الأجمة ، عندما مغيض يجتمع ، فنبت فيه الشجر الكثيف اللطيف تألفه وتسكنه الأسود .

(١) انظر خبره في امتاع الاسماع : احمد بن علي المقرئ : ١/٤١٧ ط (١٩٤١ م) مصر .

(٢) كتاب القول في البغال " رسائل الجاحظ " ٢/٢٥٨ .

(٣) الاغانى : ٤/١٢١ .

(٤) الاصابة : ٨/١٣ .

(٥) البداية والنهاية : ٢/٢٢٤ .

(٦) ١٢٠/٤ ، ١٢١ .

اشارات تدل على ما يجنح اليه شباب عصره من غزل ومجون ربما كان له هنه حظ يسير ،
فها هو يذكر ليلى ود يارها التى تتطلع اليها نفسه فيقول : (١)

وانى بليلى والد يار التى أرى . . . لكالمبتلى المهنى بشوق موكّل
كما يرد فى شعره ذكر لغير ليلى ^{ويقول} ~~ويعنى~~ فى مجمرته : (٢)

عرفت الدار قد أقوت سنينا . . . لزيتب ان تحمل بها قطينا (٣)

ونسب له شعر فيه ذكر لقضائه ليلة مختلصة تمتع فيها بما يحذر انكشافه ، وكانت تلك
الليلة كالقيلة على حذر فى سرعة انقضائها . (٤)

ومهما يكن شأن مثل هذه الاشارات القليلة فى شعره فشبابه * لم يكن ذا طابع
خاص به ، كما كانت كهولته وهرمه ، وانما فيه الغزل ، وفيه المرح ، وفيه الاندفاع
والغفر ، الا أنه لم يكن على ما يبد وصاحب مجون كامرئ القيس وطرفة بن العبد ،
ان لا يعقل أن يكون التآله والحكمة أمورا طارئة عليه ، ولا بد أن تمتد جذورها الى
أعماق نفسه الأولى . (٥)

والذى يظهر أنه بعد علمه بأن نبيا سيبعث من العرب وخامره أن يكونه ، فيدل
أمره وأخذ نفسه بجد وصرامة ، حتى تكبد الأسفار وعاشر الرهبان والأخبار ليزداد
علمه بالنبوة وما يكون من شأن الأنبياء* .

وقد دلت المصادر أنه * نظر فى الكتب وقراها ، ولبس السوح تعبدا ، وكان ممن
ذكر ابراهيم واسماعيل والحنيفية ، وحرّم الخمر وشك فى الاوثان ، وكان محققا ، والتمس
الدين وطمع فى النبوة ، لأنه قرأ فى الكتب أن نبيا سيبعث من العرب ، فكان يرجو
أن يكونه ، فلما بعث النبي صلى الله عليه وسلم قيل له : هذا الذى كنت تستريث

(١) ديوان أمية بن أبى الصلت ، ص ٥٢ .

(٢) ديوان أمية : ٥٠٣ .

(٣) القطين : ساكن الدار المقيم بها .

(٤) ديوانه : ٥١٠ وما بعدها .

(٥) ديوان أمية : ٤٤ .

وتقول فيه فحسده عدو الله وقال انما كنت أرجو أن أكونه^(١).

وقال "ابن دريد"^(٢) : "وكان بعض العلماء يقول : لولا النبي صلى الله عليه وسلم لا دعت ثقيف أن أمية نبي ، لأنه قد دارس النصارى وقرأ معهم ، ودارس اليهود وكسل الكتب قرأها ، ولم يسلم".

والروايات التي تتحدث عن تطلب أمية للنبوة وطعمه الكبير فيها ، ورحلاته العديدة إلى بلاد الشام حيث يمر في طريقه وفي الشام بكثير من علماء اليهود والنصارى ، الذين ربما صانعهم في كثير مما يذهبون إليه وتلمسه خبر النبوة ومكانها وصاحبها ، وما حدث له من غم وحزن عندما فاتته وامتناعه عن قبول الاسلام ، إلى غير ذلك . . . كله منتشر ومفصل في بعض المراجع^(٣) ، ويطول بنا الأمر لو أردنا تتبع بعض هذه الروايات ، ومع ذلك فمؤداها يلتقى مع ما ذكرت.

وليس بعيداً أنه قضى الشطر الأكبر من حياته وقد خامرت فكرة النبوة وعلق عليها آماله المعراض ، وما ينسب له من الشعر يدور في فلك مذهبه الديني ، وما علمه من أحوال الآخرة وما ينبغي أن يكون عليه من كان له ذلك المصير ، حتى قال :^(٤)

كُلُّ دِينٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ اللَّهِ . . . لَهُ إِلَّا دِينُ الْحَنِيفَةِ زَوْراً
وكان يخشى الكفر ويرجو الايمان في كل حين ، كما قال :^(٥)

يَا رَبِّ لَا تَجْعَلْنِي كَافِراً أَبَداً . . . وَاجْعَلْ سَرِيرَةَ قَلْبِي الذَّهْرَ إِيمَانًا

كما كان يخاطب نفسه في حذر من الاغترار بما في الحياة من باطل عن الحق ، ومطالبها بلزوم الحق ، فالموت من وراء الحياة ، والبعث من بعده ، فالخلد ليس لانسان ،

(١) الأغاني : ١٢٢/٤ ، الاصابة : ١٣٢/١ ، الخزانة : ٢٤٩/١ .

(٢) الاشتقاق : ٣٠٣ .

(٣) تاريخ ابن عساكر ١١٥/٣ ، وما بعدها ، البداية والنهاية ٢٢١/٢ وما بعدها ، الأغاني ١٢٢/٤ وما بعدها .

(٤) ديوان أمية : ٣٩٣ .

(٥) السابق : ٥١٨ .

(١) قال :

الا أيُّها القلبُ المقيمُ على الهوى .. الى أيِّ حينٍ منك هذا التَّصَدُّدُ
عن الحقِّ كالأغصانِ المُطَيَّرِ عن الهدى .. وليس يرثُ الحقُّ إلا مُفْتَقِدُ
فأى فتى قبلى رأيتَ مُخْلَدا .. له فى قدِيمِ الدَّهرِ ما يَتَوَدُّ
فكن خائفاً للموتِ والبُعْثِ بعْدَه .. ولا تَكُ بَمَنِّ غَرِّه اليومُ أو غَدُ

ويحفل ديوانه بالكثير من القصائد التى تدل على دينه ، وحرصه عليه قبل أن يصدى
ببعثه الرسول عليه الصلاة والسلام ، ولا نبعد أن قلنا ان هذا كان من وراء مقولة
الأصمعى الشهيرة " ذهب أمية فى شعره بعامة ذكر الآخرة " (٢)

وتشير بعض المصادر الى اشتغال أمية بالتجارة وسفره لها وخاصة مع سادة قريش
كأبى سفيان ، وكانت هذه الاسفار تتجه - كما هو مألوف - الى اليمن فى الشتاء والى
الشام فى فصل الصيف .

وقد دفع شعر أمية فى مدح ابن جدعان وأخباره التى تدل على حياته متخيلا
الأنبياء والملائكة وجيشان الام الخالية على خواطره واغراقه فى السؤال عن النبوة أحد
الباحثين (٤) الى الشك فى عمل أمية بالتجارة ثم ثرائه منها ، ومع ما ذهب له الباحث
الفاضل من تحليل ورأى حسن فلا أستبعد متاجرة أمية فى رحلاته هذه ان لا مانع من
ذلك ، فقد كانت القوافل تروح وتغدو وفى أموالها من لا يحضر سفرها ورحلتها
من أرباب التجارة ، ولا مانع أيضا أن يمدح ابن جدعان وينال وفده وهو غنى ، ان لا
يشترط فى الشاعر أن يكون فقيرا ، ولا يتنافى مع ذلك اشتغاله بأمر النبوة والآخرة ،
خاصة وأن ما يطمع الوصول اليه يحتاج بذاهة الى الكثير من الاموال حتى يكمل بها
ما يعترض طريقه من عراقيل .

(١) ديوان أمية : ٣٧٣ .

(٢) الأغاني : ٤ / ١٢٥ .

(٣) تاريخ ابن عساكر : ١١٥ / ٣ ، البداية والنهاية : ٢٢١ / ٢ .

(٤) الدكتور السطلى ، جامع ديوان أمية ومحققه ص ٤٨ - ٥١ .

ديانتته :

أما إذا أردنا أن نعلم الدين الذي كان عليه أمية ، والمعتقد الذي سيطر عليه في حياته ، فأننا بحاجة الى سعة من القول حتى يظهر لنا ذلك ، وخاصة أن الرجل خير من بقى له شعر - ينسب اليه - يفيدنا في دراسة هذا الامر والوقوف منه على يقين أو ما يقترب منه فيما نذهب اليه .

ولا ريب أن هذا أمر دقيق ، وله دلالة في هذا البحث . ومن نعم الله علينا - وكم لله علينا من فضل - أننا سبقنا بدراسات جادة حول هذا الموضوع ، وقد أنارت لغيرنا السبيل وأفدنا منها الكثير دون تكران (١)

وقد سبق أن علمنا أن أمية * نسب بحق أو دون حق - الى الحنيفية ، وترتب - بهذا الامر قضية أصالة شعره ، الذي يمكن أن يفسر في اطار انتمائه الى الحنيفية ، وهو موضوع طرح كثيرا أثبتته البعض ونفاه البعض الآخر . (٢)

ويبدو لي أنه من الممكن أن ينحصر الحديث في هذا الموضوع في ثلاثة أمور :
وهي الأدیان التي اختلفت الآراء حول دين أمية من بينها ، وهي النصرانية واليهودية والحنيفية .

أما النصرانية فقد نسب اليها * ولهوزن* وأدخله في شعرائها الأب لويــــــــس شيخو في كتابه المعروف بشعراء النصرانية ، وكان من طريقته في ذلك الكتاب ان يذكر الشاعر ثم يجمع ما يريد منه من المصادر التي يذكرها في آخر أخبار الشاعر وشعره . وعادته أن يذكر بعض المراجع ولا يستقصي كل ما كتب عنه وربما قال (٣) - كما في ترجمة

(١) انظر بعض هذه الدراسات في تاريخ التراث العربي - المجلد الثاني ، الجزء الثاني : (٣٣١ ، ٣٣٢) وكل هذه الدراسات بلغات أجنبية لم اتمكن من الحصول عليها أو ترجمتها ، وانما أعني الدراسات العربية كالذي كتبه الدكتور السطلي في ديوان أمية ص (٥١ - ٧٠) .

(٢) تاريخ التراث العربي د . فؤاد سزكين ، ترجمة : د . محمود فهمي حجازي . ط (١٤٠٣) جامعة الامام محمد بن سعود . الرياض ، المجلد الثاني - الجزء الثاني : ٣٢٩ وأشار فيه لبعضهم .

* ديوان أمية : ٦٥ .

(٣) شعراء النصرانية : ٢٣٧ .

أمية - " رويتا ترجمة أمية عن نيف وعشرين كتابا من كتب الائمة منها مخطوطة ومنها مطبوعة نخص منها بالذكر مجاميع شعرية من الشعر القديم . . . ثم يذكر بعض تلك الكتب .

ولعل هذه الطريقة هي التي جعلته يلف الموضوع لفا يصعب معه معرفة مصدر كل فقرة في أى موضع ، وزاد الطين بلة تلك المجاميع الشعرية من الشعر القديم التى لا يعلمها القارئ حتى يرجع اليها وقت الحاجة وعند الخلاف ، ومدى الثقة بها .

وعلى الرغم من أن هذه ناحية غير قوية فى هذا الكتاب ولا نستهدف منها الا بيان المنهج الذى أخذ به نفسه أصبح من المتعارف عليه عند بعض الباحثين أن يطلق على هذا الكتاب : شعراء الجاهلية * بدلا من شعراء النصرانية فى الجاهلية ، وهذا بلا تعصب أحق بالكتاب من ذاك ، والسبب واضح فى أن مؤلفه لم يزد أن حشر فيه جل شعراء الجاهلية دون أن يورد أدلة كافية على تنصير هؤلاء الشعراء .

وأظن أنه أصبح الان متعارفا بين أوساط المثقفين فضلا عن كبارهم أن هذا الزعم الذى زعمه شيخو لا يصح ، ولا يستقيم له الدليل ، ولا مجال لي هنا أن أزيد شيئا غير ما سبقته به مما يكفينا باقتناع فى هذا (١) .

وقد ساق شيخو أمية فى شعراء النصرانية (٢) ،

وقد سبق لنا العلم أنه زعم أن الحنيفية التى عرفتها الجاهلية شيعة نصرانية (٣) ، وأما أمية فقد قال مدلا على اعتناقه النصرانية : " ومنهم " يعنى شعراء النصرانية " أمية بن أبى الصلت ، الذى ترى ديوانه مشحونا بتعاليم النصارى ، مع منقولات متعددة عن الاسفار المقدسة ، كسفر الخليفة ، وخلقة آدم وسقوط الابوين الأولين باغراء

* منهم المرحوم الشيخ أحمد محمد شاكر ، والاستاذ : عبدالسلام هارون فى كثير من كتاباتهما .

(١) انظر التمهيد " ج " من هذا البحث .

(٢) شعراء النصرانية : ٢١٩ - ٢٣٧ .

(٣) انظر فى الفصل السابق ذلك .

الحية)والطوفان ، وذكر الأنبياء والرسل والسيد المسيح ومريم العذراء^(١) .
وحسبى فى الرد على هذا الزعم أن أورد ما ذكر الدكتور السطلي مفندا ذلك
باختصار ، فقد كان فى رده ما يكفى لبطلان تنصر أمية عند من وقف عليه .
ان وجود القصص الدينى عند أمية وذكره الأنبياء والرسل ، لا يكفى للبرهنة
على نصرانيته ، وقد سلطنا من قبل برحلاته الكثيرة وأنها كانت طلبا للدين ومجالسة
لأهل الكتاب ، كما لا ننكر أيضا تأثره بأديان الجزيرة وما يحيط بها من يهودية
ونصرانية ، فلهذا فوجود تلك الامور فى شعره هو صدى لتأثره بالنصرانية . وتأثير
الرجل بهذه العقيدة شئ واعتناقه لها شئ آخر ، شأنه فى ذلك مانراه من تأثر
الاعشى باساقفة نجران وتجار الحيرة الذين كان له معهم صداقه حمية ، وكذلك
النابغة الذبياني ، وكلاهما تأثرا بالنصرانية ولم يكونا نصارى كما ذهب الى هذا
نيكلسون فى تاريخ الادب العربى .

ومع هذا فلو كان أمية نصرانية لرأينا أثر ذلك فى أخباره وأشعاره التى لا تتفق مع
العقيدة النصرانية .

وهناك أمر آخر وهو الاجماع على أن أمية حرم الخمر ، وهذا أمر لانراه عند رجل
على دين المسيح ، ومع ذلك فتوجد أخبار تدل على شربه الخمر مع ابن جدعان^(٢) ، وهذه
الاخبار مضطربة .

وهناك رواية أخرى لا تذكر أمية فى سبب تحريم ابن جدعان^(٣) للخمر
فهذه الرواية الأخيرة واجماع الرواة على تحريمه للخمر ثم ما وجد من شعر ينسب له
فى تحريم الخمر كقوله :

-
- (١) النصرانية وآدابها بين عرب الجاهلية (مجلة المشرق) . مجلد ١٥ / ٤٦٠
(٢) نهاية الأرب ١١١ / ٤ ، النويرى ط . وزارة الثقافة والارشاد - مصر ، الاشتقاق
١٤٣ ، ١٤٤٠ .
(٣) انظر ديوان أمية : ٥٧ - ٥٨ .
* ديوان أمية : ٣٦٧ .

فاغفر لعبد ان أول نُتْبِه . . شربُ وإيسارُ يشارُكها د (١)

كل هذا ينقض الروايتين التي تزعم أن أمية شرب الخمر ولا نستبعد وضع الرواية لها. ولو كان أمية نصرانيا لا شار الرواة الى ذلك كما أشاروا الى نصرانية عدى بن زيد (٢) أو غيره ، وابن هشام وابن سلام وابن قتبية والأصفهاني وغيرهم ، كانوا أقرب منا الى عصره ، وأعلم منا بما يتناقله الناس حوله ، ومع ذلك لم يشر أحد منهم الى تنصره أو تهوده ، واجماع مثل هؤلاء يصل بنا الى درجة الثقة في مثل هذا .

وقد استدل شيخو على نصرانيته أيضا بذكره المسيح ومريم العذراء في شعره كما يرى ، والبيت الذي ذكر فيه مريم قوله ان صحت نسبه له :

وفي دينكم من ربِّ مريم آيةٌ . . مَبْنُوءٌ والعبدُ عيسى بن مريم

وأما ذكر عيسى - عليه السلام - فقد جاء في أبيات يتحدث فيها عن يوم الحساب وما فيه قائلا :

والناس راثٌ عليهم أمرُ ساعتهم . . فكلُّهم قائلٌ للدين إيانا

أيامُ يلقى نصارا هم سيحُّهم . . والكائنين له وداً وقربانا

هم ساعدوه كما قالوا لهم . . وأرسلوه يسوق الغيث دسغانا (٣)

أما البيت الاول فلو صح لأمية لما كان فيه شاهد على نصرانيته لأنه لا يقول : " وفي ديننا من رب مريم آية ، وانما يقول : " وفي دينكم " فكأن الامر لا يعنيه هو بالذات بل يشير اليه لوجود ذلك في عقيدة طائفة من الناس ، وقد قوى هذا الرأي المستشرق دكليمان هوار ونص على أنه لا يتصور أن ناسخا سلما وجد الدليل على نصرانية هذا

(١) الد : اللهو واللعب ، واوه محذوفه كما في الغد .

(٢) الاغانى : ٩٧ / ٢ .

(٣) ديوان أمية : ٥١٩ ، ساف الشيء يسوفه : شمه ، والسافة بعد المفازة والطريق ، وأصله من الشم ، وهو أن الدليل كان اذا ضل في قلاة أخذ ترابا فشمه فعلم أنه على هديه ، والغيث : المطر ، والمعنى مواقع المطر ، الدسغان المطالب للشيء والباحث عنه .

الشاعر ثم عمد الى تغيير النص لأنه لا يجني من ذلك شيئا .

وأما الأبيات الأخرى فهي من قصيدة^(١) لا تخلو من دواعي الشك فيها ، ولو صححت لامية فانه يتحدث فيها عن الحنيفية بوجه خاص ، ونرى من خلالها إنسانا يسعى الى الدين ، ويسأل عن نبي يخبره عما وراء الحجب ، ورجل يتحدث بهذه الامور فلا يعلم ما وراء الحجب ويتساءل عن نبي ينقذه من هذه الحيرة ويعلمه ما جهله قبله زهير بن ابي سلمى ، لا يمكن أن يكون نصرانيا ، أو يهوديا ، لان اليهودى والنصراني لا يتشكك ولا يسأل عن ذلك ، ولكن هذا شأن الحنفاء والذين كان أمية أحدهم وهذا جانب من حالتهم الفكرية .

وفي القصيدة يستعبد برب الحبيب الذين جاءوا اليه لا يبتغون بثوابه اى ثمن والحج والبيت وسائر الشعائر لا تبحث عنها فى الاسفار المقدسة ، وانما تبحث عنها فى بقايا دين الحنيفية بين العرب قبل الاسلام ، وكل هذا من أسس الحنيفية الاصلية . ثم تأتى الأبيات التى استشهد بها " شيخو " فلا نجد فيها الدليل ، ذلك أنه قال : " أيام يلقي نصاراهم سيحهم " ولو كان نصرانيا حقا لقال : " أيام تلقى سيحنا " أو الهنا . . . " أو غير ذلك لكن الامركا بيد ولا يعنى أمية مطلقا ، وهذا قريب ما مرفى البيت السابق^(٢) . والحق أن التأمل فى شعر عدى بن زيد كقوله :^(٣)

وأوتيا الطلُك والانجيلَ نقرؤه . . . نَشْفِي بِحِكْمَتِهِ أَحْلَانَا عَلَا
من غيرِ حاجةٍ إلَّا ليجعلنَا . . . فوقَ البريةِ أَرْبَابًا كَمَا فَعَلَا

وهى من قصيدة له فى نزول آدم من الجنة لتدلنا على الفارق بين عدى الذى اعتنق النصرانية وظهر ذلك فى شعره وان كان أثرها فيه رغم ذلك ضعيفا كما ذهب اليه الدارسون^(٤) - ليرينا الفرق بين تأثر عدى وتأثر أمية الذى تجمع هذه الأدلة على نفي النصرانية عنه .

(١) القصيدة فى الديوان : ٥١٩ .

(٢) ديوان أمية باختصار : ٥٦ - ٥٦ .

(٣) الحيوان : ١٩٨/٤ ، ١٩٩ .

(٤) عدى بن زيد العبادى : ٦٠ ، ٦١ .

أما اعتناقه لليهودية بعد أن انتفت عنه النصرانية فهو رأى أضعف من الاول - فيما نرى - ومع ذلك فلا مناص من النظر في هذا الرأى فلكل رأيه واجتهاده ، وإن كان يلوح من آراء شيخو في التنصير وصاحب يهودية أمية المكر والتضليل على أئمة المسلمين كما اتضح ذلك في كثير مما أصدره من كتب ومقالات في ما ملأه من مجلات .

وجورجى زيدان هو الذى اعتبر أمية يهوديا لانصرانيا بعد أن فند رأى شيخو بالنقد مبينا أن أمية " ما انفك يختلف الى الديور ^(١) والكنايس ، يجالس الرهبان والقسوس ، حتى غلب على ظن البعض ^(٢) أنه مسيحى ، ولا دليل على ذلك سوى اختلافه الى الكنايس ومجالسته القسيسين وذكره الله وبعض أنبيائه فى أشعاره ، ولكن ذلك كان من شأن العرب على اختلاف أديانهم حتى الوثنيين ، فلا يصح اتخاذ دليل على نصرانيته ولو كان نصرانيا لذكر المسيح فى أشعاره ولو مرة ، كما ذكر " ابراهيم " و " سحاق " و " اسماعيل " والسما " والجنة والبعث ، ولما خطر له أن يدعى النبوة ، ولا يتوقع مجئ النبى ، وليس فى تعاليم النصرانية ما يدعو الى ذلك ^(٣) ، فالأقرب والأظهر أن يكتسب يهوديا ، لأن اليهود كانوا وما يزالون يتوقعون مجئ مسيح أو نبى ، وقد أشار السعوى الى نصرانيته فقال : ومنهم من زعم أنه مات نصرانيا ، ولم يدرك ظهور النبى ولم يدركه أبوه ، ومنهم من رأى أنه مات سلما ، والذى نراه أنه لم يكن هذا ولا ذاك ^(٤) .

ومع ما فى رده هذا فقد أرفه بآخر يقوى ما ذهب اليه قائلا : وله غير ذلك فى وصف الآخرة وغيرها وقد جاء فى أكثرها على أوصاف تطابق التوراة والزبور ، وبعضها منقول حرفا حرفا ، ولكننا لم نجد بينها شيئا ينطبق على تعاليم الانجيل ، وذلك

(١) قال الدكتور السطلى : كذا " أى وردت عن زيدان " وجمع الديور أديار . ص ٦٥ .

(٢) قال الدكتور السطلى أيضا : كذا بالألف واللام والصواب أن تجرد منها .

(٣) ذكر هذا وهو باطل بنص القرآن انه كان عيسى قد بشر بأحمد كما أمره الله ، قال تعالى : " وإن قال عيسى ابن مريم يا بنى اسرائيل إني رسول الله اليكم بمصدق لما بين يدي من التوراة ومبشرا برسول يأتي من بعدى اسمه أحمد . . . " الصف : ٦ .

(٤) مجلة الهلال الجزء ١٦ من السنة التاسعة (١٩٠١ م) ص ٤٥٢ - ٤٥٣ .

يضعف قول القائلين بنصرانيته ، الا اذا جاءونا بأدلة تزيل هذا الاشكال ، غير ما قد يتبادر الى الذهن من ضياع أشعاره التي أورد فيها ذكر السيد المسيح أو حواريجيه ، فان العبرة في مؤدى النظم في اجماله ، لأن لتعاليم الانجيل نسقا يدل على نصرانية ناظمها ولو لم يذكر السيد المسيح في نظمه ، كما يدل وصف الجنة مثل ما وصفته التوراة على أن الواصف كان يهوديا أو يعتقد اعتقاد اليهود . (١)

ونحن لا نتفق مع هذا الرأي الذى نعدّه غريبا مع استناد صاحبه الى قول السعوى ، الذى يقوى ما ذهبنا اليه من نفي النصرانية عنه بقوله : " زعموا . . . " ، ولا نكاد نبعد في الرد عليه بما سلف أن ردّ به على من زعم نصرانية أمية ، ان لا وجود لهذا الرأي عند العلماء السابقين الذين لم يكن يعينهم ديانة أولئك الشعراء الجاهليين في قليل ولا كثير ، كما يهتم بذلك شيخو على سبيل المثال ، وقد اتفقت المصادر على أنه أخذ من أهل الكتاب ، وشامهم ، وقرأ الكثير من الكتب ، ومع ذلك فلم نعلم من أشار الى اعتناقه اليهودية ، وانما لانكر أنه علم من علم أهل الكتاب شيئا ، وما علمه منهم أن نبيا سيبعث ، وهذا العلم لا يقوم دليلا على أن صاحبه يهودى الديانة ، والتأثر بالعلم شئ ، والدين شئ آخر .

وقد فند رأيه أيضا الدكتور السطلي بأمرين على ما ذكر :

" الاول : أن معظم تلك القصائد التى يظن أنه أخذها من التوراة ولا سيما وصف الجنة ، هي من الشعر غير الموثق فى نسبته إلى أمية ، لأنه فى واقعه لا يتشابه مع التوراة الا فى المعنى العام ، فى حين يتشابه مع القرآن فى المعنى واللفظ والصياغة ، واحيانا يستمد من القرآن عبارات وأسطارا بكاملها ، مما يشير الى وضعه فى عصر متأخر عن عصر أمية . . . "

الثانى : الذى يمكن أن نرد به على حجة زيدان ، هو أن مانجدة من آثار للتوراة فى شعر أمية الدينى الموثق ، لا يمكن أن يتخذ دليلا على يهوديته ، لأنه اثر من آثار ثقافته الدينية وصدى لما كان بين أعراب الجزيرة من عقائد واخبار متناقلة

عن الامم البائدة ، والثقافة والتأثر شئ ، والايان بالعقيدة شئ آخر ، وليس
المدار في تحديد عقيدة الرجل الا على ايمانه الكامل بالتحاليم الاساسية لعقيدة من
العقائد ، فان وجد في شعره ايمان بالعقائد الاساسية للنصارى فهو نصراني
وزيدان نفسه لا يرى شيئا من ذلك ، وان وجد في شعره ايمان بالعقائد الاساسية
لليهود فهو يهودى ، ولو وجد زيدان شيئا من ذلك ، لسبق إلى ذكره ، ودعهم
رايه بالأدلة والبراهين .^(١)

لقد أتضح لنا الآن أن أمة لا يصح الاعتقاد بدايانتها لنصرانية أو يهودية ، ولم
يبق لنا الا الرأى الاخير وهو القول بحنيفيته . ومع أن نفى اليهودية والنصرانية
عنه يكفي بدهاءة للقول بتحنفيه ، فاننا لا نكتفى بذلك بل لابد لنا من الوقوف على ما يشهد
أسر ذلك كى يقوم على بصيرة وبرهان .

ونحن اذا أمعنا النظر أولا في سيرة أمة التي تدل عليها المصادر ، فقد علمنا
أنه قرأ الكتب في الجاهلية ، ولبس السوح وتعبد بذكر ابراهيم واسماعيل والحنيفية ،
وحرم الخمر ، وشك في الاوثان وتجنبها ، وطعم في النبوة عند ما علم ببعثه نبي في
العرب ، فلما بعث النبي حسده ولم يسلم .^(٢)

وهذه الامور تتفق مع ذلك الاتجاه العام الذى كان عليه الحنفاء ، كما نعلم
- فيما مر بنا - وأهم ما يعيننا من هذه الأخبار ، أنه تعبد بذكر ابراهيم واسماعيل
والتمس الحنيفية فهذه من أخص ما كان عليه الحنفاء ولا سيما المخلصون منهم ، والذين
لم يتعبدوا أو يدبثوا بغيرها من يهودية أو نصرانية ، مع علمنا بدخول بعضهم فيها
فقد كانوا يبحثون عن دين ابراهيم - ابيهم - الذى ابتعدوا عنه ونسبوه ولم يبق لهم
منه الا القليل .

ثم تحريم الخمر كما مر بنا وهذا يتفق مع الحنفاء الذين اجتنبوا هذا العمل
الخبث ، ورأوا فيه من الفساد والضرر ما دفع العاقل أن

(١) ديوان أمة : ٦٧ ، ٦٨ .

(٢) الاصابة : ٢٥٠ / ١ ، الاغانى : ١٢٢ / ٤ .

يربأ بنفسه من الولوغ فيه .

ثم تجنب الأصنام ، وعدم الاحتفال بعبادتها ، وقد مر بنا مرارا خبر أولئك الأربعة الذين ذكرهم ابن هشام وقد شكوا في دينهم وقالوا : قد علمت ان قومكم ليسوا على شيء كتابه عن بطلان دين قومهم وضاللتهم عن دين ابراهيم ^(١) ، وقد كان الحنفاء لا يعبدون الأصنام بل ولا يابسون بها ، وما ذاك الا لاقتناعهم ببطلانها .

ومع أنهم لم يعبدوا الاوثان فقد علمنا حيرتهم ، وكيف كانوا يجهلون عبادة الله ويتنون ان يدروا أية وجهه يرضاها الله فيتجهوا اليها .

ثم علمنا أن الحنفاء قد ساحوا في الارض يلتمسون الدين ويبحثون عنه ، كما علم عن أولئك النفر الاربعة . الذين اتفقوا على ذلك ، وقد كان أمة مثلهم فيها هو كما تدل أخباره أنه كان جولا في الارض وكان أكثر رحلاته يلتمس أهل الكتاب ويقرأ كتبهم ويتعلم منهم وأخباره في ذلك مستفيضة ^(٢) .

وحسبنا من الدليل على تحنفه من أخباره وسيرته ما أشرنا اليه ، فكل هذه الامور تتفق مع ما علمناه عن طائفة الحنفاء وما كانوا عليه وبذا قام لنا الدليل على تحنفه من أخباره .

أما شعره فهو الآخر يزيدنا يقينا الى سلامة ما نذهب اليه ، وأول ما يبادرنا فسى شعره أنه يذكر الحنيفية ، وليس ذكر كذكره للمسيح أو غيره مما في دين النصارى ، وانما على أنها الدين الحق الذي لا يعتزق بما عداه ، ولا شك أنه بذ لك يعدح دينه ويرى بطلان ما سواه ، ويقول ^(٣) :

كُلُّ دِينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ اللَّهِ إِلَّا دِينَ الْحَنِيفَةِ زُورٌ

ونرى توحيده لله وعدم اشراك احد معه كقوله ^(٤) :

إِذَا قِيلَ مِنْ رَبِّ هَذِي السَّمَاءُ . . فليس سواه له مُضْطَرَب

(١) سيرة ابن هشام : ٢٢٢/١ ، ٢٢٣ .

(٢) انظر البداية والنهاية : ٢٢١/٢ ، ٢٢٢ ، طبقات فحول الشعراء : ٢٦٣/١ .

(٣) ديوان أمة : ٣٩٣ .

(٤) السابق : ٣٤٣ ، ٣٤٤ .

ولو قيل رب سؤى ربنا . . . لقال العبادُ جميعاً كُذِبَ

وأوضح دليل هن شعرة على توحيد الله ونفي العبادة عما سواه قوله : (١)

رضيتُ بك اللهم رباً فلن أرى . . . أدِينُ إلهاً غيرك الله ثانيها

فمثل هذا القول لا يشك في توحيد قائله ان هو صريح كل الصراحة على أفراد الله بالعبادة دون أى شريك آخر .

ونحن لا نبعد أنه كان موحداً لكثرة ذلك في شعره ويقوى ذلك قوله صلى الله عليه وسلم " آمن شعرة وكفر قلبه " ، وقد صح أيضاً أن الرسول قال فيه " كاد أُمية أن يسلم " (٢) وهذه بلا شك كما تدل على توحيدها فانها تقوى صحة شعره الايماني .

وفي ضوء هذا المعنى يتضح لنا تحنف أُمية ، ان الاصل في الحنيفية التوحيد ونفي الشرك ، ولذا فتوحيد أُمية يخالف دين اليهود والنصارى الذين دل القرآن على فساد دينهم بقوله تعالى " وقالت اليهود عزير ابن الله ، وقالت النصارى المسيح ابن الله . ذلك قولهم بأفواههم يضاهئون قول الذين كفروا من قبل . (٣) " ، ثم أكد القرآن هذا الشرك بالآية التي تلى هذه فقال تعالى " اتخذوا أبحارهم وربائبهم أزواجاً من دون الله والمسيح بن مريم ، وما أمروا الا ليعبدوا الها واحداً لا اله الا هو سبحانه عما يشركون " (٤) .

وعلاوة على ذلك فقد استدل بعض المفسرين (٥) على أن في اليهودية والنصرانية شرك عند تفسيره لقوله تعالى " وقالوا كونوا هوداً أو نصارى تهتدوا قل بل ملة ابراهيم حنيفاً وما كان من المشركين " (٦) .

اننا لا سبيل مع هذه الآيات البيّنات الا القول بتحنف أُمية .

(١) السابق : ٥٣٩ .

(٢) انظر الاصابة : ٢٤٩/١ ، ٢٥١ .

(٣) التوبة : ٣١ .

(٤) التوبة : ٣٢ .

(٥) التفسير الكبير : ٨٠/٤ .

(٦) البقرة : ١٣٥ .

وينبغي أن ننبه أيضا على مانجده من ذكر أمية لحجاج بيت الله واخلاصهم له وأداء المناسك* وكل هذا لانجد له عند اليهود والنصارى أى ذكر. ولا حاجة بنا الى استعراض نظرة أمية الى الملائكة والبعث والحساب وما اليها ، لانها سلمت فى شعره ، وهى لا تختلف عنده عما فى اليهودية أو النصرانية أو الاسلام فيما بعد ، لأنها فى جوهرها واحدة فى جميع هذه الأديان جميعا^(١).

وبعد كل هذا فمن حقنا أن نقول : إن أمية بن أبى الصلت هو أحد أولئك الحنفاء الذين عرفوا فى آخر العصر الجاهلى ، وكانوا يعتقدون بطلان عبادة الاوثان فلم يعبدوها ، واتجهوا مخلصين فى البحث عن دين ابراهيم السليم ، وقد رفض جلهم الدخول فى يهودية أو نصرانية وهؤلاء هم الحنفاء ، أو الموحدون كما قد يطلق عليهم فى بعض الاحيان .

ومع ما انتهينا اليه من أن أمية كان حنيفيا كأحد من عرفوا بذلك لا يفوتنا أن ننبه الى أن أمية مات كافرا كما سنرى ذلك ، وهذا قد يقدر فيما سلف من تحنفه ، وكان طبيعة الامر لو كان أمية صادقا فى ذلك أن يكون أول الداخلين فى الاسلام ، عند ما بعث الله رسوله الامين - عليه الصلاة والسلام - ، ولكن المصادر التى بين أيدينا تبين لنا السبب فى ذلك ، ويرى أكثر العلماء أن أمية قرأ فى الكتب أن نبيا من العرب يبعث ، فرجا أن يكون هو ، فلما بعث الله نبيه القرشي صلى الله عليه وسلم جسده سلم^(٢) يسلم

وقد يبدو من بعض الروايات أنه أراد أن يسلم فلما علم بما جرى لكفار قريش من قتل فى معركة بدر وكان فى القتل بعض أقاربه وأخواله حزن عليهم ، ولعل ذلك ما دفعه الى التراجع عن الاسلام والحنق على نبيه^(٣).

* ديوان أمية : ٥١٨ .

(١) ديوان أمية : ٧٠ .

(٢) الشعر والشعراء : ٤٥٩/١ ، الاغانى : ١٢٢/٤ ، الاصابة : ٢٥٠/١ .

(٣) تهذيب ابن عساكر : ١٢٧/٣ .

وتدل المصادر على أنه قال في ذلك يرثي قتلى بدر ويحرض قریش قصيدته :^(١)

ماذا يبدر فالمعقَّل
من مرأنة جحاح
هلا بكيت على الكرام
م بنى الكرام أولى المهارج

وقد أشار بعض الرواة إلى أن أمية نال من النبي في هذه القصيدة ، ولذا نهى النبي - عليه الصلاة والسلام - عن روايتها^(٢).

ونهب أحد الباحثين المحدثين إلى القول بأن الذي منعه الدخول في الاسلام " موقف قومه ثقيف من الاسلام ألقى عليه العداوة للاسلام والمسلمين " .^(٣)

ومع كل هذه الآراء ، فعندى أنها ساعدت جميعا على ابتعاده عن الاسلام ، وأغلب الظن أن طمعه في النبوة أساس كل ذلك ، خاصة وأن المصادر تشير إلى تورطه في التصريح بذلك لعدد من الناس ، ولهذا قيل إنه قال - بعد ما أظلت الأمر منه - وقد سئل عن امتناعه عن اتباع محمد الذي كان ينعته ويخبر عنه ، قال : " ما يمنعني الا الاستحياء من نساء ثقيف أنى كنت أحدثهن انى هو ثم يريننى تابعا لفلان ممن بنى عبد مناف " .^(٤)

فهذه الامور كما رأينا كانت من وراء كفر أمية بعد أن كاد يسلم ، وهي تدل أيضا على جانب آخر وهو أن اعتقاده وتحنفه وإيمانه بالحنيفية ثابت في قلبه ، وإنما داخله الشك والبعد عن الاسلام من قبل الحسد لمحمد والشك فيه ، خاصة وأنه ربما أوصى غيره باتباع محمد رغم تخلفه هو عن الايمان به والدخول في دينه .^(٥)

(١) ديوان أمية : ٣٤٥ ، ٣٤٦ ، طبقات فحول الشعراء : ٢٦٣ / ١ ، وقال شارح الطبقات : مرأنة : جمع مرزبان : معرب من الفارسية وهو عند هم رئيس القوم الفارس الشجاع المقدم عليهم دون الملوك . جحاح : جمع جحاج : وهو السيد الكريم ، المعقَّل : كتيب رمل يبدر موضع المعركة .

(٢) الاغانى : ١٢٣ / ٤ ، الخزائن : ٢٥١ / ١ .

(٣) عمر فروخ في تاريخ الادب العربي : ٢١٦ / ١ ط ٤ (١٩٨١ م) دار العلم للملايين - بيروت .

(٤) البداية والنهاية : ٢ / ٢٢٤ .

(٥) المصدر السابق ، نفس الصفحة .

أمية وابن جدعان (١)

ولأمية أخبار مع ابن جدعان ، وجل هذه الاخبار أنها تجعله يسبق عليه نعمه
ورفده ، علاوة على تقريبه له والرفع من مكانته لديه ، وذلك بعد أن تتفتق قريحته
أمية الشاعر باطرا' مدوحه والجدود عليه بغير مضجرة ودرر فكره ، حتى لكان من تلك
الأشعار ما طارفي الآفاق ، ولا تزال النفوس منذ ذلك الحين وحتى اليوم تطرب
لسمعه . قال : (٢)

أَذْكُرُ حَاجَتِي أُمَّ قَدْ كَفَانِي . . . حَيَاؤُكَ إِنِّ شَيْمَتَكَ الْحَيَاءُ
كَرِيمٌ لَا يُغَيِّرُهُ صَبَاحٌ . . . عَنِ الْخُلُقِ الْكَرِيمِ وَلَا سَاءُ
وَأَرْضُكَ كُلُّ مَكْرَمَةٍ يَلْتَهُهَا . . . بَنُو تَيْمٍ وَأَنْتَ لَهُمْ سَمَاءُ

وحسبنا أن نقف عند هذين البيتين اللذين يدلان بحق على كرم ابن جدعان
دون ريب حتى إن سائله لا يعتربه ما يعترى المستجدي من غيره من ذلة وضعف وانكسار
قال : (٣)

عَطَاؤُكَ زَيْنٌ لَا مَرِيءَ لِي إِذَا حَبَوْتَهُ . . . بِخَيْرٍ ، وَمَا كُلُّ الْعَطَاءِ يَزِينُ
وَلَيْسَ بِشَيْنٍ لَا مَرِيءَ لِي بِذَلِكَ وَجْهِهِ . . . إِلَيْكَ كَمَا بَعْضُ السُّؤَالِ يَشِينُ

ونحن ان نجتزئ من هذه الاشعار في مدح ابن جدعان نرمي الى الاشارة الى طرف
من أخبار أمية وأشعاره مع ابن جدعان وهي كثيرة ، ولا سبيل الى ايرادها ودراستها
ان هي جانب لا يهمل من حياة أمية .

(١) ابن جدعان كما جاء في الاعلام ٧٦/٤ : عبدالله بن جدعان التيمي القرشي :
أحد الاجواد المشهورين في الجاهلية ، أدرك النبي صلى الله عليه وسلم قبل
النبوة ، وكانت له جفنة يأكل منها الطعام القائم والراكب فوقه فيها صبي
ففرق او هو الذي خاطبه أمية بن أبي الصلت بأبيات اشتهر منها قوله :
أذكر حاجتي أم قد كفاني . . . حياؤك ؟ ان شيمتك الحياء

وانظر تاريخ اليعقوبي : ٢١٥/١ ، وخزانة البغدادى : ٥٣٧/٣ ، والمحبر
١٣٧ ، وانظر فهرسه .

(٢) ديوان أمية : ٣٣٣ ، ٣٣٤ .

(٣) ديوان أمية : ٤٩٩ .

ولندل أيضا على شاعرية أمية من طرف آخر ، وهذا ما اتفقت عليه المصادر ، فقد ورد عن ابن سلام في اثنا ذكره لشعراء الطائف قوله : ^(١) " . . . كان فيهم - أى أهل الطائف - أبو الصلت بن أبي ربيعة . وابنه أمية بن أبي الصلت ، وهو أشعرهم . . . " . وقد قال أبو عبيدة : " اتفقت العرب على أن أشعر أهل المدن أهل يثرب ثم عبد القيس ثم ثقيف ، وأن أشعر ثقيف أمية بن أبي الصلت " ^(٢) .

وقال الكمي : ^(٣) " أمية أشعر الناس ، قال كما قلنا ولم نقل كما قال " ^(٤) .

وحسب أمية شهادة هؤلاء له ، فلا غرو أنه كان جيد الشعر حتى قيل " إنه من شعراء الطبقة الثانية ، وقيل من شعراء الطبقة الاولى " .

ولا ينقض اجماع هؤلاء الرواة قول عمر فروخ ^(٥) " وشعره كثير التكلف ضعيف البناء قليل الرنق قلق الالفاظ " فنحن سنعلم عند الحديث عن موضوع الانتحال أن شعر أمية وضع عليه الشيء الكثير ، ولا شك أن اجماع مثل أولئك يذهب عندنا بقول المحدثين لأن شعر أمية ضاع واحتجنا في عصرنا الحديث الى جمع كل ما قيل ، ولكن الاوائل كانوا على معرفه . بشعر أمية وديوانه الذي أصدروا حكمهم عليه .

ومع هذه المكانة المرموقة فقد نبه الرواة على أنه كان يأتي في شعره بأشياء لا تعرفها العرب ^(٦) ، وبكثير من العجائب أخذها من الكتب المتقدمة ^(٧) . وقد مثل

(١) طبقات ابن سلام : ٢٥٩/١ .

(٢) الاغانى : ١٢٢/٤ .

(٣) هو الكمي بن زيد بن حنيس الاسدي ، شاعر الهاشميين في العصر الاموي ، وكان شديد الميل والتعصب لآل البيت وفيهم قال غرر قصائده . وقد كان خطيبا وفارسا وعلى علم بالانساب والاخبار .

وانظر الاغانى : ١٢/١ ، جمهرة أشعار العرب : ٩٨٣ . أبو زيد محمد بن الخطاب القرشي تحقيق على محمد البجاوي ط دار نهضة مصر القاهرة (٤) الاغانى : ١٢٢/٤ .

(٥) تاريخ الأدب : ٢١٢/١ .

(٦) شعراء النصرانية : ٢١٩ .

(٧) طبقات ابن سلام : ٢٦٢/١ ، الشعر والشعراء : ٤٥٩/١ ، الاغانى : ٢١/٤ .

الرواية على ذلك ^(١) أنه كان يسمى السماء في شعره صاقورة ^(٢) وحاقورة ^(٣) وبرقع ^(٤).
ومن هذا أيضا ما قاله ابن قتيبة ^(٥) أنه يقول في الله عز وجل: (هُوَ السَّكَّاطُ عَلَى
فَوْقِ الْأَرْضِ يَعْتَدِي إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مَا يَشِبُّهُ هَذَا ، وقد كانت هذه الأشياء الغريبة
والأمور العجيبة التي أخذها أمة من مخالطة أهل الكتاب تجعل علماء اللغة الذين
جمعوا اللغة لا يرون في شعره حجة على عربية اللغة لهذه العلة ، فهم لا يستشهدون
بشعره ، وربما عدوها منه منكراً . ^(٧)

ولا تحب أن نقف بالحديث عن شاعريته إلى هنا دون أن نشير إلى أهم أغراضه
التي دل عليها شعره ، فنحن لن نستشهد عليها هنا ، وسيرد منها طرف عند
الحديث عن أدب الجنيقية حينما نمثل على وجود ذلك الأدب
ولاشك أن أهم أغراضه كان الحديث عن خلق السماوات والأرض ، والملائكة
واليوم الآخر ما دفع الأصمعي أن يقول عبارته المشهورة ^(٨) " ذهب أمة في شعره بعامة
ذكر الآخرة . . . " ، وما يدخل تحت هذا إنما هو تمثيل لنزعة الجنيقية ، ويلقى

(١) الشعر والشعراء ١ / ٤٦٠ ، الأغاني ٤ / ١٢١ .

(٢) قال محقق الشعر والشعراء : الصاقورة في اللسان : باطن القحف المشرف على

الدماغ . . والصاقورة اسم السماء الثالثة والكلمة عربية لاشك فيها .

(٣) قال المحقق : الحاقورة في القاموس : السماء الرابعة

(٤) قال المحقق : في اللسان : برقع بالكسر ، وقال أبو علي الفارسي : هي السماء

السابعة . لا ينصرف ثم نقل بعد ذلك (برقع) بفتح القاف ، اسم من أسماء

السماء جاء على فعلل ، وهو غريب نادر ، يعني كسر أوله وفتح ثلثه .

(٥) الشعر والشعراء ١ / ٤٦٠ .

(٦) قال المحقق : البيت كله في اللسان ٩ / ١٩٤ ولكن روايته " السليط بفتح السين

وكسر اللام ويعدّها ياء ثم فتح الطاء الأولى ، وقال " قال ابن جني : هو القاهر

من السلاطة قال : ويروى السِّلَطَط يعني بكسر السين وكلاهما شان ، التهذيب :

سليط جاء في شعر أمة بمعنى السليط ، قال ولا أدري ما حقيقته .

(٧) الشعر والشعراء ١ / ٤٦١ ، الأغاني ٤ / ١٢١ .

(٨) الأغاني ٤ / ١٢٥ .

ذلك مدائح الشهيرة والتي خص بها كما علمنا عبد الله بن جدعان ، وقد حوت
ما رأيناه له من أشعار علاوة على طرف من الهجاء ، وجانب من الرثاء كالذى رثى به
قتلى بدر ، وابن جدعان ، ومع ذلك فله قسط من شعر الحكمة والزهد فى الدنيا
لانظنه يخرج عما كان عليه من تحف ، وكان مما أتى به من أغراض تعد غريبة فى زمانه
الحكايات على لسان الحيوان .

وفاته :

يبدو أن هناك روايات مختلفة حول تحديد سنة وفاة أمية ، فقد قيل كانت وفاته
فى السنة الثانية من الهجرة ^(١) ، وقيل فى السنة الثامنة للهجرة ، وقال ابن حجر ^(٢)
ونقله صاحب الخزنة " والمعروف أنه مات فى السنة التاسعة ، ولم يختلف أصحاب
الاخبار أنه مات كافرا ، وصح أنه عاش حتى رثى أهل بدر ، وقيل انه مات سنة تسع
من الهجرة بالطائف كافرا قبل أن يسلم الثقيون . . . " .

ومع هذا العرف الذى يذهب اليه ابن حجر - رحمه الله - فأنى لاعتقد ذلك كما
يذهب اليه جامع ديوان أمية ^(٤) ، ان مثل أمية فى مكانته وشهرته ثم حسده للرسول
لا يعقل أن يبقى بعد بدر سبع سنوات دون أن نرى له موقفا أو نسمع عنه خبرا يسند
عليه ، فنحن لانعرف ممن تغمرهم الأحداث ويتوقعون على أنفسهم ،
ولا بن حجر رأيه ، وانما أميل الى الرأى الآخر الذى يقول بوفاته فى السنة الثانية من
الهجرة .

وقد عجت ما ذكر عند أكثر الرواة من قصص فى وفاة أمية ، وحسبنا أن نذكر رواية
ابن سلام ونحن نعلم ماكان فيه من تشدد وحرص فى رواية ونقد ما يذكره من أخبار
وأشعار ، قال ^(٥) رواية عن أخت أمية بن أبى الصلت قالت : انى لفى بيت فيه أمية نائم ،

(١) ذكره فى الاعلام ٢٣/٤ عن كتاب الخميس ١/٤١٢ .

(٢) الخزنة ١/٢٥٧ .

(٣) الاصابة ١/٢٥٠ ، ٢٥١ .

(٤) ديوان أمية : ٨١ وما بعدها .

(٥) طبقات ابن سلام ١/٢٦٦ ، ٢٦٧ .

ان أقبل طائران أبيضان فسقطا على السقف ، ففرج السقف فسقط أحدهما عليه ، فشق بطنه وثبت الآخر مكانه . فقال الأعلى للأسفل : أوعى ؟ قال : وعى . قال : أقبل ؟ قال : أبى - ويقال / قال / : زكا . قال : لحسا - فرد عليه قلبه وطار ، والتأم السقف قالت : فلما استيقظ قلت : له يا أخى ! أحسست شيئا . قال : لا ، وانى لأجد توصيا ، فما ذاك ؟ فأخبرته . قال : يا أخية ! أنا رجل أراد الله بى خيرا فلم أقبله قالت : فلما مرض مرضته التى مات فيها ، قالت : فانى عنده ، ان نظرا الى السماء وشق بصره ثم قال :

لبيكما لبيكما هانذا لديكما

لا ذو براءة فأعذر ، ولا ذو قوة فانتصر . ثم أغنى عليه ، ثم شق بصره ونظر ، وقال :

لبيكما لبيكما هانذا لديكما

وقال : لا ذو عشيرة تحمىنى ، ولا ذو مال يفدىنى . ثم أغنى عليه ، فقلنا : قد أودى ! ثم شق بصره ونظر الى السماء فقال :

/ لبيكما لبيكما /

بالنعم محفود ، من الذنب مخضود ، ثم أغنى عليه ، ثم شق بصره وقال :

ان تغفر اللهم تغفر جماً وأنى عبد لك لا ألتا

ثم أغنى عليه ، ثم أفاق فقال :

ليتنى كنت ، قبل ما قد بدالى فى قلال الجبال أرى الوعولاً

كل عيش ، وان تطاول دهرنا قصره مرة الى أن يـزولا

ثم خفت فمات . .

وقد وردت هذه القصة ولم نلمح الاشارة الى الوضع فى مثل هذه القصة عند الرواة وليس ذلك بعيب على الرواة ، فهما ورد إليهم الخبر عن يثقون به ، كما أن من عادتهم فى بعض الأحيان أن يوردوا مثل هذه الروايات التى لا تصح مكتفين بأن العقل السليم لا يصدقها ، ومع ذلك فقد كان جميلا التنبيه على مثل هذا ، وأنا لا أشك أن هذه القصة مما وضع من قصص وأخبار ، شأنها شأن كثير مما نسج حول بعض الشخصيات ومنهم أمية .

ونحب قبل أن نختم الحديث عن أمية بن أبي الصلت أن نذكر بعض أمور فاتتنا ذكرها حتى نقرب من الكثير من أخباره والتي أشرنا إلى أننا لانملك الافاضة فيها أكثر مما ذكرنا ليخلص لنا الحديث إلى أدب هذه الحنيفية .

ومن هذه الأمور أن أمية كان يحسن القراءة والكتابة ، وربما كان على علم بشيء من لغات أخرى كما يدل شعره على ذلك ، وقد ورد عنه مفتخرا بذلك في قوله :
 قومي إياك لو أنهم أهملهم . . . ولو أقاموا فتَهَزَل النَّعَم
 قوم لهم ساحة العراق إذا . . . ساؤوا جميعاً والقطُّ والقلم
 وحسبنا من ذلك كثرة الاخبار التي تدل على ما قرأ من الكتب ، واطلاعه على كتب أهل الكتاب التي استقى منها الكثير من المعلومات والاخبار .

ولاشك أن أمية بذلك كان من أعلى طبقة شغفى عصره ، وعلى علم بما يدور من أحداث ، ولا ريب أن هذه الثقافة لم تكن لتيسر له لو لم يكن له من الصبر وعلو الهمة ورجاحة العقل وبعد النظر نصيب موفور ، وقد تنبه العلماء الاوائل لذلك فوصفوه كما قال الجاحظ : (٢)

كان أمية " داهية من دواهي ثقيف ، وثقيف من دهاة العرب ، وقد بلغ من اقتداره في نفسه ، أنه قد هم بادعاء النبوة ، وهو يعلم كيف الخصال التي يكون الرجل بها نبيا أو متنبيا إذا اجتمعت فيه " .

ولعل مما يحسن بنا الإشارة إليه ، ما وضع حول أمية من روايات وقصص خيالية كالتى أشرنا إليها آنفا عند وفاته ، وربما كان مرد بعض هذه الأمور خفة أمية في ميزان الرواة ، فالرجل مات كافرا باتفاق ، وقد مدح المشركين ، وتكدر بيعته الرسول وحسده ، فلعل مثل هذه الأمور دفعت إلى مثل ذلك القصص . ومنه أيضا قصة (٤)
 التقائه بالنبي صلى الله عليه وسلم ، كما يدخل في هذا ماورد من علمه بلغة الحيوان ، حتى كأنه سليمان الذى علمه الله منطق الطير .

(١) ديوان أمية ٤٦٥ ، ٤٦٦ . ذكر ابياد لانهم كانوا بالحجاز ثم انتقلوا إلى العراق أم : قريب . القط : الكتاب او الصحيفة .

(٢) الحيوان : ٣٢٠ / ٢ .

(٣) ديوان أمية :

(٤) القصة في تاريخ ابن عساكر : ١٢٢ / ٣ .

(٥) البداية والنهاية : ٢٢٧ / ٢ ، ٢٢٨ ، الاغانى : ١٢٤ / ٤ ، ١٢٥ .

(٧) زهير بن أبى سلمى

ينتمى زهير الى قبيلة مزينة ، وأسم أبى سلمى ربيعة بن رباح ، وليس فى العرب سلمى "بضم السين" غيره^(١) . وتدل المصادر أن والد زهير. قد غادر قبيلته "مزينة" فى الحجاز ونزل فى قبيلة "غطفان" بنجد وتوفى أبوه فتزوجت أمته من الشاعر أوس ابن حجر التميمي وكان زهير يروى شعره واستفاد من شاعريته ، كما كان على صلة بشاعر آخر خاله بشامة بن الغدير^(٢) .

وقد تنهيا له من ذلك شاعرية فذة عرف بها ، ويبدو أن زهيراً كان يتكسب بشعره ، الا أنه خص به أهل الخير وأرباب الفضل والا صلاح ، وانقطع زهير الى آل سنان بن أبى حارثة خاصة وفيهم سبك أغلى حلله وكساهم أثمن درره وقصائده ، بخاصة هرم بن سنان^(٣) .

وشهرة زهير وأسرته التى غلب عليها الشعر حتى جلسوا زهيراً أبا لهـ وسموها " مدرسة زهير " أسر ذائع معلوم^(٤) ، والذى يعنينا هنا ما يتصل بهـ زهير هو القول بنزعه الدينية فى حياته حتى عد من بين متحنفى العرب الذين كانوا قبل البعثة .

وهذا الأمر لا يسلم به بعض الباحثين ، ومنهم من أفرد زهير بدراسة مستقلة ، ان يذهبون الى القول بعدم اعتناق زهير أى عقيدة غير العقيدة الوثنية^(٥) .

(١) الاشتقاق : ٣٦ .

(٢) بشامة بن الغدير : شاعر جاهلى مجيد ، لم يصلنا من أشعاره الا بعض مقطعات وأبيات متفرقة ، وانظر : طبقات فحول الشعراء لابن سلام :

٧١٨/٢ .

(٣) انظر أخبار زهير وسيرته : الشعر والشعراء : ١٣٧/٨ ، الاغانى : ٢٨٨/١٠ .

(٤) انظر : مصادر الشعر الجاهلى : ٢٢٢ ، ٢٢٣ .

(٥) من هؤلاء " د . احسان النص " فى كتابه " زهير بن أبى سلمى ، حياته وشعره " .

٧٦ - ٧٩ . ط . دمشق " بدون تاريخ " ، د . سعد اسماعيل شلبى : زهير بن أبى سلمى شاعر الحق والعدل والجمال . ط دار غريب . القاهرة .

وهذا لا يدفعنا الى التنكر الى اجتهد هؤلاء الباحثين أو تناسية حتى يسلم لنا القول بتحذف زهير ، الا أننا نرى أيضا من الباحثين المحدثين من أفردوا زهيراً بدراسات خاصة خرجوا فيها الى القول بتحذف زهير وتأليه (١) .

والذى أهمل اليه هو الرأى الاخير ان له ما يسند له عند علمائنا السابقين ويرون ذلك . فابن قتيبة قال عنه : " وكان زهير يتأله ^{ويعف} في شعره ، ويدل شعره على ايمانه بالبعث وذلك قوله :

يَوْمَ تَخْرُ فَيُودَعُ فِي كِتَابٍ فَيَدَّخَرُ . . . لِيَوْمِ الْحِسَابِ أَوْ يَعَجِّلُ فَيَنْقَمُ (٢)

ويروى " أبو عبيدة " بسنده عن " العوام بن زهير " أحد ابناء زهير هذا أن أباه " كان من مترهبة العرب ، وكان يقول : لولا أن تفندون (٣) لسجدت للذى يحيى الأرض بعد موتها " (٤) .

ونجد " أبا العلاء المعرى " فى رحلته الى عالم الآخرة يجد زهيراً قد بنى له قصر منيف فى الجنة ، ويعجب كيف غفر له وقد مات فى الجاهلية ويسأله : " بم غفر لك وقد كنت فى زمان الفترة والناس همل ، لا يحسن منهم العمل ؟ فيقول : كانت نفسى من الباطل نفورا ، فصادفت ملكاً غفورا ، وكنت مؤمناً بالله العظيم ، ورأيت فيما يرى النائم حبلاً نزل من السماء ، فمن تعلق به من سكان الأرض ^{سلك} ، فعلت أنه أمر من أمر الله ، فأوصيت بنى وقلت لهم عند الموت : ان قام قائم يدعوك الى عبادة الله فأطيعوه . ولو أدركت " محمداً " لكنت أول المؤمنين .

وقلت فى (الميمية) والجاهلية على السكنة (٥) والسفه ضارب بالجران :

فلا تكمن الله ما فى نفوسكم . . ليخفى ومهما يكتم الله يعلم

(١) من هؤلاء : د . عبد الحميد سند الجندى " فى كتابه " زهير بن أبى سلمى شاعر السلم فى الجاهلية " : ٩٦ - ١٠٢ ، وأيضاً د . فتحية محمود فرج العقدة : الفكرة والصورة فى شعر زهير بن أبى سلمى . ط ١ (١٤٠٣) دار العلوم - الرياض . ص : ٣٣ ، ٧٥ .

(٢) الشعر والشعراء : ١ / ١٣٩ .

(٣) تفندون : تكذبون وتلومون وتضعفون الفعل أو القول .

(٤) جمهرة أشعار العرب فى الجاهلية والاسلام : أبى زيد محمد بن الخطاب القرشى : ٧٠ - تحقيق : على محمد البجاوى - ط ١ . دار نهضة مصر - القاهرة .

(٥) السكنة : أى الحالة التى كانوا عليها .

ما ينتفع به في الإصلاح الفردى والجماعى ، فكثير من هذه الافكار يتصل بالبعث
واليوم الآخر ، والحساب والعقاب ، كما أنه يقسم بالله في مناسبات متعددة ، ونشعر
في حديثه بالرهبة والتقدير ، وأحيانا نجد يذكر كثيرا من المعانى الدينية
كالتقوى والحق والعدل والسماحة وصلة ذوى القربى ، والحفاظ على حق الجار ،
واغاشة المستجير ، والصبر على المكاره ، والأمانة والعفو عن السئى الى غير ذلك
من المعانى الدينية " (١) .

وعلاوة على بيئة السابق في الايمان بالبعث والجزاء نجد يقول : (٢)

تالله قد علمت قيس اذا قذفت . . ريح الشتاء بيوت الحى بالعنن (٣)

أن نعم معترك الحى الجياع اذا . . خب السفير وماوى البائس البطن (٤)

ويدعو الله زهير بأن يهنئ مدوحه ما أعطاه من محاسن ، ويدعو اليها ، كما أنه
ليبيب يقبل النصيحة ولا يضيعها ، وهو أمين كريم قد ترفع عن الغدر والخيانة فيقول : (٥)

هناك ربك ما أعطاك من حسن . . وحيثما يك أمر صالح فكمن

ان توتّه النصّح يوجد لأضيّعه . . وبالأمانة لم يغدر ولم يخن

ومدوحه لا يتلف ماله فى اللهو والشراب ولكنه ينفقه لذوى الحاجات الذين

يجدون حاجاتهم عنده : (٦)

أخى ثقة لا تهلك الخمر ماله . . ولكنه قد يهلك المال نائله (٧)

(١) الفكرة والصورة فى شعر زهير بن أبى سلى : ٢٢٠ ، ٢٢١ .

(٢) ديوان زهير بن أبى سلى " صفة العلم الشتجرى " : ٢٨١ - تحقيق :
د . فخر الدين قبابة . ط ٣ (١٤٠٠) دار الآفاق الجديدة - بيروت .

(٣) العنن : جمع عنه ، وهى كخطيرة من شجر ، ترد الريح عن البيوت . يريد
اذا اشتدت ريح الشتاء فاشتد البرد حيث تقلع الريح هذه العنن وترى بها
البيوت .

(٤) المعترك : موضع الازدحام ، خب : جرى ومر على وجه الارض ، السفير : ما انح
من ورق الشجر وتناثر ، البطن : النهم ، والذى لثق بطنه بظهره من الجوع .

(٥) ديوانه " العلم " : ٢٨٢ .

(٦) السابق : ٥٧ .

(٧) أخى ثقة : يوثق بما عنده من الخير لما علم من جوده ، نائله : عطاءه .

ويؤمن زهير بأن المال من عطاء الله ، وأنه لا بد أن يحوز قدر كما يؤمن بالحظ
وأنه قد يقتنى المرء بعد عيلته كما أنه قد يعيل بعد الغنى ، وهو يؤمن أن الاسم
شر ولكن البر كالغيث نبته مبارك متزايد (١) :

قد يُقْبَلُ الْمَالُ بَعْدَ حِينٍ عَلَى ال . . مرر وحيناً لهُلِكُ دُبُرٌ
وَالْمَالُ مَخُولٌ إِلَّا لَهُ فُلَا . . بدله أن يحوزه قَدَرٌ
وَالجَدُّ مِنْ خَيْرٍ مَا أَعَانَنَّا أَوْ . . صُلَّتْ بِهِ وَالْجَدُودُ تَهْتَضِرُ (٢)
قد يقتنى المرء بعد عيلته . . يعيل بعد الغنى ويجتبر (٣)
وَالْأَسْمُ مِنْ شَرِّ مَا يَصَافِي ب_____ . . وَالْبِرُّ كَالْغَيْثِ نَبْتُهُ أَمْرٌ (٤)

والواقع أن هذه العقلية المتزنة والحكيمة وهذه النزعة المتدبنة لترى حتى فى
هجاء الذى لم يغلب على شعره أو يكثر فيه ، وشعر هجاء لا يعدو بضع أبيات
من بعض قصائد ديوانه (٥) ، ولكن الهجاء عند زهير " لم يكن هجاء التفنن الحاذق
الذى يبحث عن مثالب الناس ، ويكشف عن سوءاتهم ، ويضيف اليهم كل سبة بالحق
وبالباطل . ولذلك لم يتعرض لضعة فى أصلهم ، أو لأيام دارت فيها الدائرة
عليهم ، أو لخلهم وخبيت عاداتهم ، وغير ذلك ، وكل قصائده التى يصح أن تندرج
تحت فن الهجاء لا تعدو والتهديد والوعيد والسخرية اللانعة ، وذلك فى ثوب
موشى بالنصح . أما الابيات التى أقذع فيها فهى نفثة حائق موزون قد عيّل
صبره بعد الملائنة والمصابرة (٦) .

وحسبنا الآن بعد ذلك كله وكثير ما يماثله فى شعر زهير ، أن يكون لميلنا
الى القول بتحذف زهير شئ* من الوجاهة والتقدير والاعتبار .



- (١) ديوان زهير " الأعلم " : ٢٤٣ ، ٢٤٤ .
- (٢) الجدود : جمع جد وهو الحظ ، تهتضر : تكسر .
- (٣) يجبر : يفتقر .
- (٤) الأمر : الكثير النامى .
- (٥) أنظر ديوانه " الأعلم " : ٨٧-٨٩ ، ٩٠-٩٢ .
- (٦) زهير بن أبى سلى : شاعر السلم فى الجاهلية : ٢٢٥ ، ٢٢٦ .

(٨) عبيد بن الأبرص

من قبيلة بني أسد ، وهو شاعر مفلق من فحول شعراء الجاهلية ، وكان فيما يبد
معاصرا " لأمرئ القيس " الذى قتل (بنو أسد) أباه ، فهددهم بالقتل ،
فأجابه عبيد بقوله : (١)

يا ذا المخوفنا يقتل .. ل أبية ان لا لا وحينا

أرعت أنك قد قتلنا .. ست سراتنا كذبا ومينا

وقد كان شاعر لقبيلة بني أسد ، وكان ذا مكانة بينهم ، ويبدو أنه عمر طويلا حتى
بالغ بعض الرواة فى ذلك (٢) ، وكان مشاركا لقبيلته فيما ينتابها من أحداث ويفخر
بها ، وكان خاتمة أمره أن قتله " المنذر بن ماء السماء " ملك الحيرة فيما روى عنه
من قتل من يطلع عليه فى يوم شؤمه الذى كان من قدر عبيد أن يخرج فيه ويكسبون
ضحية ذلك اليوم المشؤم . (٣)

ويعنيينا من أمره ما يتصل بتحفته ان نجد من يذكره بين الحنفاء ومن كان على
دين فأبو العلاء المعرى يضعه فى الجنة فى قصر منيف مع زهير بن أبى سلمى ،
وقد أعطى بقاء التأبيد (٤) .

وفى بلوغ الأرب نراه من عداد الحنفاء لأن شعره يدل على ذلك (٥) .

واذا نظرنا فى ديوانه لسنا عنده مانجده عند المتحنفين ، فلفظ الجلالة يورد
فى شعره مرات كثيرة ، ونراه يذكر الموت فى عدد من المواضع ، وأنه محتوم لا مفر منه ،

(١) ديوان عبيد بن الأبرص : تحقيق وشرح : د . حسين نصار : ١٣٦ . ط ١

(٢) (١٣٧٧) مصطفى الحلبي - القاهرة .

(٣) انظر : الشعر والشعراء : ٢٦٨ / ١ ، المتحرون : لأبى حاتم السجستاني :

٧٥ - تحقيق : عبد المنعم عامر . ط (١٩٦١ م) دار احياء الكتب العربية -

القاهرة .

(٣) انظر لمزيد من حياة عبيد وأخباره : الأغاني : ٢٢ / ٨١ - ٩٥ ، شعراء

النصرانية : ٥٩٦ - ٦١٥ ، مقدمة ديوانه .

(٤) رسالة الغفران : ١٨٥ ، ١٨٦ .

(٥) ٢٨١ / ٢ .

ومن ذلك قوله (١) :

فأبلغ بنى وأعمامهم .. بأن المنايا هي الواردة
لها مدة نفوس العباد .. اليها وان كرهت قاصدة
فلا تجزعو الحمام لنا .. فللموت ماتلد الوالدة

ومن يسأل الله يجد حاجته عنده غير محروم ، ومن تعلق بالناس فينا له الحرمان ،
والله هو المأمول لكل خير ومن ظن به غير ذلك فقد أخطأ وضعف رأيه ، كما أن الله
ليس يشركه أحد في أمره وتدبيره ، وهو يعلم ما تخفى القلوب ، واسمعه يقول : (٢)

من يسأل الناس يحرموه .. وسأل الله لا يخييب
بالله يدرك كل خبير .. والقول في بعضه تلغيب (٣)
والله ليس له شريك .. علام ما أخفت القلوب

ولا شك أن مثل هذه المعاني والتي نص فيها على نفى الشرك عن الله تدلنا
على تحننه وتألهمه كغيره من الحنفاء ، ويقوى ذلك ذكره ليوم القيامة عند ما مدح
"حجر بن الحارث الكندي" والد امرئ القيس عند ما غزا بني أسد وأخذ سرواتهم
وضربهم وأباح أموالهم عند ما امتنعوا عن دفع ما كانوا يجبونه له ، يقول عبيد (٤) :

أما تركت تركت عفوا .. أو قتلت فلا ملا ..
أنت الطيك عليهم .. وهو العبيد الى القيام

ومع وجود مثل هذه المعاني الدينية عنده فشعره ملئ بالحكمة التي نراها
في كثير من شعره ، ولا ريب أن من الحنفاء من ضربوا كثيرا من الأمثال السائرة ،
والحكم الذائعة ، وحسبنا أن ندل عليها بواحدة مما يروى له عند ما قال وهو
يتحدث عن الصبر : (٥)

صبر النفس عند كل لم .. ان في الصبر حيلة المحتال

(١) ديوان عبيد : ٦٢ .

(٢) السابق : ١٥ .

(٣) تلغيب : أى ضعف ، وفي القرآن الكريم " وما سنا من لغوب " .

(٤) ديوان عبيد : ١٢٦ .

(٥) السابق : ١١١ ، ١١٢ .

لا تضيقن في الامور فقد . . تكشف غماؤها بغير احتيال

ربما تجزع النفوس من الأمر . . له فرجة كحل العقـال

ولعلّ هذه المعاني الدينية والتألمية ، والحكم التي حفل بها شعر عبيد

قد حدث بأحد الباحثين أن يقول : " والذي يقرأ شعره - أي عبيد - يشعر

أنه أمام رجل حضري رقيق عاطفي المزاج ، ذي نفس ميالة الى التقشف والتصوف ،

مؤمّن بالعدل ، كاره للظلم " (١) .

ولذا فليس غريباً - فيما يظهر لى - أن ندخل عبيد بن الأبرص في زمرة الحنفاء

كما أدخله فيهم بعض علمائنا السابقين .

(١) الفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام : ٥٠٢/٦ .

(ب) المغمورونعمير بن جندب الجهمي

وما يعرف عنه أنه رجل من جهينة ، كان موحدا ، ترك عبادة الأصنام ^(١) ، وقد ذكر الرواة من أمره أنه ممن عاش بعد الموت ^(٢) ، وذلك فيما نقلوه بأسانيدهم عن رجل من جهينة أن عمير بن جندب اشتكى ، فأغى عليه ، وسجوه وظنوه قد مات ، وأمروا بحفرته أن تحفر ، فبينما هم عنده ، أن جلس فقال : اني أتيت حيث رأيتموني أغشى عليّ ، فقبل لي : أفلح هبل : ألا ترى حفرتك تنتشل ، وقد كادت أمك تشقى كل . أرايت ان حولناها عنك بـ بَكْوَل ، وقد فنا فيها القصل ، الذي مشى واحـ زَال ^(٣) . أتشكر لربك وتصل ، وتدع سبيل من أشرك وأضل ؟ فقلت : نعم ، فأطلقت . فسأل عن ابن عم له يدعى " القصل " ، فقالوا مر آنفا . فذهبوا ينظرون فوجدوه قد مات فدفن في الحفرة ، وعاش عمير حتى أدرك الاسلام على ما قيل ^(٤) .

أبو عامر الأوسى

واسمه عمرو وقيل عبد عمرو بن صيفي المعروف بالراهب ، لأنه كان قد ترهب في الجاهلية ولبس المسوح ، وكان يذكر البعث ودين الحنيفية ^(٥) .

(١) بلوغ الأرب : ٢٦١ / ٢ .

(٢) تاج العروس " فصل " : ٦٠ / ٨ .

(٣) يقال : احزال البعير في السير ، اذا ارتفع .

(٤) انظر : دلائل النبوة : أحمد بن الحسين البيهقي : ١ / ٤٧١ ، ٤٧٢ ، تحقيق : سيد أحمد صقر . ط (١٣٨٩) المجلس الاعلى للشئون الاسلامية

مصر . القاموس المحيط : مجد الدين الفيروزبادي : ٤ / ٣٠ . ط ٣

(١٣٥٢) المطبعة المصرية .

(٥) الاصابة : ١٣٧ / ٢ " ١٨٦٥ " .

وتدل المصادر أنه علم بمقدم الرسول عليه الصلاة والسلام المدينة أتماء ،
 وسأله : ما هذا الذي جئت به ؟ فقال الرسول : جئت بالحنيفية دين إبراهيم .
 قال : فأنا عليها ، فقال الرسول : لست عليها ، ولكنك أدخلت فيها ما ليس فيها ^(١) .
 ويبدو أن أبا عامر قد غضب من الرسول فخرج يكيد له مع قريش ، وفي معركة
 أحد كان أول من لقي المسلمين في الأحابيش وعبدان أهل مكة ، وكان يعد قريشا
 أن لو قد لقي قومه لم يختلف عليه منهم رجلان ، ونادى يامعشر الأوس ، أنا أبو
 عامر ، فردوا عليه : يافاسق ، وقاتل المسلمين قتالا شديدا ^(٢) .
 وتدل الروايات أنه لما لاحظ قوة المسلمين بعد ذلك ذهب إلى قيصر الروم
 وتنصر ، وقد أراد أن يعينه قيصر بجند من جيشه يخرج به الرسول عليه الصلاة
 والسلام ومن معه من يشرب . ويبدو أن له اتصالات مع أعداء المسلمين في المدينة
 من المنافقين حتى ذكروا عنه أنه هو الذي أمر ببناء مسجد الضرار الذي أمر النبي
 صلى الله عليه وسلم بحرقه وإزالته ^(٣) .
 وكانت نهاية أبي عامر أن مات في بلاد الروم دون أن يحقق مآربه التي كان
 يلهث لادراكها ^(٤) .

خالد بن سنان السبيعي

هو خالد بن سنان بن غيث بن مريطة بن مخزوم بن مالك كما جاء في نسبه ^(٥) ،
 وكان مقرا لله بالربوبية والالوهية ، ومن بشر محمد عليه الصلاة والسلام ، ناهجا

(١) مجمع البيان للطبرسي : ٦٤/٩ .

(٢) السيرة النبوية لابن هشام : القسم الثاني : ٦٧ .

(٣) تفسير الطبري : ٤٦٩/١٤ ، ٤٧٠ . الجامع لأحكام القرآن : ٣٢٠/٧ .

(٤) الإصابة : ١٣٧/٢ .

(٥) السابق : ٣٦٩/٢ " ٢٣٥٧ " .

(١) منهاج الطلبة الحنيفية .

وقد أفاضت المصادر عن الحديث عن نبوته حتى رددوا كثيرا ما روى أن
النبي صلى الله عليه وسلم قال : " ذاك نبي أضاعه قومه " ، وأن ابنته قدمت عليه
فبسط لها رداءه وأجلسها عليه ، وأنه لم يكن في بنى اسماعيل نبي غيره ،^(٢) وشك
بعض العلماء في ذلك فذكروه من اختلف في نبوته .^(٣)

والصحيح الذى ذكره المحققون أنه ليس نبي ، وربما كان وأمثاله قوما صالحين
يدعون الى الخير .^(٤)

وقال الجاحظ : " والتكلمون لا يؤمنون بهذا ، ويزعمون أن خالدا هذا كان
أعرابيا ويرى من أهل شرح وناظرة^(٥) . ولم يبعث الله نبيا قط من الأعراب ولا من
الغداديين أهل الوبر . وإنما يبعثهم من أهل القرى وسكان المدن ."^(٦)

والذى اشتبه من أمر خالد هذا هو أطفاه ، لتلك النار التى عرفــــت
" بنار الحرثين " ولعل هذه النار كان للمجوس علاقة بها حتى قيل : " إن العرب
افتتنوا بها وكانت ، تنتقل وكادت العرب أن تتجسس ، وتغلب عليها المجوسية^(٧) .
وهذه النار مشهورة عند العرب حتى أنشدوا فيها :

(٨)
وتار الحرثين لها زفير .. يصم لهوله الرجل السميع

" وكانت تلك النار ببلاد بنى عيس ، فإذا كان الليل فهى نار تسطع فى السماء ،
وكانت طي تنفق^(٩) بها ابليها من سيرة ثلاث . وربما ندرت منها العنــــق

(١) بلوغ الأرب : ٢٢٨/٢ .

(٢) انظر فى ذلك الاصابة : ٣٦٩/٢ - ٣٧٤ .

(٣) أديان العرب فى الجاهلية : ١٩٣ .

(٤) البداية والنهاية : ٢١٢/٢ .

(٥) شرح وناظرة ما أن لعبس كما فى معجم البلدان (٣/ ٣٣٤ ، ٥٠٢/٢) .

(٦) الحيوان : ٤٧٨/٤ .

(٧) مروج الذهب : ٦٧/١ ، ٦٨ .

(٨) الحيوان : ٤٧٨/٤ .

(٩) أى ترسلها ترى ليلا دون مراقبتها .

فتأتى على شئ فتحرقه ، واذا كان النهار فانما هى دخان يغور ، فبعث الله
 خالد بن سنان فاحتفر لها بئرا ثم أدخلها فيها ، والناس ينظرون ، ثم اقتحم
 فيها حتى غييبها ، وسمع بعض القوم وهو يقول : هلك الرجل ! فقال " خالد بن
 سنان " : كذب ابن راعية المعز ، لأخرجن منها وجيبنى يندى ! فلما حضرته
 الوفاة قال لقومه : اذا أنا مت ثم دفنتمونى ، فاحضرونى بعد ثلاث ، فانكم ترون
 عيرا أبتر يطوف بقبرى ، فاذا رأيتم ذلك فانبشونى ، فانى أخبركم بما هو كائن الى
 يوم القيامة . فاجتمعوا لذلك فى اليوم الثالث ، فلما رأوا العير وذهبوا ينبشونه ،
 اختلفوا ، فصاروا فرقتين وابنه عبدالله فى الفرقة التى ابت أن تنبشه وهو يقول :
 لا أفعل اتى اذا ادعى ابن المنبوش ! فتركوه " (١) .

وكيع بن سلمة الايبادى

وكيع بن سلمة بن زهير من ايباد ، ويذكر الرواة أنه قد تولى أمر البيت الحرام
 بعد جرحهم ، وأنه بنى صرحا^(٢) مرتفعا بأسفل مكة ، وجعل فيه أمة يقال لها
 " حزره " وبها سميت " حزره مكة " (٣) ، وجعل فى الصرح سلما يرقاه ، ويزعم أنه يناجى
 الله تعالى . وكان ينطق بكثير من الخير والحكمة حتى كان العرب يظنون أنه صدق
 من الصديقين .

ويذكرون أنه لما حضرته الوفاة جمع ايباد فقال لهم : " اسمعوا وصيتى ، الكلام
 كتمان ، والا مر بعد البيان ، من رشد فاتبعوه ، ومن غوى فافضوه ، وكل شاة

(١) الحيوان : ٤٧٦ / ٤ ، ٤٧٧ .

(٢) الصرح : هو بيت يبني منفردا ضخما طويلا فى السماء ، وكل بناء عال مرتفع
 فهو صرح .

(٣) موضع فى مكة أدخلت فى الحرم عند توسعته ، وقد يقولون " حزره " بفتح الزاى
 وتشديد الواو ، وهذا تصحيف كما قال ياقوت " معجم البلدان " : ٢ / ٢٥٥ .

معلقة برجلها ، فأرسلها مثلاً . (١)

ومما يروى له مما يصور إيمانه بالجزاء والحساب قوله : " مرضعة وفاطمة . القطيعة والفجيعة ، وصلة الرحم وحسن الكلم . زعم ربكم ليجزيين بالخير ثواباً ، وبالشر عقاباً . وإن من فى الأرض عبيد لمن فى السماء . هلك جرحهم ورببت (٢) أياد ، وكذلك الصلاح والفساد " . (٣)

وأياءه عنى الشاعر (٤) بقوله :

ونحن أياد عبيد الاله .. ورهط مناجيه فى السلم
ونحن ولاه حجاب العتيق .. زمان الرعاف على جرحهم (٥)

رثاب الشنى

رثاب بن البراء الشنى من بنى عمر ثم من بنى شن من قبائل عبد القيس ، ويذكر الرواة أنه كان على دين عيسى بن مريم - عليه السلام - قبل بعث النبى صلى الله عليه وسلم ، ويزعمون أنهم كانوا يسمعون منادياً ينادى من السماء قبل بعث النبى : خير أهل الأرض ثلاثة : رثاب الشنى وبحيرا الرأهب ، ورجل آخر لم يأت بعد ،

(١) انظر الفاخر : للمفضل بن سلمة بن عاصم : ٢٨٨ ، ٢٨٩ . تحقيق عبد العليم الطحاوى ، ط ١ (١٣٨٠) وزارة الثقافة والارشاد القومى ، مصر ، الحيوان : ١٥١/٦ .

(٢) رسل القوم : كثروا ، وأكثر أموالهم وأولادهم .

(٣) البيان والتبيين : ١٠٩/٢ ، ١١٠ .

(٤) وفيه أنه هو بشير بن الحجير الأيادى كما فى البيان والتبيين : ١١٠/٢ .

(٥) ولأه الحجاب : أى يلون الحجابة وهى سدانة البيت وتولى حفظه ، العتيق :

أى الكعبة وهى البيت العتيق ، زمان الرعاف : يقال انه داء سلطة الله

على جرحهم فهلك منهم ثمانون كهلاً فى ليلة واحدة سوى الشبان .

(٦) الاشتقاق : ٣٢٥ ، ٥٢٦ .

يعنى النبى عليه الصلاة والسلام . وكان لا يموت أحد من ولد " رثاب فید فسن
الارواطشا (١) على قبره . (٢)

علاف بن شهاب التميمى

من رجال بنى سعد زيد مناه من تميم (٣) وكان يؤمن بالحساب والمعاد ،
ويسرى أنه قال : (٤)

ولقد شهرتُ الخصمَ يومَ رفاعَةٍ . . . فأخذتُ منه خِطَّةَ الْمُعْتَالِ
وعلمتُ أن الله جازٍ عبده . . . يومَ الحسابِ بأحسنِ الأعمالِ

عبد الله القضاعى

هو عبد الله بن تغلب بن وبرة بن قضاة ، وكان عُثْمَانُ يؤمن باليوم الآخر ،
ويذكر أنه من حكماء العرب وفضلائها المشهورين . وكان ينهج فى ديانته منهج
الجنيفية ، ويبدو أنه كان له كلام بليغ وحكم تصور ذلك وتدل عليه ، إلا أننا لم
نر له شيئاً منها فيما اطلعنا عليه من مصادر . (٦)

(١) الطش : المطر الضعيف .

(٢) المعارف : ٥٨ .

(٣) الاشتقاق : ٢٥٨ .

(٤) بلوغ الأرب : ٢٧٦/٢ ، ٢٧٧ .

(٥) لم أجد هذا اليوم بين أيام العرب .

(٦) بلوغ الأرب : ٢٨٠/٢ ، ٢٨١ .

سيف بن ذى يزن الحميرى

يكنى بأبى مرة ، وهو ملك اليمن الذى استطاع أن يستعين بالفرس لطرد
الأحباش من اليمن عند ما استولوا عليها وغزوا مكة ، فأخرج الأحباش وحكم اليمن
باسم الفرس على ما يتضح من قصته (١) .

وما اطلعنا عليه من أخباره لا يوضح لنا كثيرا كيف كان تحنفه ، والذى حدا
بمن عدّه من الحنفاء ما يروى من تهشير " لعبد المطلب بن هاشم " جد الرسول
- عليه الصلاة والسلام - بقرب ظهور نبي قد أظل زمانه ، ويذكر له علامات وأوصافه ،
وببالغ الرواة فى ذلك حتى ليعلم ابن ذى يزن أن عبد المطلب جدّه ، وأنه سيموت
قبل مبعثه ، وأهم ما كان من سيف هذا أنه كان مغتبطا لظهور هذا النبي ، وستبشرا
بظهوره متمنيا اظهار أمره ، وطاعته فيما جاء به والدخول فى دينه (٢) .

عبد المطلب بن هاشم

وهو جد نبينا محمد - صلى الله عليه وسلم - من جهة أبيه ، وأخته من (بنى
عدى ابن النجار) من يثرب ، وقد ولى أمر البيت ، وعظم بين قومه وعلت منزلته (٣) .
وقد كان ممن يقر بالخالق والابتداء والاعادة والثواب والعقاب ، وكان " اذا
رأى ظالما لم تصبه عقوبة قال : تالله ان وراء هذا الدار لدارا يجزى فيها المحسن
والسسى " (٤) .

(١) انظر : السيرة النبوية : القسم الاول : ٦٢ - ٦٩ .

(٢) العقد الفريد : ابن عبد ربه : ٢٧٣ < .

(٣) انظر تاريخ الطبرى : ٢٤٦ / ٢ - ٢٥١ .

(٤) تلبيس ابليس : ٦٤ .

وقد ذكرت بعض الأمور ونسبت الى عبد المطلب ، منها سنّ الدّية مائة من
الابل ، وأنه أخرج الخس من الكثر الذي وجد ، عند ما حفر بئر زمزم التي جعلها
سقيا للحاج (١) .

وكان فيما يروى يتحدث بحراء ، " فاذا دخل شهر رمضان صعد حراء وأطعم
الساكين جميع الشهر " (٢) .

ويروى أنه كان يؤمن بالملكين (٣) ، ولعل كل ما سبق دفع الى القول بحنيفيته .

عامر بن الظرب

من بني ناج ، بطن من بطون عدوان (٤) ، وهو من حكام العرب وحكائهم
وخطبائها المشهورين ، وأياه عنى الشاعر بقوله (٥) :

ومنا حكم يقضى . . فلا ينقض ما يقضى

وقد عاش وطال به العمر حتى خرف ، وزعموا أنه أمر ابنة له أن تقرع له بالعصا
إذا نسي وخرج عن الصواب (٦) ، وقال في كبره وقد ضعف جسمه (٧) :

أصبحت شيخاً أرى الشخصين أربعة . . والشخص شخصين لما شغنى الكبير (٨)

(١) نثر الدر : للوزير الكاتب : أبي سعد منصور بن الحسين الأبي : ٣٩٣/١ .
تحقيق : محمد على قرنة . ط (الهيئة المصرية العامة للكتاب) .

(٢) الكامل في التاريخ : ١٥/٢ .

(٣) نثر الدر : ٣٩٣/١ .

(٤) الاشتقاق : ٢٦٨ .

(٥) هوذ والأصبع العدواني (المعمرين والوصايا) : ٥٦ .

(٦) المعمرين والوصايا : ٥٨ ، البيان والتبيين : ٣٨/٣ .

(٧) حماسة البحتري : ٣٢٦ " أبي عبادة البحتري " . بعناية : كمال مصطفى

ط ١ (٩٢٩ م) المطبعة الرحمانية - مصر .

(٨) شغنى : أى أوهنتى .

لا أسمع الصوت حتى أستدير له .. ليلا طويلا ولو ناغاني القمر
وكنت أمشي على الرجلين معتدلا .. وضرت أمشي على ماتنبت الشجر
وينسب اليه بعض الأمور منها أنه قضى في الخنثى بحكم الاسلام ، وأنه كان
يدفع بالناس في الحج ، وحرّم على نفسه الخمر ، ^(١) وقال في ذلك : ^(٢)

ان أشرب الخمر أشربها للذتها .. وان أدعها فاني ماقت قالى
لولا اللذاذة والفتيان لم أرها .. ولا رأيتي الا من مدى الفال
سئلة للفتى ماليس يملكه .. نهابة بعقول القوم والمال
موثقة القوم أضفائا بلا إحسن .. مزرية بالفتى ذى التجدة الحال
أقسمت بالله أسقيها وأشربها .. حتى يفرق ترب القبر أو صالى
وما يروى له من كثير من حكمه ونصائحه :

" رب زارع لنفسه ما حاصده غيره ، ولولا قسم الحظوظ ما أدرك الآخر مع
الاول شيئا يعيش به ، ولكن رزق آكل من آجل وعاجل ، ان الذى أرسل الحيا ^(٣)
أنبت المرعى ثم قسمه ، وكلّا لكل فم بقلة ، ومن الماء جرعة ، ترون ولا تعلمون ^(٤) .
ومن ذلك " يا معشر عدوان ، ان الخير ألوف عزوف ، ولن يفارق صاحبه حتى
يفارقه . وانى لم أكن حليما حتى اتبعت العلماء ، ولم أكن سيدكم حتى تعببت
لكم " ^(٥) .

ويوجد من بين هؤلاء الحنفاء بغضا من الصحابة - رضوان الله عليهم -

(١) المعمرين والوصايا : ٥٦ - ٦٠ ، الامثال : أحمد بن محمد الميدانى :
٣٩٤ ، ٣٨/١ . تحقيق : محمد محى الدين عبد الحميد . ط دار المعرفة
- بيروت .

(٢) المحبر : محمد بن حبيب : ٢٣٩ . بعناية : الدكتور : ايلزه ليختن .
ط المكتب التجارى - بيروت .

(٣) الحيا : ماء المطر الذى تحيا به الأرض .

(٤) المعمرين والوصايا : ٦٤ .

(٥) البيان والتبيين : ١٩٩/٢ .

تحنفوا في الجاهلية فلما أشرق نور الاسلام لبوا النداء له سرعين .
وتذكر المصادر من هؤلاء لبيد بن ربيعة العامري ، ^(١) والناطقة الجعدي ، ^(٢)
وأبو ذر الغفاري ، ^(٣) وأبو قيس صرمة بن أبي أنس الانصاري ^(٤) ،

(١) لبيد بن ربيعة : أبو عقيل الشاعر ، كان شريفا كريما في الجاهلية والاسلام ،
وهو صاحب المعلقة :

عفت الديار محلها فقامها .. بنى تأبداً غولها فرجامها
وقد روى أنه قال في جاهليته :

ألا كل شيء ما خلا الله باطل .. وكل نعيم لا محالة زائل
ويبدو أنه لم يعط الشعر في الاسلام ما كان يبلغ منه في جاهليته . وقد طال
به العمرو توفي سنة ٤١ هـ .

وانظر : الاستيعاب : ١/ ١٣٣٥ ، الاصابة : ٥/ ٦٢٥ ، لبيد بن ربيعة :
للدكتور : يحيى الجبوري .

(٢) أبو ليلى قيس بن عبد الله الجعدي العامري ، وقيل حَبَّان بن قيس ، وكان
شاعرا محسنا من المخضرمين والمعمرين ، وكان في الجاهلية يذكر .
ابراهيم والحنيفية ويصوم ويستغفر فيما يروى ، وقال :

الحمد لله لا شريك له .. من لم يقلها فنفسه ظلما
وكان شاعرا مقلبا ، مدح الرسول - عليه الصلاة والسلام - ودعا له .

وانظر : الاستيعاب : ٤/ ١٥١٤ ، مقدمة شعر الناطقة الجعدي . ط ١
(١٣٨٤) المكتب الاسلامي . دمشق .

(٣) واسمه جندب بن جنادة بن كعب ، وكان أبو ذر يتأله في الجاهلية ،
ولا يعبد الا صنما ، وروى أنه قال : صليت قبل أن ألقى رسول الله صلى الله
عليه وسلم بثلاث سنين ، أتوجه حيث يوجهني الله .

قدم مكة عندما سمع بخبر الرسول صلى الله عليه وسلم وأسلم وأتى قومه فأسلم
بعضهم وعاش في الاسلام وتوفي سنة ٣١ بالريذة .

وانظر : الطبقات الكبرى : ٤/ ٢١٩ ، الاصابة : ٧/ ١٢٥ .

(٤) صرمة هذا من بني عدي بن النجار ، وكان رجلا قد ترهب في الجاهلية ولبس
السوح ، وفارق الاوثان واغتسل من الجنابة وتطهر من النساء في نفاسهن ،
وهم بالنصرانية ثم اسك عنها ، ودخل بيتا لا تدخله طامت ولا جنب ، وقال
أعبد رب ابراهيم . ولما قدم الرسول - صلى الله عليه وسلم - المدينة أسلم
وهو شيخ كبير : وانظر : السيرة النبوية لابن هشام : ١/ ٥١٠ ، الاصابة : ٣/ ٤٢٢ .

وعمر بن عبسة (١).

وحسبنا أن تكفى بهذه الاشارات السريعة ، والتي اجتهدنا في الوقوف بها عند من غلبت عليه نزعة التحنف في ذلك الزمان . ان قد تصادفنا ببعض الروايات الموهمة في تحنف غير من أسلفنا ، ولكن المتابعة والدرس تجعل هذه الروايات لا تصمد أمام ذلك ، وتدفعنا الى اطراح غير من أوهانا اليه بعد جهد وحيرة وتقدير (٢).

(١) عمرو بن عبسة بن عامر السلمي ، يكنى أبا نجيح ، وكان في الجاهلية قد رغب عن آلهة قومه ، وآها آلهة باطلة ، لا تضر ولا تنفع ، وقد سافر فسي طلب الدين وسأل علماء وأهل الكتاب عن أفضل الدين ، فأعلموه بخروج النبي صلى الله عليه وسلم ، فبقي يتلمس أخبار مكة ، فلما ظهر له الأمر أتى الرسول وأسلم وعاد الى أهله ، ولما أقام الرسول بالمدينة أتاه بعد ذلك ، وقد نزل الشام ومات بها .
وانظر: الطبقات الكبرى : ٢ / ٣٠٣ ، الاستيعاب في معرفة الاصحاب : ١١٩٢ / ٣ .

(٢) من هؤلاء مثلا : أبو قيس بن الأسلت ، الشاعر الجاهلي من الاوس ، ولعل خلطا حصل في ترجمته مع صرمة بن أبي أنس الانصاري لتشابههما فسي (أبي قيس) ، وقد لاحظ ذلك محقق ديوانه . ومنهم عمرو بن حممة الدوسي حكيم العرب وأحد العميرين الذين قرعت لهم العصا كما في كتاب المعمرين . ومنهم الجارود بن المعلّى . صحابي من عبد القيس ، والذي أوهم الى القول بخنيقيته أنه كان نصرانيا قبل الاسلام .

الباب الثاني

أدب الخنيفة في العصر الجاهلي

الفصل الأول : الانتحال وأدب الخنيفة

الفصل الثاني : شعر الخنيفة

٢ - المعتقدات

ب العبادات

ج التشريعات

الفصل الثالث : نشر الخنيفة

الفصل الرابع : تحليل وتقويم

= الفصل الأول =

الانتحال وأدب الحنيفية

تعد قضية الانتحال من أشهر قضايا الشعر الجاهلي ، وقد تنبه لها العلماء المسلمون في بداية مراحل جمع الشعر الاولي ، وقد بسط القول فيها وتبعج الحديث عن الوضع ولا نتحال لفيف من المستشرقين وكثرة من الدارسين فسي عصرنا الحديث .

ولا ننكر ان الانتحال ظاهرة شائعة بين الأم جميعا ، وليس شعر العرب الجاهلي المتفرد بذلك ، وقد ذلك كاتب مصاد الشعر الجاهلي على ذلك بالمشكلة الهوميرية في الشعر الهومري (١) .

وقد كان الرواة في القرن الثاني والثالث يلاحظون انتشار ظاهرة النحل والوضع فيما يرون ويسمعون من أشعار عند غيرهم ، ومن هنا فطنوا لذلك ، وبينوا أسبابه ، كالعصبية القبلية والرواة الوضاعين ومن لا علم لهم بالشعر (٢) .

وقد أظهر لنا الرواة النقاد لصحيح الشعر من منحوه من طبقتهم الاولي الى سائر الطبقات الاخرى . فهذا المفضل الضبي (ت ١٦٨ أو ١٧٨ هـ) نقد حماد الراوية وأبان تزيفه للشعر (٣) وكان الأصمعي (ت ٢١٦) بالمرصاد لخلف الاحمر ونقد روايته (٤) ، وكان ابن سلام من مشاهير العلماء المحققين في ذلك ، بل هو الذي أبان في كثير من المواطن في طبقاته الانتحال وفصل القول فيه بما يفوق به علماءنا السابقين في ايضاح ذلك . فقد تعقب مرويات حماد واتهمه بالوضع وفساد الشعر (٥) ، وكان حمادا في نقده لابن اسحاق . الذي حشوا

(١) مصاد الشعر الجاهلي : ٢٨٧ - ٣٢٠ .

(٢) طبقات بن سلام : ٤٦/١ .

(٣) معجم الادباء : ياقوت الجوى : ١٦٤/١٩ . ط . دار احياء التراث العربى - بيروت .

(٤) مراتب النحويين : لأبي الطيب اللغوى : ٤٦ . تحقيق : محمد أبو الفضل

ابراهيم . ط (١٩٥٥ م) .

(٥) طبقات فحول الشعراء : ٤٨ .

السيرة النبوية بكثير من غشاء الشعر الذى لا يصح ، فضلا عن الأشعار التى رواها
لقوم لو امتنع عن ذكرها لهم كان خيرا من نسبتها اليهم ^(١) . كما كان على مقربيه
من هؤلاء الأعلام وتابع لهم أبو الفرج الاصبهاني الذى رفض روايات ابن الكلبي
عن دريد بن الصمة وبعض أشعاره ، ونبة الى تليفق ابن الكلبي نفسه لها ^(٢) .

وحسبنا الاشارة الى ذلك لننبه أن علماء المسلمين الأوائل قد تنبهوا الى ذلك
فوقفوا بالنقد والتحقيق فى وجه كل راوية وضاع وأية رواية لا تحمل الصحة والثقة .
فقد واجه هؤلاء العلماء شعرا جاهليا واسلاميا دخله وضع كثير ، فانبهروا بكل
أمانة واخلاص ليجبوا الخبيث من الطيب ، فوجدوا أن هناك الرواة الوضاعيين
فنقدوهم وكذبوا روايتهم ونبهوا عليهم ، كما وجدوا الرواة الثقات الذين يطعن الى
صدق روايتهم وصحة علمهم فأخذوا عنهم ، وشهدوا بالعدل والثقة لهؤلاء الرواة
وذكرهم .

بذلك اتضح الامر لهؤلاء العلماء فعرفوا الشعر الصحيح من المنحول وأبانوا
ذلك فى طريقة حفت بالأمانة والحيطه والحذر حتى تم لهم ذلك ، وكانوا بتلك
الطريقة آية فخر واعزاز لمن يطلب الامانة ويتحرى التحقيق ، كما كانوا آية فخر
للمسلمين على غرة العلم والتاريخ على مر الايام وتعاقب العصور .

والحق ان جهود هؤلاء القم هي التى أخرجت لنا الكثير من الدرر بعد
ذلك العنت وتلك اللأواء ، كالمعلقات ، والمفضليات ، والاصمعيات ، وكثير من
الدواوين الشعرية ، سواء كانت دواوين شعراء أم دواوين قبائل كديوان الهذليين
والحماسات ، والطبقات ، وكتب المنتخبات الى غير ذلك من الكثير من تلك الكتب
التي أخرجوها لنا خالصة من الشوائب والشك على أقصى ما بذلوه من جهد فى
ذلك . وهذه الكتب وأمثالها هي التى تحوى فى بطونها ما اطمان الى صحته
هؤلاء السابقون ، مما يدفعنا الى الثقة فيما وثقوه ، وكيف لا نكون كذلك وقد قال

(١) طبقات فحول الشعراء : ٧ ، ٨ .

(٢) الاغانى : ٤٠ / ١٠ .

أشهرهم - محمد بن سلام - في ذلك ^(١) وقد اختلفت العلماء بعد في بعض
الشعر ، كما اختلفت في سائر الأشياء ، فأما ما اتفقوا عليه ، فليس لأحد أن يخرج
منه .

وحسبنا هنا ان نخلص الى ما يعيننا من هذه القضية ، فقد كثر فيها القول
ودونت فيها الكتب* . ويمكن أن نضع ما يتعلق بنا - كما نرى - في أمرين جمعا
ماله وشيجة بهذه القضية ، ذلك عند شبه المستشرقين ، وشكوك الدكـ
طه حسين .

(١) طبقات ابن سلام ١/٤٠ .

* انظر: تاريخ آداب العرب: مصطفى صادق الرافعي : (ج١) الباب الثاني.
ط٤ (١٣٩٤) دار الكتاب العربي - بيروت، مصادر الشعر الجاهلي :
الباب الرابع .

(١) عند المستشرقين

كما تنبه العلماء السابقون الى الانتقال في الأدب الجاهلي ، ومثلوا للكثير منه فقد استفاد المستشرقون من تلك التنبيهات ، وبدءوا يفصلون في الأمــــر ويعيدون القول فيه عن سوء نية أو غيرها ، ولما كان أدب الحنيفة ذا نزعة وينبئة محزنة فقد بدا أن نذكر من آراءهم ما يعيننا منها هنا ، ويمكن اجمالها فيما يأتي :

١ - ان الشعراء الجاهليين لا يمثلون الدين الجاهلي فيما ورد من أشعارهم ، وانما تظهر عليهم النزعة الاسلامية فليسوا من الجاهلية في شيء .

٢ - في الشعر الجاهلي اشارات الى قصص ديني ورد في القرآن ، واستعمال للكلمات اسلامية .

٣ - التفسير في الشعر الديني باستبدال لفظ الجلالة محل الأصنام .

٤ - رفض كميات هائلة من الشعر ذي الطابع الديني كشعر أمية وورقة .

ولا ريب أن هذه الامور التي رآها المستشرقون متقاربة متداخلة ، ويمكن أن نعدّها من جملة عوامل الشك في صحة الشعر الجاهلي ، ولكنها تنصب على أدب الحنيفة وتخصه بدرجة كبيرة .

وبعد أن تيسر لنا حصر هذه الآراء فاننا سنلقى عليها شيئاً من الايضاح مع مناقشتها ، حتى يتيسر لنا الانتقال الى مثلها في ثنايا هذا الفصل .

ان القول بأن شعر الشعراء الجاهليين ليس من الجاهلية في شيء فهذا ما ذهب اليه مرجليوث في مقالته " أصول الشعر العربي " فقد قال :^(١) ان جو الشرك في مدونات الشعر الجاهلي كان وبكل بساطة غائبا ، ويقول^(٢) في موضع آخر : " وفي الحقيقة ان الدين الوحيد الذي يمكن أن يؤمن به هؤلاء الشعراء

(١) أصول الشعر العربي : مرجليوث . ترجمة د . يحيى الجبورى : ٧١ . ط ٢

(١٤٠١) مؤسسة الرسالة . بيروت .

(٢) السابق : ٧٣ .

الجاهليون هو الاسلام فقط . انهم فيما بيد و موحدون بصرامة ، لأنهم نـاـدوا
ما يذكرون الها آخر غير الله ، واذنا ذكروا الها آخر في أحياء قليلة ، فانه ذكر
فيه مهانه " واستشهد لذلك بقول عبید بن الأبرص :

وتبدلوا اليعسوب بعد الهمهم . . . صنا فقرؤا يا جديلا وأعذبوا .
وقد ذهب مرجليوث ييسط الكثير من الأمثلة والأدلة التي تدل على معرفة
هؤلاء الشعراء بالاسلام واطلاعهم على القرآن وتعمقهم في معرفة أحكامه وفهمها .
وعلى سبيل المثال من ذلك ما لاحظته من ورود بعض المعاني الاسلامية ،
فرأى عبید بن الأبرص يشير الى معنى الخير في هذه الدنيا في قوله :
تزود من الدنيا متاعا فانسه . . . على كل حال خير زاد المزود
ورأى لعبید عبارة تتضمن علما بالشرعية الاسلامية فيما يخص الميراث في بيته :
قد يوصل النازح النائي وقند . . . يقطع ذوال السهمه القريب (١)

وأخيرا يلحظ مرجليوث الشك في قصيدة لمهلل بن ربيعة الذي عاش قرنا
قبل النبي ، فهو متقدم بمقدار كاف من الزمن ليستطيع أن يقتبس من القرآن قوله :
قالوا لنا لقد هلك كليب ، وقلت : هل مات بنا الأرض أم أمسكت ميلانها (٢) ،
وهو يعني قول مهلهل في رثاء أخيه كليب :

نعى النعاة كليباً لى فقلت لهم . . . مات بنا الأرض أم مات رواسيها
ليت السماء على من تحتها وقعت . . . وحالت الأرض فانجابت بمن فيها

(١) النازح والنائي : بمعنى واحد وهو البعيد ، يقطع : يعق . ذوال السهمه :
ذوال السهم والنصيب يعني القريب ، والمعنى قد يقطع الناس أقاربهم
ويصلون الأبعد ، فلا تمنعك الغربة من مخالطة الناس لأنه قال قبله :
ساعد بارض ان كنت فيها . . . ولا تقل اننى غريب .

ولا أدري كيف أتى ذلك الفهم الغريب للبيت عند مرجليوث ! .
(٢) أصول الشعر العربي : ٢٥ . وواضح أن بيتي مهلهل لا يقطع بظهور
نزعة اسلامية فيها ان لم تكن بعيدة عنها .

ولا ريب أن مرجليوت جانب الصواب وأخطا الطريق في الكرة الغالبة . ما مشىل به أو حاول التدليل عليه .

ونحن هنا لن نتعرض للرد على أغاليط مرجليوت بقدر ما نشير لخطئه السدى طفح وغطى على صوابه في مقالته هذه (١) .

وسوف لا نرد على مرجليوت هنا فى دعواه بأن الشعر الجاهلى لا يمثل حياة الجاهليين الدينية وإنما يمثل الاسلام عند تفصيل هذه النقطة فيما يأتى بعد بأن الله .

ومما لا نراه يتفق من تلك الأدلة عنده ما رآه من قسم الشعراء الجاهليين بالله مرارا كثيرة ، وقسمهم بالله لا يتغير ، وهذا القسم يسود فى دواوينهم فعلا ، حتى ان عبيد بن الأبرص يقول بلغة قرآنية " انى أقسم بالله ، الحق ، الكريم ، بيده الأمر ، الغفور الرحيم " (٢) .

ومن ذلك ، تلك النظرة التى ينظرها الجاهليون لأعمال الله وصفاته ، فبيد أن تكون من هؤلاء الجاهليين ، ويمكن رفضها لأنها تحمل بيانات القرآن فى ذلك ، وفى الغالب كما يزعم - بكل تفصيل (٣) . وما استشهد به على ذلك بقول قيس بن الحداية (٤) :

لا تعز لبينى سلمى اليوم وانتظرى .. أن يجمع الله شملنا طالما افترقا
فهو لا يظن أن الجاهليين يعتقدون قدرة الله على جمع الشمل بعد التفريق ،

(١) لبيان المزيد من الرد على مرجليوت . انظر : مقدمة ديوان عبيد " للمشتشرق ليل " ، وانظر مصادر الشعر الجاهلى : ٣٦٧ - ٣٧٤ ، ومقدمة د . يحيى الجبورى فى ترجمة " أصول الشعر العربى " .

(٢) أصول الشعر العربى : ٧٢ وهو يشير الى قول عبيد :

حلفت بالله ان الله ذو نعم .. لمن يشاء وذو عفو وتصفاح .

(٣) السابق : ٧٢ ، ٧٣ .

(٤) قيس بن الحداية الخزاعى : شاعر جاهلى ، كان شجاعا فاتكا كثيرا المغارات

حتى تبرأت منه قبيلته " خزاعة " . وانظر : نوادر المخطوطات " من نسب

الى أمه من الشعراء " ٦٨/١ . تحقيق عبدالسلام هارون ط (١٣٩٢)

الحلبى - مصر ، الاغانى : ١٤ / ١٤٤ .

كما لا يتصور أن أحدهم يرى أمر الله نافذا لا محالة حيث يشاء سبحانه ،
وأن يقولوا مثل قول الحارث بن حلزة :

فهو اهم بالأسودين وأمر الله . . به بلغ يشقى به الأشقياء (١)

وقد استنكر أيضا مرجليوت أن ترفع دعوات الجاهليين الى الله تعالى وباسمه ،
وأن الذى يسأله لا يخيب كما يخيب الذى يسأل الناس (٢) مستشهدا بقول عبيد :

فان خفت لجوع البطن رجلى . . فدد الله رجلى بالمعاصى

وقوله - أى عبيد - :

من يسأل الناس يحرمه . . وسائل الله لا يخيب

ولا مجال لسرد كل مافرضه مرجليوت من نظرات الجاهليين الى أعمال الله وصفاته ،
بعد أن مثلنا لبعض منها ، وحسبنا الإشارة الى رفضه أيضا أن يرى بيتا يدل على
خوفهم من الاثم وأن الله يعاقب عليه ، كما أن الله يعلم ماخفى على الآخرين ،
وهو رب الناس ، وهذه زلة لا تغفر لمثل مرجليوت ، وأن المرء لا يعلم ما يحدث له
فى ما يستقبل من أمره أو زمانه ، الى غير ذلك (٣)

وهذا الرأى فى أعمال الله وصفاته وقدرته الذى ذهب الى رفضه مرجليوت
واستبعده على الجاهليين لاضير علينا من اخضاعه للرأى والدراسة لنرى مدى
صحته ثم الوثوق به . وقد من الله علينا بتنبيه السابقين لهذه الظاهرة من قبل
مرجليوت ، ولكنهم لم يذهبوا بها كما ذهب ، بل أعادوا الأمر لملايساته التاريخية
فى ذلك الزمان ، وقد دعوا آراءهم بالآيات البينات من الكتاب العزيز ، وحسبنا
ذلك ، والقرآن هو الحكم المرضى عند هؤلاء الذين يذهب بهم الشك كل مذهب ،

(١) أصول الشعر العربى : ٧٢ . والبيت من أبيات فى وصف غزوة لعمر بن هند ،
وجيشة وهو ما قصد بقوله : هداهم ، الاسودان : النمر والماء ، من باب
تغليب أحد الاسمين على الآخر وقيل هما رجلان ، بلغ : معناه بالسيف
بالسعادة أو الشقاء .

(٢) أصول الشعر العربى : ٧٢ ، ٧٣ .

(٣) السابق : ٧٣ .

فهم يشكون فى الحوادث والروايات التاريخية ويرفضون شعر الجاهليين الاجزء منه لا يسمن ولا يغنى من جوع .

لقد كثرت الآيات القرآنية التى تؤكد اعتراف هؤلاء الجاهليين بأفعـال الله العظمى وصفاته العليا ، وهذا بلا ريب اقرار منهم بريبييتهم بالله واعترافهم أنه الرب الخالق للسماء والأرض ، بل هو خالقهم أنفسهم ورازقهم ، وأنه منزل المطر ومنبت الزرع ، وأنه الهادى الى الحق ، الذى له ما فى السماوات والأرض ، وهو يدبر الأمر ، ويبدع ملكوت كل شئ وهو يجير ولا يجار عليه ، كما أنه سخر الشمس والقمر ومذل البحر لمنافع العباد ، وكل هذا بعض مما ورد فى القرآن ، وهو يدل على غيره من الكثير ما يؤمن به ويعتقد الجاهليون عن الله وصفاته وأفعاله جل وعلا .

وحسبنا قوله تعالى : ^(١) " قل من يرزقكم من السماء والأرض أمن يملك السمع والا بصر ومن يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى ومن يدبر الأمر فسيقولون الله فقل أفلا تتقون " ، وما ذكره القرآن من دعائهم لله والتجائم اليه وقت الشدائد دون سواء قوله : ^(٢) " هو الذى يسيركم فى البر والبحر حتى اذا كنتم فى الفلك وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها جاءتها ريح عاصف وجاءهم الموج من كل مكان وظنوا أنهم أحيط بهم دعاوا الله مخلصين له الدين لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين ، فلما أنجاهم اذا هم يبغون فى الأرض بغير الحق . . . " وعن يقينهم بقدره الله على تنزيل المطر وأحياء الأرض به يقول تعالى : ^(٣) " ولئن سألتهم من نزل من السماء ماء فأحياء به الأرض من بعد موتها ليقولن الله قل الحمد لله بل أكثرهم لا يعقلون " والآيات كثيرة جدا فى هذا المعنى ^(٤) ، وحسبنا ما ذكرنا ، وهذه الآيات التى تناقش المشركين وان لم تهدف الى تذكيرهم ببعض قدرة الله وصفاته فحسب فلا شك ان ما ذكر منها ليدل على أمثالها فيما يفهم من آيات

(١) يونس : ٣١ . (٢) يونس : ٢٢ ، ٢٣ .

(٣) العنكبوت : ٦٣ .

(٤) أنظر المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم " سأل " : ٣٣٦ ، " قل " : ٥٧١ - ٥٧٥ .

القرآن البينات .

وأما العلماء السابقون فهذا أحد هم يوضح هذا الأمر ويزيل هذه الشبهة التي يقع فيها مرجليوث ومن شايعه ، فوثنية العرب في الجاهلية لم تنكر الله ولا أفعاله أو صفاته ، فهم يعترفون بالربوبية ويشركون في الألوهية إذ يعبدون غيره ، ويقول (١) : " وجميع عبدة الأوثان من العرب موحدة الله تعالى . وإنما كانت عبادتهم ضربا من التدوين الصابئة في تعظيم الكواكب والأصنام الممثلة بها في الهياكل ، لا على ما يعتقد الجاهل بدانات الام وآراء الفرق ، من أن عبدة الأوثان ترى أن الأوثان هي الالهة الخالقة للعالم ، ولم يعتقد هذا الرأي صاحب فكرة ولا واز به صاحب العقل ، ودليل ذلك قول الله تبارك وتعالى :
 " مانعبدهم الا ليقربونا الى الله زلفى " .

وبهذا يتضح أن الجاهليين ان ورد عنهم شيء من أفعال الله أو قدرته مما يعتقدونه في الله فلا غرابة في ذلك ماداموا قد اعترفوا لله بالربوبية ، وإنما عبدوا تلك الأوثان لتكون واسطة يستشفعون بها عند الله .
 وما يلاحظ على مرجليوث في هذا العدد أن أكثر شواهد من شعر عبيد ابن الأبرص ، وعبيد هذا نصت المصادر على تألهم وتحننه ، وهذا الشعر يؤكده ذلك ولا يدفعه . وليس بعبيدا أن يقول عبيد مثله .

وأخيرا فلو وافقنا مرجليوث الشك فيما استشده به ثم ذهبنا الى بعض مصادر الشعر الجاهلي ، فإننا نجد الكثير من الثقات يوردون أمثال هذه الأشعار ، ممن يطمئن الى صحة روايتهم فهذا " أفنون التغلبي " يقول (٤) :
 لعمرك ما يدرى امرؤ كيف يتقى . . اذا هولم يجعل له الله واقيا

(١) طبقات الام : ص ٢٤ .

(٢) انظر ماسلف عنه في ذكر الحنفاء .

(٣) هو صريم بن معشر بن نهل ، لقب بأفنون ، وهو شاعر جاهلي مشهور ، من بني تغلب . وانظر : الشعر والشعراء : ١/٤١٩ ، الاشتقاق : ٣٣٦ .

(٤) الفضليات : ٢٦١ .

وقد كان الله عندهم فوق كل الارباب ولا أعظم من الحلف به ، قال النابغة الذبياني :^(١)

حلفت فلم أترك لنفسك ريبة .. وليس وراء الله للمرء مذهب

وهذا أحدهم يسند الى الله تعالى الخفض والرفع في المكانة بين القوم كما يدعو

الله ان يرفع من قدر ال شيان قائلا :^(٢)

إذا وضع الهزاهز ال قوم .. فزاد الله لكم ارتفاعا

ولا سبيل لنا الى ايراد المزيد من مثل هذه النماذج فهي كثيرة اخترنا منها

ماندلك به على ما نذهب اليه .^(٣)

أما الاشارات الى القصص الديني الذي ورد في القرآن والذي تضمنه

الشعر الجاهلي وخاصة الشعر الديني فقد عده مرجليوت مطعنا للشك في صحة

الشعر الجاهلي ، وقد اتخذ هذا الباحث من قوله تعالى :^(٤) " تلك من أنبياء

الغيب نوحينا اليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا .. " حجة لجهل

العرب بقصة نوح - عليه السلام - ثم انه يعلق على ذلك بقوله :^(٥) " هذا لا يعنى

أن العرب ما كانوا يعرفون قصة نوح ، ولكنه يعنى أن هذه بهذا التفصيل والبيان

كانت مجهولة لديهم " ثم يذكر شاهدا على ذلك قول النابغة الذبياني فـ

مدح النعمان :^(٦)

فألقى الأمانة لم تخنها .. كذلك كان نوح لا يخون

ثم قال :^(٧) والمرجع الواضح الوحيد في وصف (الابين) هو القرآن ، فقد استعمل

(١) ديوانه : ٥٥

(٢) الفضليات : ٣٠٥ ، من شعر مقاس العائذي ، الهزاهز : الحروب .

(٣) لمزيد من ذلك انظر ما سيأتى في فصل المعتقدات من هذا البحث .

(٤) هـود : ٤٩ .

(٥) أصول الشعر العربي : ١١٢ .

(٦) ديوان النابغة : ٢٦٦ .

(٧) أصول الشعر العربي : ١١٣ .

هذه الكلمة في وصف نوح " في قوله تعالى : ^(١) اذ قلنا لهم اخوهم نوح الا تتقون
اني لكم رسول أمين " والذي يبدو لي أن هذا لا يعدو قول محقق ديوانه ^(٢)
" وهو يدل على أن اشتها نوح عليه السلام بعدم الخيانة كان معروفا بين العرب " ^(٣)
وقد بدا لهذا الأمر عند مرجليوث عدد من النماذج كذكر ارم وعاد وشمشود
في قول الشاعر :

لاتحسبن الدهر مُخِلِّدَكم .. أو دائما لكم ولم يـــــــدم

لودام دام لتبــــع وذوي .. الاصناع من عادوســــن ارم

ونذكر من هذا أيضا قصة الفيل المشهورة في شعر للبيد نسب اندحار هؤلاء الفزاة
الى الله ^(٤) ، وآخر تلك النماذج ماورد من قصة موسى وأخيه هارون مع فرعون مصر
في شعر لزيد بن عمرو بن نفيل أشهر الحنفاء ^(٥) .

وهذه الظواهر التي ارتاب فيها الباحث في الشعر الجاهلي ليست من الشك
الى مثل ما يرى ، فهي لا تزيد عن ذكر لهؤلاء الأنبياء مع الاعتراف برفعة شأن هؤلاء
الرسال ، وإذا كان الشك يظهر جليا في قصيدة زيد بن عمرو المشار اليها فإن
ماعدائها لا يتطرق اليها الشك الى مثل درجتها ، فلماذا نستنكر أن يذكر هؤلاء
الشعراء بعض هؤلاء الرسل الكرام ؟ ونحن قد علمنا - فيما سبق - أن اليهودية
والنصرانية قد وجدت في بعض أماكن متفرقة من الجزيرة .

(١) الشعراء : ١٠٦ ، ١٠٧ .

(٢) ديوان النابغة : ٣٦٦ .

(٣) أصول الشعر العربي : ٧٥ .

(٤) السابق : ٧٦ .

(٥) أصول الشعر العربي : ٧٦ . ومنه قوله :

وأنت الذي من فضل من ورحمة .. بعثت الى موسى رسولا مناديا

فقلت له فاذهب وهارون فادعوا .. الى الله فرعون الذي كان طاغيا

وقولا له أنت سمكت هــــــذه .. بلا عمد حتى استقرت كما هيا

وقولا له أنت سويت هــــــذه .. بلا وتد حتى استقرت كما هيا

وربما تسربت بعض من أفكارهم الى العرب ، ولا ريب أن اليهود والنصارى على علم بهؤلاء الرسل ، فما المانع - والامر هكذا - أن يرد ذكر لهؤلاء الرسل والانبياء ؟ والناصفة الذي يانى الذى ذكر نوحاً نراه فى شعره يذكر سليمان عليه السلام فى أثناء مدحه للنعمان قائلاً (١) :

ولا أرى فاعلاً فى الناس يُشبهه . . ولا أحاشى من الاقوام من أحد
الا سليمانَ ان قال الالهُ لَهُ . . قم فى البرية فاحددْهَا عن الفئدِ (٢)
وخيسِ الجنَّ اني قد أذنتُ لَهُمْ . . يبنونَ تدْمِرُ بالصَّغَاحِ والعَمَدِ (٣)
وليس هذا الامر مقصوراً على النافسة وحده ، بل نجده عند غيره من الفحول ،
مما يدل على أن أمر هؤلاء الرسل مألوف ومعروف بين عرب الجاهلية . فلهذا
الاعشى الكبير يذكر نوحاً والطوفان عند مدحه اياس بن قبيصة الطائى (٤) ، فيقول (٥) :

جزى الاله ايا سأكيرَ نعمته . . كما جزى المرء نوحاً بعدما شأها
فى فُلْكِه اذ تَبَدَّأَهَا لِيَصْنَعَهَا . . وظلَّ يجمع الواحاً وأبواباً
ويذكر الاعشى أيضاً داود عليه السلام ويصفه بصانع الدروع مرتين ، كقوله (٦) :

ودروعٌ من نسجِ داودَ فى الحر . . ب وسوقٌ يَحْمَلْنَ فوقَ الجمالِ
وقوله (٧) : وأعدتُ للحربِ أوزارَهَا . . رامحاً طولاً وخيلاً ذكوراً
ومن نسجِ داودَ مَوْضُونَةً . . تساقُ مع الحيِّ عبراً فعميراً

(١) ديوان النافسة : ٨٢ .

(٢) أحدها : أمتعها ، الفند : الخطأ فى القول أو الكذب أو ما يعاب .

(٣) خيس : ذلل الجن للعمل ، الصغاح : الحجارة الصلبة العريضة ، العمدة : يريد الأعمدة جمع عمود .

(٤) من شيان بن ثعلبة من طيء ، وكان عامل كسرى على عين التمر وما حولها ، ثم ولى الحيرة بعدما قتل النعمان بن المنذر .

انظر : تاريخ ابن خلدون : ٢٦٥ ، والكامل فى التاريخ : ١ / ١٧٣ .

(٥) ديوان الاعشى : ٤١٥ .

(٦) ديوان الاعشى : ٦١ ، وسوق : جمع وسق (يفتح الواو وسكون السين) وهو الحمل .

(٧) السابق : ١٤٩ .

ومادام قد ورد في الشعر الجاهلي ذكر للأنبياء تارة وللأقوام السابقة
كعاد وشمود تارة أخرى فلا نستبعد أن من ذكر مثل هؤلاء الأنبياء لا يفترب
عليه خبر أقوامهم ، كما أن من علم خبر هؤلاء الأقوام لا يخفى عليه نبأ رسلهم .
وعلاوة على ذلك فإن هؤلاء الأنبياء وأقوامهم قد تم تاريخهم داخل جزيرة
العرب وعلى مقربة من أطرافها ، وقد كان من حال العرب التجارة وكثرة الترحال ،
ثم لا يكون لهم علم بما حدث في كثير مما يمررون عليه من الديار ! خاصة وأن القرآن
يوكد ذلك نحو قوله تعالى (١) : " وأنكم لتمررون عليهم مصبحين وبالليل أفلا تعقلون "
وقوله عز وجل : (٢) " أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم
د مر الله عليهم وللكافرين أمثالها " . كما أن من غير المتصور في الأذهان أن ترد
في القرآن تلك الآيات الكثيرة بل والمعيدة في كثير من الأحيان لقصص تلك الأقوام
ورسلهم لتخاطب قوما يجهلون ذلك وينكرونه ، ان لم يكونوا على علم بحوادث هؤلاء
الأقوام ودقائق تفصيلاتها .

ولا ضير علينا أن نورد قولاً للامام ابن جرير الطبري أورده بعد أن انتهى
الحديث عن قوم صالح - عليه السلام - والذي سبقه بالحديث عن قوم عاد فقال (٣)
: " فأما أهل التوراة فانهم يزعمون أن لا ذكر لعاد ولا شمود ولا ليهود وصالح
في التوراة ، وأمرهم عند العرب في الشهرة في الجاهلية والاسلام كشهرة ابراهيم
وقومه . . ولولا كراهة اطالة الكتاب بما ليس من جنسه لذكرت من شعر شعراء
الجاهلية الذي قيل في عاد وشمود وأمورهم بعض ما قيل . ما يعلم به من ظن
خلاف ما قلناه في شهرة أمرهم في العرب صحة ذلك " .

ويبدو لي أن مرجليوت في أثناء حديثه عن نوح يتعجب أيضا من وضوع
الجاهليين للأنبياء في هذه المكانة الطيبة حتى كأنهم عرفوا قد رهم ومزلتهم

(١) الصافات : ١٣٧ .

(٢) محمد : ١٠ .

(٣) تاريخ الطبري : ٢٣٢ / ١ .

كما يعرفها المسلمون ، ولا نريد هنا أن نزيد عما ورد في القرآن من تعجب المشركين حين أرسل الله إليهم رجلا من البشر ، إذ كانوا يتصورون أن يكون أعلى شأننا من ذلك كان يكون ملكا أو ينزل معه الملائكة مقترنين .

أمّا التغيير في هذا الشعر الديني باستبدال لفظ الجلالة محل الأصنام وأن الاسلام من وراء ذلك حتى يقضى على تلك الوثنية فقد تصور ذلك بعض المستشرقين وحسبنا في هذا أن نذكر ما قاله بلاشير في ذلك ففيه بيان ذلك ورده ، قال (١) :

" ألم يحذف المسلمون كل ما من شأنه التذكير بعهود الوثنية ؟ يعتقد المستشرقون فولد زيهير ، وود ورو بنورغ ، وباسيه ، وليال ، ومرجليوت (٢) ، بحدوث اصلاحات ذات دوافع دينية أدت الى حذف الصيغ المقدسة وتحاشي الاشارة الى الوثنية واستبدال كلمة اللات بكلمة الله . وفي الواقع فان هذا التطهير ذا المصدر الديني ليس أقل تأكيداً ، فاذا حدث فعلا فهو لم يؤد الى اختفاء تام للصيغ الجامدة ولا اشارة الى الطقوس الدينية في العصر الجاهلي فان هناك كثيرا من الظواهر لا تزال باقية ، واذا كانت نادرة فان الزمن هنا وهناك عدا عليها . كما أن الشاعر العربي في ذلك الزمن كان أمّا قليل الانشغال بالأمور الالهية أو أنه كان حريصا على عدم مزجها بأموره الدنيوية ، أمّا الاستعاضة عن كلمة اللات بكلمة الله فهي غير مقبولة إذ ثبت اليوم أن استعمال كلمة الله كسمية إلهية عليا سابقة للاسلام . "

وما تراءى للمستشرقين أيضا ما يتعلق بالشعر الديني ، فقد رأى بعضهم أن كمية هائلة من هذا الشعر لا يجب علينا أن نثق به ، وقد رأى ذلك بلاشير

(١) تاريخ الادب العربي " العصر الجاهلي " : بلاشير : ١٨٨/١ . ترجمة

د . ابراهيم الكيلاني . ط . دار الفكر .

(٢) قول مرجليوت ص ٧٣ من " أصول الشعر العربي " .

ان صرح فى تاريخه العصر الجاهلى بقوله ^(١) : " اننا نفرد دون تردد كمية هائلة من الشعر المدسوس فى أساطير وردت فى سيرة ابن هشام ، وكتاب التيجان لعبيد بن شربة ، . . . كما يتناول أيضا قصائد ذات طابع دينى أمثال قصائد ورقة أو أمية بن أبى الصلت ، . . . " .

وقد كان قريبا من بلاشير ما ذهب اليه المستشرق الايطالى كارلو نالينو فى تاريخه للأدب الجاهلى ^(٢) ، وان كان الأخير أقرب الى الاعتراف لأمية بشئ من الشعر .

والذى يمكن لنا قوله هنا أننا نرجئ هذه المسألة ، ذلك أنها سترد علينا عند طه حسين وهناك تأخذ حظها من النقاش ان رأيته فى هذه المسألة قريب جدا الى رأى هذين المستشرقين .

(١) تاريخ الادب العربى : ١٨٤ .

(٢) تاريخ الاداب العربية " كارلو نالينو " : ٩٤ . ط (١٩٥٤ م) دار المعارف

وأما القرآن فيمثل لنا شيئاً آخر ، يمثل لنا حياة دينية قوية تدعو أهلها الى أن يجادلوا عنها ماوسعهم الجدل ، فإذا رأوا أنه قد أصبح قليل الفناء لجأوا الى الكيد ، ثم الى الاضطهاد ، ثم الى اعلان الحرب التي لا تبقى ولا تذر .

أفتظن أن قريشا كانت تكيد لأبنائها ثم تضطهدهم وتذيقهم ألوان العذاب ثم تخرجهم من ديارهم ثم تنصب لهم الحرب وتضحى في سبيلها بثروتها وقوتها وحياتها لو لم يكن لها من الدين الا مايمثله هذا الشعر الذي يضاف الى الجاهليين ؟ كلا ! كانت قريش متدينة قوية الايمان بدِينها ، ولهذا الديــــن وللإيمان بهذا الدين جاهدت ماجاهدت وضحت بما ضحت " (١)

وقبل أن ندخل في مناقشة هذه الفكرة أحب أن أنبه الى أنه نظرا لما كان لكتاب الدكتور طه حسين " في الشعر الجاهلي " والذي أظهره بعد ذلك باسم " في الادب الجاهلي " من ضجة علمية كبرى أحدثها عند ظهوره ، مما حدا بعدد من الباحثين الى مناقشته ونقده بل ونقضه فيما أظهره من كتب أختصت فسى الرد عليه بالتفصيل ، وبما أن هذه الفكرة السابقة وما سيتبعها من ملاحظات هي من آراء الدكتور طه حسين والتي وردت في كتابه ذلك ، فقد نالت أفكاره هذه فسى الناحية الدينية نصيبا وافرا من مناقشات أولئك الباحثين الذين تصدوا للرد عليه ، شأنها في ذلك شأن غيرها من أفكاره التي أوردتها في ذلك الكتاب . ونحن هنا لا نريد حصر كل ما ورد على طه حسين من مناقشات وملاحظات في هذه الناحية الدينية . وحسبنا أن نورد من آراء الدكتور طه حسين أهمها على ما يبدو لنا ، وهي التي تتصل مباشرة بموضوعنا وله علاقة بها ، وهي فيما يبدو جامعة لكل أسباب الشك التي قد ترد حول أدب الحنيفية ، ولعلنا بعرضها ومناقشتها - مستفيدين ممن عارضوا طه حسين - نرتب هذه الفقرة ونقرب مأخذها .

أما فكرة طه حسين العامة ، والتي مهد بها فيما يبدو ليصل الى أسباب النحل في الشعر الجاهلي والتي مؤداها أن الشعر الجاهلي الموجود فسى

المصادر لا يمثل حياة الجاهليين الدينية كما يصورها القرآن في القوة والوضوح فهذا ما سبق أن ذكره مرجليوث وأخرنا مناقشته هنا مع هذه لا تفاقمها ، ولعل هذا أخذ ه طه حسين عن مرجليوث . فقد أبطل الباحثون ذلك بأدلة قوية . فالقول بقوة دين الجاهليين نظرا لقوة مآلقيه النبي - صلى الله عليه وسلم - منهم ليس سديدا ، فانه - عليه الصلاة والسلام - لم يلق معارضة قوية الا من مشركى مكة ومن يهود المدينة ومن كان حول مكة والمدينة من القبائل . . ومكة والمدينة ليست هى كل بلاد العرب . وأهل مكة ومن جاورهم لم يكونوا جملة العرب ولا جمهورتهم ، فمن الخطأ الواضح أن يجعل الدكتور ما ينطبق عليهم ينطبق على جميع العرب وأن يستند فى ذلك الى القرآن " (١) .

ان من الطبيعى أن يشير القرآن الى دين الجاهليين " ويمثل حياة الجاهليين من وجهة نقائصهم وسيئاتهم تمثيلا لا يدانيه فيه شعر ولا تاريخ . وكيف لا يكون كذلك وهو انما جاء لنقلهم ما هم عليه الى حال أرقى بدرجات وتهيتهم لأن يحيوا حياة سالحة يأخذ بهم الى معارج الارتقاء وتحفزهم الى تخطى دوائر الجمود التى كانوا فيها . . . وهل يتأتى له ذلك الا بالدخول فى صميم شئونهم الحيوية وحكاية ما هم عليه من المنكرات الاجتماعية ثم الكبر عليها بالتقبيح والتهجين ، أو بالتعديلات والتقويم " (٢) .

" ان الحديث عن الدين وتصوير العقائد والضراعة للمعبود فقل أن تجده الا عند أمثال أمية بن أبى الصلت وغيره من الغلائل الذين تنطوى نفوسهم على سكونة وادعة وتعلق بالخالق والقرآن الكريم وصف الشعراء بقوله : " والشعراء يتبعهم الفاوون . . " فهو بهذا يحكى الجيلة التى كانت تسيطر عليهم وتستبد بهم ، أفترى مع ذلك أن الشعر كان يجب أن يصور العقائد ويدعو الى الالهة . . .

(١) النقد التحليلي لكتاب فى الادب الجاهلى : أحمد محمد الغمراوى :

١٥٣ ، ١٥٢ ط (١٩٨١ م) .

(٢) نقد كتاب الشعر الجاهلى : محمد فريد وجدى : ٣١ ، ٣٢ ط (١٩٢٦ م)

دائرة معارف القرن العشرين بمصر .

وأي الشعر الدينى الذى نجده فى شعر الحطيئة وجبرير والغزدق ؟ وشعر كل واحد من هؤلاء لا ينطوى الا على هتك الأعراض وتمزيق الحرمات والولوغ فى كرامات الناس، مع أن الدين يحرم عليهم هذا ويحاربه أشد حرب ويعاقب عليه ، بل أي الشعر الدينى فى شعر أعظم الشعراء الاسلاميين وهو حسان . . . تلك ليست وظيفة الشعر ولا هى مما يتعلق بمهنته ان هو دائما يقوم على العواطف والا نفعالات لا على المراء والجدال .^(١)

ومادام الشعر كذلك فان " معظم شعر العرب كان فى الفخر والحماسة وأن المسلمين صرفوا عنايتهم عن رواية الشعر الذى يمثل ديننا غير الاسلام ولا سيما دين اللات والعزى ، وعلى الرغم من هذا كله وصلت الينا بقية من الشعر الذى يحمل شيئا من الروح الدينى ، تجده فى كتاب الاصنام لابن الكلبي وغيره .^(٢) ثم ان الشعر الجاهلى الباقي بين أيدينا صور حياتهم الدينية بحجمه الصحيح ففيه الكلام عن التوحيد ، وعن الاصنام وعن عبادة الكواكب ، والنار ، والجن والشجر ومعبودات أخرى ، وفيه تصوير لموقف الدهريين فك انكارهم للبعث .^(٣) ولما كان الدليل سند كل مدع أو منكر كان من الباحثين من أتى بعدد من الابيات غير قليل ثم ساقه خير دليل على ذلك ، وبرهن بما أورد على الناحية الدينية عند عدد من الشعراء ، بل لقد دلل على النزعة الدينية عند امرئ القيس وعنتره الذين زعم طه حسين أنه لا يجد للدين فى شعرهما ذكرا ،^(٤) ولولا خوف الاطالة لذكرنا نماذج منها وبهذا تنقضى هذه المقولة ولا تكتب لها الصحة بل هى نظرة عجلت فاتها التحرى والدقة وظل عليها التعميم الذى قد ينخدع به من لم ترسخ به القدم فى دراسة هذا الأدب العربى القديم .

-
- (١) نظرية الانتحال : د . عبد الحميد السلوت : ١١٩ . ط دار القلم . القاهرة .
 (٢) نقض كتاب فى الشعر الجاهلى : محمد الخضر حسين : ٤٨ .
 (٣) انظر الحياة العربية من الشعر الجاهلى : ٣٧٠ - ٤٣١ .
 (٤) الشهاب الراصد : محمد لطفي جمعة : ٨٥ - ٩٢ .

وبعد هذه الفكرة السابقة نرى الدكتور طه حسين يفرد فصلا في كتاب أسباب الانتحال من كتابه ليفصل القول في بيان العوامل الدينية التي كانت من وراء انتحال الشعر ، وقد رأى أنها - أى العوامل - تأخذ اشكالا مختلفة نورد ها في عدد من النقاط ثم نعقب على كل واحدة منها بالنقد والتمحيص .

١ - أول هذه الأمور عند الدكتور أن " هذا النحل في بعض أطواره يقصد به إلى اثبات صحة النبوة وصدق النبى . وكان هذا النوع موجها إلى عامة الناس ، وأنت تستطيع أن تحمل على هذا كل ما يروى من هذا الشعر الذى قيل فى الجاهلية ممهدا لبعثة النبى ، وكل ما يتصل بها من هذه الاخبار والأساطير التى تروى لتقنع العامة بأن علماء العرب وكهانهم ، وأحبار اليهود ورجال النصارى ، كانوا ينتظرون بعثة نبى عربى يخرج من قريش أو مكة . وفى سيرة " ابن هشام " وغيرها من كتب التاريخ والسير ضروب كثيرة من هذا النوع " (١)

- وبهذا فهو ينكر هذه الأشعار والاخبار الممهدة للبعثة النبوية : " وانكارها على هذا الوجه إنما تسمعه ممن ربط قلبه على نفى النبوة ، إذ ليس ممن المحتمل عنده أن يقال فيه شعر أو يرد عنها خبر قبل أن يدعيها صاحبها . أما الذين يعتقدون بأن نبوة أفضل الخلق حق فمن الجائز عندهم أن يسبقها شعر أو خبر يتصل بها ، وشأنهم أن يفحصوا كل ما يرد فى هذا الصد ويضعوه بمنزلته من الوضع أو الضعف أو الصحة ، وكذلك فعل علماء الاسلام فحكموا على جانب مما كان من هذا القبيل بالوضع ، كالأخبار والأشعار المروية إلى قس بن ساعد " (٢) .

ولا ريب أن هذا الباحث مال ، عن الحق فى هذا الامر ، والقرآن الكريم نفسه ينص صراحة على علم أهل الكتاب بهذا النبى علم اليقين ، وأنه سيبعث بلا ريب حتى ليعرفوه مثل معرفة الرجل ولده : " الذين آتيناهم الكتاب

(١) فى الادب الجاهلى : ١٣٣ .

(٢) نقض كتاب فى الشعر الجاهلى : ١٨٨ .

يعرفونه كما يعرفون أبناءهم^(١) بل ويتودون به من حولهم * ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به *^(٢) وقد بشر النصارى به كما أخبرهم عيسى بن مريم عليه السلام : * وإن قال عيسى بن مريم يا بنى اسرائيل انسى رسول الله اليكم مصداقا لما بين يدي من التوراة ومبشرا برسول يأتى من بعدى اسمه أحمد *^(٣) * وإن فهذه الحقيقة ثابتة بنص القرآن . فإذا قال فيها بعض العرب شعرا فليس علينا الا التوثيق لهذا الشعر منتفعين بالجهد الذى بذله القدماء ، أمّا أن ندعى أن هذه القضية حملت على الانتحال ، فانه لا ضرورة لهذا لأن أخبار القرآن عند المسلمين آصدق من أخبار الشعر ، وإذا فليس ثمة مجال للباعت على الانتحال ، فهذه من الدكوطه فيها مجاوزة للواقع ومجانبه للحق *^(٤)

٢ - ثم يتطرق طه حسين الى نوع آخر من أنواع هذا النحل وهو شعر الجن ، ويرى الباحث أن سبب هذا أن * فى القرآن (سورة الجن) أنبأت أن الجن استمعوا للنبي وهو يتلو القرآن ، فلانت قلوبهم ، وآمنوا بالله ورسوله ، وعادوا فأنذروا قومهم ودعوههم الى الدين الجديد . . . فلم يكد القصاص والسرورة يقرءون هذه السورة وما يشبهها من الآيات التى فيها حديث عن الجن حتى ذهبوا فى تأويلها كل مذهب ، واستفلوها استغلالا لا حد له ، وأنطقوا الجن بضروب من الشعر وفنون من السجع ، ووضعوا على النبي نفسه أحاديث لم يكن بد منها لتأويل آيات القرآن على النحو الذى يريدونه ويقصدون اليه^(٥)

(١) الانعام : ٢٠ .

(٢) البقرة : ٨٩ .

(٣) الصف : ٦ .

(٤) من قضايا الأدب الجاهلى د . محمد أبو الانوار : ١٣٦ . ط مكتبة الشباب القاهرة .

(٥) فى الأدب الجاهلى : ١٣٣ ، ١٣٤ .

وقد مثل لذلك بشعر يتعلق بالعصر الاسلامى ، ثم بين الغرض من هذا النحل على الجن " وانما هو ارضاء حاجات العامة الذين يريدون المعجزة فى كل شئ ، ولا يكرهون أن يقال لهم : ان من دلائل صدق النبى فسى رسالته أنه كان منتظرا قبل أن يجىء بدهر طويل ، تحدث بهذا الانتظار شياطين الجن وكهان الانس وأخبار اليهود ورهبان النصارى " (١) .

ومن المعروف أن الجن كان لهم ذكر عند العرب (واننا وكل من له المام بأدب العرب نقرأ الكثير من الشعر المروى عن الجن والانس ، ولم يخطر ببالنا يوما أن المقصود به أن الجن قالتها حقا وصدقا ، وأنها تنشد باللغة العربية والا وزن العربية شعراء فى أمور دينية أو سياسية ، ولكننا منذ قرأنا وأدركنا نعلم أن هذا الشعر يتضمن فكرة الشاعر المجهول أو المعلوم الذى نظمها ولم ينسبها لنفسه وأن الجن ليست الا وسيلة لروايته كما فعل شعراء الفرنج مثل غوته ، وشكسبير ودانتي وميلتون فقد انطقوا الجن فى دواوينهم بالشعر والنثر وزاد دانتي وميلتون بالخوض فى وصف الجنة والجحيم ورويا لنا من شعر الملائكة والأبالسة ما لم يخطر على قلب بشر فهل صدقنا أن الملائكة والشياطين والجن قالت هذا الشعر حقا كما يصدق الطفل حديث (عقدة الأصبع) أو قصة (الس فى أرض الجن) بل نعد الشعر الذى نسب الى الجن فى مقتل سعد بن عبادة وراثا عمر بن الخطاب من النوع التمثيلى الفطرى الذى لم تنضج مواهب العرب فى بابهم وان لم ينظموا شعرا تمثيلىا فان خيالهم قد اتجه نحو هذا النوع من الأدب) (٢) .

وكلام الدكتور طه يدل على اقتناع الرواة بأن هذا الشعر للجن وليس له من يضاف اليه (٣) وكأنه يريد " أن ينسب لجميع الذين رويوا هذا الشعر وهم

(١) فى الادب الجاهلى : ١٣٥ .

(٢) الشهاب الراسد : ٢٠٩ .

(٣) فى الادب الجاهلى : ١٣٤ .

أصحاب الرواية مانسبه اليهم ، ولا يظهر عوار هذا الكلام وخلوه من التحقيق العلمى بأكثر من أن ننقل عبارة بن سلام ، وهو أقرب الكتاب اليه لأنه كثيراً ما ينقل عنه . قال : (وكان للشماخ أخوة وهو أفحلهم ومزرد وهو أشبههم به وله أشعار وشهرة ، وهو الذى يقول يرثى عمر بن الخطاب :

جزى الله خيراً من امامٍ وباركتُ . . . يدُ الله فى هذا الأديم الممزق الخ . .
فابن سلام من أصحاب الرواية ، بل هو عمرة مقدم ، وليس من المقتنعين بأن الشعر للجن ، ولم يتحدث فى شئ من الإنكار والسخرية بأن الناس قد أضافوا هذا الشعر للشماخ ، أما نسبة الأبيات الى الجن فقد وردت فى (طبقات ابن سعد)^(١) أى أنه اعتمد على الرواية الاخبارية وترك الرواية الأدبية الموثقة .

ثم ان ما زعمه طه حسين من الهام الآيات المتحدثة عن الجن فى القرآن للقصص والرواة حين قروها واستغلال ذلك استغلالاً لا حد له " يوحي أن الجن لم يكونوا معروفين عند الجاهليين حتى نزلت سورة الجن . وهذا خطأ واضح لأن العرب أمة صحراوية متسعة الخيال ، وقد تناقلت فى الجاهلية حديث الجن وعرفت الكثير عن الفول والسعلاة ؟ وفى أشعار لصوص العرب والهاديين طرائف من مقابلة الجن ومحادثاتهم ، بل انهم جعلوا لأكثر شعراء الجاهلية ملهمين من الجن ، فجعلوا لمرئ القيس ولعبيد وللأعشى قراء يعرفون بأسمائهم ، وكل ذلك قبل أن ينزل القرآن الكريم ، وقبل أن يتلو الناس سورة الجن ، فكيف يقول الكاتب لم تك تنزل هذه السورة حتى بعثت على الأساطير^(٢) . وهذه الظاهرة من أساطير الجن وقصصهم لم تخف على الرواة وقد نبهوا

(١) محاضرات فى الأخطاء العلمية والتاريخية التى اشتمل عليها كتاب فى الشعر

الجاهلى . محمد الخضر حسين : ٢٦ .

(٢) موقف النقد الادبى من الشعر الجاهلى . د . محمد رجب البيومى : ١٢٩ .

ط . جامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية - الرياض .

الى ذلك مع تعليل لهذه الظاهرة التي ألفوا رؤيتها عند بعض هؤلاء ،
 الجاهليين . (١)

٣ - من هذه الاشكال التي اتخذها النحل بتأثير الدين " ما يتصل بتعظيم
 شأن النبي من ناحية أسرته ونسبه في قريش . فلأمر ما اقتنع الناس بأن النبي
 يجب أن يكون صفوة بني هاشم ، وأن يكون بنو هاشم صفوة بني عبد مناف . . .
 وأخذ القصاص يجتهدون في تثبيت هذا النوع من التصفية والتنقية وما يتصل
 منه بأسرة النبي خاصة ، فيضيفون الى عبد الله وعبد المطلب وهاشم وعبد مناف
 وقصى من الاخبار ما يرفع شأنهم ويعلى مكانتهم ويثبت تفوقهم على قومهم وعلى
 العرب خاصة . . . واذن فالبطون القرشية على اختلافها تنحل الأخبار
 والأشعار وتفسر القصاص بنحلها . ولا أصل لهذا كله الا أن قريشا رهط
 النبي من ناحية ، وأن الملك قد استقر فيها من ناحية أخرى ، فانظر تعاوان
 العواطف الدينية والسياسية على نحل الشعر أيام بني امية وأيام بني العباس (٢) .
 - " الذي لا شك فيه تاريخيا أن قريش كان لها التقدم والسيادة ، وصلت بها
 بالكعبة معروفة ، وورثتها التي وصلت اليها عن طريق التجارة مشهورة ، فأى
 حاجة تلك التي تجعل الرغبة في تعظيم النبي وأسرته سببا لانتحال الشعر ،
 ان النبي قد شرفه الله بالنبوة ، وان قريشا معروفة الشأن بين العرب . . .
 والمتوقع حقيقة أن سيادة قريش ومقامها من السقاية ومكانها من السرفادة
 وولايتها على البيت الحرام ، كل ذلك سوف يجعلها أهلا لأن يقال فيها
 شعر ، فالسبب الذي جعله الدكتور طه مدخلا لانتحال الشعر هو فنى
 الحق سبب لتوثيقه وان لم يصل بعضه الينا " (٣)

اذن من المعروف أن نسبه عليه الصلاة والسلام كان في أشرف قريش ، بل فنى

(١) أنظر ذلك في الحيوان : ٢٤٨/٦ - ٢٥٥ .

(٢) في الادب الجاهلي : ١٣٥ ، ١٣٦ .

(٣) من قضايا الأدب الجاهلي : ١٣٩ .

ساداتهم كما نعلم عن أبي طالب ، وعبد المطلب وهاشم وغيرهم ، وقد وقف أبو طالب مع الرسول وما كان أحد يناله بأذى لذلك ، وقد اعترف به هذه الحقيقة أعداءه صلى الله عليه وسلم كما عرفها له النصارى وعلماءهم ، وقصة أبي سفيان مع هرقل - عظيم الروم - وسوءه عن نسبه عليه الصلاة والسلام نائعة الصيت ^(١) ، وخير ما يمكن قوله في هذه المسألة .

٤ - " نحو آخر من تأثير الدين في نحل الشعر ، وهو هذا الذى يلجأ اليه القصاص لتفسيرهم كما يجدونه مكتوباً في القرآن من أخبار الأمم القديمة البائرة كعاد وشمود ومن اليهم فالرواة يضيفون اليهم شعرا كثيرا " ^(٢)

- وهذا النوع قد كفانا ابن سلام نقده والتنبيه الى وضعه عليهم ، وقد أضاف هذا النوع القصاص كابن اسحاق الذى أورد كثيرا منه فى السيرة ^(٣) . وهذا الكلام ينحصر فى اضافة هذا الشعر لعاد وشمود وغيرهم وانطاقهم به ونسبته اليهم ، ولكن قول الدكتور " لتفسير ماورد فى القرآن من أخبار الأمم القديمة " ربما أوحى بعدم معرفه العرب بهؤلاء الأقوام وخلو الشعر الجاهلى من ذكرهم ولا شك أن هذا غير الصواب فهذا زهير يقول ^(٤) :

فتنتج لكم غلمان أشام كلهم .. لأحمر عادٍ ثم ترضع ، فتفطم
وكانوا اذا بعثوا وافدا قالوا : لا تكن كوافد عاد ^(٥) ، يريدون فى الشر والشؤم .

٥ - " نحو آخر من تأثير الدين فى نحل الشعر ، وذلك حين ظهرت الحياة العلمية عند العرب بعد أن اتصلت الأسباب بينهم وبين الأمم المغلوبة .

(١) انظر فتح البارى ١ / ٢١ .

(٢) فى الادب الجاهلى : ١٣٨ .

(٣) طبقات فحول الشعراء : ٧ ، ٨ .

(٤) ديوانه " الاعلام " : ١٩ ، غلمان أشام : أى غلمان شؤم وشر ، والمراد بالاحمر هنا : أحمر شمود الذى عقر الناقة فلعل زهير غلط فى ذلك ، وقيل بل قاله مجازا ان المعنى معروف .

(٥) قصص الانبياء : ١٠٧ .

فأرادوا هم أو الموالي أولئك وهولاء أن يدرسوا القرآن درساً لغوياً
ويثبتوا صحة الفاظة للغة العرب ، فحرصوا على أن يستشهدوا على كل كلمة
من كلمات القرآن بشيء من شعر العرب يثبت أن هذه الكلمة القرآنية عربية لاسبيل
إلى الشك في عريبتها . (١) وقد مثل لذلك لما عرّف بمسائل نافع بسن الأزر
لعبد الله بن عباس ، وذلك الشعر الكثير الذي كثر حول تفسير القرآن عند
الرواة وعلماء التفسير .

— وهذه المسألة توحى بأن هناك من طعن في عربية القرآن ، وربما كان الموالي
من وراء ذلك ، ثم قام المسلمون يضعون شعرا ويدعون سبقه للقرآن دليلًا
على ذلك وجلة الدكور السابقة " فيها غلو وخطأ : أما الغلو ففي قوله :
" انهم استشهدوا على كل كلمة منه " ، بين أيدينا التفسيران الكبيران اللذان
عنيا بهذا الاستشهاد أتم غناية ، وهما تفسير الامام الكبير أبي جعفر
الطبري وتفسير الكاتب العظيم أبي عمر الزمخشري ، ومع ما فيهما من الشواهد
الكثيرة فان ادعاء الاستشهاد على كل كلمة لا يؤيده الواقع ، ان شواهد
الكشاف عددها ٧٢٧ شاهدا ، وليس هذا عدد كلمات القرآن . . . وأما
الخطأ ففي ظنه أن هذه الشواهد كلها جاهلية جئ بها لاثبات عربية
القرآن ! أكثر هذه الشواهد لشعراء اسلاميين ، وقليل منها ما هو لشعراء
جاهليين أو مجهولين . . . وليس الاستشهاد لاثبات عربية القرآن كما
يزعم ، وانما هو لبيان مفهوم الكلمات التي يعدها أحيانا غريبة ، على أن هذا
المعنى قد يلحظ أحيانا ، وهو أن القرآن ليس ببدع في اللغة وانما جاء بلغة
العرب لم تشذ فيه كلمة عن مناهجهم " (٣)

(١) في الأدب الجاهلي : ١٣٨ .

(٢) انظر هذه المسائل في الاتقان في علوم القرآن : جلال الدين عبد الرحمن

السيوطي : ١٥٧-١٦٥ ط . دار المعرفة - بيروت . وقد درستهما

د . (بنت الشاطي) في الاعجاز البياني للقرآن " القسم الثاني " .

(٣) محاضرات الخضرى في بيان الأخطاء . . : ٤١-٤٢ .

٦ - " نوع جديد من تأثير الدين فى نحل الشعر . فهذه الخصومات بسين العلماء كان لها تأثير غير قليل فى مكانة العالم وشهرته ورأى الناس فيه وثقة الامراء والخلفاء بعلمه . ومن هنا كان هؤلاء العلماء حراسا على أن يظهرُوا دائما مظهر المنتصرين فى خصوماتهم الموفقين الى الحق والصواب فيما يذهبون اليه من رأى . . . فاستشهدوا بشعر الجاهليين على كل شئ . . . وكذب أصحاب العلم على الجاهليين كثير لا سبيل الى احصائه أو استقصائه ، فهو ليس مقصورا على رجال الدين وأصحاب التأويل والمقالات ورجال اللغة وأهل الأدب ، وانما هو يجاوزهم الى غيرهم من الذين قالوا فى العلم مهما يكن الموضوع الذى تناولوه " (١) وقد مثل الدكتور بكلام عام كالا ستشهاد على كل شئ حتى كان هؤلاء الجاهليين قالوا كل شئ ، وما جرى من خلاف بين العلماء والفرق كالمعتزلة وغيرها ، وأدرج الدكتور فى هذا كل شئ يرد على العرب حتى مما استحدثه الروم والفرس .

- أما هذه فانها تهمة يلصقها هذا الباحث بعلماء السلف عامة ، فى شتى العلوم ، وكأنهم بذلك قد نزعوا امانة منهم ، وليس همهم الا الشهرة والمكانة عند الناس ، والعلم عند هؤلاء القدامى تلفيق وكذب بأيسر الطرق ، فلا امانة العلم تزجرهم ، ولا حرمة الدين تقف بهم عند حد . كما أن ذلك العصر - كما يستشف من كلام الدكتور - قد خلا من الرواة المحققين والعلماء الثقة والحكام الالمعيين .

" ومن أبسط الردود الواضحة على هذه الفكرة الدور الكبير الذى قام به الرواة والثقة المحققون من نقد وتحصيل لكل لبس دعا اليه موقف لدى رجل يسمح لنفسه بالتزوير والانتحال فيما يقول . على أن الرواة فى مجالس الخلفاء والعلماء ولم يكونوا فى ملكة من الجهل والغفلة ولكن مقارعة الحجة كانت قوية تكشف عن الباطل وتفضح عواره ، ولم يكن ليفضل فيها خبر مصنوع وهوى مبتدع " (٢)

(١) فى الادب الجاهلى : ١٣٩ ، ١٤٠ .

(٢) من قضايا الأدب الجاهلى : ١٤٣ .

وليت شعري كيف تخفى تلك المنارة الشامخة التي أقامها المسلمون فـــــــى
 خدمة السنة المطهرة حتى صفوها من كل شوب . وكيف يذهب أحد الى إنكار
 النقد في مختلف علومهم وما وصلنا من كتبهم خير دليل على ذلك ، والمجال
 الادبي نال حظا من ذلك لا ينكره الا مكابر ، وتتبع ابن سلام والمفضل
 والاصمعي وكثير من العلماء للرواة ثم ترصدهم لما يوردونه بالنقد والتحقيق
 لا مجال لانكاره عند جمهور الباحثين . واذا كان واقع علماء السلف على
 ذلك النحو من الخصومة والدلد ، وأن الواحد منهم يجد من يأخذ عليه
 أدنى زلّة يقع فيها ، خاصة وأن عين المخاصم تكشف عن كل سوء تقع له على
 خصمه ، فهل هذه الخصومات مدعاة الى الدقة والتثبت والتحقيق بـــــــين
 المتخاصمين أم أنها سبيل لدعاة ما لا علم للخصم به وانطلاق الى حشد كل
 غثاء و رقيق مواربة ؟ كلا ان ثمره مثل هذه الخصومات كانت خيرا وبركة على العلم
 في كل عصر ان أن العرف قد يما وحديثا أن العلم تحقيق لا تلفيق ، ولعل
 مراد الدكتور عن الخصومة ما عرف بين علماء المصريين - الكوفة والبصرة -
 من خلافات علمية ، ومثلها ما وقع بين الفرق الاسلامية كالشيعية والمعتزلة
 وغيرهم .

ومن حسن الحظ أن وصلنا من كتبهم ما يروى كثيرًا من هذه الخلافات ، والناظر
 فيها يجد الكثير من شأر هذه الخلافات العلمية ، والحق ان هذه ليست
 خصومات كما تهو لها هذه اللفظة ، وانما هي آراء مختلفة حول بعض المسائل
 أدى اليه ما عرف بين علماء المسلمين من بعض المسائل كالقياس والاجتهاد ،
 كما قد يؤدى اليها عدم علمهم ببعض الأحاديث عن رسول الله عليه الصلاة
 والسلام (١) ، وأما الخلافات اللغوية والشعرية فيمكن ارجاعها الى طريقة
 كل مدرسة ومنهجها في جميع الشعر واللغة ومن ثم اختلفت النتائج وتباينت
 الآراء (٢)

(١) انظر أمثلة ذلك في : رفع الملام عن الاثمة الاعلام : شيخ الاسلام أحمد بن
 عبد الحليم "ابن تيمية" .

(٢) انظر : مصادر الشعر الجاهلي : ٤٢٩ - ٤٧٨ .

والحق أن الدكتور قلب الحق منكرا في هذه المسألة ، وإنما هي حجة على التوثيق . والأمانة فيما رواه أولئك العلماء من مصنفات ، ومن حق هؤلاء العلماء أن نفخر بهم وأن نذكرهم بفضلهم على من بعدهم في بحث السائل بأمانة والرجوع الى الحق عند بيانه مما كان لبعضهم من القدرة على أن يستقل برأيه ، دون انكار لما قد يخرج به بعضهم من سائل تبعد عن الصواب شأن ما يعتري البشر من ضعف ونقص وقصور .

٧ - أمّا الآن فنصل الى أبعد هذه الأنواع أثرا وأعظمها خطرا كما يرى الدكتور ، وقد حدث هذا النوع بعد أن استقر العرب وانتهت الفتوح ، وقد شاع في العرب عند ظهور الاسلام فكرة أن الاسلام يجدد دين ابراهيم فأرادوا أن يثبتوا أن للاسلام أولية في بلاد العرب كانت قبل أن يبعث النبي عليه الصلاة والسلام ، " ومن هنا أخذوا يعتقدون أن دين ابراهيم قد كان دين العرب في عصر من العصور ، ثم أعرضوا عنه وعبدوا الأوثان ، ولم يبق عليه الا أفراد قليلون يظهرون من حين الى آخر ، وما يروى من أخبار لهؤلاء القلة يشبه أن يكونوا مسلمين لأنهم على دين ابراهيم وهو الاسلام ، ومن هنا يصل الى نتيجة بحثه التي تدل على أن ما روى من أخبار وأشعار لهؤلاء القلة وهم الدنفاء إنما وضعت عليهم وضعا لثبت العرب أن للاسلام قدسية سابقة في بلادهم ، ومن هنا فنعتقد - كما يرى الدكتور - أن هذا الشعور الذي يضاف الى أهمية بن أبي الصلت والى غيره من المتحفين الذين عاصروا النبي أو جاءوا قبله إنما نحل نحلا ، ومن هنا لا نستطيع أن نقبل ما يضاف الى هؤلاء الشعراء والمتحفين إلا مع شيء من الاحتياط والشك غير قليل (١) .

- وهذه الفكرة أو النوع من أنواع النحل الديني قد سبق أن رأيناها عند المستشرقين وأخرنا (٢) لاتحادها مع فكرة الدكتور طه حسين هذه ، وقد تنبه

(١) في الادب الجاهلي : ١٤٠ - ١٤٥ .

(٢) انظر أول هذا الفصل .

الدكتور شوقي ضيف الى هذه الفكرة فأورد ها مع تحفظ موزون " وأن ماروى من أشعار على السنة اليهود ومن تنصر من العرب فى الجاهلية وكذلك من تحنف كأمية دخله وضع كثير ، ولذلك ينبغى أن نحترس منه ، وأن لا نتسرع فى الحكم عن طريقة على ديانات القوم ومعتقداتهم اذ يجرى فيه الانتحال ، وقد دخله كثير من الغثاء والاسفاف فى اللفظ والتعبير " (١) .

ويتضح أن هذا اللون من الانتحال يقع فى صميم مايعنيه هذا البحث ، بل هو أكبر أنواعه شكاً فى أدب الحنيفية وأبعد ها غوراً . وهو بذلك يحتاج منا الى سعة من القول رغم شدة ماتوخينا من الاختصار فى ما سبقه من ألوان الشك الدينى .

إن اشاعة القول بأن الاسلام يجدد دين ابراهيم لم يختلقها العرب تعصباً للاسلام ، أو للعرب وانما وردت فى القرآن الكريم ، من ذلك قوله تعالى : (٢) " شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذي أوحينا اليك وما صينا به ابراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه " وقال (٣) أيضا : " قد كانت لكم أسوة حسنة فى ابراهيم والذين معه . . . " وقال (٤) أيضا : " وجاهدوا فى الله حق جهاده هو اجتباكم وما جعل عليكم فى الدين من حرج ملة ابيكم ابراهيم هو سماكم المسلمين من قبل . . . " ومن هذه الآيات وأمثالها يتأكد لنا أن الاسلام يعود بالناس الى دين ابراهيم الذى هو دين محمد عليه الصلاة والسلام ، كما أن آيات القرآن لتدل فى جلاء على معرفة العرب واليهود والنصارى بابراهيم معرفة جيدة ، وماورد من سيرته وجوالات رسالته من أكبر الأدلة على ذلك .

أما الزعم بأن أخبار هؤلاء الحنفاء قد وضعت عليهم فما لا يمكن الاقرار به ،

(١) العصر الجاهلى : ٣٩٧ .

(٢) الشورى : ١٣ .

(٣) المتحنة : ٤ .

(٤) الحج : ٢٨ .

وكيف يكون الأمر إذا قلبت روايات المؤرخين وأبطلت أقاويل الرواة التي بسنى عليها المؤرخون أحداث الحقب التاريخية ؟ ان هذا تهكم وهدم لحقائق التاريخ التي عرفت بدون دليل ، وإذا كنا نعلم أن جاهلية العرب قد وجدت فيها من الغوضى والاضطرابات الدينية والاجتماعية وسوء الحال فى كثير من نواحي حياتهم شئ غير يسير " فمن الطبيعى أن يكون من بين أبنائهم من كانت فيهم بصيرة نافذة وعقول مفكرة ، فرأوا ذلك وأحسوه ، فاتجهوا بنفوسهم نحو التفكير السليم ، والطريق الصحيحة ، يتلمسون النور ويرجون الحق والصواب ، ربما كان فى هؤلاء من رزقوا المواهب الفنية والأدبية فصورا شاعراهم ، وخلجات نفوسهم فى صورة من يرى النور ويحدوه الأمل ، وينتظر تحقيق الرجاء ، فكان ذلك ارهاص الخير وبشير الاطمئنان . لذلك لا نستبعد أنه فى الجاهلية وخاصة تلك الفترة التي سبقت بعثة النبي صلى الله عليه وسلم مباشرة ، قد وجد بين القوم من صفت نفوسهم وسما تفكيرهم فوصلوا بتأملاتهم الدينية الى شئ من الحقيقة فى الدين ، وتمنوا أن يتحقق لهم الامل وتتضح الحقيقة كاملة جليلة " (١) .

وقد سبق أن علمنا أن اليهودية والنصرانية قد عرفت بها بعض مناطق متفرقة من الجزيرة وأن النصارى كانوا يعملون على الانحلتهم ، كما علمنا أن نبي الله اسماعيل عليه السلام قد أرسل الى مكة ومن حولها ، وقد انتشرت حنيفية ابراهيم من ذلك وخاصة بعدما رفع اسماعيل وابراهيم قواعد البيت العتيق حين أمرهم الله بذلك . فاذا كان الأمر على هذا فكيف ينكر وجود أناس يحملون بعض الأفكار التي تنطوى عليها بعض هذه الديانات ؟ ولما كانت زيارة ابراهيم لمكة وبنائه للكعبة ما لا مراة فيه " فهل من غرابة بعد هذا أن يأخذ بدينه رجال من العرب الذين اتصلوا به فى ذلك العهد ؟ وهل كان دين ابراهيم فوق متناول العقول حتى يستغرب أن يأخذ به رجال

من مخالطيه لهم قلوب يفقهون بها ، ولهم آذان يسمعون بها ، ولهم —
 ذوق يفرقون به بين الخبيث والطيب ؟ وهل كان دين ابراهيم الا التوحيد
 الذى كملت الآثار على أنه وجد من أقدم العهود فى مصر والهند والصين
 وسواها ، وأخذ به رجال فى تلك الأمان البعيدة ، فأى غرابية فى أن توجد
 منه آثار فى بلاد العرب بقيت من عهد ابراهيم ولكن الوثنية تغلبت عليها
 كما هو شأنها فى جميع البلدان " (١) .

ان تعليل التحال فى أخبار الحنفاء وأشعارهم ليس صحيحا ، وماذا يستفيد
 الاسلام والسلمون من نحل كهذا والاسلام قد أطبق على أكبر الأجزاء فى
 القارات الآسيوية والأفريقية والأوروبية ؟ " وماذا ينفع الاسلام أن يكون للاسلام
 قدمة ومجد فى الجاهلية أولا يكون ؟ .. وما تلك القدمة والمجد اللذان
 ينحصران فى استلحاق نفر قليل لم يكن لهم فى نفوس العرب شئ من المجد
 ولم يكن لهم من أمر العرب فى الجاهلية شئ ؟ وماذا ينفع الاسلام أو يضيقه
 أن يكون أمية بن أبى الصلت أو غير أمية قال شعرا وافق أو خالف الاسلام
 حتى ولو كان القائل عاش قبل الاسلام بقرون .. " (٢) .

بعد أن ثبت لدينا قدمة الاسلام لبعثة الرسول عليه الصلاة والسلام ثم تأكد
 لنا أنه من الطبيعى أن يأتى من يحمل شيئا من هذا الأثر أو ما يتفق معه
 من يهودية أو نصرانية فلا مناص لنا من الولوج فى الحديث عن ما يمكن أن نشق
 به من شعر حنيفة ورد لهؤلاء الحنفاء أو غيرهم .

(١) نقد كتاب الشعر الجاهلى : ١٣٨ .

(٢) النقد التحليلي : ٢٤١ .

توثيق شعر الحنيفة

يواجه دارس شعر الحنيفة مشكلة ذات صعوبة كبيرة ، ذلك أن الحنيفة هي الاسلام ، وإذا فالشعر الحنفي ذو نزعة اسلامية واضحة ، ومن المعلوم أن دارس الأدب الجاهلي يقف موقف الحذر والارتياح عند ما يقابله شيء من هذا الشعر الديني ، فربما كان من وضع الرواة أو القصص أو غيرهم في عصور الاسلام المختلفة ولا سيما القرون الثلاثة الاولى ، ومن المسلم به في هذا الصدد أن هناك شعر اسلامي دون شك نسب زورا الى بعض الشعراء الجاهليين ، ونرى كثيرا منه ينسب الى أمية بن أبي الصلت وبعض المشابهين له من الحنفاء وعدى بن زيد العبادي وغيرهم ، وسنذكر بعض تلك النماذج دليلاً على ذلك في هذا الفصل .

ان " معرقة الشعر الاسلامي وتبزيه من الشعر الجاهلي أمر غير ميسور ، فهناك عقبات كثيرة تقوم دون ذلك ، فليس كل شعر فيه قيس من الدين والتوحيد وحمد الله شعرا اسلاميا . . . وكذلك ليس شرطاً أن يكون الشعر الاسلامي مطبوعاً بطابع الاسلام ، فإن كثيراً من الشعر الذي نظمته الشعراء المخضرمون من معاصري ليبيد ، لم يكن متأثراً بالاسلام ذلك التأثر الواضح مثل شعر الحطيئة ، والناطقة الجعدى ، وكعب بن زهير ، والعباس بن مرداس ، وغيرهم ، وإذا كان في القليل من شعراء هؤلاء أقباس من تعاليم الاسلام فان كثرة الشعر الذي نظموه في الاسلام لم يكن بينه وبين الشعر الجاهلي فرق كبير واضح ، ذلك أن أثر الاسلام في شعر شعراء هذه الفترة لم يظهر واضحاً الا عند شعراء الانصار : حسان بن ثابت ، وكعب بن مالك ، وعبد الله بن رواحة الذين كانوا في حاضرة المسلمين وعلى صلة وثيقة برسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويتوجه مباشرة منه ، وقد حملوا راية النضال ضد شعراء قريش . . . وعلى هذا فليس كل شعر فيه ما يدل على الايمان بالله وتوحيده اسلاميا ، وليس كل شعر خلا من نفحات الاسلام جاهلياً " (١) .

(١) ليبيد بن ربيعة : د . يحيى الجبورى : ٣٨٣ - ٣٨٤ . ط . مكتبة الاندلس . بغداد .

ومع ورود الشك في بعض الشعر الجاهلي فلا مجال لقبول أدنى شك
دون برهان بسنده ، وأما التماهى في التشكيك والرمى به مع التهمة ومجازفة
القول فليس من أصول العلم فى شيء ، كما أن أى دليل قد يتخذ به بعض من يشك
فى صحة الشعر وقد قام ما ينقضه لا يمكن الاعتداد به ولا الركون إليه .

وإذا كان شعر الحنيفة على ما ذكر مما دفع الدكتور طه حسين وغيره من رفضه
وسائر شعر التحنطين كأمية وورقة وسواهم فأننا سنعمد الى طريقة تؤدى بنا الى
توثيق شعر الحنيفة والحنفاء ، وهى فى نفس الوقت تبين لنا ما يمكن أن نعده
من الشعر المنحول ولا يمكن الثقة به . وهذه الطريقة تنحصر فى أخذ نموذج من
هذا الشعر الحنفي عند أشهر من يمثلون هذا النوع ثم اخضاعه للدراسة العلمية
التي تؤدى الى ما يمكن أن نطمئن اليه من حكم على ذلك .

وفى تقديرى أن أمية بن أبى الصلت الشقي والذى يعد من أشهر الحنفاء
خير من يصلح اختياره لذلك ، ذلك أن أمية مع كونه أحد مشاهير الحنفاء فهو
أكثرهم شعرا دون استثناء ، بل انه أكثر شعرا الجاهلية ذكرا للدين والحنيفية
حتى سماه النقاد شاعر الآخرة * .

والذى نأخذه على أمية وشعره يمكن القول به من ناحية الصحة والشك على غيره
من هذا الشعر الدينى الجاهلي ، غير أن هناك بعض الشعراء الجاهليين
دخلوا فى الاسلام وربما كانوا على شيء من الحنيفية فى جاهليتهم ومع هذا فلن
أعول على ما روى لهم من مثل هذه الاشعار ذلك أن الاسلام سبب الشك فى ما روى
لهم من شعر اسلامي فيما يبدو ، ان أخذوها منه ، ومن هؤلاء لبيد بن ربيعة
العامري ، والنابعة الجعدي مثلا .

وقد حظى أمية بن أبى الصلت وشعره بعدد من الدراسات فى العصر
الحديث عند المستشرقين ^(١) كما كان أمية موضع العناية من قبل عند القدماء ،

* الأغانى : ١٢٥ / ٤ .

(١) أنظر تاريخ التراث العربى " العصر الجاهلي " : ٣٣١ ، ٣٣٢ .

وقد دلت المصادر على ذكر ديوانه صنعه محمد بن حبيب ، كما وجد ديوانه في
القرن التاسع كما ذكر العيني ، وآراء البغدادى فى القرن الحادى عشر الهجرى .^(١)

ومع هذا فلم يصل اليها هذا الديوان فى مابقى من كنوز السلف . وقد تمت فى
فى هذا العصر الحديث محاولات لجمع ديوانه وطبعه مرات مختلفة ،^(٢) وقد كان
الجهد الذى بذله الدكتور عبد الحفيظ السطلى من دراسة وجميع تحقيق لديوان
أمية بن أبى الصلت جهد اجبارا وعلا موفقا يستحق التقدير والاشادة ، وهذا
الجهد لا يقلل من شأن جهود سابقه فى هذا الميدان وان الذى يعيننا هنا
من ذلك الديوان هو ذلك المنهج الذى اتخذه الباحث فى توثيق شعر أمية
ابن أبى الصلت والذى سنأخذ منه فى هذا الفصل مايعيننا من ذلك التوثيق ،
ومن الملاحظ أن هذا المقياس الذى يتخذ شعر أمية معيارا لشعر غيره من
الحنفاء والذى سنأخذ نحن به قد تنبه له دارس ديوانه مينا " ان شهرة أمية
تقوم بوجه خاص على شعره الدينى ، لأنه أتى بمعان وموضوعات جديدة بالنسبة
الى عامة الشعراء ، وان وجدنا بعض هذه المعانى قد وردت عند غيره من
الجاهليين ، ولا سيما عند أولئك الشعراء الذين عرفوا بالتحف وطلب الدين ،
فان أمية قد تميز بالاكثار من هذا الشعر ، وجعله الموضوع الرئيسى بين أغراض
شعره المختلفة ، . . ويقام عليه مايمثله من شعر دينى لغيره من الشعراء .^(٣)

والذى نريده وبهمننا من هذه الطريقة أن الباحثين المحدثين قد وقفوا من
شعر أمية على ثلاثة آراء : " الاول يمثله توراند راي ، ويزعم فيه أن شعر أمية
الدينى موضوع بكاملة ، والثانى يمثله كليمان هوار ، ويزعم فيه أن شعر أمية
الدينى موشق كله ، والثالث يمثله الدكتور طه حسين ، ويزعم فيه أن شعر أمية

(١) ديوان أمية بن أبى الصلت : ١٠٠ - ١١٨ .

(٢) جمعه شولتس وكان أول من نشره . ثم جاء بشير يموت ونشره فى بيروت معتمدا
على نشره شولتس ، ثم حققه الدكتور السطلى^{في دمشق} وسهجة الحديثى فى بغداد ولم
أعثر على هذه الاخير .

(٣) ديوان أمية بن أبى الصلت : ٢٤١ .

ابن أبي الصلت من أوله الى آخره موضوع (شك في الديني وغير الديني) ، نحله
الرواة في العصر الاسلامي ^(١) وقد ناقش الباحث هذه الآراء وسنورد أهمها
باختصار .

ان مذهب اليه توراند رأى من نفى الشعر الديني لأمية لا يخلو من التطرف
ان ان شهرة أمية تقوم بالدرجة الاولى على شعره الديني ، حتى أصبح شعره
الديني ذا طابع خاص يقاس عليه أحيانا شعر سائر الشعراء ، بل أصبح أمية يمثل
موضوع الزهد والتأله حتى قال الأصمعي " ذهب أمية في شعره بهامة ذكر الاخرة " .
وشهرته بالشعر الديني هي التي حملت بعض العلماء والمفسرين على القول بأن
آمية من القرآن قد نزلت فيه ^(٢) ، ولولا شعره الديني لما كان تصديق الرسول له ،
وقوله فيه انه " آمن شعره وكفر قلبه " أو " كاد ليسلم " .

فشهرة أمية لا تقوم في الأصل الا على شعره الديني بالذات ، ولا يمكن أن يضيع
كل ماله من شعر ديني أصلا ، ثم يوضع له كل مانجه الان من شعر ديني ، ثم
اننا نجد شعره الديني ليس على سوية واحدة في الاسلوب وانما نجد الاسفاف
والركاكة في بعض القصائد ، ونجد القوة والرصانة في قصائد أخرى ، وهذا الاختلاف
في الاسلوب يشير الى وجود قصائد موضوعه على أمية ، لأن الاسفاف والركاكة
لا يلائمان عصره كما لا يمكن صدورها عن شاعر واحد .

ولهذا لا معنى لرفض شعر أمية الديني بكاملة ، والقول بأنه موضوع علمي
رأى أندراى ، وانما ينبغي أن نميز في هذا الشعر بين شعر موثق صحيح النسبة
الى أمية وآخر متهم فيه سمات الوضع والانتحال ^(٣) .

وأما كليمان هوار الذي أثبت الصحة لجميع شعر أمية ليتخذ من ذلك حجة
على أن مثل هذا الشعر أحد المصادر التي استمد القرآن مادته منها فاتمه

(١) ديوان أمية : ١٢٥ .

(٢) الاية : " واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها فاتبعه

الشیطان فكان من الغاوين " الاعراف : ١٢٥ .

(٣) ديوان أمية : ١٢٥ - ١٢٧ .

أن وجود بعض الفروق بين ما جاء في الشعر المنسوب إلى أمية وما جاء في القرآن من تفصيل بعض القصص لا يمكن أن يتخذ دليلاً على توثيق هذا الشعر كلياً ، بحجة أنه لو كان منحولاً لكانت المطابقة تامة بينه وبين القرآن ، فهذا المبدأ فاسد من أساسه لأن من يضع شعراً على غرار القرآن ، لا يمكن أن يطابق مطابقة تامة بين هذا وذاك ، وإنما يحاول جهده إيجاد شيء من الاختلاف ليخفي حقيقة ما وضعه ، ويوهم أن هذا الشعر صحيح لا أثر للانتحال فيه . (١)

أمّا طه حسين فقد انكر شعر أمية لثلاثة أسباب : الأول لأنه ينكر شعر المتحرفين عامة ، ويرى أن المسلمين نحلوه ليثبتوا أن للإسلام قدمه وسابقة في البلاد العربية . والثاني : لأن هذا الشعر جاء عن طريق الرواية والحفظ ، وهذا يكفي للشك والانكار في رأيه . والثالث : لأن أمية وقف موقفاً عدائياً من الرسول والاسلام فكان لذلك أن نهى الرسول - في رأيه - عن شعر أمية فأهمل حتى ضاع .

أمّا انكار شعر المتحرفين لأن المسلمين نحلوه ليثبتوا للإسلام قدمه في الجزيرة فهذا الرأي قد سبق به طه حسين من ربع قرن إذ رفضه جماعة من المستشرقين ، وقد لخص نيكلسون آراء هؤلاء المستشرقين جميعاً بقوله " في وسعنا أن نؤكد أن جماعة كالنابغة ولبيد والأعشى ، قد تأثروا بالثقافة المحدقة بهم . رغم أنها لم تتعمق في حياتهم إلا نادراً . فالمشاعر الدينية ينبغي ألا تنكسر آثارها الهامة في شعر ما قبل الاسلام ، ولكن المقطعات التي نحن بصدد ههنا قد فسرت سابقاً بأنها ترجع إلى الوضع والانتحال ، غير أن هذا الرأي لم يعهد سائداً ، ولا بد من الإشارة هنا وبصورة خاصة لأبحاث فون كريمر ، والسير تشارلس ليال ، ولها وزن ، لأنها أخذت تعتبر :

- ١ - أن المشاعر الدينية المذكورة آنفاً ليست في معظمها إسلامية الجرس .
- ٢ - وأن القوائد التي تضم تلك المشاعر الدينية ليست إسلامية الأصل .

(١) ديوان أمية : ١٢٨ - ١٣٠ .

٣ - وأنها النتيجة الطبيعية والضرورية لاتساع انتشار اليهودية ، والسيحية خاصة ، وإن كان انتشارا سطحيا بوجه عام " (١) .

والنتائج التي خرج بها جماعة من المستشرقين كما لخصها نيكلسون لا تكاد تشمل كل ما نسب الى المتحنفين من الشعر ، لأن هذا الشعر المنسوب اليهم ليس على سوية واحدة في أسلوبه وتراكيبه ولغته ومعانيه ، فمنه الاسلامي الذي لا يخفى نحلته ووضعه ، وهذا لا ينظر اليه نيكلسون بعين الاعتبار ، ومنه الجاهلي الذي لا ينطوى على روح اسلامية في معانيه ولغته وأسلوبه ، وهذا ينطبق عليه قول نيكلسون ، الا أنه ليس نتيجة " طبيعية وضرورية " لاتساع اليهودية والنصرانية في الجزيرة العربية ، لأن دراسة النوازع الدينية عند عرب ما قبل الاسلام ، تدل على نضج في تفكيرهم الديني بتأثير الحنيفية ، وعمق في نظرتهم الى الله الخالق ، رغم وجود الاصنام والاوثان ، لأنها لم تكن في نظرهم أكثر من وسائل شفاعاة أو تقرب بينهم وبين الله .

ومن هنا لا مجال الى انكار هذا الجانب من شعر المتحنفين بدعوى أن المسلمين نحلوه ليهتبتوا أن للإسلام قدمه وسابقة في البلاد العربية ، بل يجب أن نميز بين صنفين من الشعر المنسوب الى شعراء ما قبل الاسلام ، فاذا كان الشعر ذا طابع اسلامي يتهدى في معانيه ولغته وأسلوبه ، فهو منحول في العصر الاسلامي بتأثير لغة القرآن وأسلوبه ، واذا كان الشعر ذا طابع ديني عام لا يظهر تأثير القرآن في معانيه ولغته وأسلوبه ، وانما نجد فيه أفكارا عامة حول التأله ، فهذا لا يستبعد أن يكون نتيجة طبيعية لوجود الأفكار الدينية في عصر ما قبل الاسلام ، ولا سيما تلك الافكار التي تتصل بالتوحيد والبعث والحساب وغير ذلك .

واذا كان المسلمون انتحلوا هذا الشعر المنسوب الى أمية وغير أمية من المتحنفين ، فاننا نجد لكل منهم أخبارا وأشعارا ثابتة تتناقلها كتب الأدب واللغة والتاريخ والسير ، فهل كانوا جميعا أشخاصا ولتدغم خيال المسلمين وانتحل الشعر ونسبه

اليهم ليثبت أن للإسلام قدمه وسابقة في البلاد العربية ؟ وابن كان يصنع ذلك الشعر المنحول ؟ ومن انفرج بخلق هؤلاء الحكماء والشعراء ؟ وكيف خفيت تلك الحقائق الهامة على كبار النقاد والرواة من القدماء ؟ (١) .

اذن فحجة طه حسين في انكار شعر المتحنفين عامة ، وبالتالي انكار شعر أممية جد واهية ، لأنها تغفل ما كان في عصر ما قبل الاسلام من أفكار دينية هامة رغم وجود الأصنام .

أما حجته الثانية التي اكتفى بها للشك في صحة شعر أممية بمجرد وصوله إلينا عن طريق الحفظ والرواية فإنها مسألة الرواة وتحلهم للشعر كانت من اكبر حجج طه حسين في انكاره للشعر الجاهلي عامة .

وانا كان بعض الرواة والقصاص قد أدخلوا في شعر الاوائل ما ليس منه - كما ذكر العلماء - فهذا لا يدعوا الى الشك في شعر أممية عامة ، لأن اعترافنا بوجود المنحول في شعره ، دليل على وجود الأصل ، اذ لا يمكن أن نتصور نحلا واختلافا دون أن يوجد أصل يقام عليه ، وينحل على غرار . وبهذا لا نجد دليلا يؤيد طه حسين في شكه هذا في الرواية والحفظ .

أما آخر حجج طه حسين في انكار شعر أممية هي موقفه العدائي ————— الرسول والاسلام ، اذ أن موقف أمية من الرسول كان سببا للنهي عن رواية شعره ، فضاء هذا الشعر بكامله ، وما نجده اليوم منسوب اليه ، انما هو شعر موضوع .

وهذه الحجة فيها تعميم واسع لا يتفق مع أخبار أممية ، لأن النهي لم يكن الا في قصيدة واحدة من شعر أممية وهي القصيدة التي قالها في رثاء قتلى بدر من المشركين ، وليس في كل ما رجعنا اليه من مصادر أي اشارة تفيد هذا التعميم الذي نقله طه حسين . ثم ان هذا النهي عن هذه القصيدة مشكوك فيه ، وغير مسلم به ، فقد نقل البغدادى (٢) عن الزهري أن الرسول صلى الله عليه وسلم

(١) الشهاب الراصد : ٢٢٤ .

(٢) الخزائن : ١/٢٥١ .

لم يرخص في قصيدة أمية التي قالها في قتلى بدر ولا في قصيدة الاعشى في هجاء
 علقمة بن علاثة . ولكن "ابن كثير" قد أورد الحديث بسند متصل وحكم بضعفه (١)
 وما يؤكد ضعف ذلك الحديث أن ابن هشام وهو أول من روى القصيدة بعد ابن
 اسحاق ، لم يشر الى هذا النهي عن روايتها ، ولو علم بوجوده لكان أحرص الناس
 على ذكره ، لما عرفناه من حرصه على التدقيق في رواية شعر السيرة .

فمن المحتمل أن لا يكون النهي عن القصيدة قد صدر عن الرسول عليه
 السلام ، وإنما يمكن أن يكون الناس قد تناهوا عنها لما في القصيدة نفسها من
 اثارة للمشركين وتعرض للرسول والسلمين . وحتى لو صح النهي من الرسول عن
 هذه القصيدة ، فهذا لا يعنى تعميم ذلك في شعر أمية كله . وإذا كانت القصيدة
 الوحيدة التي قيل ان الرسول نهى عنها ، قد حافظ عليها الرواة ونقلوها ، فمن
 باب أولى لا يتعمد الرواة محاربة غير هذه القصيدة من شعر أمية .

ثم ان السلمين لم يحاولوا القضاء على شعر خصومهم من المشركين ، وسيرة
 ابن هشام أقرب دليل على ذلك ، فقد أورد كثيرا من الشعر الذي قاله شعراء
 من المشركين واليهود ردا على شعراء السلمين ، حتى كان ينهي أخبار كل غزوة
 أو سرية بما قيل من شعر فيها ، فيورد شعر السلمين والمشركين في كل منها على
 حد سواء .

وحسبنا أن نقف عند هذا الحد الذي اقتبسناه من تلك الطريقة التي أحببنا
 الأخذ بها في الرد على من شك في شعر أمية وغيره من الحنفاء لنقول إن ماسلف
 من القول يغنى ويكفي للرد على ما ذهب اليه طه حسين وأكراي وكليمان هوار .

ان هذه الطريقة التي تأخذُ بها بعد دفع أقوال طه حسين ومن معه
 خير عون لنا الى بلوغ طريق الهدف الصحيح من دراسة ماورد من الاشعار وذلك
 من ناحيتين :

١ - الاولى : دراسة الاضطراب في رواية الشعر .

٢ - دراسة متن القوائد ونقد ها نقدا داخليا لنفصل بين الصحيح منها والنحول.^(١)
 وسنحاول أن ندرس شيئا من شعر الحنيفية على هذا النحو ولو يسيرا ، ان نجد
 ذلك الاضطراب والوضع فى كثير منه ، وما نورد دليل على شيوع ذلك فى شعر
 الحنيفية ان هو ظاهر فيه ، أما عند ايراد نماذج من موضوعات شعر الحنيفية
 فاننا سنضرب صفحا عن المشكوك فيه ونبنى دراستنا على ما نعتقد صحته ، ونطعن
 الى الثقة به بان الله وقد رتبته .

الاضطراب فى نسبة الأشعار

يعتبر الاضطراب والاختلاف فى رواية الشعر ظاهرة عامة فى الشعر الجاهلى
 والاسلامى ، ومرجع ذلك فيما يبدو وهم الرواة فى نسبة بعض الشعر الى غير قائله
 أو خلطهم فى نسبة بعض الأشعار لأكثر من قائل ، وربما كان هذا الخلط كثيرا
 بين الطوائف المتشابهة من الشعراء كالحنفاء مثلا ان ظاهرة التحنف مدعاة
 للتشابه فيما بينهم ، أو الصعاليك مثلا . وقد تنبه جامع ديوان أمية لذلك ولا حظ
 كثيرا منه فى ما ينسب لأمية من شعر فقال مشيرا الى ذلك :^(٢) والموضوعات الدنيوية
 التى غلبت على شعره ، كانت سببا فى خلق طبقة ثالثة من عرف بأمثال هذه
 الموضوعات فى شعره ، ولهذا كانت هذه الطبقة أبرز تلك الطبقات لكثرة ما نجم
 عنها من تداخل بين ما ينسب الى شعرائها وما ينسب الى أمية من شعر
 وقد أورد نماذج من ذلك هذا البيت :

سُبْحَانَهُ ثُمَّ سُبْحَانَا يَدُومُ لَهُ .. وَقَبْلُنَا سَبَّحَ الْجُودَى وَالْجَمْدُ^(٣)*

(١) ديوان أمية : ١٣٩ .

(٢) ديوان أمية : ١٢٥ .

(٣)* الجودى : يقال انه جبل بالجزيرة استوت عليه سفينة نوح ، الجمد :

جبل بنجد .

فقد تتبع جامع ديوان أمية من روى هذا البيت فرأى من يرويه لأمية بن أبي الصلت ومنهم من يرويه لورقة بن نوفل فقال: ^(١) "رواه لأمية كل من ابن درستويه وابن سيدة ، وابن منظور ، والزبيدي . ورواه لورقة بن نوفل كل من الاصفهانى والهلوى والشريشى وباقوت والبغدادى . . . وجماعة ثالثة أشارت الى الروايتين معا ، منهم السهيلي . . وابن كثير ... ، وابو حيان الأندلسي يروى هذا البيت دون نسبة فى موضع من كتابه ، ثم يعزوه الى زيد بن عمرو بن نفيل فى موضع آخر . . . وانتهى الباحث الى أنه من الصعوبة أن نرجح ان كان هذا البيت لأمية أم لورقة . ومن ذلك أيضا هذه الابيات :

منع البقاءَ تَقَلَّبَ الشَّمْسُ . . . وطلوعُها من حيث لا تُحَسِبُ
تبدولنا بيمضاءً بارِغَةً . . . وغروبُها صفراءُ كاللؤلؤِ
اليوم تَغْلَمُ ما يَجِئُ بِـ . . . ومغشى بفضلِ قضائه أـ

وقد روى هذه الابيان بن عبد البر لأسقف نجران (قسن بن ساعدة) وقال : وتروى لتبع الحميري* ، وذكرها مع خلاف فى البيت الاخير " ابن قتيبة " لأحد تبايعه اليمن** ، ونسبها الجاحظ فى البيان والتبيين مرة وفى الحيوان أخرى لأسقف نجران ، ^(٢) وأوردها الحاتمي لروح بن زنباع . ^(٣)

ومن ذلك أيضا قول الشاعر :

ارفع ضعيفك لا يَحْزَبُكَ ضَعْفُهُ . . . يوما قَتَدَ رِكَ عَوَاقِبُ ما جَـ
يَحْزَبُكَ أَوْ يَتَنَّى عَلَيْكَ وَإِنْ مَنَ . . . أَتَنَّى عَلَيْكَ بما فَعَلْتَ كَمَنْ جَزَى

وقد جاءت منسوبة فى الشعر والشعراء^(٤) لزهير بن جناب ثم قال محقق الكتاب :

(١) ديوان أمية : ١٥٣ .

* الروس : يقال انه نبات يستخدم للصبغ الأصفر والبراد لونها مثله .

(٢) البيان والتبيين : ٣/٣٤٣ ، الحيوان : ٣/٨٨ .

(٣) حليه المحاضرة فى صناعة الشعر : ١/٣٦١ .

** بهجة المجالس وانس المجالس : لابي محمد بن عبد الله ٢/٣٢٠ تحقيق محمد

مرسى الخولى ط ٢ (١٤٠٢)

*** المعارف : ٦٣٠

**** لا يحز : بضم الحاء اى لا يرجع الى النقص من " الحوز " وهو الرجوع الى النقص

(٤) ١/٣٨١

"البیتان فی اللکى ٢٠٦ ونسبها لورقة بن نوفل ، وكذلك فی الخزانة ٣٩/٢ ، وهما فی الاغانى : ١٤٣/٣ ، ونسبهما لغریض الیهودى ثم ذکر أقوالا أنها لسعیة ابن غریض أو لزید بن عمرو بن نفیل أو لورقة أو لزهییر بن جناب أو لعامر المجنون الحرى ، وصح أنها لغریض أو ابنه ، ثم ذکر قصیدة لورقة فیها البیتان ، وفی نسب قریش للمصعب خط أنهما لورقة بن نوفل " .

والأمثلة على هذا الاضطراب كثيرة^(١) ونحن نكتفى بما أوردنا ان فیــــه الدلالة على ما نرى من اضطراب فی نسبة الاشعار الى أصحابها ، ومع ذلك فلیس هناك ما یمکن عُدُّه مطعناً على هذا الشعر الذى تتارجح نسبته بین الجاهلیین ان هو ما تدل علیه الحیاة الجاهلیة .

(١) انظر فی ذلك مثلاً سیرة ابن هشام : ٥٨/١ ، ٥٩/١ ، ٦٠/١ ، ٢٢٢/١ ،

(١) النقد الداخلى للقائد

وهذا النقد هو روح الطريقة التى تمكننا من معرفة الشعر الموثق ———
الدخيل ، وهى على كل حال وعرة محفوفة بالمصاعب ، ومن دواعى الشك فى القوائد
ما يرى فيها من اقتباس من نصوص القرآن أو معانيه وأساليبه ، وهذا من أكبر
العوامل التى تعين على معرفة ذلك ، إذ لا يظن أحد صدور مثل هذه الألفاظ
والمعاني القرآنية من شخص لم يطلع على القرآن على أى مستوى من العلم ، كما
أن ضعف نسج الشعر وركاكة مبانيه ومعانيه لا يتصور صدورها من ه———
الجاهليين الذين أمتازوا بالفصاحة والبيان كما عرف عنهم فما بالك بشعرائهم .
وهناك بعض العوامل المساعدة على ذلك كسيرة الشخص وبمبته وغير ذلك . كما
أن أقوال العلماء الذين يروون شيئاً من هذه الأشعار على مكانة عظيمة ———
الأهمية ، فقد تنبهوا الى هذا الوضع والنحل وأشاروا الى ما اعتقدوه منه ونبهوا
عليه ، فهم أهل الفضل — دون نكران — فى ذلك ، ولا يمارى فى قيمة ملاحظاتهم
الا من جانب الحق وتنكب عن طريق الصواب .

ومن المعلوم أن الشك دون دليل وبرهان يؤيده لا يؤمبه به ، فإذا خلست
أى أبيات أو قصيدة من دواعى الشك فقد احتطت الصحة ولمنا بها الى التوثيق ،
وسنورد طرفاً موجزاً من ذلك لنرى مصداق ذلك على شعر الحنيفية ، كما سنرى
بالمقابل شعراً آخر ما لا يطمئن الى صحته ، ونميل الى القول بوضعه .

وحيث إن أمية بن أبى الصلت خير من توفرت عنده المادة الشعرية من هذا
اللون الدينى من الشعر كان خليقاً بأن نعول عليه ، ومن يطالع ديوانه يسر
مصداق ذلك ، إذ هو حافل بكثير من القوائد الدينية الموثقة .

ولنطبق هذه الدراسة على إحدى قصائد أمية التى يرى جامع ديوانه أن هذه
القصيدة ما نميل الى توثيقها .

والقصيدة تتحدث عن وصف الطوفان وارسال الحمامة بحثا عن اليايسة ، وأولها قوله :
جزى الله الأجل المرء نوحا .. جزاء البر ليس له كذا (١)

والقصيدة " تصف أصحاب السفينة وما كانوا عليه من جوع وعري ، ثم تتحدث عن إرسال الحمامة لتبحث عن اليايسة وعودتها وفي منقارها قطف دلالة على اليايسة ، وهذه القصة وردت في التوراة ضمن حديث الطوفان ... ثم جعلت أسطورة الحمامة ، وأضفت عليها خيال الشاعر ، فجاءت بحديث عقد الحمامة وجعلت منه جائزة لها على ما قامت به . ولا يبعد أن يكون أمية قد تأثر في قصيدته بالتوراة ، لما نعرفه من اجماع الرواة على قراءته الكتب ، ومجالسته الرهبان ، ولا يبعد أيضا أن يكون قد استقى بعض عناصر القصة من أحاديث الناس حولها ، لانه لم تكن شائعة في ذلك العصر لما أضرب القرآن عن تفصيلها ، واكتفى فقط بإيراد موضع العبرة والمعظة فيها .

وأسلوب القصيدة تبتدى فيه شخصية أمية ، لعدم اختلافه عن شعر أمية غير الديني ، فهو بعيد عن ذلك الضعف الذي نجده في بعض القصائد المتهمة ، ولا أثر لمعاني القرآن وأسلوبه إلا في بيت ألحقناه بالقصيدة من رواية اللسان وهو :

بإذن الله فاشتدت قواهم .. على ملكين وهى لهم وشاب

فعبارة " بإذن الله " وردت في آيات قرآنية كثيرة ، مما قد يثير شيئا من التردد حول توثيق هذا البيت ، ولكن ذلك لا يتعدى الى سائر القصيدة ، ولهذا كله نرجح توثيقها لعدم وجود أدلة تميل بها الى الشك وما يدعوا اليه من حذر الوضع والاختلاق " (٢) .

ومن ذلك قول زيد بن عمرو بن نفيل :

وأسلمت وجهي لمن أشلكت .. له الأرض تحمل صخرا ثقلا

نحاهما فلما رآها استوت .. على الماء أرسى عليها الجبالا

(١) ديوان أمية : ٣٣٦ .

(٢) السابق : ١٧٨ ، ١٧٩ .

وَأَسْلَمْتُ وَجَّهِي لِمَنْ أَسْلَمْتُ . . له المَنْ تَحْمِلُ عَذَاباً زُلَّالاً
 إِذَا هِيَ سَيِّقَتْ إِلَى بَلَدَةٍ . . أَطَاعَتْ فَصَبَّتْ عَلَيْهَا سَجَالاً^(١)
 والابيات وردت في السيرة^(٢) وعند الأصبهاني^(٣) لزيد بن عمرو بن نفيل ، وهذه
 الابيات لاتخالف ما عرف عن سيرة زيد الذي لم يعبد الا الله على صورة كان يتمنى
 أن يعلم كيف يأمره الله بها ويختار ثم يسجد على راحته ، ومعاني الابيات ليست من
 معاني آيات القرآن الواضحة الا البيت الثاني ان هو كقوله تعالى " والارض بعدد
 ذلك دحائها^(٤) " ولكنها تخالف الآية بأن الارض أستوت على الماء وهذا مالا نفهمه
 من آيات القرآن ، وان الذي في القرآن " وكان عرشه على الماء . . " ، ولعل هذا
 أخذه زيد من ساءلته لعلما أهل الكتاب ان كثيرا ما طاف في الأرض يلتصق بالدين
 ويسأل العلماء فرما أخذها عنهم ، ولو تمادى بنا الشك وطرحنا هذا البيت
 فان الأخرى ما شمل الى توثيقة وصحته ان لم يقم لدفع ذلك أى عارض آخر .
 ولننظر أخيرا الى هذه القصيدة الجاهلية الرائعة في صلة الرحم والقربى ومنها :
 لَوْلَا أَيْاصِرُ قُرْبَى لَسْتُ تَحْفَظُهَا . . وَرَهْبَةُ اللَّهِ فِيمَنْ لَا يُعَادِرِيَنِي^(٥)
 إِذَا بَرَّيْتُكَ بَرِيًّا لَا انْجِبَارُ لَهُ . . إِنِّي رَأَيْتُكَ لَا تَنْفَكُ تَبَرِّيَنِي
 إِنَّ الَّذِي يَقْبِضُ الدُّنْيَا وَيَسْطُهَا . . إِنْ كَانَ أَغْنَاكَ عَنِّي سَوْفَ يُغْنِيَنِي
 اللَّهُ يَعْلفني وَاللَّهُ يَعْلَمُكُمْ . . وَاللَّهُ يَجْزِيكُمْ عَنِّي وَيَجْزِيَنِي
 مَاذَا عَلَيَّ وَإِنْ كُنْتُمْ ذَوِي رَحِيصِي . . إِنْ لَا أُحِبُّكُمْ إِذْ لَمْ تُحِبُّونِي
 وهذه الأبيات جزء من قصيدة طويلة وردت في العديد من المصادر ، منها

(١) السجال : جمع سجل ، وهي الدلو الملوثة ماء ، فاستعارها لكثرة المطر .

(٢) سيرة ابن هشام : ٢٣١/١ .

(٣) الاغانى : ١٢٨/٣ .

(٤) النازعات : ٣٠ .

(٥) الأواصر : هي ما عطفك على رجل من رحم أو قرابة أو صهر أو معروف .

المفضليات^(١) والأغاني^(٢) وأمالى القالى^(٣)، وأمالى الشريف المرتضى^(٤)، والعقد الفريد^(٥) وغير ذلك معزوة الى ذى الأصبع العدواني^(٦)، والمعاني التى تحملها هذه الابيات معان اسلامية فيما بيد وللناظر فيها ، فخوف الله ورهبته والقراية حالت بين الرجل وبين الاقدام على الانتقام من ذلك القريب ، ومثل هذا المعنى وان أقر فى الاسلام بل وأمر به فان مثل هذا معروف عند كثير من الجاهليين ، فأتا الخوف من الله والاعتراف بقوته والخوف منه الى معرفتهم بكثير من صفاته وأفعاله فأمر غير منكسر لديهم ، وصلة القراية والرحم وغيرها من مكارم الاخلاق هى معروفة أيضا عند هؤلاء الجاهليين كاكرام الضيف وحماية الجار ونصر المستغيث وما شابه ذلك ، وما يقوى الثقة بصحة الأبيات أن القائل قد عرف بالحكمة واشتهر بها فلا وجه للغرابة من صدور مثل هذا القول عن مثله .

أمّا البيتان الثالث والرابع فقد يخيّل الى الناظر فيها تأثر صاحبها بالقرآن فى قبض الدنيا ويسطها كما فى قوله تعالى^(٧) : " والله يقبض ويبسط . . " وما شابهها من الآيات ، وجزاء الله أيضا ما ورد فى آيات القرآن .

(١) القصيدة : ٣١ ص ١٦٦ - ١٦٤ .

(٢) ١٠٤ / ٣ .

(٣) ٢٥٤ / ١ .

(٤) ٢٥١ / ١ . " وتسمى : غرر الفوائد ودرر القلائد " . تحقيق : محمد أبسى

الفضل ابراهيم . ط ٢ (١٣٨٧) دار الكتاب العربى - بيروت .

(٥) ٣٢٨ / ٢ .

(٦) ذوالأصبع اسمه حرثان ، وسى ذى الأصبع لأن حية نهشت ابهام قدمه فقطعها ، وقيل لأنه كان فى رجله إصبع زائد وهو ابن الحرث بن محرث بن شبات من بنى عدوان . شاعر فارسى قد يم جاهلى ، له غارات كثيرة وقائى وهو أحد الحكماء ويعد من العمرين لأنه عاش عمرا مديدا . ترجمته فى : الأغاني : ٨٩ / ٣ ، سبط اللاكى : ٢٨٩ ، المؤتلف والمختلف : ١١٨ ، أمالى المرتضى : ٢٤٤ / ١ وغيرها .

(٧) البقرة : ٢٤٥ .

ومثل هذا أيضا لا يعد غريبا ان ورد عند الجاهليين فقد سبق أن اقـرار
الجاهليين بأفعال الله وقدرته أمر ثابت بنص كثير من آيات القرآن وكما سيأتى مزيد
بيان لذلك ، والجزء عند هذا الشاعر من المحتمل ان يريد به جزء الآخرة
كما عرف عن ايمان بعض الجاهليين بذلك ، ولو فرضنا استبعاد ذلك فلا مفر من
الاعتقاد - أى عند هذا الشاعر - بجزء الله فى الدنيا ، واخيرا فان اجماع
العلماء السابقين على ايرادها بخالية من اشارات النحل الى شئ منها ليعمد
هذا دليلا كافيا وقائما بنفسه على صحة الأبيات ، وقد قال النقاد فى ذلك^(١) :
" .. فأما ما اتفقوا عليه ، (أى من الشعر) فليس لأحد أن يخرج منه " .

وبعد هذه النماذج المحدودة التى توصى الى كثير غيرها مما نشق به من
هذا الشعر الدينى نجد أنفسنا أيضا فى عدد من المواضع وقد جابهتنا بعض
المصادر بهشى منه مما ترتاب النفس فى قبوله بل وتضرب الشكوك من حوله ان هو
ما نظنه من صنع الرضاعين واختلاق بعض الرواة .

ومن هذا النوع الأخير من الشعر الموضوع نطالع شعرا كثيرا ، فمن ذلك مثلا
القصيدة البائية التى تروى لأمية بن أبى الصلت^(٢) ، ومن أبياتها :

عند ذى العرش يعرضون عليه .. يعلم الجهر والكلام الخفيا
يوم تأتيه وهو رب رحيم .. انه كان وعده مائتيا
يوم تأتيه مثمنا قال فردا .. لم يذرفيه رايدا وغويا
أسميد سعادة أنا أرجو .. أم مهان بما كسبت شقيا
رب إن تعف المعافاة طمئنى .. أو تعاقب فلم تعاقب بريئا

والقصيدة كما يظهر من قول جامع الديوان وردت فى عدد من المصادر المختلفة^(٣) ،
ومع ذلك فلا يوثق بصحة هذه القصيدة لأمية ، وما ذاك الا لهذا السطو

(١) طبقات فحول الشعراء : ٤ / ١ .

(٢) ديوان أمية القصيدة (٩٩) : ٥١٥ .

(٣) انظر تخريج القصيدة فى ديوان أمية : ٦٠٦ ، ٦٠٧ .

- ولا نقول التأثر - على كثير من الآيات وبخاصة ماورد في سورة مريم - ولننظر في هذه الأبيات ، فالاول يقابلنا فيه " ذى العرش ، يعرضون عليه ، يعلم الجهر " وهذه ما ترد في القرآن ، فوصف الله تعالى " بذى العرش " مألوفة في عدد من الآيات ، كقوله تعالى : ^(١) " وهو الغفور الودود ، ذو العرش المجيد " ، ويوم العرض على الله ما ورد في القرآن الكريم ، قال تعالى ^(٢) : " وعرضوا على ربك صفا ... " أما قوله : يعلم الجهر والكلام الخفيا . فهي من معاني الايات القرآنية كقوله تعالى : ^(٣) " انه يعلم الجهر من القول ... " ، وقوله تعالى : ^(٤) " لا ماشاء الله انه يعلم الجهر وما يخفى .. " . وكل هذه المعاني السابقة نراها في بيت واحد من القصيدة فكيف تتجمع كل هذه المعاني لمن لم يطلع على القرآن ؟ !

أما البيت الثاني فان عجزه نص كامل لجزء من آية في سورة مريم " جنات عدن التي وعد الرحمن عباده بالغيب انه كان وعده مأثيا " ^(٥) أما البيت الثالث فقد هتك الزيف وأجلى الحجة ان نص على أنه قد علم أن الله قال ذلك ، أى أنه قد قرأ القرآن وعلم فيه قوله : " وكلهم آتية يوم القيامة فردا " ^(٦) فدل على علمه بذلك وكفى بهذا شاهدا . أما البيتان الاخيران فهي كذلك ما لا يشك في نحلها أيضا ان هي معان اسلامية ، فالناس يوم القيامة شقي وسعيد ، وكل نفس بما كسبت مجزية كما تغليب حسن الظن في الله والاعتراف بجرائر الاعمال ما هو معلوم عند عامة المسلمين . وبهذا فالأبيات التي استعرضناها والقصيدة بصفة عامة هي معبان وآيات قرآنية صبت في قوالب من الشعر ولا يساورنا أدنى شك أن قائلها قد عرف الاسلام وتعلم القرآن ، وهذا بالطبع لا يتأتى لشاعر جاهلى ، وبذلك فالقصيدة موضوعة بكاملها فيما تبين لنا من أدلة .

- | | |
|--------------------|--------------------------|
| (٢) الكهف : ٤٨ . | (١) البروج : ١٤ ، ١٥ . |
| (٤) الأعلى : ٧ . | (٣) الانبياء : ١١٠ . |
| (٦) مريم : ٩٥ . | (٥) مريم : ٦١ . |

النثر والاتصال

من المعلوم أن النثر هو ذلك القول الحسن في تركيبة المعنى في أسلوبه ،
الناصح ببيانه ، والذي يقصد به الى التأثير في الآخرين عند سماعه أو قراءته وهو
غير الشعر الذي يحتاج الى الوزن والقافية ، كما أنه غير الكلام المألوف بين الناس
في حياتهم ، إذ لا يتكلفون فيه التحسين ولا البيان ولا التأثير ، وانما يعينهم منه
أن يفهم كل منهم مراد الآخر بحد يثسه .

والحديث عن النثر هنا يفضي بنا الى النثر الجاهلي وما دار حوله من شك
وما يمكن أن نستمد ما نراه من نثر ينسب الى هؤلاء الجاهليين .

وقد تعاور الباحثون ذلك بين منكر لهذا النثر ومعتز به ، وأشهر من تنكّر
لوجود هذا النثر فيما بيد والسيو مرسية (أستاذ مدرسة اللغات الشرقية في
باريس) والذي يرى أن النثر الغني لا يتصور صدورّه من أولئك العرب الجاهليين
الذين كانوا يعيشون حياة أولية ، مع اعترافه بوجود الخطابة في هذا العصر (١)

وعلى شاكلة هذا العالم الفرنسي سارالدكتور طه حسين ، الا أنه قد أقرّر
للجاهليين بنثرًا - كما قال - الا انه لم يتردد في أن خطابتهم لم تكن شيئاً اغناء ،
وانما الخطابة فن اسلامي خالص ، إذ أن أهل البادية كانوا في حرب وغزو
وخصومات ، وهذا يدعو الى الحوار والجدل ، ولكنه لا يدعو الى الخطابة ، كما يرى
أن الخطابة تحتاج الى الاستقرار والاطمئنان الى الحياة المدنية المعقدة (٢)

وقد ردّ على منكرى النثر الجاهلي بما لا يدع مجالاً للقول بانكار هذا النثر ،
ذلك وأن ما زعم من أولية حياة العرب في القرن الخامس للميلاد لا توجب النثر الغني
وكان هذا النثر موجودا عند أكثر الامم المجاورة للعرب قبل الميلاد بخمسة قرون
ثم لا يكون للعرب بعد الميلاد بخمسة قرون ! وقد فات منكرى النثر الى أنه كانت

(١) النثر الغني : د . زكي مبارك : ٣٣/١٠ : ٣٤ . ط٢ . مطبعة السعادة

بمصر .

(٢) في الأدب الجاهلي : ٣٣١ ، ٣٣٢ .

هناك كتب دينية وأدبية لم يطلع عليها النبي عليه الصلاة والسلام حتى يتهم بأنه
لفسق القرآن " وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه يمينك اذا لا رتاب
المبطلون " (١)

ومع ما سبق من أدلة (٢) فلا يمكن القول بانكار الخطابة على الجاهليين ، بل
على العكس من ذلك فقد ازدهرت عند الجاهليين ازدهارا عظيما " ان لم ينقصهم
شيء من الحرية ، وكثرت المنازعات والخصومات بينهم والدعوة الى الحرب مرة والى
السلام أخرى . وقد اتخذوا من بجالسهم فى مضارب خيامهم ومن أسواقهم ومن
ساحات الأمراء وفاداتهم عليهم مبادئ لظهار براعتهم وتفننهم فى المقال
وحوك الكلام . واسعفتهم فى ذلك ملكاتهم البيانية وما فطروا عليه من خلاصة ولسن
وبيان وفصاحة وحضور بدئية " (٣) ومن خير ما يدل على ذلك ما نراه من ذلك الجرم
الغفير من خطباء الجاهلية الذين ذكرهم الجاحظ ، حتى ليخيل الينا أن بطون
كل قبيلة وعشائرها كانت لا تخلو من خطيب (٤)

وأخيرا فانه لا يمكن تصور نزول القرآن الكريم معالة فصاحة وبيان على ألسنة
لسانها فى اسفاف ورعونه ، ثم يكون مع ذلك بلسانهم كما دل القرآن على ذلك .
ولا سبيل للاطالة فى ذلك فغما نراه هو أن للعرب نشرا كثيرا قد اعتنوا به وعرف
بينهم على ما كان له من صور مختلفة من القصص والأمثال والخطابة وسجع الكهان .
ومع الاعتراف بهذا النشر فمن المتفق عليه بين الباحثين أن هذا النشر الجاهلى
لم يصل الينا على صورته التى وضعه عليها الجاهليون ، ان (العدة) الزمنية
بين عصره وعصر التدوين غير يسيرة ، والنشر أكثر ضياعا من الشعر الذى وصل عن
طريق الرواية ، وهذا النشر لم يدون فلا شك أنه لم تصلنا أصوله الصحيحة وهذا
ما تنبه له القدماء حتى قال أحدهم " ما تكلمت به العرب من جيد المنشور أكثر

(١) سورة العنكبوت : ٤٨ .

(٢) وهى لزكى مبارك : النشر القسنى : ٣٤ .

(٣) شوقي ضيف : العصر الجاهلى : ٤١٠ .

(٤) انظر البيان والتبيين : ٣٥٨ / ١ - ٣٦٠ .

ما تكلمت به من جيد الموزون ، فلم يحفظ من المنشور عشرة ، ولا ضاع من الموزون عشرة^(١) ، ولعل الامثال الجاهلية خير ما يمكن ظنه من قول الجاهليين المحتفظ بأصله وان كانت وحدها لا تكفي لتصوير بعض ابعاد صور هذا النثر أو اتجاهاته وأساليبه .

وهذا النثر الجاهلي الذي يروى منحولا ونحن نقر ذلك لا يخلو من فوائد عظيمة ، ان هو يهدي الى سابقة ويومئ الى أصله وله العديد من الدلالات عليه ، ونحن عند ما نبحث عن النثر الجاهلي لا يمكن لنا اغفال هذا المنحول اغفالا تاما فانه لا يخلو من فائدة . واذا جازت الرواية الشفهية في الشعر لسهولة حفظه فانها تكون عسير القبول في النثر لوقوع روايته بالمعنى ، ولكن (من هم الذين رويوا هذا النثر ونقلوه الى عصر التدوين ، ليس هم جماعة من الجاهليين عاشوا حتى الاسلام بزمان غير قليل فاذا لم يكونوا قد رويوه بلفظه كما قال أصحابه فانهم رويوا معناه بأساليبهم ، وهي أساليب لا يمكن أن ندعى أنها ليست بجاهلية ، فقد ظلت صيغ الجاهليين وأساليبهم سيطرة على الشعر والنثر في الاسلام ويزمن ليس بالوجيز ، وهو لا الرواة الذين أخذ عنهم العلماء الرواية كانوا يعيشون في البادية ، فاذا رويوا شيئا فانما يروونه بأساليب الجاهليين ولغتهم ، وحتى لو ذهبنا الى القول بأنهم لابد أن يكونوا قد تأثروا بأسلوب القرآن الكريم فان القرآن الكريم أهم مصدر يمكن الاهتداء به على أساليب الجاهليين في نثرهم)^(٢) .

وما نراه في العديد من مصادرنا الأدبية التي تحفل بكثير من ألوان هذا النثر كاليان والتبيين والأمالى والعقد الفريد ومقولة " ... فلم يحفظ من المنشور عشرة " تدل على حفظ شيء من النثر الجاهلي حتى عصر التدوين وان كان قليلا جدا .

(١) العمدة : ٢٠/١ . طبعة دار الكجيل ، بيروت .

(٢) أدب ما قبل الاسلام : محمد عثمان على : ١٩١ . ط ١ (١٤٠٣) المؤسسة

العالمية للدراسات والنشر والتوزيع - توزيع عالم الكتب - بيروت .

" وكيف يمكن القول برفض كل النصوص النثرية التي وصلت إلينا عن الجاهليين والقول بأن هذا النثر الذي يضاف إليهم قد حاول قليلا أو كثيرا تقليد ما كان للعرب في جاهليتهم من نثر ، إذ من الثابت الواضح أن الذي يقلد لا بد أن يجد شيئا أمامه يقلد عليه ، فهو من فراغ ولا أصبح مبدعا لا مقلدا ، ومعنى هذا أن هؤلاء المقلدين وجدوا أمامهم نصوصا تمثل النثر الجاهلي فقلدها ، . . فهو مع هذا اعتراف ضمنى بوجود النثر الجاهلي الذي صحب هذه النصوص التي وضعها هؤلاء المقلدون " (١) .

ولا ينبغي أن يتصور أحد أن معنى ذلك أن ما يروى من قصص وخطب جاهلية ومناظرات وغيرها صحيحة من دون نحل وأنا هذا المنحول قد توفر لمن نحله علم كثير به حتى وضعه بصورة تقارب من أصله الذي قد علم عنه . وإلى هذا ذهب أحد الباحثين وتصور أننا " أن لم نغال ورجحنا صحة طائفة من الخطب الجاهلية التي انتهت إلينا ، نجد أن هذه النصوص القليلة لا تكفي وحدها لتحديد معالم الخطابة الجاهلية والا بانة عن خصائصها . إلا أننا مع ذلك نستطيع أن نقف على كثير من مميزات الخطابة الجاهلية بالرجوع إلى الخطب التي يرجح انتحالها لأنها صورة عن الخطابة الجاهلية والذين افتعلوها راعوا محاكاة صورة النثر الجاهلي . كذلك تعطينا الأمثال الجاهلية صورة صادقة عن النثر الجاهلي وخصائصه . . " (٢) .

وبعد كل هذا فما نجد من نثر جاهلي يمكن أن نعهده من أدب الحنيفية فسندحتكم إلى هذه النظرة السابقة مقربين بالوضع فيه وأنا نوره لما له من دلالة على ناحية من نواحي هذا النثر أو أغراضه ، سائرين علماء السلف الذين أوردوا نماذج من ذلك ، كما أن من حق الناظر في هذا البحث أن يرى ولو بعضا من ذلك ، وسنورد شيئا من ذلك عند ما نورد النماذج من الشعر ثم النثر فيما يأتي من معارض هذه الدراسة .

(١) السابق : ١٩٢ .

(٢) الخطابة العربية في عصرها الذهبي : د . احسان النص : ص ٨ . ط ٢ . دار المعارف بمصر .

الفصل الثاني

شعر الحنفية

يأتى هذا الفصل تجسيدا لما قصدنا اليه من بيان لمظاهر الحنفية فى الأدب الجاهلى ودرءا لما قد يتبادر الى الذهن من أننا نعنى بذلك ما قد يروى لحنفى العرب من شعر ونثر ، والذين قد عرفنا جانبها طيبا عن أخبارهم ومعتقداتهم وشرايعهم فيما سبق . وقد يظن أننا نقصد به ذلك الشعر الدينى الذى وجد فيه ذكر الله - جل وعلا - وما ينطوى عليه من وصفه سبحانه ببعض صفاته العليا ، أو ذكر لقدرته العظيمة على كل شيء ، وخلق لما نراه فى هذا الكون من عظيم الأكوان وعجيب المخلوقات .

ومع اعترافنا لما يستحقه شعر الحنفا ونثرهم من دراسة ، ومعه صنوه من هذا الأدب الدينى عند الجاهليين ^(١) فإننا لا نقصد بعنوان هذا الفصل لا هذا ولا ذاك وإن ورد فى هذا الفصل شيء من أدب الحنفا أو الشعر الدينى ، ذلك أن الأطر التى وقع فيها البحث فى قضية الانتحال ^(٢) لا تسمح لنا بالأخذ من مثل هذين النوعين إلا بعد أخذ نوع من الحذر والحيطه غير يسير .

إن هذا الفصل يتكون من شقين : أولهما الشعر ، والآخر هو النثر وسنرى هذه الحنفية ومظاهرها التى تتكون منها وما يتفرع عنها ، على قدر ما اطلعنا عليه من دواوين الشعراء الجاهليين وكب المجموعات الشعرية وكب اللغاة والمعاجم اضافة الى ما نراه فى بعض كتب التفسير وأسفار التاريخ .

وقد كنا نتمنى أن نرى فى أدب الحنفا ما يشفى النفس ويثلج الصدر من اظهار هذه الحنفية فى كل جوانبها سواء فى المعتقدات أم فى العبادات أم فى

(١) انظر مقدمة البحث .

(٢) انظر فصل الانتحال من هذا البحث : ٩٥ ، ٩٦ .

التشريعات وغيرها مما يمكن أن تنطوى عليه ، غير أنه من المؤسف أن ما وصلنا من أدب هؤلاء القوم لا يفي بكثير مما عرف من آثار هذه الحنفية وبقياتها ففى العصر الجاهلى ، ولعل مانال الكثير من أدب الجاهليين من الضياع على ما قال ابو عمرو بن العلاء ^(١) . فى عبارته المشهورة " وما أتاكم ما قالته العرب الا أقله ولو أتاكم كاملا لا تاكم علم وشعر كثير " ^(٢) . وكان لأدب الحنفاء منه أكبر الحفظ وأوفر النصيب ، خاصة وأئنا نعلم أن هؤلاء الرجال كانوا قلة من جهة ، وقصد شغلهم البحث عن الدين بكثرة التنقلات وقطع الأسفار البعيدة عن التفرغ لا عطاء الناس فكرة عما يريدونه وما ينبغى أن تكون عليه الحياة فى قالب فنى يشتهرون به ويدافع بين الناس ، وان وصلنا شئ من ذلك رغم هذه الظروف .

ولا شك أن هذين العالمين كافيان للذهاب بكثير مما قالوه ولم يصلنا منه الا قلة ، وهذه القلة تحتاج الى تحصيل كبير ، ان لا يمكن قبول كل ما روى لهؤلاء من شعر أو نثر فى بطون المصادر المختلفة .

ومع ما كان يقوم به الحنفاء من بحث عن دين ابراهيم الذى ضل عنه قومهم كما يتقن ذلك لبعض الحنفاء فلا يستبعد تأثير الحنفاء فى غيرهم ان نرى كثيرا من المعانى التى ترد فى أدب الحنفاء لها ما يماثلها عند غيرهم وينبغى أن يكون وأردا هنا أن دين العرب قبل الشرك هو دين ابراهيم واسماعيل - عليهما السلام - ولما ظهر الشرك بدأ الانحراف والتبديل فى هذه الملة ، ومع ذلك بقى كثير من الشعائر والاحكام وان لم تخل هذه البقية من تحريف صغير أو كبير ففى بعض أمور منها . وسيتضح لنا شئ من ذلك فيما سيرد معنا من نماذج قادمة

(١) هو أحد أشهر علماء البصرة ، وكان عالما بكلام العرب ولغاتها وغيرها ، وكان من جلة القراء فى البصرة والموثوق بهم ، مع زهد وعفاف ، ويقال مات فى طريق الشام متجها اليها .

وانظر : طبقات النحويين واللغويين لأبى بكر محمد بن الحسن الزبيدى : ٢٨-٣٤ . تحقيق محمد أبى الفضل ابراهيم . ط ١ (١٣٧٣ هـ) الخانجى بمصر .

(٢) طبقات فحول الشعراء : ٢٥٠ .

بأن الله وقدرته . ولا يغيب عن البال أننا بما سنورده من آثار الحنيفية فسى حياة الجاهليين كما نطق بذلك أهليهم لا ندعى لهم التمسك بهذه الحنيفية تماما ، اذ هم كفار لا ربه ، ولولا ذلك لما بعث الله فيهم رسوله الأمين - صلى الله عليه وسلم - ، وإنما نلصق من خلال النصوص هذه الحنيفية وأثرها وما تبقى منها بعد ذلك الرجح من الزمان . ثم مانراه من اقرار الاسلام لبعض هذه البقايا ما دفع المستشرق (قولد تزيمهر) الى القول " بأخذ الاسلام - على رأيه - من قوانين أهل مكة وأحكامها ، وأخذه من فقه أهل المدينة ، وهو في نظره أقل تطورا من فقه أهل مكة ، ولذلك فان فقه مكة كان من جملة المنابع التي عرف منها الفقه الاسلامي " (١).

ولا ريب أن ما أقره الاسلام إنما هو من دين ابراهيم " الحنيفية السمحة التي أوحى الله الى نبيه بالسير عليها " ثم أوحينا اليك أن اتبع مله ابراهيم حنيفا وما كان من المشركين " (٢).

ويرجع الفضل في معرفتنا بعضا من أحكام وعبادات الجاهليين الى اقرار الاسلام لذلك أو التعرض لها بالنهي والتحرير أو تقويم بعض منها كما يتضح ذلك في أسباب نزول بعض الايات البينات أو بعض من الأحاديث النبوية في ثنايا أسفارها (٣) والتي كثيرا ما تسعفنا في شرح كثير من الآيات وتبين جملة من المعضلات ، وفي مختلف جوانب التشريع الاسلامي .

وليعلم الناظر في هذا البحث أن ماسيرد معنا من نماذج في المعتقدات والأحكام والعبادات وغيرها يكاد ينطبق على عموم الجاهليين وان تفاوتوا في ذلك ، في أنحاء جزيرتهم ، ويمكن القول أن هذه الأمور التي ترجع الى الحنيفية وجدت عند الجاهلية القريبة من الاسلام ايضا ، وبخاصة في مكة ويشرب وما حولهما

(١) الفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام : ٤٨٣/٥ .

(٢) النحل : ١٢٣ .

(٣) انظر الفصل في تاريخ العرب : ١٥/٦ .

من بلاد الحجاز وإن خرجت في بعض المناطق البعيدة كنجد والبحرين ومشارف
الشام وغيرها عن طريق الاتصال الذي لا ينقطع بمكة ويشرب مع مثل هذه الأجزاء
من بلاد العرب .

(١) المعتقدات

يعيش الانسان في هذه الحياة ويرى ما يحيط به ، ويلاحظ المخلوقات الكثيرة سواء ، ويستعرج انتباهه عظمة الأسرار المودعة هذه الكائنات ، فالشمس بنورها وحرارتها تغطي الأرض حيوية وحركة ، والقمر بضائه وتدرج منازل ، والأرض بجبالها وأنهارها وبحارها ، والنباتات بأشكالها ومنافعها ، والحيوانات بشراسستها واستثناسها ، الى غير ذلك من الآيات التي يعج بها عالمه . يرى ذلك كلّه ثم يعود الى نفسه فيتساءل أمام هذه المخلوقات ، ويرى عجز نفسه فيخشى عليها الشرور مما يزخر في هذا العالم من الكائنات ، ثم يبدأ يلتصم المعين له مما تكنفه حياته من المخاوف وما يحدث بها من الشرور ، ويظل مجهدا نفسه حتى يطمئن ويأمن وتصلح له الحياة على الأرض .

ان الانسان ليرى قدرة عليا تهيم على هذا الكون فيحاول التقرب اليها عليها تعينه على حياته حتى يطمئن وتقر له الحياة ، ومن هذه الناحية كانت فكرة المعتقدات التي تتداخل مع فطرة الانسان على الدين ، بل ان الدين مبني على ما فيه من معتقدات بدرجة كبيرة .

ولما كان الدين مبنيًا على هذه المعتقدات فلا جدال في أن أمما كثيرة عرفت السبيل الى معتقدات دانت بها ونظرت الى حياتها حسب ما تعلمه عليها تلك المعتقدات . ويمكن القول ان المعتقدات ما يتقنه الانسان ويتصوره عمّا وراء الطبيعة من عوالم خفية تؤثر في عالمه ، وأثر الكائنات التي يراها في عالمه عليه ، وهذا مثل مانسوية - نحن المسلمين - بالعقيدة ، وان كنا لن نطالب الجاهلين بأن يكونوا على مثل ما نعتقد في الكون والحياة وما وراءها .

وقد تيسر لنا بحمد الله الوقوف على جانب من معتقدات الجاهليين ، ولله مظاهر كثيرة كالايمان بالله ، ووصفه بكثير من صفاته العليا وقدرته الكسـبرى ،

والتأمل في آياته والايمان بالرّسل والايمان بالملائكة ، والايمان بالبعث والحساب
والجزاء على الأعمال ، ونظرتهم الى القضاء والقدر .

وسنحاول فيما يأتى أن نتناول كل ذلك فى نطاق أشعار الجاهليين
تأصيلا للدراسة فى هذا الموضوع .

(١) النظر والتأمل :

يعيش الانسان على الأرض ، وتتفتح عينه على آفاق بعيدة فى عالمه ، ويستترعى
انتباهه وسيطر على مشاعره آيات الكون العجيب ، وما أكثر هذه الآيات ! فالسما
بارتفاعها ، والنجوم اللآلئة تزيناها ، والشمس بنورها وحرارتها ، والقمر بضياءه
وتدرجه فى منازلها ، والأرض بجبالها وكثرة نباتها وحيوانها ، وما فيها من الأنهار
وشاسع البحار ، يرى المرء كلّ ذلك ، ويشعر بعظمة الخلق فى هذه الكائنات ،
ويتراءى له سرّ الابداع فى هذا العالم رغم كل هذه الضخامة وازدحام هذه الكائنات ،
فيدرك من وراء ذلك القدرة التى أوجدت هذا العالم وأحكمت ما فيه من تلكم
الكائنات والمخلوقات .

لقد دلت هذه الآيات والمخلوقات على الخالق ، وكشف اتقان صنعها
وتناسقها عن عظمة هذا الخالق وحكمته وقدرته ، وأنه لا بد أن يكون فاعلا وقادرا
على ما يشاء من الخلق والتدبير .

والانسان كما هو معلوم مغطور على الايمان بالله ، ولكنه عند ما يرى آيات الله
الكثيرة فى الكون يزد ايمانا بالله ويقدرته العظيمة على كل شئ .

وقد كان العرب فى جاهليتهم يؤمنون بالله ويعتقدون أن له كثيرا من
الصفات والافعال كما نطق بذلك كثير من شعرهم وأخبارهم .

وقد ورد آيات كثيرة من القرآن الكريم فى الحث على التأمل فى آيات الكون ،
ومن ذلك قوله تعالى " أولم يروا الى ما خلق الله من شئ يتغيثوا ظلاله عن اليمين

والسمائل سجدا لله وهم داخرون^(١) وفي آيات أخرى : " أفلا ينظرون الى الابل كيف خلقت ، والى السماء كيف رفعت ، والى الجبال كيف نصبت ، والى الارض كيف سطحت^(٢) . وقد رأينا فى شعر الجاهليين شيئا من هذا التأمل ، وطرفا من الوقوف أمام هذه الآيات خاصة عند المتحنفين .

وبجانب التأمل فى آيات الله نلاحظ تأملا آخر عند الجاهليين ، ذلك هو التأمل والنظر فى مصير الأمم السابقة وقصصهم ، وكيف انتهى بهم الأمر الى الفناء ، مع ما عرف لتلك الام من أمجاد ، وما ذاع فى تاريخها من حوادث ، وكيف خلست منهم الديار ، ولى ماشادوه من حضارات ! .

ويضاحب قصص الأمم السابقة ذكر رسلها وأنبيائها ، وقد كان لهم شأن مع أقوامهم ، وما اشتهر وعرف عن هؤلاء البشر الكرام .

وقد دفع التأمل فى الام السابقة الجاهليين الى التفكير كثيرا فى الموت والفناء ، وكيف يأخذ الموت الأمم لا يبقى على أحد ؟ وكيف تبقى الأرض والجبال والديار وقد رحل عنها أهلها ؟ وما دام هناك موت محقق فكيف ينبغي للانسان أن يستغل عمره القصير قبل أن يختطفه الموت ؟ ثم من يبقى ليرث هذا العالم . والبشر فى فناء متلاحق لا يبقى منهم أحد ؟ .

ليس غريبا أن نجد فى شعر الجاهليين شيئا من ذكر الأقوام السابقين^(٣) ، وبالرغم من ذكر القرآن لكثير من قصصهم ومآلهم حفظ لنا الشعر الجاهلى فيما بلغنا منه جزءا طيبا - على قلته - من ذلك ، حتى على خلاف آو وفاق فى تفاصيل ذلك القصص عن القرآن الكريم .

ان الذى يبدو من هذا التأمل فى آيات الله ومخلوقاته ، وقصص الأمم السابقة ومصيرها كان له أثر على أولئك الجاهليين فى اهدائهم الى الايمان بالله ،

(١) النحل : ٤٨ .

(٢) الفاشية : ١٧ - ٢٠ .

(٣) انظر ما سبق فى فصل الانتحال : ٧١ -

وان هم أشركوا به غيره في العبادة ، ولعل هذا التأمل - وقد كان قويا عندهم - الحنفاء أكثر من غيرهم - قادهم الى نبذ عبادة الأصنام ، ثم البحث عن دين يُوحّد الله فيه بالعبادة .

وقد تراءى لنا أن نجتمع بين التأمل في آيات الله وذكر الأقوام السابقين لهما بينهما من جامع التأمل والتفكير وإعادة النظر ، ولما كان التأمل في آيات الله يزيّد في الايمان به فكذلك العبرة بالأهم السابقة تدعو الى الايمان بالله ، وذلك مما يعلم من مصير الأقوام الذين كذبوا رسلهم ، وخالفوا أوامر الله ، وكيف انتقم الله منهم ، وهذا مصير يحق بكل من عصى الله وخالف رسله .

ومن الشعر الذي ورد فيه التأمل في آيات الله قول أمية بن أبي الصلت (١) :

أَن آيَاتِ رَبَّنَا ثَاقِبَاتٌ . . لا يَمَارِي فِيهِنَّ إِلَّا الْكَفُورُ

خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ فَكُلٌّ . . مُسْتَبِينَ حِسَابُهُ مَقْدُورُ

ثُمَّ يَجْلُو النَّهَارَ رَبُّ رَحِيمٌ . . بِمَهَادَةٍ شُعَاعُهَا مَنُشُّورُ (٢)

فآيات الله في هذا الكون واضحة بائنة لا تخفى على أحد ، ولا يستطيع أحد أن ينكرها ويتجاهلها الا أن يكون معاندا كافرا ، ومن هذه الآيات العظيمة تداول الليل والنهار ، فالنهار بضياءه وحركة الحياة فيه دائبة ، والليل يقبل بظلامه وسكونه ، وكل ذلك يجري بقدر وحكمة من الله . وفي النهار تأتي هذه الشمس الساطعة لتجلى النهار وتذهب الليل بضياءها وحرارتها ، بما ترسله من أشعتها الى الأرض لتبعث اليها الحركة والحياة بعد ذلك الليل الساكن البهيم .

ونرى حنظلة بن أبي عفرا (٣) يركز تأمله في القمر ، ويتابع هذه الآية العجيبة

(١) ديوانه : ص ٣٩١ .

(٢) المهابة : الشمس سميت بذلك لصفائها ، والمها من الأجسام الذي يرى باطنه من ظاهرة .

(٣) هذا على رأى صاحب الاغانى (١٠٣/٩ ط بيروت) وفي المحبر (٢٣٨) أنها

لقبيصة بن اياس ، أو اياس بن قبيصة ، وفي معجم البلدان (٥٠٦/٢)

لحنظلة بن أبي عفرا ، عم اياس بن قبيصة .

كل يوم، يرصد رحلة القمر الشهرية فيها ، ان يبدأ القمر صغيراً ضئيلاً ثم يبيد
فى الزيادة كل يوم حتى يعظم ويكمل ويزيد ضوؤه عندما يكون بدراً وقد استكمل
استدارته . ثم يبدأ القمر فى النقص والاضمحلال ، ثم يضعف شعاعه الى أن يختفى
فى المحاق . والشاعر مع هذه الآية العظيمة يشبها بالانسان الذى يولد
ضعيفاً ، ثم ينمو حتى يبلغ أشده ، ثم يبدأ الضعف به عندما يكبر وتتقدم به السن
حتى لا يعلم بعد علم شيئاً ، فهو فى عجز الشيخوخة فى آخر عمره مثله فى ضعفه
أيام طفولته :

مَهْمَا يَكُنْ رَبِّ الْمُنُونِ فَانْسِنِي . . أَرَى قَمَرَ اللَّيْلِ الْمَعْدَبِ كَالْفَتَى
يَسْهَلُ صَغِيرًا ثُمَّ يَعْظُمُ ضَوْؤُهُ . . وَصُورُهُ حَتَّى إِذَا مَا هَوَّاشَتْهُ
تَقَرَّبَ يَخْبُوضُوهُ وَشَعَاعُوهُ . . وَيَنْصَحُ حَتَّى يَسْتَسِرَّ فَمَا يَثْرَى
كَذَلِكَ زَيْدُ الْمَرْءِ ثُمَّ انْتِقَاصُهُ . . وَتَكَرَّرُهُ فِي إِثَرِهِ بَعْدَ مَا مَضَى

ونرى " قس بن ساعدة " يذكر عددًا من آيات الكون ، فالزمان ينقلب بين ليل ونهار ،
والسحاب محمل بالماء يهطل منها السى الأرض ، وفى ذلك السحاب وعند هطول
الامطار يرى وميض البرق الذى يكاد يخطف الأبصار ، ونسمع زلزلة الرعد التى يخشاها
كل من سمعها ، ويرى فى الارض قصورا عامرة مشيدة ، ومثلها خالية مقفرة ، كان
بها أناس رحلوا عنها . ويرى الجبال العظيمة ثابتة لا تميد ، ثم يشير الى البحار
المتلاطمة بالمياة الغزيرة ، والنجوم نراها فى الليل المظلم ونهتدى بها فى
سيرها واتجاهاتها ، والشمس والقمر يتعاقبان فى حركة دائبة لا يتأخر كل عن وقته
ومنزلته . ثم يذكر الناس من صغير وكبير وأن مصيرهم الى القبور . كل هــــــــــــ
الآيات وغيرها عند " قس " يهتدى نوى العقول النيرة المتفكرة الى الايمان بالله .

قال : (٢)

١ - ذَكَرَ الْقَلْبُ مِنْ جَوَاهِ أَدْكَارُ . . وَلِيَالٍ خَلَّاهُنَّ نَهَارُ

(١) يمصح : يذهب ويولى .

(٢) البداية والنهاية : ٢ / ٢٣٣ ، ٢٣٤ ، شعراء النصرانية : ٢١٢ مع قليل من

الاختلاف ونقص البيتين : ٢ ، ٩ من المرجع الثانى .

- ٢ - وَسِجَالُ هَوَاطِلٍ مِنْ قَمَامٍ .. ثُرْنُ مَاءٍ وَفِي جَوَاهِنِ^(١) نَارٍ
 ٣ - صَوُّهَا يَطْمُسُ الْعَيُونَ وَأَرْعَا .. دُشِدَانٌ فِي الْخَافِقِينَ تُطَارُ
 ٤ - وَقَصُورٌ مُشِيدَةٌ حُوتِ الْخَيْبِ .. رَ وَأُخْرَى خَلَتْ قَهْنَ قَفَّارٍ
 ٥ - وَجِبَالٌ شَوَامِخُ رَاسِيَاتٍ .. وَحَارٌ مِيَاهُنْ غِيَرَارٍ
 ٦ - وَنَجُومٌ تَلُوحُ فِي ظُلْمِ اللَّيْلِ .. بِلْ نَرَاهَا فِي كُلِّ يَوْمٍ تُدَارُ
 ٧ - ثُمَّ شَمْسٌ يَحْتَبِهَا قَمَرًا لِلَّيْلِ .. بِلْ وَكُلُّ تَابِعٍ مَهْـتَوَارٍ
 ٨ - وَصَغِيرٌ وَأَشْمَطُ^(٢) وَكَبِيرٌ .. كُلُّهُمْ فِي الصَّغِيدِ يَوْمًا مُزَارٍ
 ٩ - وَكَثِيرٌ مِمَّا يُقْصَرُ عَنْهُ .. حِدُوسَةُ الْخَاطِرِ الَّذِي لَا يَحَارُ
 ١٠ - فَالَّذِي قَدْ ذَكَرْتُ دَلَّ عَلَى اللَّذِّ .. فِي نَفُوسٍ لَهَا هَدًى وَاعْتِبَارُ

وقد ظهر لنا أن أقيّة بن أبي الصلت "أكثر من ذكر هذا التأمل في آيات الله ،
 وحسبنا ما ذكرنا له ولغيره ليدلنا على أمثاله^(٣) .

أما قصص السابقين وأخبار من تقدم من النبيين والمرسلين فهي أكثر، بل تؤكد
 علم العرب بها ، كما تدل على شيوع القصص بينهم .

فهذا "عبدالمطلب" يذكر إبراهيم الذي بنى كعبة الله ، وأنهم في بلد الله
 الحرام من عبد إبراهيم فكأنهم آل الله وخاصته^(٤) :

نَحْنُ آلُ اللَّهِ فِي كَعْبَتِهِ .. لَمْ يَزَلْ ذَاكَ عَلَى عَهْدِ إِبْرَاهِيمَ

(١) جواهين : باطنهن وداخلهن .

(٢) الأشمط : يريد كبيراً قد ابيضت لحيته وعلاه الشيب .

(٣) ديوانه : ٤٦٩ ، ٤٤٧ ، ٤٤٨ . وانظر قصيدة لزهير في ديوانه (صنععة
 الأعلام) ص ١٦٧ وما بعدها ، وقد شك الأصمعي فيها ، وانظر ديوان عبيد بن

الأبرص : ٦١ . تحقيق حسين نصار ط ١٣٧٧ مصطفى الحلبي - القاهرة

(٤) شرح الحماسة للتبريزي : ٢٤٩/١ ، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد
 ط حجازي - القاهرة ، المغرب للجوالقي : ٦١ ط دار الكتب .

ويجيء " الأعشى " فيدعو لعمد وجه - إياس بن قبيصة الطائي ^(١) - جزاء خير من الله كما جازى عبده ورسوله (نوحا) ، وقد كان هذا الجزاء بعد فترة طويلة من عمر نوح قضاها في دعوة قومه ، وهذا الجزاء تمثل في انجائه من الغرق على سفينته التي صنعها بيده وجمع ألواحها وأبوابها حتى جعل منها فلكا ماخرا على الماء بقدرة الله : ^(٢)

جَزَى اللَّهُ أَيَا سَاخِرٍ يَعْصِيهِ . . كَمَا جَزَى الْمَرْءَ نُوحًا بَعْدَ مَا شَابَا
فِي فُلَيْكِهِ إِذْ تَبَدَّاهَا لِيَصْنَعَهَا . . وَظَلَّ يَجْمَعُ الْوُحَا وَأَبْوَابَهَا
وَنَجِدُ ذِكْرًا آخِرَ لِنُوحٍ عِنْدَ أُمِّيَّةَ بْنِ أَبِي الصَّلْتِ فِي مَوَاضِعَ مِنْ دِيَوَانِهِ ^(٣) ، فهو يذكر أيضا انجاء الله لنوح من الغرق في السفينة ، ويشير الى من كان معه من المؤمنين به ، والحيوانات وان لم يذكرها ، وهم عراة لا لبوس لهم تقيهم اللوافح ، وقد فاض الماء حتى غطى الأرض ، وهم في أمواج خضر تصطفق بهم كاللهضب ^(٤) :

جَزَى اللَّهُ الْأَجَلَّ الْمَرْءَ نُوحًا . . جَزَاءَ الْبِرِّ لَيْسَ لَهُ كُذَّابٌ
بِمَا حَمَلَتْ سَفِينَتُهُ وَأُنْجَتْ . . غَدَاةً أَنَا هُمْ الْمَوْتُ الْقُضْلَابُ ^(٥)
وَفِيهَا مِنْ أُرُوفَتِهِ عَصْرَاءُ . . لَدَيْهِ لَا الظَّمَاءُ وَلَا السَّفَابُ ^(٦)

(١) إياس بن قبيصة الطائي (كما في الاعلام) مختصرا من أشرف طبرسي
وفصاحتها وشجعانها في الجاهلية . اتصل بكسرى ابرويز فوله الحيرة ، ثم
نجاه وولى النعمان أبا قابوس ، ووله الحيرة بعد قتل النعمان ، وفي أيامه
كانت وقعة (ذى قار) الشهيرة بين العرب والفرس .

وانظر تاريخ بن خلدون : ٢ / ٢٦٥ ، شعراء النصرانية : ١ / ١٣٥ .

(٢) ديوان الأعشى الكبير : ٤١٥ .

(٣) ديوان أمية : ٥٣١ ، ٥٣٢ .

(٤) ديوان أمية : ٣٣٧ ، ٣٣٨ .

(٥) القلاب : كما قال محقق الديوان : " يأخذ البعير فيشتكى منه قلبه ،
فيمت من يومه ، وهو هنا الموت الأكيد المحقق " .

(٦) الأرومة : الاصل ، السقاب : الجياح ، الواحد ساغب أو سفب أو سفبان .

- وَأَنْ هُمْ لَا لَبُوسَ لَهُمْ تَقِيَهُمْ .. وَأَنْ صَخْرُ السَّلَامِ لَهُمْ رَطَابٌ ^(١)
 عَشِيَّةُ أَرْسَلَ الطُّوفَانُ تَجَبَّرِي .. وَقَاضَ الْمَاءُ لَيْسَ لَهُ جَرَابٌ ^(٢)
 عَلَى أَمْوَاجٍ أَخْضَرَ نَدَى جَنِينِكَ .. كَانَ سَعَارَ زَاخِرِهِ الْهَضَابُ ^(٣)

ويذكر " امرؤ القيس " عاداً وشمود ، ويقسم أن لا يجتمع بين جشم حـ حتى يقتلوا ، فإذا القتل على كثرتهم كعاد أو شمود ^(٤) .

- كَلَّا يَمِينُ إِلَّا لَوِ يَجْمَعُنَا .. شَيْءٌ وَأَخُو النَّابِي جُشَمَا
 حَتَّى تَزُورَ السَّبَاعُ مَلْحَمَةً .. كَانَتْهَا مِنْ شَمُودٍ أَوْ إِرْمَا ^(٥)
 ونرى " الاعشى " يذكر عاداً وشمود وأقواماً غيرهم وكيف أودى بهم الدهر ^(٦) .
 أَلَمْ تَرَوْا إِرْمَا وَعَدَا .. أَوْدَى بِهَا اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ

- (١) السلام : الحجارة ، الواحدة سلمة ، والعرب تزعم أن الحجارة كانت رطبة
 لينة من قد يم الزمن ، وذلك معنى قوله رطاب .
 (٢) الجراب : جوف البئر من أعلاها إلى أسفلها ، والمعنى ليس له حدود تحده
 لكثرتة واتساعه .
 (٣) حبيكة : مفردا حبيكة ، وهو ما يرى على الماء من حروف إذا مرّت به الرياح .
 السعار : هو حر النار ، واستعاره لشدة الموج .
 (٤) ديوان امرؤ القيس : ٢٠٨ .
 (٥) الملحمة : موضع القتال ، وإنما يريد القتل ، فيقول كاني بهم قد صاروا كأولئك
 الموتى من عاد وشمود ، إرم : مدينة عاد وقيل غير ذلك .
 (٦) ديوانه : ٣٣١ . وقد علق محقق الديوان هنا بقوله : " وليس حديث الشاعر
 الجاهلي في مثل هذه المواضع غريباً ، فهو مألوف كثير ، فالشاعر الجاهلي
 - كما رأينا في كثير من المواضع - كان يمثل الرجل المثقف ، الذي يحيط بكل
 معارف عصره ، من تاريخ وأساطير وأنسب ، وهو مع هذا رجل حكيم ، يتنازل
 من بين سائر الناس ، بأنه أعمق غوراً وأصح نظراً .
 لذلك كان من المألوف أن يعرض الشاعر لحديث مثل هذه الأمم البائدة ،
 حين يتحدث عن ثقافة الدنيا ، وعن غورها بالناس ، ليصل من ذلك إلى أن كل
 شيء يصير إلى الزوال والفساد ، فهو لا يقصد من ذلك إلا استنباط العظة
 والعبرة " .

بَادُوا فَلَمَّا أَنْ تَنَازَوْا .. قَفَى عَلَى إِثْرِهِمْ قُدَّارٌ^(١)
 وَقَبْلَهُمْ غَالَتِ الْمَنَائِبُ .. طَسَمًا وَلَمْ يُنْجِهَا الْحَذَارُ
 وَحَلَّ بِالْحَيِّ مِنْ جَدِيبٍ .. يَوْمَ مِنَ الشَّرِّ سَتَطَّارُ
 وَأَهْلُ عُذْدَانٍ جَمَعُوا .. لِلدَّهْرِ مَا يُجْمَعُ الْخِيَارُ^(٢)
 فَصَبَّحَتْهُمْ الدَّاهِي .. جَائِعَةٌ عَقَبُهَا الدَّسَارُ
 وَقَدْ غَنَوْا فِي ظِلَالِ مُلْكٍ .. مُؤَيَّدٍ عَقْلُهُمْ جَفَّارُ^(٣)

ونلاحظ " الاعشى " أيضا يذكر خبر سد مأرب ، وما بُنى به من الرخام حتى أحكم فلا يذهب منه الماء ، وقد استفادوا منه ان سقى لهم مزارعهم التي قسموا ماء بينهما ، وقد كانوا فى نعمة غامرة ساعد عليها ذلك السد ، فلما اجترف السيل سدهم فرقهم فى صحراء قاحله ، ولم يقدروا عند ذلك على الانتفاع بشئ من هذا السد المنجرف حتى ولو كان نزارا .^(٤)

قَفَى ذَاكَ لِلْمُؤَيَّدِ أُسْوَةٌ .. وَمَأْرِبُ قَفَى عَلَيْهَا الْعُرْمُ
 رَخَامٌ بَنَتْهُ لَهُمْ حِمٌّ .. إِذَا جَاءَهُمْ لَمْ يَكُنْ يَكْرِمُ^(٥)
 فَعَاشُوا بِذَلِكَ فِي غَيْطَةٍ .. فَجَارَ بِهِمْ جَارٌ مِنْهُمْ زِمُ^(٦)

-
- (١) تَنَازَوْا : تفاعلوا من الأيد وهو القوة أى تعاونوا على ذلك . قُدَّار : هو ابن سالف الذى تولى قتل الناقة فعذبهم الله بذلك ويضرب به المثل فى الشؤم عند العرب فأمره معروف عندهم .
 (٢) عُذْدَان : قصر مشهور باليمن ، وأهله التابعون لملوك اليمن . ما يجمع الخيار : يعنى من الأموال والمتاع النفيس فى حياتهم .
 (٣) غَنَوْا : أى أقاموا ، مؤيد : قوى ، جفار : أى واسع .
 (٤) ديوان الاعشى : ٩٣ .
 (٥) يرم : يذهب ويسرح .
 (٦) منهزم : أى له صوت عند تصدعه وانهدامه .

فَطَارَ الْقَيْسُولُ وَقِيلَتْهَا .. بَيْهَمَاءَ فِيهَا سَرَابٌ يَطْمُ (١)
فَطَارُوا وَلَمْ يَقْدَرُوا .. نَ مِنْهُ لِشَرْبِ صَيِّ قُطْمِ

ویدل " النابغة " على أن الموت قد قضى على حمير والتباعدة كما أباد نانس
وأنينة (٢)

(٣) وَلَقَدْ أَرَىٰ أَنَّهُ الَّذِي هُوَ غَالِيهِمْ . . . قَدْ غَالَ حَمِيرٌ قَبْلَهَا الصَّبَاحُ
(٤) والتبعين وذا نواس غُرُوة . . . وغلا أنينة سالب الأرواحا

وأما "داود" عليه السلام فقد كثر الحديث عن دروعه واشتهاره بصناعتها ،
وبعدّها العرب من أجود الدروع ، وتكون موضونة ، وهى التى تصنع من حلقتين
حلقتين ما يزيد فى صلابتها وحماية لابسها ، وإذا ضربت فيها السيوف البواتر
فهى تتلهمها دون أن تخرقها . يقول بشامة بن عمرو :
(٥)

وَمِنْ نَسْجِ دَاوُدَ مُؤَمَّنَةٌ ۚ تَرَى لِلْقَوَاصِبِ فِيهَا صِلًا^(٦)

- (١) القيول : جمع قيل ، وهو لقب ملوك حمير . بهما : صحراء مطموسة المسالك .
يطسم : يقال طم الشيء اذا كثر حتى علا وغلب .
(٢) ديوان النابغة الذبياني : التجمع وتحقيق : محمد الطاهر بن عاشور ، ط . الشركة التونسية ، والشركة الوطنية الجزائر .
(٣) غال : رزأ وأصاب ، الصباحا : اى الكثير الفارة على اعدائه ، والفارة تكون فى ابتداء الصباح .
(٤) التبعان : تبع أسعد أبو كرب وتبعه حسان ، من ملوك اليمن .
زنوناس : من آذوا اليمن ، صاحب أهل الأخدود ، أذينة : ملك كان بالجزيرة وشارف الشام من عاملة العمالقة .
(٥) هوشامة بن الغدير (كما فى الشرح مختصرا) شاعر جاهلى ، خال زهير ابن أبى سلمى ، كان دأ مال وحزم ، وكانت غطفان تستشيرهُ عند الغزوات .
انظر طبقات فحول الشعراء : ٢ / ٢١٨ ، ٢١٩ ، البرصان والعرجان والعميان والحوالن : أبى عثمان عمرو بن بحر الجاحظ : ٣٥٧ ، تحقيق : عبدالسلام هارون . ط (١٩٨٢ م) وزارة الثقافة والاعلام - العراق .
(٦) المفضليات : ٥٩ .

وهذه الدروع يصطحبونهم في الحروب ويحملونها على الجمال ، وإذا ازدحمت بها العير في الأماكن الضيقة احتككت رؤوس ساميرها التي تربط حلقاتها فلها صوت كحفيف الحصاد حين تهزه الرياح : (١)

وَمِنْ نَسِجِ دَاوُدَ مَوْصُونَةٌ . . تُسَاقُ مَعَ الْحَيِّ عَيْرًا فَعَيْرًا
إِذَا اَزْدَحَمَتْ فِي الْمَكَانِ الْمَضِيِّ . . حَتَّى حَتَّ التَّرَاحُمُ مِنْهَا الْقَتِيرًا *
لَهَا جَرَسٌ كَحَفِيفِ الْحَصَا . . يَصَادَفُ بِاللَّيْلِ رِيحًا دَبُورًا

وهذا السؤال يشير إلى سعة ملك داود :

وَأَتَتْهُ الْأَنْبَاءُ عَنْ مَلِكِ دَاوُدَ . . دَفَقَرْتُ عَيْنِي بِهِ وَرَضَيْتُ (٢)

وأما سليمان بن داود فقد أمره الله أن يمنع البرية عن الغند ، وسخر له الجن يعملون له في البناء ثم هو سلط عليهم باثابة المطيع وعقاب العاصي كما يقول " النابغة " عند تشبيهه للنعمان بسليمان معتذرا إليه مادحا له : (٣)

وَلَا أَرَى أَحَدًا فِي النَّاسِ يُشَبِّهُهُ . . وَلَا أَحَدٌ مِنْ الْأَقْوَامِ مِنْ أَحَدٍ
إِلَّا سَلِيمَانَ إِذْ قَالَ إِلَّا لَهُ كَسُهُ . . ثُمَّ فِي الْبَرِيَّةِ فَاحْذَرُهَا عَنِ الْغَنْدِ (٤)
وَخَيْسِ الْجِنِّ إِنِّي قَدْ أَزْنَتُ لَهُمْ . . يَمْنُونُ تَدْمُ بِالصَّفَاحِ (٦) وَالْعَمْدِ (٧)

ويذكر " الاعشى " عليه السلام باقامة الأبنية المحكمة كحصن الأبلق

(١) ديوان الاعشى الكبير : ١٤٩ .

* حَت : حك ويرد . القدير : رؤوس السامير التي تربط أجزاء الدرع وحلقاته .

(٢) الاصعيات : ٨٦ .

(٣) ديوان النابغة الذبياني : ٨٢ .

(٤) الغند : ضعف الرأي والعمل .

(٥) خيس : خيس الدابة : أي ذلها للعمل أو الركوب .

(٦) الصفاح : الحجارة الصلبة العريضة .

(٧) العمْد : جمع عماد ، وهو الأعمدة التي يقف عليها حمل السقف .

بتيما في إحدى مداعده ويقول : (١)

فَمَا أَنْتَ إِنْ دَامَتْ عَلَيْكَ بِخَالِدٍ .. كَمَا لَمْ يُخْلَدْ قَبْلُ سَاسَا وَهَوْرُق (٢)
وَكَيْسَرِي شَهِنْشَاهُ الَّذِي سَارَ مُلْكُهُ .. لَهُ مَا اشْتَهَى رَاحَ عَتِيقٌ وَزَنْبِقُ (٣)
وَلَا عَادِيَا لَمْ يَمْنَعِ الْمَوْتَ مَالُهُ .. وَحِصْنُ بَتِيمَاءَ الْيَهُودِيِّ الْبَلَقُ (٤)
بَنَاءُ سَلِيمَانَ بْنِ دَاوُدَ حَقِيبَةٌ .. لَهُ أَنْجٌ عَالٍ وَطَى مُوشَقُ (٥)

وحسبنا أخيرا ان نذكر شعرا عن قصة أصحاب الغيل المشهورة فهي مما لا يشك

أحد في علم العرب بها ، وهذا " أمية بن أبي الصلت " يصور طرفا منها فيقول : (٦)

حَبَسَ الْغِيلَ بِالْمُقَصِّ حَسَّتِي .. ظَلَّ يَحْبُو كَأَنَّهُ مَعْقُورُ (٧)

(١) ديوان الاعشى : ٢٦٧ .

(٢) ساسان : ملك الفرس . موزق : قالوا انه ملك الروم . كذا قال محقق الديوان .

وفى تاج العروس " ورق " ٨٧ / ٧ قال : " وهورق كمقعد " اسم ملك الروم .

قال الاعشى :

فَأَصْبَحْتُ قَدْ وَدَعْتُ مَا كَانَ قَدْ مَضَى .. وَتَقَلَّبِي مَامَاتِ بْنِ سَاسَانَ هَوْرُق .
أَرَادَ كَسْرِي بْنِ سَاسَانَ " .

(٣) شهِنْشَاهُ : كلمة فارسية معناها : ملك الملوك . راح : خمر .

الزنبق : نبات له زهر طيب الرائحة .

(٤) عاديا : هو أبو السموءل وكان يهوديا .

(٥) الأنج : البيت بينى طولاً وهذا نوع من أنواع البناء .

الطى : هو بناء جوانب البئر بالحجارة والاجر وهذا البناء هنا للأبلىق .

(٦) ديوان أمية : ٣٩٢ ، ٣٩٣ .

(٧) المغس كما قال معجم ما استعجم (٤ / ١٢٤٨) : موضع طرف الحرم ، وهو

الموضع الذى ربح فيه الغيل حين جاء به ابرهة " وقال ياقوت (معجم

البلدان : ٤ / ٥٨٣) : " موضع قرب مكة فى طريق الطائف . مات فيه أبو رغال

وقبره يرجع لانه كان دليل صاحب الغيل فمات هناك " وأرى أن هذا هو

الصحيح ولم يبينه محقق ديوان أمية . يحبو : فسر محقق ديوان أمية بعدم

التحرك هزلا وهذا خطأ منه فالحبو : الزحف والتحرك على اليدين والبطن

والبعير يحبو اذا زحف وهو بارك على الارض كما فى اللسان (حبا) ١٦١ / ١٦١ .

العقر : أن تقطع احدى قوائم البعير قبل نحره كيلا يشرد عند النحر ، وقد

نهى عنه الاسلام لما فيه من تعذيب للحيوان .

لَا زِمًا جَلَقَةَ الْجِرَانَ كَمَا قُطِّتْ . . . رَمَى صَخْرٍ كَبْكَبٍ مَحْدُورٍ (١)
 حَوْلَهُ مِنْ مُلُوكٍ كُنْدَةً أَبْطَلَا . . . لَمْ يَلَاوِيَتْ فِي الْحُرُوبِ صُفُورُ
 خَلْقُهُ ثُمَّ أَبَدَ عُرْوَا جَمِيعًا . . . كُلُّهُمْ عَظُمَ سَارِقَهُ مَكْسُورُ (٢)

(٢) الْإِيمَانُ بِاللَّهِ :

يقع الإيمان بالله قبل كل إيمان بما سواه ، بل يكاد يقع الإيمان بغيره تبعاً للإيمان به ، وإيمان الجاهليين بالله دل عليه القرآن الكريم ، فقد علموا أنه - جل وعلا - خلق السماوات والأرض * ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض وسخر الشمس والقمر ليقولن الله * . (٣)

بل قد أفروا لله بانزال المطر * ولئن سألتهم من نزل من السماء ماء فأحيا به الأرض بعد موتها ليقولن الله (٤) ، وهم يعترفون له سبحانه بخلق أنفسهم * ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله فأنى يؤفكون (٥) .

ولا شك أن هناك آيات كثيرة على شاكلة الآيات السابقة يقر فيها الجاهليون بالإيمان بالله ، وقد رتبه على كثير من الأمور العظيمة التي لا يقوم بها أحد إلا الله ،

(١) الجران : باطن العنق ، فاذا برك البعير ومد عنقه على الأرض قيل : ألقى جرانه بالأرض . قطر : ألقى من علو على قطره ، أى جانبه . كبكب : جبل خلف عرفات لمن يستقبل بها البيت . محوور : الذى ألقى من علو إلى أسفل يريد " حجراً محووراً " ولعل المعنى فيما بيدولى - أن الفيل ثبت مكانه لأنه صخرة انحدرت ولزمت مكانها . ولم يبين معناه محقق الديوان .

(٢) ابذعروا : تفرقوا .

(٣) العنكبوت : ٦١ .

(٤) العنكبوت : ٦٣ .

(٥) الزخرف : ٨٧ .

فهو الذى سخر الشمس والقمر^(١) لمنافع العباد ، كما أنه هو الذى يرزقهم من السماء ويملك السمع والأبصار ويخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى ويدير الأمر^(٢) . كما أنه هو الذى بيد الخلق ، ويهدى الناس الى اتباع الحق^(٣) . بل قد اعتقدوا أنه لو لم يشأ الله لما أشركوا فى عبادته أحدا سواه^(٤) ، الى غير ذلك من الآيات حول هذه المعاني .

أمّا الشعر الجاهلى فأنّه حافل بايمان الجاهلين بالله واعتقادهم بوجوده ، فالأعشى "ميمون بن قيس" يرى أن الله الذى بيده الأمر فما أصلحه الله كان صالحا^(٥) :
إِنَّمَا نَحْنُ كَشَىءٍ فَاسِدٌ . . . فَإِذَا أَصْلَحَهُ اللَّهُ صَلَحَ
ويوافق فى هذا الاتجاه طفيل الغنوى بقوله^(٦) :

لَعَمْرِي لَقَدْ خَلَى ابْنُ جَنْدَعٍ ثَلَمَةً . . . وَمِنْ أَيْنَ إِنْ لَمْ يَرَأْبِ اللَّهُ تَرَأْبِ
وهذا طرفه بن العبد مع ما عرف به تَبَذَّلَ ومجوس يرى أن الله هو الذى يمنح الرجال الخصال النبيلة والسوءد والشرف فلو شاء جعله ذا شأن ومكانة
كما لهذين الرجلين^(٧) :

فَلَوْ شَاءَ رَبِّي كُنْتُ قَيْسَ بْنَ خَالِدٍ . . . وَلَوْ شَاءَ رَبِّي كُنْتُ عَمْرَو بْنَ مُرْثَدٍ

(١) العنكبوت : ٦١ .

(٢) ~ يونس : ٣١ .

(٣) ~ يونس : ٣٥ / ٣٤ .

(٤) ~ الانعام : ١٤٨ .

(٥) ديوان الأعشى الكبير : (٧ / ٣٦) ص ٢٨٧ .

(٦) ديوانه : ٣٦ .

(٧) ديوانه : تحقيق : لطفى الصقال ، درية الخطيب : ٤١ طبع مجمع اللغة بدمشق ١٣٩٥ هـ

قال الأعلام فى شرحه : قيس ابن خالد : هو قيس بن خالد بن عبد الله
ذى الجدين ، من بنى شيان ، عمرو بن مرثد : ابن عم طرفه ، وذكر له
قصة مع طرفه لما سمع هذا البيت وانظر ديوان طرفه : ٤١ ، ٤٢ .

وقيس بن الخطيم يرى أن ما أراد الله للناس وقدره له فهو الذى يناله ،
أما ما يتناهى المرء فانه وإن أحبه فلن يأتيه منه الا ما أراد الله : (١)

يُحِبُّ الْمَرْءُ أَنْ يَلْقَى مُبَاهُ . . وَيَأْبَى اللَّهُ الْأَمَشَاءَ
ومثله الحادث بين حلزة الذى يرى السعادة والشقاء من أمر الله : (٢)

فَهَذَا هُمْ بِالْأَسْوَدَيْنِ وَأَمْرُ اللَّهِ . . بِبَلْعٍ يَشْقَى بِهِ الْأَشْقِيَاءَ
ومن الايمان بالله وصفه بالقدرة على ما يعجز عنه البشر فهو عند أوس بن حجر قادر
على انزال المطر فى غير ما اعتادوه من مواسم الامطار : (٣)

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مَزْنَةً . . وَعَفَرَ الظُّبَاءَ فِي الْكَنَاسِ تَقَطُّعًا (٤)
ويؤمن سلامة بين جندل بقدرة الله على جمع أمر الناس وتفريقهم ، كما أنه
القادر على جبر العظم الواحد الذى فرقه الكسر وأضعفه : (٥)

عَجَلْتُمْ عَلَيْنَا حَجَّتَيْنِ عَلَيْهِمْ . . وَمَا يَشَأُ الرَّحْمَنُ يَفْعَلْ وَيُطْلِقْ
هُوَ الْجَابِرُ الْعَظِيمُ الْكَبِيرُ وَمَا يَشَأُ . . مِنَ الْأَمْرِ يَجْمَعُ بَيْنَهُ وَيَفَرِّقُ
والله هو الذى يقى الانسان ولا حيلة له ان لم يقه الله كما قال أفنون التعلبي : (٦)
لعمرك ما يدرى امرؤ كيف يتقى . . اذا هولم يجعل له الله واقيا
أما حاتم الطائي فقد كان متلافا للمال ، لا يدخر لغيره ، واثق فى اجراء الله
فى كل يوم رزقا فلا ينهضى الاقتار : (٧)

فَلَا تَلْتَمِسُ رِزْقًا بِعَيْشٍ مُقْتَرٍ . . لِكُلِّ غَدٍ رِزْقٌ يَعُودُ جَدِيدُ

(١) ديوان قيس بن الخطيم : تحقيق : د. ناصر الدين الاسد : ١٥٥ ط ٢ (١٣٨٧) دار صادر . بيروت .

(٢) شرح القصائد السبعة الطوال الجاهليات ، محمد بن القاسم الانبارى : ٤٨٩ ، تحقيق عبد السلام هارون ط ٤ ، دار المعارف بمصر .

(٣) ديوانه : ٥٧ .

(٤) الكناس : محل ما تأوى فيه الظباء ، تقمع : تطرد عنها القمعة وهو ذباب أزرق ، والمعنى : أن الله أنزل المطر فى غير وقته المألوف ، ففي الحر والذباب لم يخف ولم يذهب أمطروا .

(٥) ديوانه : ١٠٩ ، ١٨٤ ، تحقيق فخر الدين قباوة ط ١ ، ١٣٨٧ المكتبة العربية حلب .

(٦) الفضليات : ٢٦١ .

(٧) ديوان حاتم بن عبد الله الطائي : ٢٦٤ ، ٢٦٥ .

أَلَمْ تَرَ أَنَّ التَّرْقَّ غَابٍ وَرَائِحُ . . . وَأَنَّ الذِّى أَغْطَاكَ سَوْفَ يُعِيدُ

وعتد النابغة الذبياني نراه يقر لله بالحفظ والوقاية : (٢)

فَإِنَّ وَقِيَّتَ بِحَمْدِ اللَّهِ شَرَّتْهَا . . . فَانْجَى قَزَارَ إِلَى الْأَطْوَادِ فَالْلُوبِ . (٣)

وهو الذى يسوق الغيث والسحب المبكرة : (١)

أَقُولُ وَأَنْ شَطَّتْ بَى الدَّارُ عَنْكُمْ . . . إِذَا مَا لَقِينَا مِنْ مَعَدٍّ سَافِرَا

أَلَيْكُنِي إِلَى التَّغْمَانِ حَيْثُ لَقِيْتَهُ . . . فَأَهْدَى لَهُ اللَّهُ الْغِيُوثَ الْبَوَاكِرَ (٤)

ومع ما عرفوه لله من أفعاله وقد رته فالله عالم الغيب ومطلع على خفايا النفوس وسرائر

الاعمال . وذا زهير يخاطب أولئك المتحاربين الذين عقد الصلح بينهم على

التسك به وعدم اضرار خلافه فالله مطلع على كل ذلك (٥) :

فَلَا تَكْمُنَنَّ اللَّهُ مَا فِى نَفْسِكُمْ . . . لِيَخْفَى وَمِنْهُمَا يُكْمِنُ اللَّهُ يَعْلَمُ

يَوْمَ خَرُّ فَيُوضَعُ فِى كِتَابٍ فَيَدَّ خَرُّ . . . لِيَوْمِ الْحِسَابِ أَوْ يَعْجَلُ فَيُنْقَضُ

والله يعطى ويمنع ويعز ويذل ، فهو الذى منح مدوح الأعشى الأملاك ، وقوة السلطان

فكم رفع حاجات الفقراء وأصلح معاشهم ، وأخرب ديار من يناوشه ، كما أنـه

الله تعالى مطلع على الأسرار والخفايا : (٦)

فَأَقَلَّتْ قَوْمًا وَأَعْمَرَتْهُمْ . . . وَأَخْرَجْتَ مِنْ أَرْضٍ قَوْمَ دِيَارَا (٧)

عطاءً أَلِهُ فَإِنَّ أَلِهُ . . . يَسْمَعُ فِى الْغَايِضَاتِ الشَّرَارَا (٨)

(١) ديوان النابغة : ١١٨ .

(٢) ديوانه : ٥٣ .

(٣) وقيت : يخاطب بنى فزاره ، شرتها : شدتها ، والضمير عائد الى الجياد فـى

بيت سابق . الاطواد : أى الجبال ، اللوب : جمع لابة وهى الحرة ، أى الارض

ذات الحجارة .

(٤) ألكنى : فعل أمر من الاك : اذا بلغ عنه الوكة وهى الرسالة . والمعنى : ألك عنى .

(٥) ديوان زهير " العلم " : ١٨ .

(٦) ديوان الأعشى : ٩٩ .

(٧) أقلت قوما : جعلتهم ورنعة حاجتهم ، أعمرتهم : أعطيتهم دارا .

(٨) السرار : المناجاة الخفية .

وهذا المثقب العبدى^(١) لا يدري ما يكون له في ما يستقبله لأن ذلك من علم الله :

وَمَا أَدْرِى أَنَّهُ تَمَّتْ أَرْضًا .. أَرِيدُ الْخَيْرَ أَيُّهَا يَلِيبُنِي

الْخَيْرُ الَّذِي أَنَا أَبْتَغِيهِ .. أَمْ الشَّرُّ الَّذِي قَدْ يَتَغَفَّبُنِي

ويفتخر الحارث بن حلزة في معلقته بما أوقعه قومه بأعدائهم من كثرة القتل على
الذين حانت دماءهم في علم الله وقدره :^(٢)

وَقَتَلْنَا بِهِمْ كَمَا عَلَّمَ اللَّهُ .. وَهَذَا لِلْحَائِثِينَ دِمَاءُ^(٣)

وهناك جانب آخر يضاف الى ايمان الجاهليين بالله ، يدل على معتقدهم

الجاهليين فيه ، ذلك هم القسم بالله فيما بينهم ، ولا شك أن القسم من الأمور

العظيمة عند الجاهليين وأن أكثروا المقسوم بهم فيما نعلم عنهم^(٤) . ويؤكد ذلك

قوله تعالى * وأقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت *^(٥)

وهذا امرؤ القيس يقسم بالله في شعره على لسان صاحبه فيقول :^(٦)

فَقَالَتْ يَمِينُ اللَّهِ مَالَكْ حَيْلَةً .. وَمَا إِنِّي أَرَى عَنْكَ الْغَوَايَةَ تَنْجَلِي

ويقسم عامر المحاربى بالله إن شرب أعداء قومه للخمر بعد أن جنوا على قومه^(٧)

الحرب وتخاذلوا عنهم شراب شؤم :^(٨)

فَمَا إِنِّي شَهِدْتُ أَنَّ خَمْرَكُمْ إِذَا شَرِبْتُمْ .. عَلَى دَهْشٍ وَاللَّهِ شَرِبَةُ أَشْأَمَا

(١) المثقب (بكسر القاف المشددة) عائد ، ويقال عائد الله بن محصن بن ثعلبة

ابن عبد الله من بني عبد القيس ، شاعر فحل جاهلي قديم كان زمن عمرو بن هند

وانظر : طبقات فحول الشعراء : ١ / ٢٧١ ، ترجمته في مقدمة ديوانه .

ديوان المثقب العبدى : تحقيق : حسن كامل الصيرفي ، ١٣٩١ هـ ، مطبعة المطوطات

(٢) شرح القصائد السبعة الطوال الجاهليات : ٤٩٥ .

(٣) الحائثين : من قدر الله أجله وحينه فليس له بقاء .

(٤) انظر : ايمان العرب في الجاهلية : ١٣ ، ٢٦ ، ٢٧ .

(٥) النحل : ٣٨ .

(٦) ديوانه : ١٤ .

(٧) عامر المحاربى : من بني محارب بن خصفة بن قيس عيلان . وانظر

المفضليات : ٩١ .

(٨) المفضليات : ٣١٩ .

ومما يدل على اعتبارهم القسم بالله نوعاً من أيمانهم التي يتداولونها قول زهير :^(١)

تَعَلَّقْنَ هَا لَعَمْرُ اللَّهِ ذَا قَسَمًا .. فَاقْدِرْ بِذَرْعِكَ وَأَنْظُرْ أَيْنَ تَنْسَلِكُ^(٢)

لَقَدْ حَلَلْتُ بِجَوْ مِنْ بَنَى أَسَدٍ .. مِنْ دِينَ عَمْرٍو وَحَالَتْ بَيْنَنَا فَدَكْ

لِيَأْتِيَنَّكَ مِنِّي مَنَظِقٌ قَدْ ذُعُ .. بَاقٍ ، كما دَتَسَ الْقِبْطِيَّةَ الْوَدَكُ^(٣)

ومع ماورد من إقسامهم بالله فقد يأخذ القسم صورة فيها صفة من صفات الله

كالعزیز فی قول حاتم الطائي :^(٤)

وَتَوَاعَدُ وَأَوْرَدَ الْفُرْيَةَ غُدُوَّةً .. وَحَلَفْتُ بِاللَّهِ الْعَزِيزِ لِنَحْبِيسٍ

ويصفه عبيد بن الأبرص بالمنعم الغفور :^(٥)

حَلَفْتُ بِاللَّهِ إِنَّ اللَّهَ ذُو نِعَمٍ .. لِمَنْ يَشَاءُ وَذُو عَقْوٍ وَتَهَفَّاحٍ

ويحلف النابغة بمن سح كعبته المشرفة في اعتذاره الى النعمان ماوشى به

خصوصه عنه فيقول :^(٦)

فَلَا لَعَمْرُ الَّذِي سَخَّتُ كَعْبَتَهُ .. وَمَاهُرِيَقٍ عَلَى الْأَنْصَابِ مِنْ جَسَدٍ

ما قلت من سييءٍ ربما أَتَيْتَ بِهِ .. اذَنْ فَلَا رَفَعَتْ سَوْطِي إِلَى يَدِي

وينبغي أن يعلم أن الجاهليين وإن أقسموا بغير الله ، كالقسم بالاصنام

أو الأباء أو غيرها فانهم كانوا يعدون القسم بالله أكبر وأعظم من القسم بغيره

فهذا أوس بن حجر يجعل الله أكبر من اللات والعزى في قسمه :^(٧)

وَاللَّاتِ وَالْعَزَّى وَمَنْ دَانَ دِيْنُهَا .. وَبِاللَّهِ إِنَّ اللَّهَ مِنْهُمْ أَكْبَرُ

(١) ديوان زهير "الاعلم" : ٨٩ ، ٨٨ .

(٢) اقدر بذرك : أى قدر بخطوك ، والدَّرْع : قدر الخطو . والمعنى لا تكلف

نفسك ما لا تطق منى . وانظر ابن تنسلك "الانسلاك" : الدخول فى الامر ، والمعنى : لا تدخل نفسك فيما لا يعينك .

(٣) القذع : أبقح الشتم والهجاء . القبطية : ثياب تصنع بمصر ، الودك : الدسم .

(٤) ديوان حاتم : ٢٧٨ .

(٥) ديوان عبيد بن الأبرص : القصيدة (٢٤) .

(٦) ديوان النابغة : ٨٥ ، ٨٦ .

(٧) ديوان أوس بن حجر : ١٥٣ .

ومثله النابغة الذبياني الذي لا يرى بعد الله شيء يمكن أن يعتدّ بالحلف به
في اعتذاره للنعمان ^(١) ملك الحيرة " :

حَلَفْتُ فَلَمْ أَتَزَكَّ لِنَفْسِكَ رَيْبَةً . . . وَلَيْسَ وَرَاءَ اللَّهِ لِلْمَرْءِ مَذْهَبٌ

أما ورود لفظ الجلالة في الشعر من غير قسم فهذا كثير، ومنه قولهم :

(الحمد لله) كقول امرئ القيس : ^(٢)

أَرَى إِلَهِي وَالْحَمْدُ لِلَّهِ أَصْبَحَتْ . . . ثِقَالًا إِذَا مَا اسْتَقْبَلْتُهَا صُعُودَهَا

وقولهم (عمر الله) كقول عروة الصعاليك : ^(٣)

قَعِيدُكَ عَمْرُ اللَّهِ هَلْ تَعْلَمِينِي . . . كَرِيمًا إِذَا اسْوَدَّ الْأَنَامِلُ أَزْهَرًا ^(٤).

ومن مظاهر إيمانهم بالله ما ورد في أشعارهم من دعاء الله، وما ذاك إلا لعلمهم
باجابته الدعاء، وقد كان الجاهليون يلجئون إلى الله وقت الشدائد ولا يدعون
مع الله أحدا عند ذلك، فإذا ما فُرِجَتْ كُرْبَتُهُمْ عادوا إلى شركهم. قال تعالى :
" فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفَلَكِ دَعَا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ
إِذَا هُمْ يَشْرِكُونَ ^(٥)

(١) ديوان النابغة : ٥٥ .

(٢) ديوان امرئ القيس : ٣٤٧ .

(٣) ديوان عروة بن الورد : ٣٤ .

(٤) قعيدك : أنزرك، أن اسود الأنامل : يريد : شدة السنة أو شدة البرد ،

أزهرًا : أبيض والمراد كريم ، فيما يبدو لي .

(٥) العنكبوت : ٦٥ . وفي قصة مقتل زهير بن جذيمة العبسي وابنه شاس

بعكاظ عند قريش والتقاءه بخالد بن جعفر بن كلاب فلما حَقَّرَ زهير خالد :

قال خالد : اللهم أمكن يولي هذه الشقراء القصيرة من عنق زهير بن جذيمة

وأعني عليه . فقال زهير : اللهم أمكن يولى هذه البيضاء الطويلة من

عنق خالد ثم خَلَّ بيننا . فقال قريش : هلكت والله يا زهير .

الآغانى : ٩٢ / ١١ .

ومن الدعاء فى شعرهم قول عنترة العيسى يدعو على جماعة من خصمه بالجـدب
وقله الماء حتى يقطوا ، فيسأل الله الا يسقوا المطر فيقول : (١)

قَدْ أَوَعَدْتَنِي بِأَرْمَاحٍ مُّعَلَّيَةٍ .. سُوِّبَ لِقَظَنٍ مِنَ الْحَوْمَانِ أَخْلَاقِ
لَمْ يَسْلُبُوهَا وَلَمْ يُعْطَوْا بِهَا ثَمَنًا .. أَيْدَى النَّعَامِ فَلَا أَسْقَاهُمُ السَّاقِي (٢)

وهذا عمرو بن كلثوم بهجو النعمان بن المنذر ملك الحيرة ، ويعيره بخالسه
الذى كان يعمل حدادا بهشرب : (٣)

لَحَى اللَّهُ أَدْنَانَا إِلَى اللَّوْءِ زُلْفَةً .. وَالْأَمْنَا خَالًا وَأَعْجَزَنَا أَبَا
وَأَجْدَرْنَا أَنْ يَنْفَخَ الْكَيْفُ خَالَهُ .. يَصُوغُ الْقُرُوطَ وَالشُّنُوفَ بِيْشْرَا (٤)

وما يروى عن سبب هروب النابغة الذبياني من النعمان - ملك الحيرة ، أن
عبد القيس بن خفاف التميمي ومرة بن سعد بن قريع السعدي عملا هجاء ففى
النعمان على لسانه - (أى لسان النابغة) - وَأُنْشِدَ النَّعْمَانُ ... ومنه :

فَبَحَّ اللَّهُ ثُمَّ شَتَّى بَلَعْنِي .. وَارَثَ الصَّائِغِ الْجِنَانِ الْجَهْلُ وَلَا
مَنْ يَضُرُّ الْأَنْتَنَى وَيَعْجِزُ عَنْ ضُرِّ .. رَّ الْأَقَاصِي وَمَنْ يَخُونُ الْخَلِيلَا (٥)

(١) ديوان عنترة بن شداد العيسى : تحقيق ود راسة : محمد سعيد مولى :
٢٨٦ . ط ٢ (١٤٠٣) ، المكتب الاسلامى .

(٢) أَوَعَدْتَنِي : هَدَّثْتَنِي . معلبة : المشدودة بالعليا ، وهى عصابة فى العنق .
يعنى أنها رماح خلقت وتكسرت فشدت بالعليا ، سود : وصفها بالسواد
لقد مها . الحومان : موضع . لم يسلبوها : لم تكن عندهم من سلب
سلبوه فهم ليسوا أهل حرب ، أى جبناء . أَيْدَى النعام : يريد لا يقبضون
أيدىهم عن أخذ شئ مروا به خيانة وسرقة كالنعام الذى مايربشئ الا
التقمة .

(٣) الاغانى : ٥٩ / ١١ .

(٤) القروط : جمع قرط . مايتزين به فى أسفل الأذن ، الشدوف : جمع
الشنف : وهو مايتزين به فى أعلى الأذن وقيل هما بمعنى واحد .

(٥) الاغانى : ١٣ / ١١ .

ويدعو دريد بن الصمة بوقاية الله للخنساء من الزواج بمثله تهكما بها فيما

يروى من ردها خطبة دريد لها : (١)

وَقَاكَ اللَّهُ يَا بَنَةَ آلِ عَمْرٍو . . مِنَ الْفَتَيَانِ أَشْبَاهِي وَنَفْسِي

ونرى عروة الصعاليك يدعو الله بأن يلحقه ذلك الصعلوك الكسول ، يرضى من العيش

ببقايا الموائد التي لم يبق منها الا المشاش ، وينكر عليه هذا الاسفاف مع امكانه

الحصول على ما هو افضل من ذلك : (٢)

لَحَى اللَّهُ صُعْلُوكًا إِذَا جَنَّ تَلِيلُهُ . . مَعْنَى فِي الْمِشَاشِ الْفَاقِلَ كُلَّ مَجْزَرٍ

وفي حادثة الغيل المشهورة عند ما رأى عبد المطلب أنه لا قبل له بمجابهة جيش

ابرهة ، فقام عبد المطلب الى الكعبة ، وأخذ بحلق بابها ، وقام معه نفر من قريش

يدعون الله ، ويستنصرونه على ابرهة وجنده ، فقال عبد المطلب وهو آخذ بحلق

باب الكعبة : (٣)

لَا هُمْ إِنْ الْعَبَدَ يَمُـــــــ . . نَعَّ رَحْلُهُ فَأَمْسَعَ حِلَالَكَ (٤)

لَا يَفْلِحَنَّ صُلْبُهُمْ . . فَمِحَا لَهُمْ عَذْوًا وَحَالِكَ (٥)

إِنْ كُنْتَ تَارِكُهُمْ وَقَبْلُـــــــ . . سَلْتَنَا فَأَعْرَ مَا بَدَّكَ

ويروى أيضا شعر آخر قاله عكرمة بن عامر بن هاشم يدعو فيه على الأسود بن

مقصود الذي أرسله أبرهة قبل جيشة ، فذهب الى مكة ، وساق أموال قريش وفيها

ابيل عبد المطلب الى الاحباش . (٦)

واذا كان جاهليو العرب يدعون الله في جلب الخير ودفع السوء فلا ريب

أن ذلك يدل على خوفهم من الله ، وتوقعهم اصابة نقته على من عصاه ،

(١) ديوان دريد بن الصمة : جمع وتحقيق محمد خير البقاعي ط ١٤٠١ هـ دار قتيبة
دمشق .

(٢) ديوان عروة بن الورد : ٣٧ .

(٣) السيرة النبوية لابن هشام : ٥١ / ١ .

(٤) الحلال : جمع حله ، يريد جماعة البيوت والقوم المحليين .

(٥) محالهم : قوتهم وشدتهم .

(٦) انظر السيرة النبوية لابن هشام : ٥١ / ١ .

وجزاء من بنى وظلم بغير حق ، فكانوا يخشون الله ويتقونه فيما يخشون عقاب الله عليه .

هذا المتلمس الضبعى يقول :

(١)
وَأَعْلَمُ عِلْمَ حَقٍّ غَيْرَ ظَنٍّ .. وَتَقْوَى اللَّهِ مِنْ خَيْرِ الْعِتَارِ

ويتحلم ذوالاصبع العدواني ويصبر على ما يجد من ابن عمه ، وقد كان ابن عمه هذا مغاضبا له ، يؤذيه ويتلمس له النقائص وربما وشى بها لأعداء ذى الاصبع ، ولولا تقوى الله والرحم الذى بينهم لبرأه برياً لا نجبار له (٢) :

وَلَا يَرَى فِى غَيْرِ الصِّبْرِ مَنَقَصَةً .. وَمَا سِوَاهُ فَإِنَّ اللَّهَ يَكْفِيْنِي
لَوْلَا أَبَاصِرُ قُرْبَى لَسْتَ تَحْفَظُهَا .. وَرَهْبَةُ اللَّهِ فِيمَنْ لَا يُعَادِيْنِي
إِذَا هَرَيْتُكَ بَرِيًّا لَا انْجِبَارَ لَكَ .. إِنِّى رَأَيْتُكَ لَا تَنْفُكُ تَبْرِيْرِيْنِي
إِنَّ الَّذِى يَقْبِضُ الدُّنْيَا وَيَسْطُهَا .. إِنْ كَانَ أَغْنَاكَ عَنِّى سَوْفَ يُغْنِيْنِي
وَاللَّهُ يَعْلَمُنِي وَاللَّهُ يَعْلَمُكُمْ .. وَاللَّهُ يَجْزِيْكُمْ عَنِّى وَيَجْزِيْنِي
مَاذَا عَلَىَّ وَإِنْ كُنْتُمْ ذَوِي رَحْمِي .. إِنْ لَا أَحْبَبْتُكُمْ إِنْ لَمْ تُحِبُّوْنِيْ

أما زهير - شاعر الحق - فمع ما عرف به من حب للخير ومن ينهض بالاصلاح فى الفتن التى عاصرها فىرى أن التقوى تعين على الحق والتقرب الى الله (٣) .

بَدَأَ لِيَّ إِنَّ اللَّهَ حَقٌّ فَكَرَرْتُ .. إِلَى الْحَقِّ تَقْوَى اللَّهِ مَا كَانَ بَادِيَا
وهذا البيت من قصيدة مختلف فى نسبتها الى زهير ، ومابها من معان اسلامية لا تختلف عما يعلمه عامة الجاهليين من الايمان بالله ، ومعرفة أحوال الامم الفابرة التى ذكر طرفا منها . والبيت السابق يقوى نسبته الى زهير مايروى أن زهيراً كان

(١) ديوان المتلمس الضبعى : تحقيق : حسن كامل الصيرفى : ١٧٢ ط معهد المخطوطات ١٣٩٠ هـ

(٢) الفضليات : ١٦٢ .

(٣) ديوان زهير " العلم " : ١٦٨ .

(٤) جاء فى رواية الأعلام " ١٦٧ " قال الأصمعى ليست لزهير ، ويقال هى لصرمة

الانصارى . وقال محقق الديوان : وفى شرح ثعلب أن هذه القصيدة رواها حماد لزهير .

يقول : " ما خرجت في ليلة ظلماء إلا خشيت أن يصيبني الله بعقوبة لهجائي قوما ظلمتهم " (١) أي عند ما هجا بني حصن من غطفان .

واذا نظرنا الى إيمان المتحفيين بالله وما روى لهم تبين لنا عمق الإيمان بالله واعتقاد وجوده ، ونعمته بصفات العظمة والخلد ، وتنزيهه عن أن يعبد معه آلهة أخرى ، إذ هو أهل العبادة والتقرب من غير شريك ، والأعمال خالصة له .

إن الله عند هؤلاء الحنفاء ليس كمثله شيء مهما كان ، يقول أمية : (٢)

يَدِينُكَ رَبًّا لَيْسَ رَبُّكَ كَيْثْلِهِ .. وَتَرَكْ أَوْتَانَ الطَّوَاعِي كَمَا هِيَ
وما خلا الله باطل مهما كان عظيما عند لبيد في بيته المشهور : (٣)

الْأَكُلُ شَيْءٌ مَا خَلَا اللَّهَ بَاطِلٌ .. وَكُلُّ نَعِيمٍ لَا مَحَالَةَ زَائِلٌ
والله هو الباقي وهالك ما سواه وله كل شيء كما قال أمية : (٤)

أَلَا كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ غَيْرُ رَبِّنَا .. وَلِلَّهِ مِيرَاثُ الَّذِي كَانَ فَانِيَا
وَلَيْ سُلَّةٌ مِنْ دُونِ كُلِّ وَلَا يَسْقِي .. إِذَا شَاءَ لَمْ يَمْسُوا جَمِيعًا مَوَالِيَا
وَأَنْ يَكُ شَيْءٌ خَالِدًا وَمُعَمَّرًا .. تَأْتِلُ تَجِدُ مِنْ قَوْفِهِ اللَّهَ بَاقِيَا
له ما رأيت عين البصير وقوفه .. سماءُ الألف فوق سبع سماءيَا

والله أسلمت له الأرض بما فيها من صخور عظيمة ، وهو الذي مد الأرض ، ثم أرسى عليها الجبال ، كما أن الله هو الذي ينطيه السحاب ويسير بأمره سلمة له أنسى يأمرها أن تصب ماءها أطاعت له كما يقول زيد بن عمرو بن نفيل : (٥)

وَأَسْلَمْتُ وَجْهِي لِمَنْ أَسْلَمْتُ .. لَهُ الْأَرْضُ تَحْمِلُ صَخْرًا ثِقَالَا
كَحَاكِمَا فَلَمَّا رَأَاهَا اسْتَوَتْ .. عَلَى الْمَاءِ أَرَسَى عَلَيْهَا الْجِبَالَا
وَأَسْلَمْتُ وَجْهِي لِمَنْ أَسْلَمْتُ .. لَهُ الْمُنَى تَحْمِلُ عَذْبًا زَلَالَا

(١) ديوان زهير " الأعلم " : ١٤٦ .

(٢) ديوان أمية : ٥٤٢ .

(٣) ديوان لبيد بن ربيعة : ٢٥٦ ،

(٤) ديوان أمية بن أبي الصلت : ٥٢٨ .

(٥) السيرة النبوية لابن هشام : ٢٣١/١ .

إذا هي سَيِّقَتْ إِلَى بَلَدَةٍ .. أَطَاعَتْ فَصَبَّتْ عَلَيْهِ سَجَّالًا
ويرى أمية بن أبي الصلت أن الله هو الذي ينعم عليهم بالخير في الصباح والمساء
وذلك لا ينقص من خزانة المليحة : (١)

الْحَمْدُ لِلَّهِ مُعَسِّنَا وَمُصَبِّحَنَا .. بِالْخَيْرِ صَبَّحَنَا رَبِّي وَسَانَا
رَبِّ الْحَنِيفَةِ لَمْ تَنْفَدْ خَزَائِنُهَا .. مَمْلُوءَةً طَبَقَ الْآفَاقِ سُلْطَانَا

أما عبيد بن الأبرص فيرى أن الله هو الذي يعطي سائله ، ومن سأل الناس
يحرّموه ، وأن الله هو الذي به يدرك كل شيء فيقول :

مَنْ يَسْأَلُ النَّاسَ يَحْرِمُوهُ .. وَسَأَلْتُ اللَّهَ لَا يَخِيْسُ
بِاللَّهِ يُدْرِكُ كُلَّ شَيْءٍ .. وَالْقَوْلُ فِي بَعْضِهِ تَلْفِيْظٌ (٢)

(٣) الايان بالملائكة :

الملائكة خلق من خلق الله يقومون بمهامهم في عالم مغيب عن بني البشر
بوجه عام ، ولا ينقص ذلك نزولهم في بعض حالات على الانبياء لحكمة أرادها الله ،
ولمّا كانت الملائكة كذلك ذهبت عقول الناس في حيرة من تصور أشكالها .

والذي تدل عليه آيات القرآن الكريم أن العرب كانوا يعرفون الملائكة ، وان
اختلفت درجة هذه المعرفة فيما بينهم ، ولا نظن أن هذه الايات الكثيرة التي
تذكر الملائكة تخاطب قوما لا علم لهم بها ، ولا عبرة برأى من يذهب الى أن الجاهليين
لم يكونوا يعرفون شيئا عن الملائكة ، لأن الاعتقاد بالملائكة من عقيدة الديانة
اليهودية ثم النصرانية . (٣)

(١) ديوان أمية بن أبي الصلت : ٥١٦ .

(٢) ديوان عبيد بن الأبرص : ١٥ .

(٣) المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام : ٢٣٨ / ٦ .

ولا شك أن هناك من كان يعبد الملائكة كما دل عليه قوله تعالى : " ويوم يحشرهم جميعا ثم يقول للملائكة أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون " (١) .

وغير بعيد أن تكون هذه العبادة على شاكله عبادة الأصنام ، وأن عابديها أرادوا أن تقربهم الى الله زلفى ، خاصة وأنهم كانوا يعتقدون قرابة ونسبا بين الله والملائكة ، وأنهم بنات الله - تعالى عن ذلك - ومن اعتقد ذلك فلا ريب أن يطمع في شفاعته هؤلاء المقربين له .

ويدل على زعم المشركين أن الملائكة اناث ، وأنهم بنات الله كثير من الآيات (٢) ، ولولا اعتقاد المشركين الايمان بالملائكة لما ألحوا في مطالبة الرسول - صلى الله عليه وسلم - أن ينزل عليهم الملائكة ويأتيهم بهم حتى يصدقوه ويتبعوه . (٣)

والذى يستشف من هذه المطالبة أن هؤلاء المشركين يعتقدون للملائكة مكانة حسنة ومنزلة عالية عند الله ، فيزعمون أنهم لو أتوهم من عند الله لصدقوهم بذلك ، وان كان فى طلبهم هذا تعنت ومكابرة لا تخفى .

ويبدو أن بعض العرب * اعتقد فى أشخاص الملائكة والأرواح التدبير لأهل الارض فيما دون الامور العظام من اصلاح حال العابد فى نفسه وولده وماله * (٤) .

وقد تراعت الينا آيات محدودة من الشعر الجاهلى فيها ذكر للملائكة ولا أدري كيف خفى ذلك على كاتب الشعراء الحنفاء * فلم يذكر شيئا من ذلك ،

(١) سبأ : ٤٠ .

(٢) قال تعالى " فاستفتهم الربك البنات ولهم البنون . أم خلقنا الملائكة اناثا وهم شاهدون " . الصفات : ١٤٩ ، ١٥٠ .

وانظر الزخرف : ١٩٠ ، الطور : ٣٩ ، النجم : ٢٢ ، النحل : ٥٢ .

(٣) قال تعالى : " وقالوا يا أيها الذى نزل عليه الذكر انك لمجنون . لو ماتنا تينا

بالملائكة ان كنت من الصادقين " . الحجر : ٦ ، ٧ .

وانظر الاسراء : ٩٢ ، المؤمنون : ٢٤ ، الفرقان : ٢١ .

(٤) أدريان العرب فى الجاهلية : ١٢٦ .

* هو د . أحمد جمال العمرى فى كتابه الذى صدر عن دار المعارف بالقاهرة .

وفى صنيعه هذا ما قد يوهم أنه يرى أن العرب لا تعرف شيئا عن الملائكة — مجازاة لمن رأى ذلك ، على أن الحنفاء خاصة كان فى شعرهم شيء من ذلك كما سنراه .

فعلقة الفحل يرى أن الملائكة فى السماء ، فهم أهل مكانة رفيعة فيشبهه مدوحه بملك منهم تنزل من جو السماء فيقول : (١)

فَلَسْتُ لَا نَيْسِي وَلَكِنْ لِمَلَأُكَ (٢) . . تَنْزَلَ مِنْ جَوِّ السَّمَاءِ يَصُوبُ

ويأتى "الأعشى" ليذكر لنا الملكين الكاتبين ، قال ابن قتيبة : "وهو —

(أى الأعشى) من أقرّ بالملكين الكاتبين فى شعره . قال يمدح النعمان :

فَلَا تَحْسَبْنِي كَافِرًا لَّكَ نِعْمَةٌ . . عَلَى شَاهِدِي يَا شَاهِدَ اللَّهِ فَاشْهَدِ (٣)

قوله "على شاهدى" يريد على لسانى . "يا شاهد الله" يريد الملك الموكل

به وكان هذا من إيمان العرب بالملكين بقية من دين اسماعيل صلى الله عليه وسلم . (٤)

وجاء فى اللسان (٥) :

وكان أهل الجاهلية يسمون الملائكة عليهم السلام جنا لاستقارهم عن العيون

قال الأعشى يذكر سليمان عليه السلام .

وسخر من جن الملائكة تسعة . . قياما لديه يعملون بلا أجر

(١) جاء فى لسان العرب (ملك) . ٤٩٦/١٠ : "أن البيت ورد فى شعر رجل من

عبد القيس جاهلى يمدح بعض الملوك ، قيل هو النعمان ، وقال ابن السيرافى

هى لأبى وجزة يمدح عبد الله بن الزبير" والراجح لى أنها لعلقة الفحل

ان وردت فى ديوانه من قصيدة له ص ١١٨ ، وقد ذكرت له أيضا فى

المفضليات : ٣٩٤ يمدح الحارث بن أبى شمر الفسائى .

(٢) وفى رواية : ولكن كالألحدا ، وانظر ديوان علقمة : ١١٨ .

(٣) ديوان الأعشى الكبير : ٢٤٣ . والبيت فيه :

فلا تحسبنى كافرا لك نعمة . . على شهيد شاهد الله فاشهد

(٤) الشعر والشعراء : ٢٦٦/١ :

(٥) لسان العرب : "جن" ٩٧/١٣ .

أما أمية بن أبى الصلت فيذكر الملائكة ، وأن السماء مقاعد لهم ، وهم عباد الله ، أشداء لكنهم ذلك مطيعون لله : (١)

يَا ذُنَّ اللَّهِ فَاشْتَدَّتْ قُوَاهُمْ . . عَلَى مَلَائِكِينَ وَهِيَ لَهُمْ وَشَابِلِي (٢)
وفيهَا مِنْ عِبَادِ اللَّهِ قَوْمٌ . . مَلَائِكُ ذُلُّوا وَهُمْ صِعَابُ (٢)

ونرى " ورقة بن نوفل " يذكر لنا أسماء بعض الملائكة ، ومنهم جبريل وميكائيل ، وذلك عندما أخبرته أم المؤمنين خديجة - رضى الله عنها - بما حدث له - صلى الله عليه وسلم في غار حراء ، ثم أخبرها أنه يأتيه الناموس الذى أنزل على موسى . قال : (٣)
ان يكُ حَقًّا يا خديجة فاعلمى . . حدِيثُكُ أَيَّانًا : فَأَحْمَدُ مُرْسَلُ
وجبريلُ يأتيهِ وميكالُ مَعَهَا . . من اللَّهِ وَحْيٌ يَشْرَحُ الصَّدْرَ مُنْزَلُ (٣)
واخيرا نرى " أمية بن أبى الصلت " يشبه السماء والملائكة حولها ببحر سلطت عليه الريح فتركه أملس لا تموج فيه :

فَكَانَ بِرُقْعٍ وَالْمَلَائِكُ حَوْلَهَا . . سِدْرٌ تَوَاكَلَهُ الْقَوَائِمُ أَجْرَدُ (٤)

(١) ديوان أمية : ٣٤٠ .

(٢) الوثاب : بلغة حمير الفرائس ، ويريد به هنا المقاعد .

(٣) خزانة الأدب : ٣٩٦/٣ .

(٤) ديوان أمية : ٣٥٨ ، جاء في لسان العرب (برقع) ٩/٨ عن معنى البيت :

" قال بن برى : شبه السماء بالبحر لملاستها لا لجريها ، ألا ترى قوله :
تواكله القوائم . أى تواكلته الرياح فلم يتموج ، فلذلك وصفه بالأجـرد
وهى الملاسة " .

برقع : من أسماء السماء ، قيل السابعة ، وقيل الرابعة .

السدر : اسم للبحر لم يسمع الا فى شعر أمية .

تواكلته : تركته . القوائم : الرياح .

أجـرد : أملس لا عوج فيه .

(٤) الاستبشار بظهور النبی :

علمنا أن عرب الجاهلية كانوا في فترة طال انقطاع الرسل فيها اليهم ، ولم ينذر آباءهم أحد ، وظل العرب في جاهليتهم لا يعلمون ما يكن لهم القدر ، ولا ينتظرون أن يبعث منهم رسول لو قدر أن يبعث ، ولكن أهل الكتاب كانوا يعلمون أنه سيبعث نبي وبلغ من علم كثير من علمائهم ، أنه قد اطل وقرب زمان خروجه ، وأين مخرجه ومهاجره ، بل قد بين القرآن أنهم " يعرفونه كما يعرفون أبناءهم " (١) .

وقد كان اليهود يخوفون العرب بخروجه ، ويزعمون أنه منهم ، وسيقتلون به العرب ، " ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ماعرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين ، بثسموا اشتروا به أنفسهم أن يكفروا بما أنزل الله بغيا أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده .. " (٢) .

ويبدو وأنه لم يكن يعلم ظهور نبي من الجاهليين الا الطبقة المثقفة كالحنفاء ، وقد ورد أنه لا يعرف في العرب من تسمى بمحمد قبله صلى الله عليه وسلم - الا ثلاثة طمع آباؤهم - حين سمعوا بذكر محمد - صلى الله عليه وسلم - وتقرب زمانه وأنه يبعث في الحجاز - أن يكون ولدا لهم .

وهم : محمد بن سفيان بن مجاشع جد الفرزدق الشاعر ، والآخر محمد بن أبيحجة ابن الجلاح والآخر حرمان بن ربيعة ، وكان آباء هؤلاء الثلاثة قد وفدوا على بعض الملوك ، وكان عنده علم من الكتاب الا ول فأخبرهم ببعث النبي - صلى الله عليه وسلم - وباسمه ، وكان كل واحد منهم قد خلف امرأته حاملا ، فنذر كل واحد منهم : أن ولد له ذكر أن يسميه محمدا ، ففعلوا ذلك (٣) .

(١) الانعام : ٢٠ .

(٢) البقرة : ٨٩ ، ٩٠ .

(٣) الروض الأنف : ١ / ١٥١ ، ١٥٢ .

وفى الشعر الجاهلى - الذى اطلعنا عليه - لم نجد أحدا يسأل عن هذا الرسول ويستبشر بظهوره غير من ذكرنا من أهل الكتاب أو الحنفا ، وهذا أمر بين لا يعوزه ايضاح أو مناقشة .

ونرى " أمية بن أبى الصلت " ، وقد طمع فى هذه النبوة يروى له شعر يتمنى فيه أن يأتهم نبي فيخبرهم بما يحدث لهم بعد انقضاء هذه الحياة وفناء الناس ، وقد علم أن الموت محقق على كل صغير وكبير وسيلحق الآخرين بالأولين : (١)

أَلَا رَسُولٌ لَنَا مَّا فُخِّرْنَا .. مَا بُعِدَ غَايَتَنَا مِنْ رَأْسِ مُجْرَانَا (٢)
بَيْنَا يَرْبِنَا أَبَاؤُنَا هَلَكُوا .. وَبَيْنَا نَقْتَنِي الْأَوْلَادَ أَكْفَانَا (٣)
وَقَدْ عَلِمْنَا لَوِائَ الْعِلْمِ يَنْفَعُنَا .. أَنْ سَوْفَ تَلْحِقُ أَخْرَانَا بِأَوْلَانَا
وَقَدْ عَجِبْتُ وَمَا بِالْمَوْتِ مِنْ عَجَبٍ .. مَا بَالُ أَحْيَانُنَا يَكُونُ مَوْتَانَا

وقد أكثر " ورقة بن نوفل " من الاستبشار بظهور النبي - صلى الله عليه وسلم - وقد كان على علم بما فى أسفار أهل الكتابين ذلك ، وعند ما قصت عليه السيدة خديجة - رضى الله عنها - ما ذكره لها غلامها " ميسرة " من قول الرّاهب الذى مروا به فى رحلتهم الى الشام ، وما كان يظله - عليه الصلاة والسلام - ، فجعل " ورقة " يستبطن الامر ، وقال فى ذلك : (٤)

لَجَجْتُ وَكُنْتُ فِي الذِّكْرِ لَجُوجًا .. لَهُمْ طَالَمَا بَعَثَ النَّشِيجَا (٥)
وَوَصَفِي مِنْ خَدِيجَةٍ بَعْدَ وَصْفِي .. فَقَدْ طَالَ انْتِظَارِي يَأْخُذِيحَا

(١) ديوان أمية بن أبى الصلت : ٥١٧ .

(٢) مجرانا : المجرى : مكان الجرى .

(٣) يربينا : أى يربينا .

(٤) السيرة النبوية لابن هشام : ١ / ١٩١ ، ١٩٢ ، تاريخ الاسلام للذهبي : ٦٨ / ٢ ،

خزانة الادب : ٣ / ٣٩٢ ، ٣٩٣ .

(٥) لججت لجوجا : اذا تباديت فى الامر ولم أرجع عنه .

النشيج : البكاء مع الصوت .

- بطن المكثين على رجائي . . حديثك أن أرى مني خروجاً^(١)
 بما خبرتنا من قول قمر . . من الرهبان أكره أن يخرجاً^(٢)
 بأن محمداً سيؤود فينا . . ويخصم من يكون له حبيها
 ويظهر في البلاد ضياء نور . . يقيم به البرية أن تتوجاً^(٣)
 فيلقى من يحارب حصاراً . . ويلقى من يسأله فلوها^(٤)
 فياليتي إذا ما كان ذاككم . . شهدت فكنتم أولهم ولوجاً
 ولوجاً في الذي كرهت قريش . . ولو عجت بكتبها عجيها^(٥)
 أرجى بالذي كرهوا جميعاً . . إلى ذي العرشان سفلوا عروجا
 وهل أمر السفالة غير كفر . . بمن يختار من سمك البروجا
 فان يبقوا وأبق تكن أمور . . يضيح الكافرون لها ضجيجا
 وإن أهلك فكل فتى سيلقى . . من الأقدار متلفة هروجا^(٦)

ونرى له قصيدة أخرى كهذه توردها له المصادر ، تخبره خديجة الصادقة
 بما وقع " محمد " في رحلته إلى بصرى مع غيرها ، وما قاله الرهبان عنه ، وأنس
 الرسول المنتظر ، سيرسله الله كما أرسل رسله هودا وصالحا وموسى وإبراهيم ،
 وسيعلو أمره ويتبعه حيا لوى بن غالب ، ثم هو مستبشر وفرح أن هو عاش حتى
 يدركه ، وإن لم يظهر فانه سيهجر مكة إلى غيرها من أرض الله العريضة ، يقول :^(٧)
 أثبتك أم أنت العشية رائيح . . وفي الصدر من اضاراك الحزن قادح

(١) المكثين : ثنى مكة وهي واحدة لان لها بطاحا وظواهر .

الامثلة كثيرة في كلام العرب بنحو ذلك .

(٢) يعوج : أى انعطف وما ل ان كان مستقيما من الماضى (عاج) أى يخاف أن
 يتغير هذا الأمر بعد هذه الدلائل .

(٣) تموج : تضطرب .

(٤) فلوها : مفرد فلج : وهو الظفر والفوز .

(٥) عجت : ارتفعت أصواتها .

(٦) المتلفة : أى المهلكة ، حروج : كثيرة التصرف .

(٧) البداية والنهاية : ٢/ ٢٩٧ ، خزنة الأدب : ٣/ ٣٩٥ ، ٣٩٦ .

لِقُرْقَةٍ قَوْمٍ لَا أَحَبُّ فِرَاقِهِمْ .. كَأَنكَ عَنْهُمْ بَعْدَ يَوْمٍ نَزَارِحُ
وَأَخْبَارِ صَدِيقٍ خُبِّرْتُ عَنْ مُحَمَّدٍ .. يُخَبِّرُهَا عَنْهُ إِذَا غَابَ نَاصِيحُ
فَتَاكِ الَّذِي وَجَّهَتْ يَأْخِيزُ حَرَّةً .. بَقُورٍ وَبِالنَّجْدِ بَيْنَ حَيْثُ الصَّاحِبِ (١)
إِلَى سُوقٍ بَصْرِيٍّ فِي الرِّكَابِ الَّتِي غَدَتْ .. وَهَنَّ مِنَ الْأَحْمَالِ قُعُصَ دِ الْوَيْحِ (٢)
يُخَبِّرُنَا عَنْ كُلِّ حَبِيرٍ يَعْلَمُ بِهِ .. وَلِلْحَقِّ أَبْوَابٌ لِهِنَّ مَفَاتِيحُ
بِأَنَّ ابْنَ عَبْدِ اللَّهِ أَحْمَدَ مُرْسِلُ .. إِلَى كُلِّ مَنْ صُتَّ عَلَيْهِ الْإِبَاطِيحُ
وَطَلَّتْ يَوْمًا سَوْفَ يُبْعَثُ صَادِقًا .. كَمَا أُرْسِلَ الْعُبْدَانُ هَوْدٌ وَصَالِحُ
وَمُوسَى وَابْرَاهِيمَ حَتَّى يَرَى لَهُ .. بَهَاءً وَمَنْشُورٌ مِنَ الذِّكْرِ وَاضِحُ
وَيَتَّبِعُهُ حَيًّا لَوْ أَنَّ بَنِي غَالِبٍ .. شَبَابُهُم وَالْأَشْيُونِ الْجَحَاجِيحُ (٣)
فَإِنْ أَبَقَ حَتَّى يُدْرِكَ النَّاسُ أَمْرَهُ .. فَإِنِّي يَوْمَ سَتَبَشِّرُ النَّوَّةَ فَارِحُ
وَالَا فَاِنِّي يَأْخُذُ يَجْهَ فَاغْلِمِي .. عَنِ أَرْضِكَ فِي الْأَرْضِ الْعَرِضَةِ سَائِحُ

وحسبنا ما أوردنا له وإن كان له قصائد أخرى غير ما ذكرنا تدور في فلك هاتين
القصيدتين (٤) .

ونرى أخيراً أحد اليهود المعاصرين لدعوة الاسلام الأولى ويدعى "أوس بن
ذبي" يعترف بصحة دين "محمد" - صلى الله عليه وسلم - وإن لم يدخله ، وقد
كانت له امرأة من بنى قريظة أسلمت وفارقت ، ثم نازعتها نفسها إليه فأنته وجعلت
ترغبه في الاسلام فقال لها (٥) :

كَعَنِي إِلَى الْإِسْلَامِ يَوْمَ لَقِيْتُهَا .. فَقُلْتُ لَهَا لَا بَلَّ تَعَالَى تَهْـؤَدِي

(١) الصحاح : جمع صحصح : وهو الأرض المستوية الجرداء ذات حصى صفار .
"اللسان" .

(٢) دوالح : جمع دالحة : وهو من يمشى بحمله وقواً ثقله .

(٣) الججاجح : جمع جججح : وهو السيد السمع الكريم .

(٤) انظر خزانة الادب : ٣٩٦/٣ : ٣٩٧ .

(٥) انظر اسمه ونسبه في الاغانى : ١٠٧/٢٢ وما بعدها .

(٦) السابق : ١١٥/٢٢ .

فَنَحْنُ عَلَى تَوَارَةِ مُوسَى وَدِينِهِ . . وَنَعِمَ لَعَمْرَى الَّذِيْنَ دِينُ مُحَمَّدٍ
كَلَّانَا يَرَى أَنَّ الرِّسَالَةَ دِينُهُ . . وَمَنْ يَهْدِ أَبْوَابَ الْمُرَاشِدِ يَرْشِدْ

(٥) الْإِيمَانُ بِالْبَعْثِ :

يدخل الإيمان بالبعث وما يتبعه من حساب وجزاء في عالم الآخرة ، والبعث هو إعادة الأجسام حية بأرواحها بعد الموت لما يجرى بعد هذا الأحياء من أمور .
والذى يفهم صراحة من القرآن الكريم أن أكثر الجاهليين كانوا لا يعتقدون
ببعث ولا نشور ، وأن ليس ثمة دار أخرى بعد هذه الدار ، واستفربوا هذا من
الرسول - صلى الله عليه وسلم - ، وسخروا منه وأقسموا بالله لا يبعث الله من يموت .^(١)
والذى دفعهم الى هذه الدهشة وهو أن يكون ثمة بعث ما رأوه من فناء
هذه الأجساد فى الارض ان لا يبقى منها شئ ، فكيف تعود لما كانت مرة أخرى ؟
كما عبر عن ذلك قائلهم :^(٢)

أَلَا مَنْ مَبْلَغُ الرَّحْمَنِ عَنِّي . . بَأَنِّي تَارَكْتُ شَهْرَ الصِّيَامِ
إِذَا مَا التَّرَاسُ زَايِلٌ مُتَكَبِّرِيهِ . . فَقَدْ شَبِعَ الْأَنِيْسُ مِنَ الطَّعَامِ
أَيُّوَيْدُ نَابِئٍ كَبْشَةٍ أَنْ سَنَحْيَا . . وَكَيْفَ حَيَاةُ أَصْدَائِ وَهَامِ
أَتَتَّوَكُّ أَنْ تَرَرَّ الْمَوْتَ عَنِّي . . وَحَيِّينِي إِذَا بَلَيْتْ عِظَامِي

غير أن هناك أمورا وجدت عند بعض الجاهليين توحى الى إيمان بعضهم
بالبعث، وفضلا عما نراه من اشارات مبشرة فى بعض أشعارهم الى الآخرة ، وكل
هذا يدفعنا الى القول بايمان بعضهم بالبعث ، ولا شك أن من آمن منهم
بالبعث على ما دلت عليه الأخبار والأشعار كانوا قلة ، وخاصة اذا قسناهم
بثلة المنكرين .

(١) انظر أكثر الآيات التى تحدثت عن البعث فى المعجم المفهرس لالفاظ القرآن
الكريم : ١٢٤ ، ١٢٥ .

(٢) سيرة بن هشام : ٢٩/٢ ، رسالة الغفران : ٤٢٢ . وهى لشداد بن الأسود .

ولا شك أن عدم تصورهم لحياة أخرى بعد مماتهم قد جعل الحياة قصيرة
فى تفكيرهم ، ولأنها فرصة سرعان ماتذهب ولن تعود ، فجعلوا يتسابقون الى اللهو
والملذات ، ويسرفون فيها ، ولأننا بفنائهم يحرمون مما كانوا به ينعمون .
ولذا فليس غريبا أن يقول طرفة (١) :

كَرِيمٌ يَرَوَى نَفْسَهُ فِى حَيَاتِهِ . . . سَتَعْلَمُ إِنَّ قِتْنَا غَدًا أَتَيْنَا الصَّدَى

وقيس بن الخطيم يريد أن لا يأتيه الموت وفى نفسه حاجة يطمح اليها
الا وقد نالها وحاز عليها (٢)

مَتَى يَأْتِ هَذَا الْمَوْتُ لَا تُلْفِ حَاجَةً . . . لِنَفْسِي الْآ قَدْ قَضَيْتُ قَضَاءَهَا
ثَارَتْ عَدِيًّا وَالْخَطِيمَ فَلَمْ أَضْغَعْ . . . وَلَا يَةَ أَشْيَاخٍ جَعَلْتُ فِدَاءَهَا
ولما كان أكثر العرب لا يعرفون البعث فلا يتصور أن عبادتهم الأصنام لا يمكن
ان تكون الا بدافع من ذلك البعث أو توقعه ، فمع اعتقادهم أنها تقربهم من الله
زلفى ، فقد " كانت العرب فى الجاهلية تدعو فى مصالح الدنيا فقط ، فكانوا
يسألون الابل والغنم والظفر بالعدو ، ولا يطلبون الاخرة ، ان كانوا لا يعرفونها
ولا يؤمنون بها " (٣)

ومما وجد عند الجاهليين من أمور تدل على البعث ذبحهم النعم عند قبر
الميت ، وذلك أنه " اذا مات فيهم الرجل الشريف الجواد عقروا عند قبره ، وكانوا
يقولون : ان صاحب القبر كان يعقرها للأضياف يقربهم أيام حياته ، فيكافأ عليه
بمثل صنيعه .

ويقال انما كانوا يعقرونها لتطعمها السباع والطيور عند قبره فيدعى مطعمها
حيا وميتا .

(١) ديوان طرفة : ٣٥ .

(٢) ديوان قيس بن الخطيم : ٤٩ .

(٣) الجامع لأحكام القرآن : ٤٣٢ / ٢ .

ويقال بل كان من مذهبيهم أن هدى الميت يصيب من ذلك الطعام (١) .
والذى يبدو أنهم فعلوا ذلك عند القبر لاعتقاد لهم فيما بعد الموت ، وأن
الموت ليس نهاية ذلك الميت .

ومثل العقيرة البلية : وهي الدابة يموت صاحبها فيحفرون لها حفرة
ويشدد رأسها الى خلفها وتترك هناك لاتعلف ولا تسقى حتى تموت جوعا وعطشا ،
وربما عقلوها وحبسوها على القبر حتى تموت ، وكانوا يزعمون أن الناس يحشرون
ركبانا يوم القيامة على البلايا ان اعلوا ذلك ، وإلا يحشر صاحب القبر ماشيا ان لم
تبل له بلية (٢) . وقد نهى الاسلام عن ذلك (٣) .

وقد ورد شعر جاهلي يؤكّد ذلك ، فقد روى أن "خزيمة بن أشيم الفقعسى"
أوصى ابنه سعدا عند موته فقال :

يَا سَعْدُ إِمَّا أَهْلِكُنِّي فَانْصَلْنِي .. أَوْصِيكَ إِنْ أَخَا الْوَصَاةِ الْأَقْرَبُ
لَا أَعْرِفُ أَبَاكَ يَحْشُرُ بَعْدَكُمْ .. نَقْبًا يَخْرُ عَلَى الْهَيْدَيْنِ وَيَنْكَبُ
وَاحْمِلْ أَبَاكَ عَلَى بَعِيرٍ صَالِحٍ .. وَتَقِ الْخِيَانَةَ إِنَّ ذَلِكَ أَصَوْبُ
فَلَقَلَّ لَنِي مِمَّا جَمَعْتُ مَطِيئَةً .. فِي الْحَشْرِ أَرْكَبُهَا إِذَا قِيلَ أَرْكَبُ (٤)

(١) غريب الحديث : أبي سليمان الخطابي : ٣٦٥/١ . تحقيق : عبد الكريم
الغزالي . ط . جامعة أم القرى .

(٢) انظر لسان العرب (بلى) ٨٥/١٤ ، تاج العروس : ٤٣/١٠ ، ٤٤ .

(٣) في غريب الحديث للخطابي : ٣٦٨/١ . الحديث " لا اسعاد ولا عقور

في الاسلام " ، والاسعاد هو مشاركة النساء للمرأة التي ماتت قريبها بالبقاء .

(٤) النقب : مأخوذ من النقب في الأقدام اذا حفني وتخرق القدم من السـمير .
والشاعر يريد أن لا يكون ماشيا في الحشر فتنقب قدماه .

(٥) غريب الحديث للخطابي : ٣٧٠/١ ، الملل والنحل (على هامش الفصل

لابن حزم) : ٢٣٠/٣ .

ويقول أحدهم موصيا ابنه بذلك : (١)

أَبْنِي زَوْجِي إِذَا فَارَقْتَنِي .. فِي الْقَبْرِ رَاحِلَةٌ بِرَحْلِ قَاشِرٍ (٢)
لِلْبُعْثِ أَرْكَبُهَا إِذَا قِيلَ أُطْعَمُوا .. سَتَوْتَقِينَ مَعًا لِحْشِرِ الْحَاشِرِ
مَنْ لَا يُوَافِيهِ عَلَى عَشْرَاتِهِ .. فَالْخُلُقُ بَيْنَ مَدْفَعٍ أَوْ عَاشِرِ

وهذا " أبو زيد الطائي " يشبه رجلا أشر فيهم الغزو بهذه البلايا التي
أثرت فيها حرارة السموم كما أثر فيها فقد الماء والعلف : (٣)

بَدَلِ الْغَزْوِ أَوْجَهَ الْقَوْمِ سُودًا .. وَلَقَدْ أَبْدُوا وَلَيْسَتْ بِسُودٍ
فِي ثِيَابِ عِمَادِهِنَّ رَمَاحٌ .. عِنْدَ جُوعٍ يَشْمُو سَمُو الْكَبُودِ
كَاتِلَايَا رءُوسُهَا فِي الْوَلَايَا .. مَانَحَاتِ السَّمُومِ سَفْعِ الْخُدُودِ (٤)

أما الأشعار التي ورد فيها ذكر للبعث أو ما يدل عليه فمنها قول " حاتم طي " :
يخاطب زوجه بأنه ميت وأنه مجزى بما اكتسب لأن كل شخص مرتين بعمله :

وَاتِي وَإِنْ طَالَ النَّوَاءُ لَمَيِّتٌ .. وَيَضْطَمِنِي (٥) مَا وَى بَيْتَ سَقَافٍ
وَارْتَى لِمَجْزِيهَا أَنَا كَاسِرٍ بُ .. وَكُلُّ أَمْرٍ رَهْنٌ بِمَا هُوَ مُتْلِفٌ (٦)

(١) هو عمر بن زيد التميمي ، بلوغ الأرب : ٣٠٩ / ٢ .
(٢) رحل قاتر : هو الجيد الوقوع على ظهر البعير ، وقيل اللطيف منها وقيل
الذي لا يستقدم ولا يستأخر وكلها متقاربة .

* أبو زيد هو المنذر بن حرمة من طيء . كان جاهليا قديما ، أدرك الاسلام
ولم يسلم ، ويقال مات نصرانيا وكان من المعمرين .

انظر : الشعر والشعراء : ٣٠١ / ١ ، المعمرين والوصايا : ١٠٨ .

(٣) جمهرة أشعار العرب : ٧٤٠ ، ٧٤١ ، " وقد تركت منها بيتا بعد الاول " .

(٤) الولايا جمع ولية : هي البرزعة التي تكون تحت رحل الدابة ، والمعنى هنا
أن هذه البلايا التي تبقى حتى تموت على القبر ، كانوا يضعون هذه الولايا

على رأسها عندئذ .

(٥) يضطمني : أى يضمنى .

(٦) ديوان حاتم : ٢٢٥ .

ونرى "زهيرا" فى معلقته المشهورة يوصى أولئك التعااهدين على ترك الحرب بعد أن سعى الأخيار وأولو النهى فى الصلح بحفظ العهد ، وعدم كتمان خلافه ، قاله مطلع على ما يكم ، وسيجازى ذلك المخالف ان عاجلا فينتقم الله منه ، أو يدخره له كى يجازيه يوم القيامة :

فَلَا تُكْمِنَنَّ اللَّهُ مَا فِي نَفْسِكَ . . لِيَخْفَى وَمَهْمَا يُكْتَمِ اللَّهُ يَعْلَمِ
يُؤَخَّرُ فَيُوضَعُ فِي كِتَابٍ قَيِّدٍ خَرَّ . . لِيَوْمِ الْحِسَابِ أَوْ يُعَجَّلُ فَيُنْقَسَمُ (١)

وعلى غرار منه تلقى "علاف بن شهاب التميمي" يؤمن بالجزاء وأنه على الاعمال الحسنة :

وَلَقَدْ شَهِدْتُ الْخَصَمَ يَوْمَ رِفَاعٍ . . فَأَخَذْتُ مِنْهُ خِطَّةَ الْمُفْتَالِ
وَعِلِمَتْ أَنَّ اللَّهَ جَارٌ عَسَدُهُ . . يَوْمَ الْحِسَابِ بِأَحْسَنِ الْأَعْمَالِ (٢)

ونرى النابغة الذبياني يدعو للنعمان بن المنذر عند ما مرض بأن يلقى خيرا اذا واروه تحت الأرض ، ورزى الناس بموته فحرموا خيره فكأنه ذهب حظهم وخيرهم :
لَكَ الْخَيْرُ (٣) أَنْ وَارَتْ بِكَ الْأَرْضُ وَاحِدًا . . وَأَصْبَحَ جَدُّ النَّاسِ يَظْلَعُ عَاشِرًا (٤)
ثم نرى السموءل يذكر لنا أنه ميت وأنه سُبُعت بعد موته ، ثم يذكر لنا أنه سيأخذ صحيفة فيها أعماله ، ثم هو خائف أيكون له الفضل بالأعمال الصالحة أم عليه ، ثم هو خائف خوفا شديدا فى ذلك أن يناله جزاء أعماله السيئة .

- (١) ديوانه (صنعة العلم) : ١٨ ، شرح ثعلب : ١٨ .
- (٢) المحبر : ٣٢٢ للأخمس بن شهاب ، بلوغ الأرب : ٢٧٦ / ٢ .
- (٣) لك الخير : قال محقق الديوان : (ذلك الخير ان وارت بك الارض) دعاء للنعمان ، وهو جملة يقولونها عند الاخبار بخبر مكرراً أو مشفقاً أو عند توديع سافر يقصد به التفاؤل ورفع التشاؤم) .
- (٤) ديوانه : ١١٦ ، ومعنى الشطر الأخير من البيت : أن الناس سيصيبهم السوء اذا فارقتهم النعمان لذهابه بما ألف الناس من خيره وفضله . وقد علق المحقق على هذا البيت بقوله : (هذا يقتضى الايمان بالحياة الآخرة جرى فيه النابغة على عقيدة النعمان ان كان النعمان متنعرا .

يقول "السؤال" : (١)

لَيْتَ شِعْرِي وَأَشْفَى رَنِّ إِذَا مَا .. رَقِيبٌ أَقْرَأَ عُتْوَانَهَا وَقَرِيبَتْ
أَلَى الْفَضْلِ أَمْ عَلَى إِذَا حُؤُ .. سُبْتُ إِنِّي عَلَى الْحَسَابِ مُقِيَّتٌ (٢)
مِيتَ دَهْرٍ قَدْ كُنْتُ ثُمَّ حَيِّيتُ .. وَحَيَاتِي رَهْنٌ بَأَنْ سَأَمُوتُ
وَأَتَتْنِي الْأَنْبَاءُ أَنِّي إِذَا سَأَا .. مَتُ أَوْرَمَ أَعْطَى مَمْعُوتُ
هَلْ أَقُولَنْ إِذَا تَدَارَكَ جِلْمِي (٣) .. وَتَدَاكَ عَلَى إِنِّي دُهِيتُ (٤)
أَيُّفْضَلٍ مِنَ الْمَلِكِ وَنَعْمِي .. أَمْ يَذْنِبُ قَدْ مَتَهُ فَجَزِيَّتُ (٥)

ويذكر "قصص ساعدة" ان الاموات سبعون وهو يخاطب من يبكي الموتى ،
وسيفزعون من ذلك البعث ، وسيعودون بعد هذا البلى خلقا جديدا ثم يجزون
ان خيرا فخير ، وان شرا فشر وان جاء التعبير عن هذا المعنى في تصوير
بيانى خالب : (٦)

يَا نَائِي الْمَوْتِ وَالْأَمْوَاتِ فِي جَدَثٍ .. عَلَيْهِمْ مِنْ بَقَايَا بَرْهَمٍ خِشْرَقُ
دَعُهُمْ فَإِنَّ لَهُمْ يَوْمًا يَصَاحُ بِهِمْ .. فَهُمْ إِذَا انْتَبَهَوْا مِنْ نَوْمِهِمْ فَرَّقُوا
حَقِّي يَمُوتُ وَالْإِحَالِ غَيْرَ حَالِهِمْ .. خَلَقًا جَدِيدًا كَمَا مِنْ قَبْلِهِ خُلِقُوا

(١) لقد شك الدكتور جواد على في كتابه المفضل في تاريخ العرب (٥٧٤/٦) ،
(٥٧٥) في صحة هذه الانبيات ، ومثله . شوقي ضيف في العصر الجاهلي (٣٨٩)
لما تحمله من معان دينية يزاها اسلامية ، ثم ناقش . جواد ذلك وذكر
ان هذه المعاني موجودة في التوراة واخيرا أنكر صحة هذا الشعر لليهودى
جاهلي . وهذا اجتهداه غير أننا لا نرى ذلك ، فكيف يكون غريبا هذا
من رجل مشهور بين اليهود وهم أهل كتاب ومثل معاني الشعر موجودة
في التوراة ؟ ويضاف الى هذا ورود هذا الشعر من رواية الأصمعي (الثقة)
وقد عرف عنه التشدد في قبول الأشعار المنحولة .

(٢) المقيت : الحافظ للشيء والشاهد له .

(٣) تدارك : تتابع .

(٤) تداكا : دافع وزاحم يريد اذا تقاسمت الهموم والهواجس .

(٥) الاصمعيات : ٨٦ .

(٦) خزانة الأدب : ٨٢/٢ . البداية والنهاية : ٢٣٦/٢ ، شعراء النصرانية

منهم عُرَاءٌ ومنهم فى ثيابهم .. منها الحديدُ ومنها المُشْهِجُ الخلقُ

وأننا نجد "أمية بن أبى الصلت" من أكثر شعراء الجاهلية ذكرا للبعث والحساب كما عرف عنه ، حتى سموه شاعر الآخرة ، فهو يذكر أن الناس يوقفون للحساب وكل يجازى بعمله فيكون منهم السعيد والشقى (١)

يُوقَفُ النَّاسُ لِلْحِسَابِ جَمِيعًا .. فَشَقَى مُعَذِّبٌ وَسَعِيدٌ
والجزاء من جنس العمل خيرا كان أو شرا فليحذر المرء أن يشوب الخير بالشر حتى ينجو . (٢)

لَا تَخْلُطَنَّ حَبِثَاتِ بَطِيَّةٍ .. وَاخْلَعْ ثِيَابَكَ مِنْهَا وَانْجُ عُرْيَانًا
كُلُّ امْرِئٍ سَوْفَ يُجْزَى قَرْضَهُ حَسَنًا .. أَوْ سَيِّئًا وَمَدِينًا كَالَّذِي دَانَسَا
والأديان باطلة يوم القيامة إلا دين الحنيفية :

كُلُّ دِينٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَنَّا .. سِوَا دِينِ الْحَنِيفَةِ (٣)

وأخيرا فهذا "أعشى قيس" يرى أن مد وحه مع ما تصف به من كرم وقوة ووفاء كما فى القصيدة ، تقى يراقب ربه ، وما الرّاهب المعتكف فى هيكله أمام صليبة ، تارة ساجدا وأخرى متضرعا بألقى منه يوم الحساب اذا خرجت النفوس من قبورها ونفضت عنها الغبار *

وَمَا أَهْلُ الْإِسْلَامِ عَلَى هَيْكَلٍ (٤) .. بِنَاءٍ وَصَلَبٍ فِيهِ وَصَارَا (٥)

يُرَاجِحُ (٨) مِنْ صَلَواتِ الْمَلِيقِ .. لِكَ طَنُورًا سُجُودًا وَطُورًا جُورًا (٩)

(١) ديوانه : ٣٧٩ . (٢) السابق : ٥٢٠ .

(٣) السابق : ٣٩٣ .

* ديوان الاعشى : ١٠٣ .

(٤) أيلى : صاحب أيلى ، وهى العصا التى يندق بها الناقوس .

(٥) الهيكل : موضع فى صدر الكنيسة يقرب فيه القربان .

(٦) صلب : صُور فيه الصليب .

(٧) صار : سكن .

(٨) يراجح : راجح بين المعطين تداول هذا مرة وهذا مرة .

(٩) جوار : هو التضرع الى الله بالدعاء .

بأعظم منه تُقَى في الحساب .. إذا النسمات^(١) نَفَضَ الفُبارا
 وأخيرا فغير بعيد أن يكون بشر بن أبي خازم* قد أراد البعث الذي يرى
 أنه يوم طويل :^(٢)
 فَعَفَوْتَ عَنْهُمْ عَفْوً غَيْرَ مُتَرَبِّبٍ .. وَتَرَكْتَهُمْ لِحِسَابِ يَوْمٍ سَرْمَدٍ

ومهما يكن الايمان بالبعث والآخرة عند بعض هؤلاء الجاهليين فلا يتصور
 أنهم يرونه كايان المسلمين به ، وانما يختلف عنه كثيرا ، وربما تصوروه بتخييلات فيها
 نعيم وعذاب تشبه الأساطير ، فالقرآن عند ما نبّه المشركين لذلك أجابوا أن ذلك
 أساطير الأولين ، وهم في شك من تلك الحياة الأخرى . وصدق الله : " بل ادرك
 علمهم في الآخرة بل هم في شك منها بل هم منها عمون ، وقال الذين كفروا
 أننا كنا ترابا وآباءنا أننا لمخرجون ، لقد وعدنا هذا نحن وآباؤنا من قبل
 أن هذا الا أساطير الأولين " .^(٣)

(١) النسمات : فسرهما محقق الديوان بقوله : " النسيم نفس الريح اذا كان
 ضعيفا وأولها حين تقبل بلين قبل أن تشتد " ، وقد وهم د . محمد حسين
 رحمه الله وأبعد النجعة ان ظن النسيم مفرد من النسمات وليس كذلك
 فالنسيم مفرد الجمع أنسام كما في اللسان (نسيم : ١٢ / ٥٧٣) ، ومفرد
 النسمات : نسمة ، وهي نفس الروح وعلى هذا اضطرب شرحه للبيت بأن
 المدح أعظم تقى في الحساب من الراهب اذا تحركت الريح هينة ، ولا معنى
 فيما أفهم لهذا التقى المحدود بهبوب الريح ، وكيف يقارن بتقى الراهب
 الذي يتراوح وقته كله بين سجود وجوار ؟ ، والذي أراه أن معنى البيت :
 أن مدح الأعشى أعظم تقى من هذا الراهب يوم القيامة حين تعلم
 الحقائق وانما الأرواح تخرج من القبور حية تنفخ ماعلق بها من تراب
 ونبار الأرض على رأى هذا الشاعر .

(٢) ديوان بشر بن أبي خازم* : تحقيق عزة حسن ط مديرية احياء التراث القديم
 دمشق ١٣٧٩

(٣) النمل : ٦٦ - ٦٨ .

(٦) عدم التطير :

كان التطير أمراً واحداً من أساطير كثيرة عرفها العرب، فمنها ضرب الثور
إذا عافت البقر الماء، ويظنون أن الحية تركب قرني الثور، وهي التي صعدت
البقر عن الماء كما قال أشاعرهم :

انى وقتلى كليباً ثم أعقله .. كالثور يُضرب لَمَّا عافت البقر (١)
ومنها كي الصحيح من الابل وترك المريض كما قال النابغة في اعتزازه ما رمى به :
لَكَلَفْتَنِي ذَنْبَ امْرِئٍ وَتَوَكَّكْتُه .. كَذَى الْقَرَّ يَكْوِي غَيْرُهُ وَهُوَ رَاتِعٌ (٢)

ومنها تعليق الحلبي والجلجل على اللديخ حتى لا ينام - فيما يرون - فيسرى
فيه السم، وكانوا يرون أن المرأة المغلقة وهي التي لا يعيش لها ولد إذا وطئت
دم القتل الشريف عاش ولدها، وكانوا يزعمون أن الرجل إذا أحب امرأة واحبته
فشق برقعها وشقت رداءه صلح حبهما ودام، وإن لم يفعل ذلك فسد حبهما،
وغير هذا كثير من الأساطير عندهم (٤).

أمّا التطير والتشاؤم فهو ما اعتادوه من الفأل السيئ في نظرهم بالسوانح
أو البوارح من الطيور أو الحيوانات أو غيرها، وقد دل على ذلك قول الأعشى :
ماتعيف اليوم في الطير السَّوْح .. من غراب البين أو تبس برح (٥)
وقد حرم الاسلام هذه الخرافة الشركية (٧)، إذ أنها كانت تشنئ القوم عمن

(١) لسان العرب : "عيف" ٢٦٠ / ٩ .

(٢) ديوان النابغة : ١٦٨ .

(٣) العرّ : داء يصيب مشافر الابل فيسيل منه سائل، ويفتح العين "العمر"
هو الجرب .

(٤) انظر بلوغ الأرب : ٣٠١ / ٢ وما بعدها .

(٥) ديوان الأعشى : ٢٨٧ .

(٦) تعيف : من العيافة وهي زجر الطير والتشاؤم بها . الرّوح : جمع رائج ، أى
الرائحة في شأنها . البين : الفراق، وكانوا يتشاءمون بنعيقة فهو نذير بالفراق .

(٧) انظر : قرعة عيون الموحدين : عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ : ١٣٩ .

أعمالهم وتفسد كثيرا من أمورهم ، وهى فى واقع الأمر لا تقدم شيئا لذلك التشائم أو تؤخره ، بل انها لا تعلم من ذلك خبرا البتة .

ومع ذلك فقد وجدنا من بين اولئك العرب من لم يرفع بذلك رأسا ولم يصنع له أذنا ، وهو لا لم يكثرثوا لذلك بل سخرؤا منه . ولعل مرجع ذلك أنهم أعملوا عقولهم ، ولا حظوا عدم اتفاق هذه الأمور لما نيط بها فاطرحوها .

وذا الحارث بن حلزة ينهى هذا التطير ، وقد انشئى وقعد بعد أن أزمع الأمر ومضى فيه ، ويقول : (١)

يا أيها الزمُّعُ ثُمَّ انْشَيْى .. لا يَثْنِكُ الحَارِى ولا الشَّاحِجُ (٢)
ولا قَعِيدُ أعْقِبْ قَرْنُـهُ .. هاجَ لَهُ من مَرَسِجِ هَائِلِـجِ (٣)
بَيْنَا الفَتَى يَسْمَعُ وَيُسْمَعِى لَهُ .. تاحَ لَهُ من أمره خالِـجُ
يترك مارقَـه من عيشِـهِ .. يعيشُ فَبِئْسَ هَمِـجُ (٤)

وخرج النابغة الذبباني مع قوم يريدون الغزو ، فلما أراد والرحيل رأى النابغة جرادة ذات ألوان على ثوبه فتطير بها وترك الغزو ، فلما رجعوا قال قائلهم معرّضا بشأن النابغة : (٥)

تَخَبَّرَ طَيْرَهُ فيها زِيَّـاءُ .. لِتُخْبِرَهُ وما فيها خَبِـيرُ
أقامَ كَأَنَّ لقمانَ بنَ عَـنَادٍ .. أشارَ لَهُ بحكْمِهِ مَشـِيرُ
تَعَلَّمَ أَنَّهُ لا طـيـرَ الآ .. على مَطَـيِّرٍ وهو الثَّـبُورُ
بَلَى شَيْءٌ يوافقُ بَعْضَ شَيْءٍ .. أَحايَيْنَا وباطِلُهُ كَثِـيرُ

(١) الحيوان ٤٥٠/٣

- (٢) العادى : مقلوب لحائد وهو فى الطيرة ما استقبلك ، والسائح ما ولاك مياضه ، والبارح ما ولاك مياسرة . الشاحج : الغراب السعن الذى غلظ صوته .
(٣) القعيد : ما أذاك من خلغك مما يتطير منه ، أعضب قرنه : أى مكسور قرنه .
(٤) رقع من عيشه : اصلحه ، والترقيح الاصلاح والقيام عليه حتى ينمو .
(٥) الحيوان : ٤٤٧/٣ . والقائل هو زيان بن سيار الغزاري .

ولعل قريبا من التطير ما عرف عند العرب بالتعشير : وهو فيما زعموا أن الرجل إذا أراد أن يدخل قرية فخاف وباءها ، يقف على بابها أو قربها قبل أن يدخل ، ثم ينهق كما ينهق الحمار عشر مرات ثم يدخلها ، يرون أنه عندئذ لا يصيبه وباءها .

وقد سخر "عروة الصعاليك" من ذلك وقال : (١)

لَعَمْرِي لَعْنٌ عَشْرَتٌ مِنْ خَشْيَةِ الرَّؤْيِ .. نهاق الحمر إني لجَزُوعٌ .

(١) - ديوان عروة بن الورد : ٤٧٠ .

* العبادات *

وقفنا فيما سبق على طرق من معتقدات بعض الجاهلين التي تعد من الحنيفية، وليس غريباً بهذا أن نجد شيئاً من العبادات التي تدخل في هذه الملة، وإن كانت هذه العبادات ليست على صورتها النقية التي جاءت من عند الله، نرى ذلك واضحاً في ثنايا أخبار الجاهلين وما يروى لهم من فنون أدبية.

ولا غرو أن تبني العبادات وشعائر الدين على أساس ما يعتقده أرباب هذه الشعائر الدينية إلى حد كبير، وإن أضيف إليها موروثات الآباء والمجتمعات.

وفي حديثنا عن هذه العبادات سننيل بها إلى ما يقرب من سنن الفقهاء فسي تناولهم لمساغل العبادات في كتب الفقه الاسلامي، رغبة في التيسير، وجرياً على النسق المعمود في المعالجة.

سنن الفطرة :

وهي كما في الحديث الصحيح عنه - صلى الله عليه وسلم - أنه قال : " عشر من الفطرة : قص الشارب ، وإعفاء اللحية ، والسواك ، واستنشاق الماء ، وقص الأظفار ، وغسل البراجم ،^(١) وتنف الايط وحلق العانة ، وانتقاص الماء ،^(٢) . . . والمضضة^(٣) ، وفي الصحيح عن أبي هريرة : " الفطرة خمس : الختان ، والاستحداد ،^(٤) وتقليم الأظفار ، وتنف الايط ، وقص الشارب^(٥) ، ويتتبع هذه الأمور فيما رجعنا إليه تبين لنا أن هذه الأمور لم تطمس نهائياً بين عرب الجاهلية ، بل بقي بعضها واضحاً كالختان والسواك ، وإعفاء اللحية ، ولا شك أن ذلك من بقايا الحنيفية ، وأما سوى تلك من هذه السنن فيروى أن العرب كانت تعمل بها ، وتحافظ عليها ، وإن اعترى بعضها شيء من التحريف بزيادة أو نقصان ، فلما جاء الاسلام أقر ذلك^(٦) .

(١) البراجم : هي العقد التي في ظهور الأصابع يجتمع فيها الوسخ ، واحدتها برجمة .

(٢) انتقاص الماء كما فسره وكيع : يعني الاستنجاء .

(٣) رواه مسلم شرح النووي : كتاب الطهارة ج ٣ ص ١٤٧ .

(٤) الاستحداد : حلق شعر العانة وإزالتها .

(٥) نفس المصدر والجزء ص ١٤٦ .

(٦) المحبر : ٣٢٩ ، بلوغ الأرب : ٢ / ٢٨٧ .

فأما اللحية فقد أسبلوها ، وفي الحديث : " يارويق لعل الحياة ستطول بك فأخبر الناس أنه من عقد لحيته ، أو تعلق وترا ، أو استنجدى برجيع دابة ، أو عظم فإن محمداً منه برئ " رواه ابوداود

قالوا : " وكانوا يفعلون ذلك في الحروب ، كانوا يعقدون لحاهم ، وذلك ممن زى الأعاجم يفتلوننها ويعقدونها " (١) وقَالَ الشاعر (٢)

سَحَوْا لِحَاهُمْ ثُمَّ قَالُوا سَالِمُوا .. يَالَيْتَنِي فِي الْقَوْمِ إِذْ سَحَوْا اللَّحَى

ومن الطهارات والأغسال التي دلت عليها المصادر عندهم : غسل الميت وتكفينه ، ثم دفنه في قبره ، هذا " الأفوه الأودى " (٣) يصور لنا ذلك بقوله : (٤)

الْأَعْلَانِي وَأَعْلَمَا أَنَّنِي غَرَّرْتُ .. فَمَا خِلْتُ يُجِدُّنِي الشَّقَاقُ وَلَا الْحَذَرُ

وَمَا خِلْتُ يُجِدُّنِي أَسَاتِي فَقَدْ بَدَتْ .. مَفَاضِلُ أَوْصَالِي وَقَدْ شَخَصَ الْبُصْرُ

وَجَاؤَا بِمَاءٍ بَارِدٍ وَبِغَسْلَةٍ .. فَيَا لَكَ مِنْ غُسْلٍ سَيَتَّبِعُهُ غَسِيرُ (٥)

وتشير المصادر إلى أن " أبا لهب " لما مات بالعدسة (٦) تركه ابنه ليلتين أو ثلاثاً لا يدفنانه حتى انتن في بيته ، وكانت قريش تتقي العدسة كما تتقي الطاعون تخشى عدواها

(١) مختصر سنن أبي داود : ٣٧ / ١ . ط . مطبعة السنة المحمدية . القاهرة .
(٢) أمالي القائل : ١٨٣ / ١ . والمعنى انهم اصطلحوا وسحوا لحاهم على ذلك ، وكأن مسح اللحية كالعهد أو اليمين في الصدق والوفاء عندهم . وهذا الشاعر لا يريد ذلك الصلح .

(٣) الأفوه الأودى : هو صلاة بن عمرو بن مالك . وكنيته أبو ربيعة ، كان سيدي أود (مذبح) في منطقة نجران ، كان يعد من حكماء العرب ، وشعره موضع التقدير . وانظر في ترجمته : الشعر والشعراء : ١ / ٢٢٣ ، ٢٢٤ ، الطرائف الأدبية : عبدالعزيز الميمنى : ٣ . ط دار الكتب العلمية . بيروت .

(٤) غرر : الغرر التعرض بالنفس للخطر .

(٥) الشقاق : غلبة العداوة والخلاف .

(٦) غبر : هريد الغبار من تراب القبر .

(٧) الطرائف الأدبية - بها ديوانه : ١٥

(٨) العدسة : هي بشرة تخرج في مواضع من الجسد ، من جنس الطاعون ، تقتل صاحبها غالباً . النهاية ٣ / ١٩٠ . لأبي السعادات بن الاثير ، تحقيق : طاهر احمد الزاوي ومحمود محمد الطناحي . ط . المكتبة الاسلامية .

حتى قال لهما رجل من قريش ويحكما ألا تستحيان أن أباكما قد انتن في بيته لا تفيانه
فقالا نخشى هذه القرحة . قال : فانطلقا فأنا معكما فما غسلوه الا قد فاء بالماء عليه
من بعيد مايسونه ، فاحتملوه فدفتوه . (١)

وكانوا يضعون في ماء الغسل مايساعد على النظافة من سدر أو شنان (٢) ، ثم ينظف
به جسد الميت ، ويذكر لنا " امرؤ القيس " ما حدث لبني أكل المرام عند ما أخذت " بنو
تغلب " ثمانية وأربعين نفسا منهم ، فقدم بهم على " الحنذر " وضرب رقابهم ، وأن هؤلاء
القتلى لم يعمل لهم مايعمل للأموات من غسل بماء وسدر وانما ضرجوا بدمائهم . (٣)

مُلُوكًا مِنْ بَنِي حَجْرٍ بَنٍ عَمُرُوا .. يُسَاقُونَ الْعَشِيَّةَ يُقْتَلُونَ
فَلَوْ فِي يَوْمٍ مَعْرَكَةٍ أُصِيبُوا .. وَلَكِنْ فِي دِيَارِ بَنِي مَرْيَنَا
وَلَمْ تُفْسَلْ رُءُوسُهُمْ بِسِدرٍ .. وَلَكِنْ فِي الدِّمَاءِ مَزْمَلِينَا (٤)

أما الغسل من الجنابة فقد دلت عليه بعض الأخبار ، قال الزجاجي : " الحنيف فسي
الجاهلية من كان يحج البيت ويغتسل من الجنابة ويختن " (٥) . وجاء عن أبي سفيان
ابن حرب أنه لما نجا بقاتلته وما كان لقريش في معركة بدر من الفشل والفجيعة ،
حلف ألا يقرب رأسه ماء من جنابة حتى يغزو محمدا صلى الله عليه وسلم . (٦)

(١) القصة في الاغانى : ٢٠٥ / ٤ - ٢٠٦ ، وانظر اللسان (عدس) ١٣٢ / ٦ .

(٢) شنان : مفرد أشنان : من الحمض يستعمل في غسل الايدي . اللسان (أشن)

١٨ / ١٣

(٣) ديوان امرؤ القيس ص : ٢٠٠ ، والقصة في الاغانى ج ٩ ، ص ٧٨ - ٨١ .

(٤) السدر : ورق شجر التبق . مزملينا : ملغفين

(٥) لسان العرب (حنف) ٥٨ / ٩ .

(٦) انظر غزوة السويق في سيرة ابن هشام : ٤٤ / ٢ ، الاغانى : ٣٥٢ / ٦ . وقد علق

السهيلي في الروض : على حادثة ابي سفيان هذه بقوله " في هذا الحديت
ان الغسل من الجنابة كان معمولا به في الجاهلية بقية من دين ابراهيم

واسماعيل كما بقي فيهم الحج والنكاح ، ولذلك سموها جنابة ، وقالوا : رجل

جنب ، وقوم جنب لمجانبتهم في تلك الحال البيت الحرام ومواضع قربانهم ،

ولذلك عرف معنى هذه الكلمة في القرآن ، أغنى قوله " وان كنتم جنبا فاطهروا ، =

وجاء عن أبي عمرو بن العلاء أن العرب كانت إذا أرادت أن تنشُد قصيدة
الملتس توضؤوا لها :

تُعَيِّرُنِي أُمِّي رَجَالٌ وَلَنْ تَكْرِي .. أَخَا كَرَمٍ إِلَّا بَأْنَ يَتَكْرَمُ (١)

= فكان الحدث الأكبر معروفا بهذا الاسم فلم يحتاجوا الى تفسيره . وأما الحدث
الاصغر وهو الموجب للوضوء فلم يكن معروفا قبل الاسلام ، فلذلك لم يقل فيه
وان كنتم محدثين فتوضؤوا كما قال " وان كنتم جنبا فاطهروا " بل قال " فاغسلوا
وجوهكم وأيديكم الى المرافق " الآية ، فبين الوضوء وأعضائه وكيفيته والسبب
الموجب له كالقيام من النوم والمجئ من الفائط وملامسة النساء ، ولم يحتج في
أمر الجنابة الى بيان أكثر من وجوب الطهارة منها " كما في أديان العرب في
الجاهلية ص ٧٠ - ٧١ ، على أننا رجعنا للسهيلى ولم نعثر فيه على هذا
التعليق .

(١) طبقات النحويين واللفويين : ٣٣ . وقد أوهم هذا القول الى الظن بمعرفته
الجاهليين للوضوء ، ورأيت محقق ديوان الملتس وقد أورد هذا وهو
يتحدث عن شاعرية الملتس (الديوان : ٣٨) وعلق عليه قائلا " وهذا الخبر ان
صح - دليل على مكانة هذا الشاعر وشعره " .
والذى يظهر لى من هذه المقولة أنها لا تعنى الوضوء بالماء ، وانما المراد
الوضوءة التى تظهر على الشخص عند ما يسره قول أو أمر فيفرح له ويظهر السرور
على وجهه ، وسياق العبارة يقوى ذلك والله أعلم .

الختان :

ونجد الختان قد شاع وعرف بين العرب. وقد ذكر ذلك "أبو عبيدة" والزجاج^(١) وقال الجاحظ : "الختان في العرب في الرجال والنساء من لدن "إبراهيم و" هاجر" الى يومنا هذا". (٢)

وما يدل على انتشاره بينهم أنهم كانوا يعمرون ويعيبون على من لم يفعله ، وفي غزوة حنين عندما كان أحد الأنصار يسلب قتلى "ثقيف" إذ كشف عن عبد يسلبه فوجده أغرل^(٣) أي لم يختتن ، فصاح بأعلى صوته أن "ثقيفا" غرل ، فقام "المغيرة بن شعبه" فأخذ الأنصاري وكشف له عن قتلى "ثقيف" ليبين له أنهم مختنون ، ثم أعلم "المغيرة" الأنصاري بأن الأغرل غلام لهم نصراني ، وإنما فعل "المغيرة" ذلك خشية أن يشاع ذلك عنهم في العرب فيعمروا به . (٤)

وما وصلنا من شعرهم في ذلك ما روى لامرئ القيس عندما دخل على قيصر الروم ، وكان دخل معه الحمام فرآه أظف ، فقال يعميره بذلك ووصفا سوءته :

إِنِّي حَلَفْتُ يَمِينًا غَيْرَ كَاذِبَةٍ .. إِنَّكَ أَظْفٌ^(٥) أَلَا مَا جَلَا الْقَمَرُ^(٦)
إِذَا طَعَنْتَ بِهِ مَالَتِ عِمَامَتُهُ^(٧) .. كَمَا تَجَمَّعَ تَحْتَ الْفَلَكَ^(٨) الْوَبَرُ^(٩)

ونجد الأعشى الكبير أيضا يهجو أحد خصومه بأن أمه غير مختونة ، وأنها صاحبة

(١) لسان العرب (حنف) ٥٠٧/٩ ، ٥٠٨ .

(٢) الحيوان : ٢٧/٧ .

(٣) الأغرل : ذو القرلة ، وهي القلفة التي يزيلها الختان من ذكر الصبي .

(٤) انظر القصة في السيرة النبوية لابن هشام : ٤٤٨/٢ "غزوة حنين" .

(٥) أظف : أي بين القلفة : وهي جلدة الذكر التي ألبستها الحشفة ، وهي التي تقطع من ذكر الصبي بمعنى الفرله .

(٦) جلا القمر : تقول العرب للصبي إذا كان قصير الفرله ، قد ختنه القمر .

(٧) عمامته : يشبه القلفة بالعمامة .

(٨) الفلكة : يريد فلكة المعرول وهي مستديرة .

(٩) ديوانه : ٢٨٠ .

بظر ، والبظر : ما بين الاسكتين من المرأة ، وهو الذى يخفض فى النساء ، وجمعه
بظور . (١) يقول الاعشى : (٢)

أَتَانِي مَا يَقُولُ لِي ابْنُ بَظْرِي .. أَقِيسْ يَا ابْنَ شُعْلِبَةَ الصَّبَاحِ (٣)

ومما يقوى ذلك أن الختان لم يقتصر على الرجال قول " النابغة الذبياني " يذكر بأس
قومه فى الحرب ، وأنهم يغلبون ويصليون نساء أعدائهم : (٤)

فَأَصْبَحَ أَبْكَارًا وَهَنَّا بِأَمَقِرِ .. أَعْجَلْنَهُنَّ مِطْنَةَ الْأَعْذَارِ (٥)
ويبدو أن العرب كان منهم من يؤخر الختان حتى يبيغ الولد أو الجارية قليلاً (٦) وتدل
المصادر على أن العرب كانت تعير بعضها بقولهم " يابن مقطعة البظور " حتى ولو لم
تكن أمه كذلك ، إذ كانوا ينظرون إلى المرأة التى تخفض النساء نظرة ازدراء واحتقار (٧)

(١) لسان العرب (بظر) ٧٠ / ٤ .

(٢) ديوانه : ٣٩٥

(٣) شعلة الصباح : يريد به الذى يفرو يجبن كما يفرو الشعلب ، وانما ذكر الصباح
لان اكثر غاراتهم تكون وقت الصباح .

(٤) ديوانه : ١١٠ .

(٥) فى معنى البيت قال شارح الديوان : " فأصب : أى خيل الجيش ، أبكارا
أى : سيوا الابكار فتزوجهن " بآمة " أى بعيب يريد اللحمة الناتئة . ويروى
بامه : بكسر الهمزة فميم شديدة أى نعمة وحضارة عيش ، أى سبوهن قبل
الخفاز أى أصبن جواركم صغيرات الاسنان قبل وقت الاعذار .

" مطنة " اسم زمان مشتق من الظن يطلق على الزمان والمكان والمصدر وهو
هنا الزمان . " الاعذار " الختان وهو للجارية يسمى خفاضا بكسر الخاء
المعجمة . ولعلمهم لم يكونوا يختنون الجوارى الا اذا قاربن البلوغ .

(٦) انظر النهاية فى غريب الحديث : ١٩٦ / ٣ ، مجد الدين بن محمد بن الاثير
تحقيق محمود محمد الطناحي . ط المكتبة الاسلامية ، لسان المعرب

(٧) عذر) ٥٥١ / ٤ .

(٧) نهاية الارب : ١٠٠ / ١٧ ، لسان العرب (بظر) ٧٠ / ٤ .

ويسوقنا الحديث عن الختان الى ما يستتبعه عند العرب من ذبح حيوان عنـد الختان ، وهذا ما يعرف عندنا نحن المسلمين بالعقيقة ، فقد كانت العرب تفعله ، فيروى أن "عبد المطلب" جد الرسول - صلى الله عليه وسلم - عَقَّ لبنينا عليه الصلاة والسلام - على عادة العرب ، وأمر بجزور فنحرت واطعمها قريشاً. ^(١) وفي الحديث عن "بريدة" قال "كنا في الجاهلية اذا ولد لأحدنا غلام ذبح شاة ولطخ رأسه بدمها ، فلما جاء الاسلام كنا ندبح شاة ونحلق رأسه ونلطخه بزعفران". ^(٢)

وقد كانت العرب تسمى ذلك العذار والاعذار ، وهو عندهم طعام الختان ووليته. ^(٣) والعقيقة عند أهل اللغة : هو الشعر الذى يكون على رأس الطفل المولود ، وانما سماه الحيوان المذبح (عقيقة) لأنه يذبح عند ما يحلق شعر المولود ^(٤) ، وقـد عيروا من لم تحلق عقيقته فكأنهم بذلك يعيرون من لم يذبح لولده لأنه لم يحلق شعره هذا "أمروء القيس" يوصى "هنداً" الا تنكح هذا الرجل الذى لم يحلق عقيقته حتى شاخ ويصفه باللؤم والشح : ^(٥)

يَاهِنْدُ لَا تَنْكِحِي بَوْهَةً .. عَلَيْهِ عَقِيقَتُهُ أَحْسَبَا
مُرْسَعَةً وَسَطَ أَرْفَاغِهِ .. بِوِ عَسْمٍ يُتَّقَى أَرْثَبَا
لِيَجْعَلَ فِي رِجْلِهِ كَعْبَهَا .. حَذَارُ الْمَنِيَةِ أَنْ يَعْطَبَا ^(٦)

-
- (١) السيرة الحلبية على برهان الدين الحلبي : ١٢٨/١ ، ط مصطفى البابي الحلبي ١٣٨٤ ، الاشتقاق : ٥٨ .
(٢) عون المعبود شرح سنن أبي داود : للعلامة أبي الطيب محمد شمس الحق أبادى ج ٨ ص ٤٥ ، ط دار الفكر بيروت ، الطبعة الثانية سنة ١٣٨٨ هـ .
(٣) البخلاء : ٢١٤ ، لسان العرب (عذر) ٥٥١/٤ ، وأنشد فيه :
كل الطعام تشتبه ربيعه .. الخرس والاعذار والنقيعه
(٤) تاج العروس (عقق) ١٦٠١٥/٧ .
(٥) ديوانه : ص ١٢٨ .
(٦) بوهة : أى أحق . أحسب : الأحسب الذى أبيضت جلده من داء فسدت شعرته فصار أحمر وأبيض والمعنى كأنه لم تحلق عقيقته . مرسعة : مقيمة . =

وقال " زهير بن أبى سلى " : (١)

أَذَلِكَ أُمُّ شَتِيمِ الْوَجْهِ (٢) جَاب (٣) .. عَلَيْهِ مِنْ عَقِيقَتِهِ عَفَا (٤)

= الارفاغ : أصول الفخذين من باطن وهما ما اكتنفاً أعالي جانبي المعانة عند ملتقى أعالي بواطن الفخذين .

العسم : يمس في المرفق والرسغ تعوج منه اليد والقدم . والمعنى لا تنكحسى هذا الاحق اللثيم الذى لم تنزل عليه شعر عقيقته من بخله ، ومع ذلك فيه داء العسم وهو كالحق الذى كان من عادتهم فى الجاهلية أن يعلقوا كعسب الارنب فى الرجل كالمعانة يزعمون أن من علقها لم يضره عين ولا سحر لأن الجن تمتطى الشعالب والظباء والقنافذ وتجتنب الارنب لأنها تحيض .

(١) ديوانه ، الاظم : ص ١٢٨ .

(٢) أم غير شتيم الوجه ، والشتيم الكريه الوجه .

(٣) جاب : جاف غليظ .

(٤) عفا : يقال للشعر اذا طال ووخى عفاً .

السواك :

ونجد أيضا من هذه السنن الباقيه السواك ، وقد كثر الحديث عنه عند الجاهليين وبخاصة فى وصف ثغور النساء ، وكيف يجلينها بأعواد السواك . وكان العرب يأخذونه من عدد من الاشجار ، منها البشام ، والاسحل ، والضرو وهو شجر له حب أخضر طرى ، والعتم وهو الزيتون البرى .

ومما ورد من ذلك قول * أبى نؤاد الإيادى * فى وصف نساء جالسات وهن يقضمن
(١)
سايك من شجر الضرم :

واكْنَاتٍ يَقْضِمْنَ مِنْ قُضْبِ الضَّرَمِ .. مِيشَعَى بَدَلَهُنَّ الْهَيْامُ (٢)

(٣)
ويقول طفيل الغنوى فى وصف محبوبته :

إِذَا هِيَ لَمْ تَسْتَكْ بِعَوْدِ أَرَاكِ .. تَنْخُلُ فَاسْتَاكْتُ بِهِ عَوْدُ إِسْجَلِ

وهم يشوصون به الفم حتى يجلو بياض الأسنان ويرى تحديدها كما قال * امرؤ القيس * (٤) :

تَرَأَتْ لَنَا يَوْمًا بَجَنَّبَ عُنِيْزَةً .. وَقَدْ حَانَ مِنْهَا رَحْلَةٌ قُلُوصُ (٥)

بِأَسْوَدَ مُلْتَفِّ الْفَدَائِرِ وَارِدٍ .. وَذِي أُشْرِ (٦) تَشَوْفُ (٧) وَتَشَوْصُ (٨)

(٩)
ويصف أصابع محبوبته بالنعومة ويشبهها بسايك الاسحل :

(١) الأصمعيات : ١٨٦ .

(٢) واكنات : جالسات مطمئنات ، يقضمن : من القضم وهو الاكل بأطراف الاسنان

والضروس . قضب : جمع قضيب يريد بها أعواد السواك . الضرم : شجر طيب الرائحة .

(٣) ديوانه : ص ٦٥ تحقيق محمد عبد القادر أحمد ، ط دار الكتاب الجديد ١٩٦٨

(٤) ديوانه : ١٧٧ ، ١٧٨ .

(٥) قُلُوص : أى بعد وذ هاب .

(٦) ذ و اثر : يعنى الشعر ، والتأشير تحديد اطراف الاسنان .

(٧) تشوفه : تجلوه .

(٨) تشوص : تستاك .

(٩) ديوانه : ص ١٧ .

وَتَعْطُوْا بَرْخَصٍ غَيْرَ شَتْنٍ كَانَتْهُ . . . أَسَارِيْعٌ طَبِيٌّ أَوْ سَاوِيْكٌ إِسْحَاجِلٌ (١)

ومثله النابغة الذبياني في وصف المتحررة - زوجة النعمان - في قوله (٢)

تَجَلُّوْا بِقَادٍ مَتَّى حَمَامَةٍ أَيْكَةِ . . . بَرْدَا أَسْفَ لثَاثُهُ بِالْإِثْمِ (٣)

وأخيرا فهذا المخيل السعدي يقول في وصفه للقينة أنها تجرى السواك على أسنانها المغلجة كما أنها عفيفة : (٤)

تَجْرِي السَّوَاكُ عَلَى غُرِّ مَغْلَجَةٍ . . . لَمْ يَفْرَهَا دَنْسٌ تَحْتَ الْجَلَابِيْبِ (٥)

وفي تقديري أن ما للسواك من فوائد كان ذا أثر في المحافظة على بقاءه واستعماله بين العرب ، إذ هو منظف للأسنان ومطهر للفم .

(١) الشتن : الغليظ الجافي .

أساريع : دواب بيض تكون في الرمل ولعله من ديدان الأرض . ، طبي : المراد به أسم رمله ، والمراد أنه شبه نعمة أصابعها وبياضها بهذا الدود أو ساويك الاسحل البيضاء .

(٢) ديوانه : ٩٧ .

(٣) تجلو : تظهر وتصل ولعله أراد تستاك . " قادمي حمامة " شبه أصبعيها في الطول وسواد الحناء عليهما حين تأخذ بهما السواك بقاد متى جناح الحمامة ، وهما الريشتان اللتان في مقدم الجناح وهما سوداوان في هذا الحمام عند الشاعر أيكه : هي الفيضة من الشجر الملتف ببعضه على بعض .

بردا : أراد أسنانها مثل البرد .

(٤) المغضليات : ١٢٠ .

(٥) الغرّ : البيضاء ، يعنى الثنايا . المغلجة : ذوات الفلج وهو تباعد ما بينهما لم يفرها : لم يلصق بها ، يريد أنها عفيفة .

ثانيا : الصلاة :

يعتبر التقرب إلى الآلهة والخضوع لها ودعاؤها من مظاهر الأديان عامة على اختلاف معبوداتها ، ولا شك أن الجاهليين كان لهم نصيب من هذا مع معبوداتهم ، بل قد ذبحوا لها وتمسحوا بها طلبا لحصول الخير ودفع الضر .

وقد دلت الأخبار على وجود صلاة عند الجاهليين ، وليس مرادنا أنها كصلاة المسلمين ، بل المقصود أنهم عرفوا " الصلاة " على هيئة مخالفة للصلاة عند المسلمين .^(١)
وفي القرآن الكريم " وما كان صلاتهم عند البيت الا مكاء وتصدية " ^(٢)

والذي يعلم من نهى الاسلام عن الصلاة في أوقات النهى لما في ذلك من مشابهة لسجود الكفار ففي الحديث عن عمرو بن عبسة قال : قلت : يا نبي الله أخبرني عن الصلاة ؟ قال : " صل صلاة الصبح ثم أقصر عن الصلاة حتى تطلع الشمس وترتفع ، فانها تطلع بين قرني شيطان ، وحينئذ يسجد لها الكفار ، ثم صل فان الصلاة مشهودة محضوره حتى يستقل الظل بالرمح ثم أقصر عن الصلاة فانها حينئذ تسجر جهنم ، فاذا أقبل الفس " فصل فان الصلاة مشهودة محضورة حتى تصلي العصر ، ثم أقصر عن الصلاة حتى تغرب فانها تغرب بين قرني شيطان وحينئذ يسجد لها الكفار " ^(٣) والذي يستشف من هذا أن هناك سجودا في صلاة الكفار وإن فهم من الآية ان بها صغيرا وتصفيقا .

ثم إننا نجد في الجاهليين من كان يقوم بصلاة ، ولا تستبعد أن يكون الحنفاء منهم

(١) هذا مانعيل اليه وان كان هناك من يرى أن لفظه الصلاة اسلامية . وانظر تناج العروس " صلا " ٢١٣ / ١٠ .

(٢) الانفال : ٣٥ .

(٣) تطلع بين قرني شيطان . قال النووي : ^{ص ١١٤} يدني رأسه إلى الشمس في هذه الاوقات ليكون الساجدون لها من الكفار ، كالساجدين له في الصورة وحينئذ يكون له ولشييعته تسلط ظاهر وتمكن من أن يلبسوا على المصلين صلاتهم فكرهت الصلاة حينئذ صيانة لها كما كرهت في الاماكن التي تأوى إليها الشياطين . مشهودة محضورة : تشهدا وتحضرها الملائكة .

يستقل الظل بالرمح : أن يكون الظل جانب الرمح فلا يبقى على الارض منه شيء وهذا يكون حين الاستواء . والحديث رواه أحمد : ١١١ / ٤ .

حتى ولو لم تتضح لهم كيفية الصلاة كيف تكون . وفي الصحيح عن " عبادة بن الصامت " قال : قال " أبوذر " يابن أخى صليت سنتين قبل مبعث النبي صلى الله عليه وسلم قال : قلت : فأين كنت توجه ؟ قال : حيث وجهنى الله . (١)

والذى تراهى لنا من صلوات الجاهليين ووقفنا عليه أنه كانت لفحالة على العموم كما ذكرنا وان فسرت بالدعاء عند علماء اللغة فان الدعاء هو أعظم ما فى الصلاة إذ هو روحها ، ومن تلك الصلوات : الصلاة على الميت ، وصلاة الاستسقاء .

ومما ورد من شعر الجاهليين فى صلاتهم :

تَرَكْتُ الصَّدَامَ وَعَزَقُ الْقِيَانِ .. وَأَدْنَيْتُ تَصْلِيَةً وَأَبْتَهَا (٢)

ونرى الاعشى فى قصيدته التى مدح بها " الرسول " يوصى بالصلاة فى الصباح والساء :

وَصَلَّ عَلَى جِئِنِ الْعَشِيَّاتِ وَالضُّحَى .. وَلَا تَحْمَدِ الشَّيْطَانَ وَاللَّهَ فَأَحْمَدُ (٣)

وغير بعيد أن تكون بنت أعشى قيس كانت تدعوه فى صلاتها عندما أراد السفر وقد أرسلت له من يثنيه عن سفره فأبى فلجأت الى الدعاء له بالسلامة ما تخشاه عليه ، وقد صور لنا ذلك بقوله : (٤)

تَقُولُ بَنَتِي وَقَدْ قَرَيْتُ مَرْحَلًا .. يَارَبَّ جَنْبِ أَبِي الْأَوْصَابِ وَالْوَجَعِ

وَأَسْتَشْفَعُ مِنْ سَرَاةِ الْحَيِّذَا شَرْفٍ .. فَقَدْ عَصَاهَا أَبُوهَا وَالَّذِي شَفَعَا

مَهْلًا بُنَى فَإِنَّ الْمَرْءَ يَبْعَثُهُ .. هُمْ إِذَا خَالَطَ الْحَيْرُومَ وَالضَّلْعَا

عَلَيْكَ مِثْلُ الَّذِي صَلَّيْتُ فَأَعْتَصَمْتُ .. يَوْمًا فَإِنَّ لَجَنِبِ الْمَرْءِ مُضْطَجَعًا (٥)

(١) صحيح مسلم بشرح النووي : ٣٣ / ١٦ .

(٢) تاج العروس : ٢١٣ / ١٠ ، وقد أورد هذا البيت محتجا به على من زعم أن (تصليه)

لا تأتى من الفعل (صلى) ، وتصلية أى صلاة وقال ان البيت من الشعر القديم .

(٣) ديوان الاعشى الكبير : ١٨٧ . وفى بعض المراجع (سبح) محل (صل) وهى

بمعناها ان كانوا يقولون سبح أى صلى . وانظر لسان العرب (سبح) ٤٧٣ / ٢

(٤) ديوانه : ١٥١ .

(٥) الخيروم : وسط الصدر ما يضم من الحزام . والضلعا : الاضلاع .

ونجد " زيد بن عمرو بن نفيل " - أحد الحنفا - كان يتوجه في صلاته الى الكعبة ويروى أنه كان يقول : (١)

لبيك حقا حقا ، تعبدا ورقا ، البر أرجولا الخال ، وهل مهجر كن قال (٢) ثم يقول :

عَدْتُ بِمَا عَانَ بِهِ إِبْرَاهِيمُ . . . سَتَقْبِلُ الْكَعْبَةَ وَهُوَ قَائِمٌ
يَقُولُ أَنفَى لَكَ عَانَ رَاغِمٌ . . . مَهْمَا تُجَشِّنِي فَإِنِّي جَاشِمٌ (٣)

ثم يسجد

ويروى أن رجلا جاهليا من كلب ، قال لأبيه : (٤)

أَعْمَرْتُ إِنْ هَلَكْتُ وَكُنْتُ حَيًّا . . . فَإِنِّي مَكْتُرُكَ مِنْ صَلَاتِي
وَأَجْمَلُ نَصْفِ مَالِي لِابْنِ سَلَى . . . حَيَاتِي إِنْ حَيَّيْتُ وَفِي مَاتِي

وقد كانت العرب تكفن موتاهم ، ويصلون عليهم . وكانت صلاتهم أن يحمل الميت على سرير ثم يقوم وليه فيذكر محاسنه كلها ويشئى عليه ثم يقول : عليك رحمه الله ثم يدفن . (٥)

ومما ورد من شعرهم في الكفن قول الاعشى سميا الكفن بالجنن

وهالك أهل يُجَنَّنُونَ —————
كأخِرَ فِي قَفَرٍ لَمْ يُجَنَّ (٦)

وقال امرؤ القيس :

على حرج كالقمر يحمل أكفاني (٧)

(١) الاغانى : ١٢٤ / ٣ .

(٢) البر : الطاعة والخير . الخال : الخيلاء . المهجر : السائر في الهاجرة
أى المبكر بعد الزوال . قال : أقام في القائلة وهى الظهيرة .

(٣) عان : خاضع مطيع .

(٣) جاشم : أى قائم بالامر ومتكلفه على مشقته .

(٤) المحبر : ٣٢١ .

(٥) السابق ٣٢١ .

(٦) ديوان الاعشى الكبير ص ٦٥ .

(٧) اللسان ج ١٣ ص ٣٥٨ - كفت .

اما الاستسقاء فقد كان من عادة أهل مكة * أنهم اذا أجدبوا وقحطوا واشتدت بهم الحاجة ، خرج من كل بطن منهم رجل ، ثم يغتسلون بالماء ويتطيّبون ، ثم يلتسسون الركن ويطوفون بالبيت العتيق سبعة ، ثم يرقون أبا قبيس فيتقدم رجل منهم ، يكون من خيارهم ، ومن رجال الدين فيهم ، ممن يتركون به ، فيدعو الله ويستغيث ، طالبا الرحمة والغوث بالمتوسلين اليه . ويذكرون أن عبد المطلب كان ممن استسقى لأهل مكة ولغيرهم مرارا * (١) وقد وردت لهم اشعار في ذلك (٢)

ومع ذلك فقد كان لهم أمر ابتدئوا به في استسقاؤهم ، فقد جاء أن عرب الجاهلية ، كانوا اذا تناهت عليهم الازمات ، واشتد الجذب ، واحتاجوا الى الامطار ، جمعوا بقرا ، ثم يعقدون ويعلقون بها حطباً من شجر السلع والعشر ، ثم يصعدون بها الى جبل وعر ، ويشعلون فيها النار ، ويضجون بالدعاء والتضرع في طلب السقيا ، وكانوا يرون ذلك من اسباب نزول الغيث (٣) وقد صور ذلك * أمية بن أبي الصلت * فقال (٤) :

سَنَّةٌ أَزْمَةٌ تُخَيِّلُ بِالنَّجَالِ . . . سِ تَرَى لِلْعِضَاءِ فِيهَا صَرِيْرًا
إِنْ يَسْفُونَ بِالْدَقِيقِ وَكَانُوا . . . قَبْلُ لَا يَأْكُلُونَ خَبْزًا فَطِيْرًا
وَيَسْقُونَ بِأَقْمَرِ السَّهْلِ لِلطَّو . . . دِمَهَا زَيْلَ خَشْيَةٍ أَنْ تَبْـوْرَا
عَاقِدِينَ النَّيْرَانَ فِي شُكْرِ الْأَنْ . . . نَابِ عِدَا كَيْمَا تَهْجُ الْبُحُوْرَا
فَاشْتَوَتْ كُلُّهَا فَهَاجَ عَلَيْهِم . . . ثُمَّ هَاجَتْ إِلَى صَبِيْرٍ صَبِيْرَا
فَرَأَاهَا الْإِلَهَ تَنْزِلَ شَمًّا بِالْقَطْطِ . . . رِوَأْسَى جَنَابِهِمْ مَطْـوْرَا
فَسَقَاهَا نَشَاطَةً وَكَفَّ الْعَفِيْرَ . . . سِتْمَنَةً إِنْ رَادَعُوهُ الْكَبِيْرَا
سَلَحَ مَا وَمِثْلُهُ عَشْرُ مَ . . . عَائِلٌ مَا وَعَالَتْ الْبَيْتُـوْرَا (٥)

(١) السيرة الحلبية : ١٨١/١ .

(٢) دلائل النبوة ، لأبي بكر أحمد بن الحسين البيهقي . تحقيق د . عبد المعطى

قلعجي . ط دار الكتب العلمية . بيروت سنة ١٤٠٥ ، ص ١٧ - ١٩ .

(٣) الحيوان : ٤/٤٦٦ ، نهاية الارب في فنون الادب : ١/١٠٩ ، ١١٠ .

(٤) ديوانه : ٣٩٧ - ٣٩٩ .

(٥) العضاة : أعظم الشجر وما عظم وطال منها . يسفون : يأخذون الدقيق أكلا غير =

ويقول الورل الطائي ساخرا من ذلك الفعل : (١)

لا دَرْدُرُ رجال خابَ سَمْعُهُم .. يَسْتَمْطِرُونَ لَدَى الْأُزْمَاتِ بِالْعُشْرِ

أَجَاعَلُ أَنْتَ بَيَقُورًا سَلَمَةً .. ذَرِيعَةً لَكَ بَيْنَ اللَّهِ وَالْمَطَرِ (٢)

ويذكر العباس بن مرداس السلي (٣) استسقاءهم في الجاهلية ، وأنهم كانوا يختارون

أفضلهم حسبا ممن يرجى الخير على يديه ، ويشبه هؤلاء الرجال بوفد عاد الذي

أرسلوهم ليستقوا لهم ، يقول : (٤)

= معجون ، والسفوف : اقتماح كل شيء يابس . الفطير : ما عجل تحبزه من ساعية ،

ولم يترك حتى يخترم . باقر : أي البقر . الطود : الجبل . مهازيل : أي ضعاف

نحاف ، هزلتها الازمة .

الشكر : جمع شكير : وهو الشعر القصير بين الشعر الطويل . تهيج البحور :

أي تثيرها .

كلها : أما كل الانئاب ، أو كل البقر . الصبر : السحاب يثبت يوما ولييلة

ولا يرح ، كانه يصبر أي يحبس . رآها : أي الارض . ترشم : ارشمت

الارض أي بدا نباتها .

القطر : المطر . النشاص : السحاب المرتفع .

واكف الغيث : أي الهاطل من المطر الغزير .

السلع والعشر : ضربان من الشجر .

عالت : أي حملت حملا ثقل عليها فهو عائل : أي ثقيل : والمعنى أن البقر

اثقلت بما حطته من السلع والعشر .

البيقور : أي البقر ويقال أيضا : بقر وباقر وبقير وباقور وباقورة وكلها اسماء

للجمع .

(١) الحيوان : ٤ / ٤٦٨ ، نهاية الارب في فنون الادب ١ / ١٠٩ ، ١١٠ .

(٢) سلعة : أي وضع في أنابها وعراقيها من حطب السلع .

(٣) العباس بن مرداس السلي : شاعر مخضرم ، ممن حرم الخمر على نفسه ، وهو

ابن الخنساء الشاعرة ، وكان من سادات قومه ، اسلم ، وكان من المؤلفين

قلوبهم وهو فارس العبيد - حصانه - مات في خلافة عمر . وانظر في ترجمته :

تهذيب التهذيب ٥ / ١٣٠ ، طبقات ابن سعد : ٤ / ١٥٠ ، خزانة الادب : ١ / ١٥٢

(٤) ديوانه : تحقيق يحيى الجبوري ط (١٣٨٨) وزارة الثقافة والاعلام - العراق .

فِي كُلِّ عَامٍ لَنَا وَفْدٌ نُسَيِّرُهُمْ .. نَخْتَارُهُمْ حَسْبَ مَا وَاحَلَمْنَا
 كَانُوا كَوْفَدٍ بَنَى عَادٍ أَضْلَهُمْ .. قَلِيلٌ فَأَتَّبَعُ عَامٌ مِنْهُمْ عَامًا
 عَادَ وَاقْلَمَ يَجِدُوا فِي أَرْضِ قَوْمِهِمْ .. إِلَّا مَفَانِيَهُمْ قَفَرًا وَآرَامًا ^(١)
 وَالَّذِي يَدُلُّ عَلَيْهِ قَوْلُ أَبِي طَالِبٍ فِيمَا صَحَّ لَابْنِ هِشَامٍ مِنْ قَصِيدَتِهِ - أَنَّهُمْ كَانُوا يَسْتَسْقُونَ
 اللَّهَ بِبِرْكَتِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فَيَقُولُ : ^(٢)

وَأَبْيَضُ يَسْتَسْقِي الْقِمَامُ بِوَجْهِهِ .. شِمَالُ الْيَتَامَى عِصْمَةٌ لِلْأَرَامِلِ ^(٣)
 يَلُونُ بِهِ الْهَلَاكُ مِنْ آلِ هَاشِمٍ .. فَهَمْ عِنْدَهُ فِي رَحْمَةٍ وَفَوَاضِلٍ ^(٤)

(١) وفد عاد : هم الذين ذهبوا يستسقون لقومهم المطر عندما أجذبوا ، وكانت
 العرب تضرب بها المثل فيقولون ألا تكن كوافد عاد ، يريدون في الإتيان
 بالشر والبلاء . ولهذا الوفد قصة في هلاك عاد . وانظر البداية والنهاية :
 ١٢٦ / ١ وما بعدها .

مَفَانِيَهُمْ : المنازل التي كان بها أهلها . آرام : أى ستأصلة .

(٢) سيرة ابن هشام : ٢٧٦ / ١ .

(٣) شمال اليتامى : أى ملجأهم ومغيثهم والقائم بأمرهم .

(٤) الْهَلَاكُ : هَلَوُفٌ مفردا وهو العجز الكبير المسنن ، والمراد الضعفاء والفقراء .

ثالثا : النذر :

وهو ما يجعله الانسان واجبا على نفسه ، لم تكن مأمورة به بل فعله مختارا متبرعا
سواء كان عبادة أم مالا أم غيرها . ولا شك أن كثيرا من نذور الجاهليين المشركين
كان لأصنامهم منها حظ وافر . وقد دل على شيوع ذلك بينهم كثير من الدلائل ، وهم
مع هذه النذور التي يوجبونها على أنفسهم كانوا يرون الوجوب بوفائها .

ففي الصحيح " أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه سأل النبي صلى الله عليه وسلم قال :
كنت نذرت في الجاهلية أن أعتكف ليلة في المسجد الحرام ، قال : أوف بندرك " (١)
وفي السيرة : أن عبد المطلب نذر حين لقي من قريش الملقى عند حفرة بئر زمزم ، لئن
ولد له عشرة من الولد حتى ينعموه ، لينحرنَّ أحدهم لله ، فلما تم له ذلك أخبرهم
بنذره ، حتى وقع النذر على أبته عبد الله . (٢)

وقد كان " الفوث بن مر " يلى الإفاضة بالعرب من عرفة ، والسبب فيما يروى من ولايته
أن أمه - وهى من جرهم - كانت لاتلد ، فنذرت لله إنَّ هى ولدت رجلا أن تصدق بـه
على الكعبة عبداً لها يخدمها ، فولدت الفوث فكان يقوم على الكعبة كما نذرت أمه . (٣)
ويبدو أن أكثر النذور عند الجاهليين كانوا يقدمون عليها إذا أهدق بهم خطر ،
أو ألت بهم ضائقة ، وهذا أمر طبيعى فى الناس . وكان بعض النساء يذرن أو يجعلن
ولدهن (حُتسا) أن شفى الرب ابنها من مرض ألم به ، كما كانوا يذرون بحلق شعر
الرأس أو جز الناصية أو الاعتكاف وغير ذلك . (٤)

وقد وصلنا شئ من أشعارهم فى بعض مواقف ، نطقت بها صا درهم ، فهذا
" أمروء القيس " عندما علم بمقتل أبيه ، حلف ألا يذهب دمه باطلا ثم يندرا لا يأكل
لحما ولا يشرب خمرا ولا يصيب امرأة حتى يدرك ثأر أبيه ، وقال فـ

(١) رواء البخارى ، فتح البارى : ٨ / ٣٤ ، ٤ / ٢٨٤ .

(٢) انظر القصة فى سيرة ابن هشام : ١ / ١٥١ وما بعدها .

(٣) السابق : ١ / ١١٩ .

(٤) أخبار مكة (للازرقى) ١ / ١٨٠ ، وسيرد معنا ذكر الحس عند الحديث عن الحج
والعمرة .

(١)
ذلك :

والله لا يذهبُ شيخى باطلا .. حتى أبىءَ مالكا وكاهلا

القاتلينَ الطلحَ الحلاحلا .. خيرَ معترٍ حسبا وناءلا

ولما نال من بنى أسد - قتله أبىه - بمن كان معه من حمير ومن تبعه ممن طال بهم ضرته
من القبائل ، ورأى أنه برّ يقسمه ووفى بنذره قال فى ذلك : (٣)

قولا لِدودانَ عبيدَ العصا .. ما غزكم بالأسدِ الباسِيل

قد قُرتَ العيانَ من مالِك .. ومن بنى عمرو مِن كاهل

ومن بنى عُثْمَ بن دودانَ إنَّ .. نقدُ أعلامهم على السافل

نطعنهم سُلُكى ومُخلوَجة .. لفتك لا مِين على النَّابل

إنَّ هنَّ أقساطٌ كرجلِ الدِّبا .. أو كقطا كاظمة النَّاهل

حتى تركناهم لِدَى مَعْرِك .. أرجلهم كالخشبِ الشَّائل

حلَّتْ لى الخمرُ وكنتُ امرءاً .. عن شربها فى شغلٍ شاغل

فالْيَوْمَ أُسْقَى غير مُستَحَقِّب .. إثمًا من الله ولا واغليل (٤)

(١) ديوانه : ١٣٤ والقصة فى الاغانى : ٨٢/٩ وما بعدها .

(٢) كاهل : أبو فخذ من بنى أسد ، الحلاحلا : السيد الكريم .

(٣) ديوانه : ١١٩ - ١٢٢ ، وانظر شعراء النصرانية : ١٨ .

(٤) عبيد العصا هم بنو أسد وسبب التسمية فيما روى أن حجرا والد امرئ القيس

كان فى بنى أسد ، وله عليهم اناوة فى كل عام ، وفى سنة من السنين أبت بنو

أسد ذلك . وضربوا جباهه ، فلما علم حجر بذلك سار اليهم بجيش فهزمهم

وأخذ سادتهم فجعل يضربهم ويقتلهم بالعصا فسموا عبيد العصا . وانظر

الاغانى ٨٢/٩ ، ٨٣ . قُرت عينه : اذا رضى واستراح مما كان يتجشمه ويخشاه .

يروى فى البيت (كرك ، ردك) بدل لفتك ، السلكى : الطعنة المستقيمة

مخلوَجه : أى تصرف مرة كذا ومرة كذا حتى يصح صوابه . والمعنى : يذهب

الطعن فىهم ويرجع كما ترد سهمين على رام رمى بها .

هن اقساط : أى الخيل قطع وفرق . رجل الدبا : القطعة من الجراد

كاظمة : موضع قرب البصرة مما يلي الخليج . الخشب الشائل : الطلق بعضه على =

و" عنتره العبسي " يخاف أن تدركه المنية ولما يدر الدائرة على خصومه - بنى ضمضم -
وقد كانوا معتدين عليه ، ان شتموه ولم يكن سبهم ، وأندروا دمه عندما لا يجدونسه
يقول في ذلك : (١)

ولقد خَشِيتُ بَأْنَ أَمُوتَ وَلَمْ تَدْرُ . . للحربِ دائرةٌ على ابني ضُضْمِ
الشامسي عَرَضِي وَلَمْ أَشْتَمْهُمَا . . والناذِرِينَ إِذَا لَمْ الْقَهْكُمْ دِي
إِنْ يَفْعَلَا فَلَقَدْ تَرَكْتُ أَبَاهُمَا . . جزرَ الخامعةِ ونسرَ قَشْعَمِ (٢)

وذا " زهير " يمدح فتية بوفائهم ما نذروا ، كما أنهم كرما ، يقدمون شواء اللحم للضييف
والمحتاجين ، كما أن هؤلاء الفتية يسرفون في شرب الخمر ، وهم سادة مخدومون ولكن
هذه الخمر لا تذهب بأحلامهم فلا تغير حميد صفاتهم ، يقول : (٣)

قَدْ أَشْهَدُ الشَّارِبَ الْمُعْذِلَ لَا . . مَعْرُوفُهُ مُنْكَرٌ وَلَا حُصْرُ
فِي فَتْيَةٍ لَيْتَنِي الْمَازِرُ ، لَا . . يَنْسَوْنَ أَحْلَاسَهُمْ إِذَا سَكَرُوا
يُشَوُّونَ لِلضَّيْفِ وَالْعَفَاةِ وَيُـ . . فَوْنَ قِضَاءَ إِذَا هُمْ نَذَرُوا (٤)

ونرى " عبد قيس بن خفاف " يوصي ابنه (٥) بتقوى الله والوفاء بالنذر ، كما يحثه على

= بعض فترتفع أطرافه ، يشبه أرجل القتلى وقد انتفخت وامتدت به . ستحقب :
محتمل ومستحق . الواغل : الداخل في القوم يشربون ولم يدع .

(١) ديوانه : (٢٢١ ، ٢٢٢ .

(٢) ابني ضمضم : (حصين ومرة من ذبيان من بني مرة .

الجزر : اللحم المجزور . الخامعة : الضبع سمى بذلك لانه يخضع في مشيته
أى يضلعه . القشعم : السن .

(٣) ديوانه (الأعلم) : ٢٤٤٤ .

(٤) المعذل : الذي أكثر الناس عذله ولوومه ، لاستهتاره بالخمرة . لا معروفة منكر :
أى لا تسوء أخلاقه في حالة سكره . الحصر : البخيل الذي لا يتفق مع القوم .

لَيْنَ الْمَازِرُ : أى ثيابه لينة كريمة ، لا يشدها للعمل ، فله من يخدمه ، والمعنى :
هم سادة أشرف مخدومون . العفاة : جمع عاف ، وهو طالب المعروف .

(٥) هو من بنى عمرو بن حنظلة من البراجم ، يروى أنه حمل دية من قومه فأسلموه
فأتى حاتما الطائي فحملها عنه . وانظر معجم الشعراء للمريزان : ٣٢٥ ، والشعر
والشعراء : ١/ ١٦٥ .

الاستثناء في قسمه عند المجادلة أو يخرج من يمينه بما يحللها له .

اللَّهُ فَاتَّقُوا وَافِرْ بِنَذْرِهِ . . . وَإِذَا حَلَفْتَ مَارِيًّا فَتَحْلَلْ

ومن الوفاء بالنذر أن عمرو بن كلثوم حلف لا يذوق دسما حتى يموت وقال : (٢)

مَعَاذَ اللَّهِ يُدْعُونِي لِجَنَّتٍ . . . وَلَوْ أَقْفَرْتُ أَيَّامًا قَتَلْتُ أَرَا

(٣)

وإذا جرات العود يذكر في سمره النذر حيث قال :

وَجَدْتُ بِشَاشَةً لَمَّا اتَّقَيْنَا . . . لِأَقْضَى مَا عَلَيَّ مِنَ النَّذْرِ

(١) المفضليات : ٣٨٤ ، الاصمعيات : ٢٢٩ .

(٢) المحبر ص ٤٧١ وانظر القصة فيه .

(٣) ذيل الامالي للقالى ص ١٠٢ .

رابعاً : الأشهر الحرم وتعظيم مكة وشعائر الحج :

تعد مكة من أشهر البقاع التي يعرفها العرب ، وكانت من أكبر مراكز العرب التجارية ، كما أنها أعظم بلادهم قداسة وشفاء ومهابة . ان فيها الكعبة المشرفة التي تعظمها وتطوف بها العرب من عهد خليل الرحمن - عليه الصلاة والسلام - كما انها محط رحالهم ، ومقصد هم ، يتوجهون اليها في كل عام ، ويقضون بها فترة من الزمن ، ويؤدون بها كثيراً من المشاعر ، ويحجون فيها ويعتصرون .

وكانت بجانب ذلك مأوى الخائفين ، وأمن المذعورين ، يؤمنونها من نواحي جزيرتهم ويتفاخرون بما يعظمونه منها ، ويتنافسون في شرف القيام بها .

ولما كانت " مكة " بهذه المنزلة من العرب ، فقد كانوا يرون الحج والعمرة من أشهر عباداتهم ، ويؤدون فيها من الشعائر ما ورثوه من دين ابراهيم واسماعيل ، وان أضافوا اليها بعض الامور التي لم تكن منها ، فقد آن لنا أن نتحدث عن هذه العبادة ، وهي الحج والعمرة وما يدخل فيهما .

ولما كان الحديث عن الحج والعمرة مرتبطاً بمكة وقدسيتها عند العرب فاننا سنتحدث عن تعظيم حرمة مكة عندهم وما كان من ذلك ، ولما للحج عندهم من قدسية . كان كثير من العرب يعظم الاشهر الحرم ، ويراهن ذات بال ، مما نجد مقرونا عندهم بالحديث عن الحج .

وكل ذلك سنعرض له في ضوء الطريقة التي تسلكها هذه الدراسة ، حيث تستقي كل هذه الروى مما اثبت في شعرهم في هذا النطاق .

أ - تعظيم الأشهر الحرم :

كان من العرب من يعظم الأشهر الحرم ، ومقتضى ذلك عند هم ترك القتال فيها ، حتى كان من وتر بأحد عشيرته لا ينهض لقتل غريمه فى أى وقت من هذه الشهور ، وإنما ينتظر انقضاء الشهر الحرام ثم يفعل ما بداله . وليس هذا التحريم عاما فى العرب وان عرفه كثير منهم ، فقد كان هناك من لم يكن يقرب ذلك ولا يحرمه ، ولا يعظم حرمة الحرم ، وهذا شأن بعض اللصوص والغتاك ، الذين كانت الغارات والاعتداءات مصدر رزقهم ، وقد ذكرت لنا المصادر من هؤلاء (طى) و (خثعم) ، وكثير من أحياء قضاة ويشكر والحارث بن كعب . (٢)

وما يدل على تعظيمهم للأشهر الحرم ، ما حدث فى حرب الفجار المشهورة وإنما سميت بذلك لأنها فى الأشهر الحرم . (٣)

ويؤكد عمل العرب بهذا التحريم ما ذكره الله بقوله : " ان عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرا فى كتاب الله يوم خلق السماوات والارض منها أربعة حرم ذلك الدين القيم فلا تظلموا فيهن أنفسكم وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة واعلموا ان الله مع المتقين .

انما النسب زيادة فى الكفر يضل به الذين كفروا يحلونه عاما ويحرمونه عاما ليواطئوا عدة ما حرم الله فيحلوا ما حرم الله زين لهم سوء أعمالهم . . . " (٤)

فالآيتان تدلان على ما كان يفعله العرب من أمر النسب ، وذلك أنهم استثقلوا أن تمر بهم ثلاثة أشهر لا يغيرون فيها لان معاشهم منها ، وهذه الثلاثة هى شهر ذى القعدة وذى الحجة والمحرم . فيحلون المحرم ويستحلون الغارة والقتل فيه ويؤخرون حرمة الى شهر " صفر " فيحرمونه مكانه حتى تكون العدة كاملة كما علموا ذلك من

(١) المحبر : ٣١٩ ، لسان العرب (حرم) : ١٢ / ١٢١ .

(٢) الحيوان : ٢ / ٢١٦ .

(٣) السيرة النبوية لابن هشام القسم الاول ص ١٨٤ .

(٤) براءة : ٣٦ ، ٣٧ .

شريعة ابراهيم - اربعة أشهر - ولذلك قال تعالى " ليواطئوا أى يوافقوا عدة ما حرم الله فيكون ما حرموه موافقا لما حرمه الله تعالى ، وهذا هو النسئ . (١)

وفى قصة وفد عبد القيس عند ما أتوا النبى صلى الله عليه وسلم - كما فى الصحيح - انهم قالوا له : " انا نأتيك من شقة بعيدة ، وبيننا وبينك هذا الحى من كفار مضر ، ولا نستطيع أن نأتيك الا فى شهر حرام فمرنا بأمر نخبر به من وراءنا ندخل به الجنة . (٢)

وعلى الرغم مما احدثوه فى الاشهر الحرم من (نسي) بقيت الاشهر الحرم عندهم معظمة ، واقتضى هذا أن يكون لهم نساء يشرعون لهم ذلك وبينونه ، وخاصة فسى الحج عند ما يفرغون منه ويجتمعون بالنساء حتى ينصرفوا عن بيته . (٣)

وبجانب هؤلاء النساء المحتالين فقد كان من العرب نساء منتطمعون ، كانوا يجعلون لهم ثمانية أشهر كلها حرم ويعرفونها باليسل ، عرف ذلك العرب ، ومنهم قوم من قيس وغطفان . (٤)

وما ورد من شعرهم فى ذكر اليسل قول زهير بن أبى سلى : (٥)

تَرْتَمِصُ فَإِنْ تَقَوَّيَ الْمُرَوَّاءُ مِنْهُمْ .. وَدَارَتْهَا لَا تَقْوِيَتْهُمْ إِذَا نَحَلُّ
فَان تَقَوَّيَ يَامِنْهُمْ فَإِنَّ مُحَجَّجًا .. وَجَزَعُ الْحَسَا مِنْهُمْ إِذَا قَلَّمَا يَخْلُو

(١) تفسير ابن كثير : ٩١ / ٤ وما بعدها . وما ذكرناه هو المشهور ، وقد قيل فسى النسئ غير ذلك ذكره ابن كثير أيضا عند تفسير الآيات . وهذا ضرب من النسئ والاخر تأخير الحج عن وقته تحريا منهم للسنة الشمسية ، فكانوا يؤخرونه فسى كل عام أحد عشر يوما أو أكثر قليلا حتى يدور الدور الى ثلاث وثلاثين سنة فيعود الى وقته ، ولذلك قال - صلى الله عليه وسلم - فى حجة الوداع : " ان الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والارض " ، وكانت حجة الوداع فى السنة التى عاد فيها الحج الى وقته .

(٢) فتح البارى شرح صحيح البخارى : ١ / ١٨٣ .

(٣) سيرة ابن هشام : ١ / ٤٤٠ .

(٤) تفسير ابن كثير : ١ / ٨٦ ، سيرة ابن هشام : ١ / ١٠٢ ، ١٠٣ ، لسان العرب

(بسل) ١١ / ٥٥ .

(٥) ديوانه : (الاعلام) : ٣٤ .

بِلَادُهَا نَادَتْهُمْ وَأَلْفَتْهُمْ . . . فَإِنْ تَقَوَّيَا مِنْهُمْ فَأَنْتَهُمَا بَسَلٌ (١)

وقال الأعشى : ميمون بن قيس : (٢)

أَجَارَتْكُمْ بَسَلٌ عَلَيْنَا مُحَرَّمٌ . . . وَجَارَتْكُمْ لَكُمْ وَحَلِيلُهُ (٣)

ونجد النابغة الذبياني يتخوف أن يموت النعمان بن المنذر عند ما علم بشغل مرضه عليه ، ويرى أن الأمن الذي ساد الناس بوجود النعمان كأمنهم في الأشهر الحرم ، إذ الناس بها آمنون لا يخشون قتلا ولا اعتداء ، فإن هلك النعمان فلا أمن ، كأنهم في شهر حلال .

فَإِنْ يَهْلِكَ أَبُو قَابُوسٍ يَهْلِكَ . . . ربيعُ النَّاسِ وَالشَّهْرُ الْحَرَامُ (٤)

وإذا كان النابغة مدح " النعمان " بحفظ أمن الناس ، فقد هجا " الأعشى " رجلا يقال أنه أسره ، والمهجو عند الشاعر ليس من أهل الأشهر الحرم وإن ذكر شهرا محرما ، وكان من عادة أهل الشهر الحرام أن يعظموه بما يفعلون فيه كما قالوا : " شهر بني أمية " لشهر ذي الحجة كما سيأتي ، أو (رجب مضر) الذي كانت تعظمه وتكثر فيه من الأكرام

(١) تريض : تلبث ولا تعجل بالذهاب . العرواة : موضع كان فيه يوم العرواة . الدارة

كل أرض واسعة بين جبلين ، نخل : موضع بنجد من أرض غطفان وقيل غيره وانظر

معجم البلدان ١٨٢/٥ . تقوى : أى تخلو .

محجرا : موضع ، جزء الحساء : الجزء : منعطف الوادى ويقال جانبـــــــــــــــــه ،

والحساء : جمع حسي وهو ماء قد رفع الرمل عنه وقصره هنا ضرورة .

فأنهما بسل : أى حرام على أن خلت منهم ، وفي سيرة ابن هشام ١٠٣/١ . " فإن

تقويا منهم فأنهم بسل " . يقول : ساروا في حرمهم .

وقد يأتي البسل في اللغة بمعنى الحلال ومنه بيت المتلمس الضيعي :

حَتَّى إِذَا نَخَلْتُ الْغُصُوبَ فَقُلْتُ لَهَا . . . بَسَلٌ عَلَيْكَ أَلَا تُلْكُ الدَّهَارِيْسُ

ديوان المتلمس ص ٨٥ تحقيق حسن الصيرفي ط . معهد المخطوطات . وانظر

اللسان " بسل " ٥٥/١٤ .

(٢) ديوانه : ٢٢٥ .

(٣) حليلها : زوجها .

(٤) ديوان النابغة : ٢٣٣ .

والاحتفاء حتى سموه بها . ويقول " الاعشى " ان هذا المهجو أقل شرفا من بنى العبيد
(١)
وبنى الشهر الحرام :

بنو الشهر الحرام فليست منهم . . . ولست من الكرام بنى العبيد
ونرى " عوف بن الأحوص " (٢) يذكر بنى أمية ويسمى شهر الحج بهم ، (وكانت مشايخ
قريش تعظمه فنسبه الى بنى أمية . وخص بنى أمية لتقدمها في فخرها على سائر قريش
في الجاهلية) ، يقول عوف : (٣)
(٤)

وشهر بنى أمية والهدايا . . . إذا حُبِسَتْ مُضْرَجُهَا الدَّمَاءُ
وهذا " زهير بن أبى سلى " يذكر أن الاشهر الحرم قد انتهت ودخلت شهور الحل ،
ودخل وقت الغزو فليكن لهم رجل ذا عقل ورأى يبرم أمرهم . يقول (٥)
إِنَّ الرِّكَابَ لَتَبْتَغَى ذَا مِرَّةٍ . . . بِجَنُوبِ نَخْلٍ إِذَا الشُّهُورُ أَحَلَّتْ
فاذا أصيب أحدهم يوتر ثم دخلت عليه الاشهر الحرم انتظروا حتى تنقضى ، ثم يكون
الغزو للثأر ، هذا تأبط شرا يتوعد العوص من يجهله بقتالهم عند انسلاخ الاشهر
الحرم ، مع ما عرف به من الصلعة وكثرة الغارات ، وكان قد خرج مع رفاق له فأغاروا
على العيص ، فأخذوا بعض نعمهم ، ولكنهم اتبعوهم فأدركوهم ففروا وقتلوا أحد أصحابه
يقول : (٦)

لَنَعْمَ الْغَتَى ثَلُثُ كَأَنَّ رِدَاءَهُ . . . عَلَى سَرَحٍ مِنْ سَرَحٍ دَوْمٍ شَانِقُ

(١) ديوانه : ٢٢٩ .

(٢) هو عوف بن ربيعة بن جعفر بن كلاب . والأحوص لقب أبيه ، ويكنى أبا يزيد ، شاعر
جاهلى ، شهد يوم شعب جيلة ، شهد يوم شعب جيلة ، وهو شيخ كبير فقام
بتدبير أمر قومه . وانظر : سمط اللالكى ٣٧٧ ، الحيوان ١٣٦/٥ .

(٣) شرح الفضليات للتبريزى : ٦٤٣/٢ ، ٦٤٤ .

(٤) الفضليات : ١٧٤ .

(٥) ديوانه : ١٦٣ .

(٦) الاغانى ج ٢١ ، ص ١٣٨ .

فَعَدُّوا شَهْرَ الْحَرَمِ ثُمَّ تَعَرَّفُوا . . قَتِيلَ أَنَسٍ أَوْ فِتَاةَ تَعَانِيْقٍ (١)

وقد كان شهر رجب يحظى بتعظيم وحرمة كبيرة عند الجاهلية حتى قالوا " فإذا دخل شهر رجب قلنا : منصل السنة ، فلا تدع رمحا فيه حديدة ، ولا سهم فيه حديدة الا نزعناه و ألقيناه شهر رجب " . (٢) وسموه أيضا (منصل الأل) ، والأل : السنة وانما سموه بذلك لانهم ينصلون أسنة الرماح ، أى ينزعونها ، يقول الاعشى :

فَأَعْطَاهُ حِلْسًا غَيْرَ نَكْسٍ أَرَسَهُ . . لَوْ أَلْمَأَهُ أَوْفَى وَقَدْ كَادَ يَذْهَبُ
تَدَارَكَهُ فِي مُنْصِلِ الْأَلِّ بَعْدَمَا . . مَضَى غَيْرُ دَأْدَاءٍ وَقَدْ كَادَ يَعْطِبُ (٣)

وأخيرا نجد " جذل الطعان " (٤) يفخر بانه من النساء على العرب ، وهم الذين كانوا

(١) سرحة : مفرد سرح وهو شجر اكبار عظام طوال ، يشبه الرجل به فى تمام خلقته وطول قامته . المعنى : سوف أمهلكم حتى تنتهى الاشهر الحرم ، ثم أغزوكم حتى لن يمكنكم أن تتبينوا ما جرى لكم ، وتميزوا بين قتلاكم ومن سلبت نسائه منكم .

(٢) فتح البازن شرح صحيح البخارى : ٩٠٨

(٣) المجلس : القدح الرابع فى المسير وكان الرجل ربما أكرم ضيفه بأن يهبه السهم من السهام فى المسير فيكون له ربحه ، غير نكس : غير مكسور الرأس . أرسه : جمعه وألزمه . لؤاما : يقال سهم لأم عليه ريش لؤام أى يلائم بعضه بعضا . وكان السهم اذا انكسر جبروه وربطوه لأنه عزيز عليهم . أوفى : وفى به وأنجزه وقد كاد يذهب أى الضيف الذى أعطاه السهم .

منصل : اسم فاعل من انصل أى نزع ، الأل (بتشديد اللام) الحدييدة السننة التى تكون فى رأس السهم ، ومنصل الأل : شهر رجب ، كانوا ينزعون فيه الأسنة من الرماح لأنه شهر حرام لا يقاتل فيه . الدأداء : واحدة الدأدى وهى الثلاث الليالى من آخر الشهر ، وقيل هى الليلة التى يشك فيها أمن الشهر الماضى أم الداخل . المعطب . التلف . ومعنى البيتين سخرية بحارثة بن وعلقة الذى أعطى جاره القدح وهو على وشك الرحيل ، وقد ذهب الشهر الحرام الذى يمنعهم من قتل هذا الطريد الذى أجاره .

(٤) جذل الطعان هو عمير بن قيس أحد بنى فراس بن نعم وانما سعى بذلك لشبائه فى الحرب كأنه جذل شجرة واقف ، وقيل لانه يستشفى برأيه كما تستريح الجرباء الى الجذل فتحتك به . مجمع الصحراء ٢٤٣

ينسأون الشهور على العرب ، فيحلون الشهر من الاشهر الحرم ويحرمون مكانه آخر
من أشهر الحل ويؤخرونه ، كما يفخر أيضا بشرف قومه وشجاعتهم : (١)

لقد علمت معدُّ أن قومسي . . كرامُ النَّاسِ أنَ لهم كراما
فأى النَّاسِ فاتونا بوتـر . . وأى النَّاسِ لم نُعلِكْ لجاما
السَّنا النَّاسِينَ على مَعـيـر . . شهورُ الحِلِّ نُجـعلُها حراما (٢)
ومن تعظيمهم للحرم أن يقسموا بربه كما قيل :

قتلوا كليباً ثم قالوا ارتعوا . . كذبوا وربَّ الحِلِّ والإحرام (٣)

(١) سيرة ابن هشام ٤٥ / ١ ، معجم الشعراء : ٢٤٣ .

(٢) أى أباء كرام وأخلاقا كراما ، الوتر : طلب التآر . لم نعلك لجاما يريد لسم
ثقتهم ونكتهم كما يُقَوِّعُ الغرس باللجام .

نقول اعلكت الغرس لجامه اذا رددته عن تنزعه فمضغ اللجام كالعلك من نشاطه .

(٣) شعراء النصرانية ١٧٥ / ٢ والبيت لمهلل أخو كليب ابني ربيعة .

ب - تعظيم حرمة مكة :

كان كثير من العرب يعرف لمكة قدسيتها ويعظمها ، ويرى أنها بلد حرام ، لا تسفك فيه الدماء ولا يحل الغزو والظلم فيها ، وانما يستثنى من هؤلاء من روى أنهم لا يعرفون للشهر الحرام ولا لمكة حرمة ولا تعظيما ويستحلون فيها البغي والعدوان كطي وخشم^(١) . وحسبنا دليلا على ذلك ماورد في القرآن الكريم ، فقد أشار الى ذلك في غير موضع ، منها قوله تعالى " واذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمنا . " ^(٢) ، وقوله عز وجل " جعل الله الكعبة البيت الحرام قياما للناس . . . " ^(٣) ، ومنها أيضا " أولم يروا أنا جعلنا حرما آمنا ويتخطف الناس من حولهم " ^(٤) ، وقوله تعالى " أولم نمكن لهم حرما آمنا يجبى اليه ثمرات كل شيء رزقا من لدنا . . . " ^(٥) .

ويفهم من هذه الآيات أن مكة بلد آمن وأن العرب تعرف ذلك لها وذلك تعظيما لحرمتها . جاء في معنى قوله تعالى " جعل الله الكعبة البيت الحرام قياما للناس والشهر الحرام والهدى والقلائد " أنها " حواجز أبقاها الله بين الناس في الجاهلية ، فكان الرجل لو جرّ ثم لجأ الى الحرم لم يتناول ولم يقرب . وكان الرجل لو لقي قاتل أبيه في الشهر الحرام لم يعرض له ولم يقرب . وكان الرجل اذا أراد البيت تقلد قلادة من شعر فأحتمه ومنعته من الناس حتى يأتي أهله ، حواجز أبقاها الله بين الناس في الجاهلية " ^(٦) .

والذى تدل عليه كثير من المصادر أن من سنة الجاهليين اذا أحدث الرجل حدثا ثم لجأ الى الحرم لم يهجع ، وكان اذا لقيه ولى الدم في الحرم قيل هو ضرورة فلا تهجه ، فلما جاء الاسلام أخذ القاتل وقتل وتقطع يده ولا يمنعه الحرم من ذلك . ^(٧)

(١) أيمن العرب في الجاهلية : ١٢ .

(٢) البقرة : ١٢٥ .

(٣) المائدة : ٩٧ .

(٤) العنكبوت : ٦٧ .

(٥) القصص : ٥٧ .

(٦) تفسير الطبري : ٩٣ / ١١ .

(٧) النهاية في غريب الحديث : ٢٢ / ٣ ، تفسير ابن كثير : ٨ / ٣ ، ٩ ، الجامع

لاحكام القرآن : ٣٠٠ / ١٣ ، ص ١٤٠ ، ١٣٩ / ٢ ، ص ١٤٠ .

وقد ورد في أشعار الجاهليين ما يؤيد ذلك ، فمن مظاهر تعظيمهم للحرم القسم بالبيت ان هو ركيزة الحرم ، فهذا زهير يقول : (١)

فَأَقْسَمْتُ بِالْبَيْتِ الَّذِي طَافَ حَوْلُهُ . . . رَجَالٌ بَنَوْهُ مِنْ قُرَيْشٍ وَجُرَّهُمْ

(٢)

وهذا عوف بن الاحوص يقسم بالبيت والمشارع :

وَلَيْتِي وَالَّذِي حَجَّتُ قُرَيْشًا . . . مَحَارِبُهُ وَمَا جَمَعَتْ حِرَاءُ

وشهر بن أمية والتهديا . . . إِذَا حُبِسْتُ مُضَرَّجُهَا الدَّمَاءُ

ونرى النابغة يقسم بالبيت الذي يهتسح به وبما يذبح على الانصاب ، ثم يشير الى أمن الطير العائذة بالحرم ان لا تغزع من الركبان الذين يفدون ويقتربون منها : (٣)

فَلَا كَعَمْرُو الَّذِي مَسَحَتْ كَعْبَتَهُ . . . وَمَا هُرِيقَ عَلَى الْأَنْصَابِ مِنْ جَسَدٍ

وَالثُّؤْمُنُ الْعَائِذَاتِ الطَّيْرِ تَسْحُبُهَا . . . رُكْبَانُ مَكَّةَ بَيْنَ الْغَيْلِ وَالسَّنَدِ (٤)

وهذا أحد سادات قريش يخاطب صاحباً له يسمى (أبو مطر) ويرغبه الى العيش معه في مكة التي من أسماؤها صلاح ، حيث يعيش فيها مع ندمائها آمناً لا يخاف أن يفزوههم جيش ان لا يقدم أحد على غزوها مهابة أن يصيبه عقاب الله ، ومكة بلد لا يخضع لحكم أحد ولا سيطرته فيرغبه الى الامن والحرية ، يقول : (٥)

أَبَا مَطَرٍ هَلُمَّ إِلَى صَلَاحٍ . . . فَتَكْفِيكَ النَّدَامَى مِنْ قُرَيْشٍ

وَتَأْمَنَ وَسَطَهُمْ وَتَعِيشُ فِيهِمْ . . . أَبَا مَطَرٍ هُدَيْتَ بِخَيْرِ عَيْشٍ

(١) ديوانه : (الاعلام) : ١٤٠ .

(٢) المفضليات : ١٧٤ ، حراء : جبل بمكة هو الذي فيه غار حراء الذي كان أول نزول الوحي على نبينا صلى الله عليه وسلم فيه .

(٣) ديوان النابغة الذبياني : ٨٥ ، ٨٦ .

(٤) هريق : لغة في أريق أى سالت الدماء من القرابين . الانصاب : حجارة الاصنام . الغيل والسند : قال محقق الديوان : جستان بين مكة ومنى .

(٥) القائل : حرب بن أمية يخاطب أبا مطر الحضرمي ، وقيل هي للحارث بن أمية ، وانظر لسان العرب (صلح) ١٧/٢ ، ديوان أمية بن أبي الصلت : ٥٥٢ ، شعراء النصرانية : ٢٣٥ .

وَتَشْكُنْ بَلْدَةً عَزَتْ لِقَاحًا .. وتأمين أن يزورك رب جيش^(١)

ولما كانت العرب لا تعتدى على من تقلد قلادة لأنه يريد الحرم بحج أو عمرة ، وربما

تقلد هذه القلادة من شجر الحرم بعد أدائه مناسكه حتى يصل الى دياره دون أن

يعتدى عليه أنكروا على من اعتدى على من كان مقلداً وعيبروا من أخفوه كما قال الشاعر :^(٢)

أَلَمْ تَقْتُلَا الْحَرَجِيَّ إِذَا أَعْوَرَكَمَا .. يَمْرَانِ بِالْأَيْدِي اللَّحَاءِ الْمُضْفَرَا^(٣)

ولولا الليل ودخول قريش في الحرم لشد "خداش بن زهير"^(٤) وقومه على قريش شدة

صادقة يكون لهم فيها الظفر كما قال :^(٥)

يَاشَدَّةَ مَا شَدَدْنَا غَيْرَ كَادِبَةٍ .. على سَخِيئَةِ لَوْلَا اللَّيْلِ وَالْحَرَمِ^(٦)

(١) صلاح : على وزن قطام اسم من أسماء مكة المكرمة ، الندامى : جمع نديم وهو

الذى يرافئك ويشارك ، القاح : أى لم يدنووا للبلوك ولم يملكوا .

(٢) هو حذيفة بن أنس الهذلي . كما فى ديوان الهذليين : ١٩ / ٣ ، وانظر أيضا

تفسير الامام الطبرى : ٩ / ٤٧٠ (ط محمود شاكر) .

(٣) الحرجان : شتى حرج (بكسر الحاء وسكون الراء) وهى الودعه التى يتعلقونها

من شجر ونحوه دلالة على قصد الحرم أو العودة منه . وعنى بالحرجين الرجلين

أعوراكما : أى أمكنكما من أنفسهم ، يقال أعور الفارس : اذا بدا فيه موضع

خلل للضرب .

يمران : يقتلان ، من أمر الحبل اذا قتل ، اللحاء : قشر الشجر ، المضفرا :

الذى صنع على هيئة ضفائر .

(٤) خداش بن زهير بن ربيعة من بنى عامر ، شاعر جاهلى من شعراء قيس المجيديين

شهد حروب الفجار وسجل كثيرا من حوادثها وكان يفخر بجده عمرو المقلب

بفارس الصخيا . وانظر الاغانى : ٦٠ / ٢٢ - ٧٤ ، حماسة ابن الشجرى : ٣١ ،

الشعر والشعراء : ٦٤٥ / ٢ .

(٥) الاغانى : ٦٠ / ٢٢ .

(٦) الشدة : يريد بها الهجوم . سخيته : اسم يطلق على قريش وانما سميت به لانهم

يكثرون أكلها ، وهى طعام يتخذ من الدقيق دون العصيدة فى الرقعة فوق الحساء

وقيل تعمل من دقيق وسمن . والمعنى أننا هجمنا على قريش هجمة صادقة ، ولم

ينقد هم منا الا هجوم الليل واعتصامها بالحرم .

ج - الحج والعمرة :

عرفت العرب الحج والعمرة من قديم الزمان ، وترجع هذه الأقدمية الى بنى الخليل واسماعيل - عليهما السلام - للبيت العتيق ثم دعا الناس ليحجوا اليه .

وكثير من آيات الله البينات تدلنا على قيام العرب بهاتين الشعيرتين ، وان كانوا قد أدخلوا فيها بعض المبتدعات . ومن ذلك قوله تعالى " ثم افيضوا من حيث أفاض الناس . . . " (١) لينبه على ما أحدثته قريش من عدم الوقوف بعرفة والاكتفاء بالحرم ، وأن الاسلام يأمر قريشا أن تتف مع الناس بعرفات . وقوله تعالى أمرا من أراد الحج بالاستعداد له من زاد ومتاع وعدم الأقدام على سؤال الناس ، أو أهل مكة لانهم حجاج بيت الله ، ان كان يفعل ذلك بعض العرب فنهى الله عنه " وتزودوا فان خير الزاد التقوى . . " (٢) . وكقوله سبحانه : " فاذا قضيت مناسككم فانكروا الله كذركم آباءكم أو أشد ذكرا . . . " (٣) .

فقد كانوا اذا فرغوا من شعائر الحج تذكروا وتفاخروا بآبائهم فأمرهم الله بذكره ، وترك تفاخر الجاهلية . الى غير ذلك من الآيات التى تدل على شئ من أمور الجاهليين فى الحج ، وحسبنا منها ما أسلفنا .

وسنمضى - بعد النظرة الفاحصة فى شعرهم الدال على ذلك - على ترتيب شعائر الحج من أولها حتى آخرها ، ان هو أقرب تناولا لها مع الاشارة الى ما أحدثه الجاهليون فى بعضها من المبتدعات .

كان حج الجاهليين يبدأ بإلهالهم عند أصنامهم ان يبدؤون بها ويصلون عندها ويلبسون (٤) ويسمى ذلك الإلهال ، وهو رفع الصوت بالتلبية (٥) وبه بدءوا منسكهم

(١) البقرة : ١٩٩ .

(٢) البقرة : ١٩٧ .

(٣) البقرة : ٢٠٠ .

(٤) تاريخ اليعقوبى : ١/٢٢٥ .

(٥) لسان العرب (هـ) : ١١/٧٠١ .

ودخلوا فيه ، وكانوا يسوقون الهدى الى الكعبة ويلبدون شعورهم عند استعدادهم
للالهلال كما سنرى ذلك .

أما التلبية فقد كان لكل قبيلة تلبية ، ترتبط بأصنامها وباسمها ، تغاير تلبيات
الآخرين ومع ذلك فهي مشوبة بالشرك ، ان يشركون الله تعالى مع أصنامهم فيها .
وقد ذكرت بعض المصادر كثيرا من هذه التلبيات ^(١) ، من ذلك :

أن نسك قريش كان لاساف وأن تلبيتهم : " لبيك اللهم لبيك ، لبيك ، لا شريك
لك ، الا شريك هولك ، تملكه وما ملك " ، وكانت تلبية من نسك للعزى " لبيك اللهم
لبيك ، لبيك وسعدك ، ما أحبنا اليك " ، وكانت تلبية من نسك للاث : " لبيك
اللهم لبيك ، لبيك كفى ببيتنا بنية . ليس بمهجور ولا بليه . لكنه من تربة زكية . أربابه
من صالحى البرية " . ، ومن تلبياتهم أيضا تلبية قبيلة همدان ان يقولون :

لَبَيْكَ رَبَّ هَمْدَانٍ .. من شاحط ومن دان ^(٢)
جئناكَ نبغى الإحسان .. بكلِّ حرفٍ مدَّعَان ^(٣)
نطوى اليك الغيطان .. نأملُ فضلَ القُفْرَان ^(٤)

وكانت تلبية بجيلة :

لَبَيْكَ عَنْ بَجِيلَةٍ .. الفخمة الرجيلة ^(٥)
ونعمت القبيلة .. جاءتك بالوسيلة ^(٦)

تَوَسَّلُ الْقَصِيلَةَ

(١) انظر ذلك فى المحرر: ٣١٣ - ٣١٥ ، تاريخ اليعقوبى : ٢٢٥ / ١ ، رسالة
الغفران : ٥٣٥ - ٥٣٧ .

(٢) الشاحط : البعيد ، والدان : القريب .

(٣) الحرف : الناقة الضامرة الصلبة ، هذعان : المنقادة السهلة .

(٤) الغيطان : جمع غوط والمراد الاراضى الشاسعة .

(٥) الرجيلة : القوة على المشى .

(٦) بالوسيلة أى تتوسل اليك بعبادتها تلك .

وأما تلبية بكر بن وائل :

لبيك حقاً حقاً . . . تَعَبَّدَا وَرَقَّـا

جئناك للتصاحفة . . . لم نأتِ للرقاحصة^(١)

وقد أشار " الطفيل الغنوي " الى تلبية الحجيج بقوله :^(٢)

وربَّ التي أشرقَنَ في كلِّ مُذنبٍ . . . سَوَاهِمَ خَوْصَا في السريحِ المُخَدَّمِ^(٣)

يَزُونُ إِلَّا لَأَ لَا يُنَحِّبَنَّ غَيْرَهُ . . . بِكُلِّ مُلَبٍّ أَشْعَثَ الرَّأْسِ مُحْمَرِمٍ^(٤)

ثم إننا نجد أن الجاهليين كانوا يطوفون بالبيت سبعة أشواط ، غير أن الناس فسى

الطواف كانوا على نوعين :^(٥) أحدهما (الحسم) والآخر (الحلة)

والحسم : هم قريش وما ولدت ، وإنما سموا الحسم لتشدد هم في دينهم اذا التحمس

هو التشدد في الدين عند أهل اللغة .^(٦) وكان تشدد هم على ما روى أنهم اذا زوجوا

امراً لمن كان من الحلة شرطوا عليه أن يكون أولاده منهم - أى من الحسم - وكانوا

يطوفون بالبيت وعليهم ثيابهم ، واذا أحرموا بالحج لا يأكلون السمن والزبد ، ولا يأثفون

، ولا يلبسون الوبر والشعر ولا يستظلون الا بالأدم ، وكانوا لا يخرجون من الحرم فسى

يوم عرفة ان يقولون لا ينهفى لنا أن نعظم شيئاً غير الحرم من الحل .^(٧)

وهؤلاء الحسم هم أهل الحرم كما يرون أنفسهم - ويطوفون في ثيابهم .

أما الحلة وهم من سوى الحسم ، فقليل . كانوا يطوفون بالبيت عراة الا أن تعطيهم

(١) النصيحة : الاخلاص ، وقد نصح فلانا ولفلان نصحا ونصاحة أى اخلص له .

الرقاحة : الكسب والتجارة : يقال هو رافحة أهله ، أى كاسبهم . والرقاحى : التاجر .

(٢) ديوانه : ٧٣ ، ٧٤ .

(٣) مذنب : مسيل مابين تلعتين . سواهم : الضامرة . خوص : غائرة الميـون .

السريح المخدم : نعال الابل التى تشدها السيور .

(٤) لا ينحمن غيره : أى لا يقصدن سواء ، والنحب هو السير السريع .

(٥) وهناك نوع ثالث هم الطلس ، وهم وسط بين الحلة والحسم ، وانظر المحبر : ١٧٩

وما بعد ها .

(٦) لسان العرب (حسم) ٥٢ / ٦ .

(٧) سيرة ابن هشام : ١٩٩ / ١ - ٢٠٣ ، تاريخ مكة : ١٨٠ / ١ ، ١٨١ .

الخمسة شيايا ، فيعطى الرجال الرجال ، والنساء النساء . . فمن لم يكن له من العرب صديق بمكة يعيره ثوبا ، ولا يسار يستأجر به كان دونه أحد أمرين : إما أن يطوف بالبيت عريانا ، وإما أن يطوف في ثيابه ، فإذا فرغ من طوافه ألقى ثوبه فلم يسه أحد . وكان ذلك الثوب يسمى اللقى ^(١) . وقيل ان هذا الطواف وما فيه من عرى أو لقي إنما يكون بعد رجوع الحجاج من عرفات ، فأما قبل صعودهم إليها فقد كانت الحلة يطوفون ^(٢) في ثيابهم .

وقد وصلتنا أشعارهم مشيرة لذلك :

فأما ما كان من أمر الطواف وهم عراة فقد روي أن النساء يضعن ثيابهن كلها إلا درعا مفرجا يقي عليها فقالت امرأة من العرب وهى كذلك : ^(٣)

اليومَ يَبْدُو بَعْضُهُ أَوْ كُلُّهُ . . وما بَدَأَ مِنْهُ فَلَاحِلُّهُ

وأما ثياب اللقى التى ينزعها الحلة فقد ذكرها ورقة بن نوفل بقوله ^(٤)

كَفَى حَزَنًا كَرَى عَلَيْهِ كَأَنَّـهُ . . لَقَى بَيْنَ أَيْدِي الطَّائِفِينَ حَرِيمَ

وقد أبطل الاسلام هذه المحدثات ، وحرم الطواف بالبيت والناس عراة ^(٥) . وهذا زهير يقسم بالبيت الذى يطوف الناس حوله : ^(٦)

فَأَقْسَمْتُ بِالْبَيْتِ الَّذِى طَافَ حَوْلُهُ . . رَجَالُ بَنُوهُ مِنْ قَرِيشٍ وَجُرْهُمِ

وكانوا يتمسحون بأركان البيت كما قال النابغة الذبياني : ^(٧)

(١) الجامع لاحكام القرآن : ٣٥٩/٧ .

(٢) الطبقات الكبرى لابن سعد : ٧٢/١ .

(٣) سيرة ابن هشام : ٢٠٢/١ ، الروض الأنف : ١٣٣/١ ، وقد قيل ان اسم هذه المرأة ضباعة بنت عامر بن صعصعة .

(٤) أخبار مكة للرازقى : ١٧٨/١ ، الجامع لاحكام القرآن : ١٨٩/٧ .

(٥) عن أبي هريرة قال بعثني أبو بكر الصديق في الحجة التى أمره عليها رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قبل حجة الوداع في رهط يؤذنون في الناس يوم النحر " لا يحج بعد العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان " صحيح مسلم بشرح النووي

١١٦، ١١٥/٩

(٦) ديوانه (بشرح شعلب) : ١٤٠ .

(٧) ديوانه : ٨٥، ٨٦ .

فلا لعمري الذي سَحَتُ كَعْبَتَهُ . . وما هريقَ على الانصابِ من جسدٍ ^(١)

ولا يكون تسيح البيت الا مع طوافه

ومن شعائر الحج والعمرة عند الجاهليين السعى بين الصفا والمروة ، وكان بها الصنمان المشهوران "إساف ونائلة" على ما يروى ^(٢) ، غير أن السعى فيما يبدو كان لمن لم يهمل لصنم معين في حجه ^(٣) ، أو على من لم يهملوا من عند صنمهم كما في حديث الانصار في حجة الوداع ان كانوا يخرجون من السعى بين "الصفا والمروة" لانهم كانوا يهملون لعنة حتى سألوا الرسول - صلى الله عليه وسلم - عن تحرجهم فأمرهم بالسعى ^(٤) . وقد أشار الى السعى أبوطالب في قصيدته : ^(٥)

وأشواط بين المروتين الى الصفا . . وما فيهما من صورة وتماثل ^(٦)

وكان الجاهليون يذهبون الى "عرفة" في حجهم ويقفون بها يوماً ثم ينصرفون منها ، ولا يستثنى منهم الا قريش ومن كان من الاحماس الذين يتبعون قريشا في طريق مكة أداء مناسكهم ، فقد كانوا لا يخرجون الى عرفات وانما يقفون بالمزدلفة ، على مشارفها التي تلى عرفة ، ويزعمون بذلك أنهم أهل الله فلا يخرجون من الحرم ، كما يرون بهذا انهم لا يعظمون شيئاً من الحل كتعظيمهم للحرم ^(٧) .

وقد أشار الى ذلك قائلهم : ^(٨)

أَظُنُّكُمْ مِنْ أَسْرَةٍ قَمْعِيَّةٍ . . اِذَا نَسَكُوا لَا يَشْهَدُونَ الْمُعَرَّفَا

(١) هريق : أى سال .

(٢) معجم البلدان (اساف) ١/ ١٢٠ ، ١٢١ ، الجامع لاحكام القرآن : ٢/ ١٢٩ .

(٣) انظر الجامع لاحكام القرآن : ٢/ ١٨٩ ، تاج العروس (شعر) ٣/ ٣٠٤ .

(٤) انظر صحيح مسلم بشرح النووي : " بيان أن السعى بين الصفا والمروة ركن لا يصح الحج الاية " ٩/ ٢٠ وما بعدها .

(٥) سيرة ابن هشام : ١/ ٢٧٤ .

(٦) الاشواط : السعى بين الصفا والمروة . المروتين : يريد الصفا والمروة ، فغلب

أحدهما . التماثل : التماثل وهى الاصنام .

(٧) تاريخ مكة : ١/ ١٨١ ، سيرة ابن هشام : ١/ ١٩٩ .

(٨) شرح اشعار الهذليين : ٢/ ٦٣٨ ، تحقيق : محمود شاكر ، عبد الستار أحمد

فراج . ط المحدثي . القاهرة .

وقد كان فعل قریش هذا مما ابتدعته فى الحج عما كان عليه من أصول صحيحة ، ولما جاء الاسلام أبطل الله عملهم هذا وأمرهم أن يذهبوا الى عرفة كما يفيض الناس ، فقال تعالى : " ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس (١) . "

وقد كان الجاهليون يقفون بعرفة حتى تدنو الشمس للغروب وتكون على الجبال كالعمائم ثم يتجهون الى " مزدلفة " (٢) ، وقد جعل الاسلام النزول من عرفات بعد غروب الشمس مخالفا لما كان عليه المشركون .

وقد ورد من أشعار الجاهليين ما يدل على قوفهم بعرفات ، وقصد جبلها ، ويسمى (ألأل) (٣) ، اذ هو من أبرز معالم عرفات ، ويغص الجبل وما حوله بالحجيج يوم يقفون بها .

فهذا الطفيل الغنوى يقسم برب الابل ، التي تشرف من مكان لآخر وقد أنهكها طول السفر ، وهي لا تقصد الا جبل عرفة (ألأل) عليها الحجاج المحرمون ، يلبون وهم شعث الرؤس فيقول : (٤)

وَرَبِّ الَّتِي أَشْرَفْنَ فِي كُلِّ مَذْنِبٍ . . . سَوَاهِمَ حَوْصًا فِي السَّرِيحِ الْمُخْدَمِ
يَزْنِ إِلَّا لَا يَنْحَنِّ غَيْرُهُ . . . بِكُلِّ مَلَبٍّ أَشَعْتَ الرَّأْسَ مُحَرَّمِ
وهذا " النابغة الذبياني يحلف " للنعمان " (ملك الحيرة) بابل الحجيج
المصطحبة في طريقها ، و . . . الذهاب لزيارة عرفة للحج ، يدفع بعضها بعضها
فيقول : (٥)

حَلَفْتُ فَلَمْ أَتْرِكْ لِنَفْسِكَ رِيْبَةً . . . وهل يَأْتُمُّنْ ذُو أُمَّتٍ وَهُوَ طَائِفٌ (٦)

(١) البقرة : ١٩٩ ، وانظر تفسير الطبرى عند تفسير الآية : ١٦٦ / ٢ .

(٢) تاريخ مكة للأزرقى : ١٨١ / ١ .

(٣) انظر معجم البلدان : ٢٤٢ / ١ ، ٢٤٣ .

(٤) ديوان الطفيل الغنوى : ٧٣ ، ٧٤ ، وقد سبق شرح البيت ص ٢٩٣ .

(٥) ديوان : ١٦٦ ، ١٦٧ .

(٦) ذو أمة : بضم الهمزة وكسرهما : أى نعمة وقيل ذو قصد واستقامة ، وهو

طائع : أى غير مكره فلا داعي به الى الحلف الكاذب .

بُصْطِحَاتٍ مِنْ لَصَافٍ وَثَبْرَةٍ . . . بَيْرُنَ إِلَّا لِأَسِيرُهُنَّ التَّدَافُغُ (١)
 سَمَامًا تَبَارَى الرِّيحَ حُوصًا عَيُونُهَا . . . لَهْنٌ رَذَايَا بِالطَّرِيقِ وَدَائِغُ (٢)
 عَلَيْهِنَّ شُعْتُ عَامِرُونَ لِحَجَّهِمْ . . . فَهِنَّ كَأَطْرَافِ الْحَنِيِّ خَوَاضِرُ (٣)

وكان الجاهليون يققون بعرفة في اليوم التاسع فإذا ما أرادوا الانصراف منها كانوا ينتظرون انصراف رجل كان يلي الاجازة بهم منها ، فإذا بدأ تابعوه ثم انصرفوا منها ، وكان ممن ولي هذه الاجازة على ما ذكر الرواة الغوث بن مـ ، ويسمونه صوفة ، ثم انتقلت في آل صفوان بن الحارث بن بنى سعد . (٤)

وقد أشار الى هذه الاجازة - أى الافاضة من عرفة - أؤس بن مغراء السعدي (٥)
 مفتخرا بها لأنها كانت في قومه بنى سعد : (٦)

وَلَا يَرِيْمُونَ فِي التَّعْرِيفِ مَوْقِفَهُمْ . . . حَتَّى يُقَالَ أَفِيضُوا آلَ صَفْوَانَا (٧)
 مَجْدًا بِنَاؤُ لَنَا قَدَمًا أَوْ ائِلْنَا . . . وَأَوْرُثُو طَوَالَ الدَّهْرِ أَخْرَانَا

(١) مصطحات : أى اهل الحجيج مصطحبة ، لصف : موضع في بلاد بنى يربوع قوم التابعة .

ثبرة : واد في بلاد بنى مالك بن حنظلة من تميم منهم بنو يربوع ، سيرهن التدافع : أى يسرن بدفع بعضهن بعضا حرصا على سرعة الوصول .

(٢) سماما : طير يشبه السمانى سريع الطيران واحده سماه يشبه به سرسة الابل تبارى الريح : تغالبه ، حوصا : جمع خوصاء ، أى غائرة من فرط التعب ، رذايا : جمع رذية ، وهي الضعيفة ، أى منهن ماأنهكه السير فيترك في الطريق ويؤخذ رحلها .

(٣) شعنت : غير الرؤوس . عامرون لحجتهم : قاصدون لحجتهم .
 الحنى : جمع حنيه وهي القوس ، وقد روى بعد هذا البيت قوله :
 الى خير دين نسكه قد علمته . . . وميزانه في سورة المجد ماتع

(والشرح بتصرف قليل من الديوان)

(٤) سيرة ابن هشام : ١١٩/١ - ١٢١ ، تاريخ مكة : ١٨٦/١ ، ١٨٦ .
 (٥) أؤس بن مغراء بن عوف بن كعب بن سعد ، شاعر جاهلى ، قيل انه أدرك الاسلام وكان يهاجى التابعة الجعدى لمدة طويلة . وانظر طبقات فحول الشعراء :

٧٩ ، ١٢٥ ، ١٢٦ ، ٥١٥ ، ٥١٦ ، ٥٧٢ . الشعر والشعراء : ٢/٦٨٧ .
 (٦) الأبيات هكذا في الشعر والشعراء : ٢/٦٨٧ ، والسيرة لابن هشام : ١/١٢١ ، البيت الأول ، وفي لسان العرب : ٩/٢١٠ (آل صوفانا) وصوفان وصفوه بمتمنى واحد .

(٧) يريمون : يبرحون ويقيمون به ، التعريف : وقوفهم بعرفة .

ويبتجحه الحجاج الى مزدلفة ليقفوا ليلتهم فيها ، وبها يجتمع الحجاج من حمس
وحلة ، وقيل بهذا سميت المزدلفة (١) .

وكان الجاهليون يوقدون نارا في بعض مواضع من المزدلفة ليراها الحاج القادم
من عرفة على ما روى ، ثم يبيتون بها " حتى اذا كان في الغلس ، وقفت الحلة والحص
على قنح ، (٣) فلا يزالون عليه حتى اذا طلعت الشمس وصارت على رؤوس الجبال كأنها
عمائم الرجال في وجوههم دفعوا من مزدلفة ، وكانوا يقولون : أشرق شبركيما (٤) ،
ثم ان العرب كان لهم من يفيض بهم من " مزدلفة " الى " منى " ، وكانت قبيلة " عدوان "
تلى ذلك ويتوارثونه حتى جاء الاسلام . (٥)

وقد ورد من شعرهم ما يصور ذلك ، فقد ذكروا لنا من أسماء الذين يتولون هذه
الافاضة (أى سيطرة) ، وكان يفيض بالناس على حمار أسود ، حتى ضربوا المثل به
فقالوا " أصبح من غير أبي سيارة " ، ويذكرون أنه أفاض بالناس أربعين سنة وفى ذلك
قال شاعرهم : (٦)

نَحْنُ كَفَعْنَا عَنْ أَيْ سَيَّارَةٍ . . . وَمِنْ مَوَالِيهِ بَنِي فَزَّارَةٍ (٧)
حَتَّى أَجَازَ سَالِمًا حِمَارَهُ . . . مَسْتَقْبِلَ الْقَبِيلَةِ يَدْعُو جَارَهُ (٨)

-
- (١) لسان العرب (جمع) ٨ / ٥٩ - ٦٠ (ص) أصبح الأعشى في صناعة الانشا . أبو العباس
القلقسندي ١ / ٩٠٩ نسخة مضمومة عن طبعة دار الكتب . الحيوان .
(٣) قنح : هو القرن الذى يقف عنده الامام بالمزدلفة عن يمين الامام ، وهو
الميقدة ، كانت توقد فيه النيران في الجاهلية ، وهو موقف قريش في الجاهلية
وانظر معجم البلدان ٤ / ٣٤١ .
(٤) أى اسرعى يا شمس بالاشراق على شبر حتى نسرع الى النحر .
(٥) سيرة ابن هشام ١ / ١٢٢ .
(٦) السيرة ١ / ١٢٢ ، مجمع الأمثال ١ / ٤١٠ ، الأغاني ٣ / ٩٣ ، ولم يذكروا
القائل .

- (٧) مواليه : بني عمه لأنه من عدوان ، وعدوان وفزارة من قيس عيلان .
(٨) يدعوا جاره : أى يدعوا الله - عز وجل - بقوله : اللهم كن لي جارا
ممن أخافه

ونرى " ذا الأصبع العدواني " يفتخر بهذه المأثرة لقومه ، وهى الافاضة بالحجاج الى منى فكأنهم يشعرون لهم الطريقة التى يأتونها ويتبعونها فيها : (١)

ومنهم كَانَتِ السَّادَا . . . تِ وَالْمُؤَنُونَ بِالْقَرْضِ (٢)

ومنهم حَكَّمُ يَقْضِي . . . فَلَا يَنْقُضُ مَا يَقْضِي (٣)

ومنهم مَنْ يُجْزِي النَّاسَ . . . سَ بِالسُّنَّةِ وَالْفَرْضِ

ويذكر " أبو قيس بن الأسلت " (٤) رجلا اسمه (البخترى) وينعته بالبيان والفضاحة : (٥)

وكان الْبَخْتَرِيُّ غَدَاةَ جَمْعٍ . . . يُدَافِعُهُمْ بِلِقْمَانِ الْحَكِيمِ

ويقول " أبو طالب " فى قصيدته : (٦)

وليلةَ جَمْعٍ وَالْمَنَازِلِ مِنْ مَنَى . . . وَهَلْ فَوْقَهَا مِنْ حُرْمَةٍ وَمَنَازِلٍ

بعد رحيل الحجاج من مزدلفة يقصدون منى ، وهى يؤدون كثيرا من الشعائر

التي يفعلها الحاج ، ومنها ذبح الهدى ، وحلق الشعر، ورمي الجمار .

هذا " الأعشى " يحلف برب اهل الحجيج التى تتجاوز الجبال من طريقها الى

(٧) منى :

حلفتُ بِرَبِّ الرَّاغِصَاتِ إِلَى مَنَى . . . إِذَا مَحْرَمٌ جَاوَزَنَ بَعْدَ مَحْرَمِ (٨)

ومثله " طرفة " اذ يقول : (٩)

(١) الأغانى : ٩٢٢٩٠ / ٣ ، سيرة ابن هشام : ١ / ١٢١ .

(٢) منهم : أى من قومه عدوان . القرض : الجزاء .

(٣) يريد حكيم العرب عامرين الظرب وقد سلفت له ترجمة فى فصل الحنفاء من هذا البحث .

(٤) أبو قيس بن الأسلت : شاعر جاهلي أوسي . كان سيد قبيلته وقائدها يوم

بعث وعرف بنحوته وشجاعته واختلف فى ترجمته مع أبى قيس صرمة بن أبى

الأنصارى ، وقد اختلف فى اسلامه : وانظر الاصابة : ٣٣٤ / ٧ ، الأغانى :

١١٧ / ١٧ .

(٥) ديوانه : تحقيق د . حسن محمد باجودة : ٨٩ ط . مكتبة التراث ، القاهرة .

(٦) سيرة ابن هشام : ١ / ٢٧٤ . (٧) ديوانه : ١٧٣ .

(٨) الرَّاغِصَاتُ : اهل الحجيج ، محرم : منقطع انف الجبل .

(٩) ديوانه : ١٧٠ .

حلفتُ برَبِّ التَّزَاقُصَاتِ إِلَى مَئْنَى . . . يُبَارِينَ أَيَّامَ الْمَشَاعِرِ وَالنَّهْضِ (١)
 أما الهدى فقد كان الجاهليون يعتنون به ، إذ يقدّونه بعلامة يعرف بها أنه
 هدى ، كأن يعلق برقبتة فلانة أو شابها ، أو أن يقذعوها بالمياسم فـي
 موضع من بدنها ، وربما أسالوا دما بها بشق يجرحها يكون كالعلامة بها .
 وقد أشار إلى ذلك عارق الطائي : (٢) وهو يخاطب " عمرو بن هند " بقوله :
 حلفتُ بهْدِي مُشْعَرٍ بِكَرَاتِهِ . . . يخبُّ بصحراء الغبيطِ دَرَادِقَهُ (٤)
 لئن لم تُغَيِّرْ بعض ما قد صنعتُم . . . لَأَنْتَحِينَ الْعَظْمَ ذَوَا أُنَا عَارِقَهُ (٥)
 ويقول " أبو قيس بن الأسلت " إنهم يسوقون هديهم مُعلّمة بالجلول التي يلتونها
 عليها ، ولكنهم يبقون مناكبها مكشوفة : (٦)

-
- (١) يبارين : يعارضن بعض وتفعل مثلما تفعل الأخرى في أيام المشاعر .
 والنهض في العودة أو إلى مكان آخر في تنقلات المشاعر حيث ينهضون
 من محل الآخر .
- (٢) هو عارق أجا الطائي واسمه (قيس بن جروة بن سيف بن مالك بن عمرو
 ابن أمان ، هكذا في معجم الشعراء : ٣٢٦ ، وله ذكر في اللسان :
 (تلح ٣٦/٨ ، ٣٧) ، عرق : ٢٥٠/١٠ ، وتاج العروس : ١١/١٧ ،
 (عرق) .
- (٣) عمرو بن هند ملك الحيرة في الجاهلية عم امرئ القيس الشاعر ملك بحد
 أبيه واشتهر في وقائع مع الروم والغساسنة وأهل اليمامة ، وكان شديد
 البأس والفتك ، وقتله عمرو بن كلثوم في قصة له . وانظر الكامع في التاريخ
 ١٥٤/١ ، ١٩٧ ، تاريخ ابن خلدون : ٢٦٥/٢ .
- (٤) المشعر : الذي عليه علامة يعرف بها أنه هدى كفلادة أو وسم . بكراته :
 جمع بكرة وهي الشابة من الأبل يخب : من الجنب وهو خطو فسيح ،
 الغبيط : موضع . درادق : جمع دردق كجعفر وهي صغار الأبل
 والضمير عائد إلى الهدى .
- (٥) انتحين : من الانتحاء وهو التعرض ، ذوصفة للعظم ، عارقة : اسم فاعل
 من عرقت العظم إذا أكلت ما عليه من اللحم .
- (٦) ديوانه : ٨٨ .

- تَسوقُ الهدى تَرْسُفُ مَذْنَاتٍ . . . مَكشِفَةُ الْمَنَاقِبِ فِي الْجُلُولِ ^(١)
- ونرى النابغة يحلف بالله الذي تساق له الهدايا : ^(٢)
- حَلَفْتُ بِمَا تَسَاقُ لَهُ الْهَدَايَا . . . عَلَى التَّأْوِيبِ يَعْصِمُهَا الدَّرِينِ ^(٣)
- بِرَبِّ الرَّاكضَاتِ بَكْلٌ سَهْبٌ . . . بَشَعْتُ الْقَوْمَ مَوْعِدَهَا الْحَجُونِ ^(٤)
- وهذه الهدايا التي تساق بقر كثيرة كما رآها "الأعشى" ؟ ^(٥)
- إِنِّي لَعَمْرُ الَّذِي حَطَّتْ مَنَاسِمُهَا . . . يَخْدَى وَسِيقَ إِلَيْهَا الْبَاقِرُ الْخَيْلِ ^(٦)
- وهذه الهدايا انما تساق للذبح حتى تضربها الدماء :
- وَشَهْرِبْنِي أُمِيَّةَ وَالْهَدَايَا . . . إِذَا حُبِسَتْ مَضْرَجَهَا الذَّمَاءُ ^(٧)
- ومنى تذبح بها الهدايا وتنحرك كما قال "شاس بن عبدة" : ^(٨)
- حَلَفْتُ بِمَا ضَمَّ الْحَجِيجُ إِلَى مَنَى . . . وَمَا شَجَّ مِنْ نَحْرِ الْهَدْيِ الْمُتَلَدِ ^(٩)
- ويبدو أن الجاهليين كانوا يذبحون عند أصنامهم وأن ذبحوا في حجهم ،
 ويفهم من القرآن الكريم أن الجاهليين كانوا لا يأكلون من هديهم وذبائحهم ،

- (١) ترسف : تمشى كالمقيدة ، الجلول : ماتجلل به الدابة ليحميها .
- (٢) ديوانه : ٤٦ .
- (٣) التأويب : سير النهار كله إلى الليل ، يعصمها : يحفظها . الدرين : ماجف من الأعشاب والمراعى .
- (٤) سهب : مفرد سهب في الأرض الواسعة . الحجون : قال محقق الديوان " خارج مكة " وهذا وهم منه وإنما هو جبل من أعلى شمال مكة عنده ملائسن أهلها كما ذكر ياقوت .
- (٥) ديوانه : ١١٣ .
- (٦) المناسم : جمع منسم وهو طرف الخف ، تخدى : تسرع في السير مع اضطراب ، الباقر : أى البقر ، الغيل : جمع غيول ، وهى - العيل - الكثيرة .
- (٧) البيت لعوف بن الأحوص في المفضليات : ١٧٤ ، مخرجها : أى لطحها وانتشر عليها ١ .
- (٨) شاس هو أخو علقمة بن عبدة الفحل وهو شاعر مقل ويروى أن شاسا قد أسره الحارث بن أبى شمر الغساني ، فذهب أخوه علقمة فمدح الحارث وطلب أخاه فأخرج له عنه في مفسدة مشهورة ، والبيت في شعراء النصرانية : ٥٠٩ من قصيدة لنفاس .
- (٩) الشَّجَّ : سيلان الدم من كثرة ما يذبح من الهدى .

ورخص الله للمسلمين ذلك بقوله : " فكلوا منها وأطعموا البائس الفقير ^(١) .

وأما خلق شعورهم ، فكان الجاهليون لا يتركون ذلك ، وربما رأوا ألا يتم نسكهم الا به ، والذي تدل عليه الروايات أن العرب كانوا لا يحلقون جميعا فى منى ، وإنما بعضهم يفعلها ، ولعلهم " قريش " ومن وافقهم من الحس ، وأما غيرهم فيحلقون عند أصنامهم ، وقد جاء أن الأزد وضئان " إذا طافوا بالبيت وأفاضوا من عرفات وخرغوا من منى لم يحلقوا الا عند مناة ^(٢) ، وكانت قضاة ولخم وجذام تحج لصنم الا قيصر وتحلق عنده . ^(٣)

ومما جاء من أشعارهم بذلك قسم زهير بالأماكن التى ينزل فيها الناس من منى ، حيث تحلق الشعور : ^(٤)

فأقسمت جَهْدًا بالمنازلِ من منى . . . وما سَحِقت فيه المقاديرُ والقملُ ^(٥)
وقد ورد أن " عُبَيْتَ هَوَازِنَ وَنَوَاسِدَ بِأَكْلِ الْغَرَّةِ ، وذلك أن أهل اليممن إذا حلقوا رؤوسهم بمعنى وضع كل رجل على رأسه قبضة دقيق ، فإذا حلقوا رؤوسهم سَطَطَ الشعر مع ذلك الدقيق ، ويجعلون ذلك الدقيق صدقة ، فكان ناس من أسد وقيس يأخذون ذلك الشعر بدقيقه فيرمون الشعر وينتفعون بالدقيق ، وأشد لمعاوية بن معاوية الجرمي : ^(٦)

(١) الحج : ٢٨ ، وانظر فى تفسير ابن كثير : ٤١٢/٥ ، الجامع لأحكام

القرآن : ٤٦/١٢ .

(٢) أخبار مكة للأزرقي : ١٢٥/١ ، معجم البلدان : ٢٠٥/٥ .

(٣) الأصنام : ٤٨ ، معجم البلدان : ٢٣٨/١ .

(٤) ديوانه : (ثعلب) : ٩٩ ، (الأعلام) : ٣٢ ، ٣٣ .

(٥) سجفت : حلق ، المقادير : جمع مقدم أى مقدمة الرأس . القمل : أراد به الشعر الذى فيه القمل .

لسان العرب ٩١/٥ عن ابن الكلبي وانظر تاج العروس (قرر) ٤٨٦/٣ .

(٦) كذا فى اللسان والتاج ، وفى معجم البلدان (٢٣٨/١) معاوية بن

دراع الجرمي .

أَلَمْ تَرْجِعْ بِنَا أَنْجَدْتَ وَأَبُوكُمْ .. مع الشعرِ في قصِّ القلْبِ شَارِعُ
 إذا قُرْءُ جَاءَتْ يَقُولُ أَصَبَ بِهَا .. سوى القملِ إِنْ تَنَّى مِنْ هَوَازِنَ شَارِعُ*

وأما الجمار فكانوا يرمونها في حجهم كما نطقت بذلك أخبارهم وأشعارهم ، وربما كانت الجمرات أكثر من ثلاث لما وضع في منى من الأصنام . (١)

ونجد الشنفرى يذكر لنا جمار منى عندما أخذ بنأر أبيه من قاتله : (٢)
 قَتَلْنَا قَتِيلًا مُهْدِيًا بِطَلْبَيْدٍ .. جَمَارَ مَنْى وَسَطَ الْحَجِيجِ الْمَصَوِّتِ
 ويقسم بالأنصاب التي عند الجمار شاعر آخر مع قسمه بربه فيقول : (٣)

فَأَقْسِمُ بِالَّذِي قَدْ كَانَ رَبِّي .. وَأَنْصَابِ لَدَى الْجَمَرَاتِ مُفَرِّ (٤)
 والحجاج يذهبون إلى الجمار ، ويتوافون عندها ، ولا تكون الموفاه إلا لرميها كما قال شاعرهم : (٥)

لَأُدْرِكَهُمْ شَعَثَ النَّوَاصِي كَأَنَّهُمْ .. سَوَابِقُ حُجَّاجٍ تَوَافَى الْجَمَرَا (٦)
 وقد وردت في بعض أشعارهم إشارات إلى أمور تتعلق بالحج ، توفى إلى أخذ العرب بها .

فمنها تلبيد الشعر على الرأس بما يجعله مجتمعا حتى يحين حلقه كما في بيت
 (الشنفرى) الذى المحنا اليه منذ قليل وهم يرون أنهم مخلصون في حجهم لله ، لم يقصدوا به غيره ، ولم يبتغوا ثوابه من أحد . سواء ، كما أنهم خاضعون له :
 يَا أَيُّ أَعْوَدُ بَيْنَ حَجِّ الْحَجِيجِ لَهُ .. وَالرَّافِعُونَ لَدَيْنَ اللَّهِ أَزْكَانَا

* لسان العرب : ٩١/٥ .

(١) تاريخ مكة للزرقي : ١٢٦/٢ .

(٢) المفضليات : ١١١ .

(٣) السيرة النبوية لابن هشام : القسم الثانى : ٣٥ .

(٤) مفر : مفرده أمفر : وهو لون يعيل إلى الحمرة ، ليس بناصع الحمرة وليس إلى الصفرة ، أى لون الأنصاب مفر مما لطخت به من الدماء .

(٥) لسان العرب : ١٤٦/٤ ، ١٤٧ . والبيت لحذيفة بن أنس الهذلى .

(٦) المجرم : موقع حصى الجمار .

سَلِمِينَ الْيَوْمَ عِنْدَ حَجَّتِهِمْ . . . لَمْ يَتَفَوْا بِثَوَابِ اللَّهِ أَثْمَانًا (١)

كما أنهم يرفعون أيديهم بالدعاء ، سائلين الله ، ولم يرتكبوا شيئا مما يحظر عليهم في الحج كتف شعرا أو قص ظفرا أو حلق رأس ، كما أشار الى ذلك أمية بن أبى الصلت بقوله : (٢)

شَاحِينَ أَبَاظُهُمْ لَمْ يَنْزِعُوا تَفَنًّا . . . وَلَمْ يَسْلُوا لَهُمْ قَمَلًا وَصِيبَانَا (٣)

وعند ما يحرمون فليسوا على حالتهم قبل دخولهم في النسك ، فلا يقربون النساء ويتعدون على اللهو والمجون فهم قد اتجهوا الى ربهم ، يرجون برة واحسانه ، وقد عزموا على هذه الطاعة التي تدخل في الدين فلا سبيل الى تدنيسها ، يقول النابغة الذبياني : (٤)

قَالَتْ أَرَاكَ أَحَا رَحِلٍ وَرَاحِلَةٍ . . . تَغْشَى مَتَالِفَ لَنْ يُنْظَرَكَ الْهَرَمَا
حَيَّاكَ رَبِّي فَأَنَا لَا يَحِلُّ لَنَا . . . لَهُوَ النَّسَاءُ وَأَنَّ الدِّينَ قَدْ عَزَمَا (٥)
مُشْعَرِينَ عَلَى حُوصِي مَرْمَتَةٍ . . . نَرْجُو الْإِلَهَ وَنَرْجُو الْبِرَّ وَالطَّعْمَا (٦)

وكانوا اذا دخلوا في حجهم تركوا البيع والشراء ، ويرون ذلك يشوب عليهم حجهم ، وانما يريدون أن يخلصوا في عبادتهم فلا يدخلوا عليها ما يشغلهم عنها ، وربما استشف هذا من قول الممزق العبدى (٧) وهو يفتخر بشجاعة قومه الذين لم يشتغلوا

(١) ديوان أمية بن أبى الصلت : ٥١٨ .

(٢) السابق : ٥١٨ .

(٣) شاحين : جادين سريعين ومقبلين ، التفث : نتف الشعر ، وقص الأظفار وما يحظر على المحرم . يسلا : ينزعوا من السل وهو النزاع ومراده هنا الحلق . صلبا وصيبانا : يريد الشعر الذى يكون به القمل والصئبان .

(٤) ديوانه : ٢١٦ ، ٢١٧ .

(٥) حياك ربى : أى أكرمك بالتحية وهى السلام ، الدين قد عزم : أى جد وتعمين .

ان نوبنا عملا من الدين . يريد به دين الحنيفية لأن الحج من أعمال الحنيفية .

(٦) مشعرين : جادين ، مزمنة : أى معلقة فيها الأزمة والزام : ما يشد فى أنف

البعير أو خشاشه من خيط ونحوه لتقاد به وتذل . الطعما : جمع طعمه وهى

العطية ، يريد نرجو فضل الله من رزق وخير .

(٧) الممزق العبدى اسمه شأس بن نهار من شعراء عبد القيس ، وهو ابن أخت =

بالتجارة بعد (١) حجهم :

وَإِنْ لَكَيْزًا لَمْ تَكُنْ رَبَّ عَكْفٍ . . . لَدُنْ صَرَحَتْ حُجَّاجُهُمْ فَتَفَرَّقُوا (٢)

وفي تلبية بكر بن وائل يقولون : (٣)

لبيك حقًّا حقًّا . . . تَعْبُدُ أَوْرَقًا

جئنك للنِّصَاحَةِ . . . لَمْ نَأْتِ لِلزَّقَاحِ

أى جئنا لا خلاصنا اليك نريد الحج ولم نأت نطلب التجارة .

وهذا النابغة الذبياني يصرح لنا بتحريمهم للبيع اذا دخلوا في مناسكهم ، وذلك في قصة نفور دابته من امرأة من نساء الحرم ، وقد طلعت عليه هذه المرأة في صورة أجفلت ناقته حتى كادت تسقطه من على رحله ، ان صاحت هذه الحرمية وهم راحلون تسأل عن يشتري جلودا مذبوحة تبيعها ، فأجابها النابغة بأنهم قد تركوا البيع وانقطع وقته فهم داخلون حجهم . (٤)

كَادَتْ تُسَاقُطُنِي رَحْلِي وَمِثْرَتِي . . . بَذَى الْمَجَازِ وَلَمْ تُحَسِّنْ بِهِ نَعْمًا (٥)

= الشاعر المثقب العبدى ، سعى بالمعزق لقوله :

فان كنت ماكولا فكن خيرا كل . . . والا فأدركنى ولما أسرق

وانظر المؤلف والمختلف : ١٨٥ ، المفضليات : ٢٩٩ .

(١) المفضليات : ٣٠١ .

(٢) لكيزر : اسم قبيلة الشاعر ، عكة : جلد صغير يتخذ من صغار الغنم يوضع فيه

السمن في الغالب صرحت حجاجهم : خرجت من منى ، والمعنى : ان لكيزا لم تكن ممن يتجر في السمن ، بل هم رجال بأس وشدة ، كما ذكر في المفضليات .

(٣) رسالة الغفران : ٥٣٦ . وقد اشرنا الى هذا مع شرحه فيما مضى .

(٤) ديوانه : ٢١٩ .

(٥) تساقطنى : صيغة المفاعلة هنا للمبالغة في قوة الفعل ، والمعنى كادت تسقطنى

ميثرتى : الميثرة حشية كالوسادة تجعل على الرحل . نى المجاز : موضع

بناحية عرفة من الشمال بغرسخ . كانت به سوق مشهورة تبدأ في مستهل

نى الحجة وتستمر ثمانية أيام وبعد ها يحرم البيع عند هم ، لم تحسن به نعمًا :

أى لم تشعر بابل وهم النعم فتنشط للسير معها .

من صوتِ حُرْمَةٍ قَالَتْ وَقَدْ طَعَنُوا .. هل في مُخْفِيكُمْ من يَشْتَرِي أَنْ مَّا^(١)
قُلْتُ لَهَا وَهِيَ تَسْعَى تَحْتَ لَبَتَمَا .. لَا تَحْطِمْكَ أَنْ الْبَيْعَ قَدْ زَرِمَا^(٢)

-
- (١) حرمية : نسبة الى الحرم ، أى امرأة من أهل الحرم . مخفيكم : أى المخفون الذين ليست لهم أثقال كثيرة . أداما : جلدا مديونا .
- (٢) اللبّة : موضع القلادة من الصدر من كل حسي ، وهى فى الابل اللهزمة التى فوق الصدر ، وفيها تنحر الابل . قد زرما : قال محقق الديوان : يعنى أنهم صاروا فى ليلة التزوية فحرم البيع عليهم وكان هذا من حكم الجاهلية ، وقد أبطله الله بقوله تعالى " ليس عليكم جناح ان تبتغوا فضلا من ربكم " أى فى مدة الحج . وابتغاء الفضل هو طلب الرزق ، أى الربح من التجارة .

التشريعات

تحتاج حياة الناس الى ما ينظم شؤونها ، كما يلزمها دستور يضم ما ينبغي أن تكون عليه أحكام الامة في حياتها العامة ، ومنه تنبع القوانين التي تأخذ بها كل أمة في تنظيم أمورها ، ثم تشتت هذه القوانين وتذاع بين الناس حتى لا يخرجوا عليها أو يشقوا عصا الطاعة على مجتمعهم الذي رضي أن يأخذ بهذه القوانين في أحكامه ، وتسرى هذه القوانين في حياة الناس الاجتماعية والاقتصادية والسياسية وان خضعت أو سارت وفق ما تؤمن به من المعتقدات أي أمة من الامم .

وتتجلى فائدة هذه الاحكام وتلك القوانين في ضبط أمور الناس ، حتى لا يقع خلاف في أمر من الأمور ، ثم ينتج عنه اضطراب وفوضى تقود الى النزاع والقتال ، فهي تريح الناس عند اختلافهم أن يجدوا ما يعودون اليه ليحكم بينهم ، ثم يحسم الخلاف ويقطع ما يخشى من سوء العاقبة . وبذلك يستتب الامر وتصلح حياة الناس ، ويأمنون الا تضيع حقوقهم ولا تهدر دماؤهم ، فتضي بذلك الحياة سعيدة هائلة ، تسعى الى الافضل وترتقى الى الامام عندما يجد أفرادها ذلك الامن والنظام . وبقدر خروج الامم على انظمتها تقع الخلافات والحروب والفتن ، مما يعرقل سير الامة ويؤخر تقدمها عن غيرها من الشعوب .

وقد حاولت البشرية في تاريخها الطويل أن تضع لحياتها نظاما تسير عليه ، وتشعر احكاما تنظم بها تعامل أبنائها فيما بينهم ، ونحن نعلم من ذلك القانون الروماني وشرعية حمورابي على سبيل المثال وغيرها في ماغير من الزمان .

ولا ريب أن هذه القوانين أو التشريعات تكون واضحة مشتهرة اذا وجدت في أمة تخضع لسلطان حكم موحد ، فهذا السلطان يفرض القوانين ويطبقها في حكمة ، ويعاقب من يخالفها ، ويسرى ذلك في حدود سلطته ، على مقدار ما يتمتع به ذلك السلطان من قوة وحكمة في تنفيذ أحكام سلطته . وتقل هذه القوانين وينحصر سلطانها انحصارا شديدا بين الامم أو الامة التي لا تخضع لسلطة واحدة ، ان أن للسلطات والحكومات أكبر الاثر في سن الشرائع وتطبيق القوانين .

والذى يبدو من أمر العرب فى حكمها وقوانينها أن لها أحكاما دانت بها ، وخضعت لها ، فالذين عاشوا فى ظل الحكومات المستتبّة والمشهورة فى جنوب الجزيرة العربية كحكومة معين " وسبأ " و " حمير " خضعوا لقوانين هذه الممالك وأحكامها ، وغير بعيد عنهم من عاشوا تحت حكم العنادة والفساسنة فى أطراف الجزيرة الشمالية ، ان تعاملوا بما تفرضه عليهم هذه السلطات من قوانين ، وكل ذلك انما يتم ويطرّد بمقدار ما يكون لهذه الحكومات من قوة وحكمة فى اخضاع من حولها لسلطانها .

أما وسط الجزيرة وأكثر أقاليمها الأخرى فلم تكن تخضع لحكومة منظمة أو سيادة مهيمنة فى العصر الجاهلى فيما نعلم ، الا ما كان من شأن القبائل العديدة التى كان لكل منها رأيها وسلطانها بين أفرادها ، وكان من أثر ذلك كثرة الحروب بين القبائل ، وحتى بين أبناء القبيلة الواحدة ، ان كان أوار هذه الحروب لا يخدم حتى يجد من يشعل ناراً أخرى .

ومع ما كان لهذه القبائل من أحكام وقوانين ولو فى أى مستوى كان الا أنها تعد أحكاما يتعامل بها ، عرفها أبناء القبائل وحاولوا السير عليها . وقد أشار القرآن الى معرفة الأحكام بين الجاهليين فقال تعالى " أفحكم الجاهلية يبفون " (١) .

وقد شاع ذكر حكام العرب فى جاهليتهم ان كان للعرب حكام ترجع اليها فى أمورهم وتتحاكم فى منازعتها وموارثها ومياهها ودعائها ، لأنه لم يكن دين يرجع الى شرائعه ، فكانوا يحكمون أهل الشرف والصدق والامانة والرئاسة والسن والمجد والتجربة " (٢) .

وقد حفلت المصادر بذكر هؤلاء الحكام ، كما عينا حكام بعض القبائل منهم (٤) ، وقد عدوا لنا على سبيل المثال : " عامر بن الظرب العدواني " ، و " الافعى الجرهمى " ،

(١) المائدة : ٥٥ .

(٢) تاريخ اليعقوبى : ٢٢٢ / ١ .

(٣) انظر تاريخ اليعقوبى : ٢٢٢ / ١ ، المحبر : ١٣٢ وما بعدها ، بلوغ الارب :

٣٠٨ / ١ وما بعدها ، البيان والتبيين : ٣٦٢ / ١ .

(٤) المحبر : ١٣٢ وما بعدها ، تاج العروس (حكم) ٢٥٣ / ٨ .

و"أكرم بن صفي" و"الأقرع بن حابس" ، و"عامر الضحيان" ، و"قس بن ساعدة الأيادي" ،
وعمر بن حمم الدوسي وكثير غيرهم*.

ومع ما كان للعرب من أحكام وقوانين كثيرة ، طبقوها في حياتهم ، سواء كانت من
قرائح حكمهم ، أم ما أخذوه عن غيرهم أم توارثوه عن أسلافهم ، فقد كان من بين
هذه الأحكام والتشريعات مانعة موافقا لأحكام الحنيفية ، وهو ما وضع في بعض كتب
التراث : (من حكم في الجاهلية حكما فوافق حكم الإسلام)^(١) ، وهو الذي يعنينا في
هذا البحث من بين سائر أحكامهم ، ما نص عليه شعرهم أو دل عليه أو يسهفه .

وسنمضي في هذه التشريعات والأحكام الجاهلية على نحو ما ورد من تحريمهم
لبعض القبائح والمنكرات كالخمر والزنى والميتة ، ثم نخرج على ما ورد من أحكامهم فسي
القتل والدما ، ونمر بطرف من معاملاتهم الموافقة للحنيفية ، ثم نختم ذلك بالحدوث
عن النكاح والارث وما ينطوي تحت ذلك من أمور بحول الله وقدرته فيما يلي من مباحث .

* تاريخ اليعقوبي : ٢٥٨/١ .

(١) المحبر : ٢٣٦ ، المعارف : ٥٥١ ، ٥٥٢ ، بلوغ الأرب : ٥٢/٢ وما بعدها .

وقد كان محترمو الخمر من ذوى العقول النيرة ، والآراء الصائبة ، وأهل الحكمة والرأى بين الجاهليين ، وأكثر من روى ممن حرم الخمر كان من سادات القوم وشرفائهم ، بل من حكماهم وحكامهم ، من مثل " عبد المطلب بن هاشم " ، و " الوليد بن المغيرة " ، و " قيس بن عاصم " ، و " عامر بن الظرب " ، و " صفوان بن أمية الكنانى " . كما كانت ثلثة منهم من الحنفاء الذين عرفنا كثيرا منهم ، كورقة بن نوفل ، و " زيد بن عمرو بن نفيل " ، و " قس بن ساعدة الايادى " وغيرهم .

ومما ورد من شعرهم فى ذلك قول قيس بن عاصم وقد سكر فى جاهليته وكانت بقربة أخته أو بنته - على ما يروى - فغمز عكنتها ^(١) فبهرت منه ، فلما صحا وأعلم بفعله حرمها على نفسه وقال : ^(٢)

وجدتُ الخمرَ جامحةً وفيها .. خصالٌ تفضحُ الرَّجُلَ الكريما
فلا واللهِ أشربها حياتي .. ولا أدعو لها أبداً نديما
ولا أعطى بها ثمناً حياتي .. ولا أشفى بها أبداً سقيما
فان الخمر تفضحُ شاربهم .. وتجشّمهم بها أمراً عظيمًا
إذا دارتُ حمياها تعلّلت .. طوالعُ تُسفِه الرَّجُلَ الحليمًا ^(٣)

ونجد " دريد بن الصمه " يدعو على نفسه بالشلل ان شرب خمرًا حتى يقتل ابن زبناع : ^(٤)
شَلَّتْ يَمِينِي وَلَا أَشْرَبُ مُعْتَقَةً .. إذا أخطأ الموتُ أسماءَ بن زبناع ^(٥)

(١) أى : ما انتن من بطنها وانطوى من السمن .

(٢) الاغانى : ٨٤ / ١٤ ، وفى الامالى ٢٠٤ / ١ ، وأورد الاولين منها بخلاف بسيط ونسبها لصفوان بن أمية الكنانى .

(٣) حمياها : سورتها وشدتها واسكارها .

تعلت : أى علت فى مهلة .

(٤) ديوانه : ٩٠ ، وهذا ليس تحريماً مؤكداً من دريد بن الصمه ، وانما هو مثل اتينابه لتحريمهم الخمر فى مدة ، وهى هنا حتى يقتل ابن زبناع .

(٥) أسماء بن زبناع الحارثي أغار عليه دريد فى نفر معه ومع أسماء طبعينته ، فأرادوا انتزاعها فقاتلهم دونها وقتل منهم وجرح واختلف هو ودريد فأخطأ دريد وطعنه أسماء فأصابه عينه وانهمز دريد فقال هذا البيت ، وانظر الاغانى : ٣٥ / ١٠ .

و" حاتم طي" يرجو أن يموت ولم يقع في فجور أو خمر ، كأنه يرى الخمر من أنواع الفجور وغير بعيد أن يصدر ذلك من حاتم الجواد ، فقد كان له من رزاة العقل وحب الخير والاحسان ما يعده عن الخمر وما ذل المتاع . يقول حاتم :^(١)

وَلَيْتَ لَأَرْجُوَ أَنْ أَمُوتَ وَلَمْ أُنَلِّ . . . متاعاً من الدُّنْيَا فُجُورًا وَلَا خَمَرُ

وحسبنا أن نختم ذلك برأى " عامر بن الظرب العدواني " إذ يفصل أضرار الخمر . فهي متلفة لما بيد شاربها من مال إذ تستنفده ، ثم تحوجه إلى سؤال غيره فيطلب ماليس في يده ، كما أنها تذهب بالمعقول في حالة السكر ولا أقبح من ذلك للفتى إذا عاش بغير عقله ، وعلاوة على ذلك فإنها تورث الاحقاد بين الناس وتنشر البغضاء بينهم ، كما أنها تنقص هيمة الفتى الكريم الشجاع عند ^{الناس} وتزرى به . يقول عامر^(٢) في ذمها :

سَأَلْتُ لَلْفَتَى مَالِيَسَ فِي يَدِهِ . . . ذَهَابَهُ يُعْغُولُ الْقَوْمَ وَالْمَالِ

أَقْسَمْتُ بِاللَّهِ أَشْقَىٰهَا وَأَشْرَّهَا . . . حَتَّى يَفْزُقَ تُرْبَ الْقَبْرِ أَوْ صَالِي

مُورِثَةِ الْقَوْمِ أَضْغَانًا بِلَا إِحْسَنِ . . . مُزْرِئَةً بِالْفَتَى ذِي التَّجْدَةِ الْحَالِي

(١) ديوانه : ٢٦٥ .

(٢) أمالي القالي : ٢٠٤/١ .

تحريم الزنى :

عرف الزنى عند كثير من الجاهليين ، وسمحوا لأنفسهم باصطياد اللذة كلما سنحت الظروف ، وقد ساعد على انتشاره كثرة البغايا اللاتى حطمن معقل الحياء وجعلن الرايات على الدور ليهتدى اليها الطهوثون المحاويج ، كما أن تجارة الاماء والتكسب ببغيهن يسرت الفاحشة فى بعض مجتمعاتهم .

ومع هذا فلا ينكر ان الجاهليين قد جعلوا الاعتداء على نساءهم وقربياتهم عارا لا يطاق حمله ولا السكوت عليه حتى ولو أدى الى الموت والفناء . والذى يبدو من أخذ بعضهم النساء فى الحروب انما كان حفزا للرجال على الاستماتة حتى لا يغلبوا فتؤخذ نساؤهم فيقع عليهم العار والشنار ، وذلك أدعى للنصر وأقرب لاستبسال الرجال واستنزال حماسهم حتى تتم لهم الغلبة والنصر .

وقد كان بعضهم يستريب بولادة الانثى ، ويتوارى بوجهه عن الناس عندئذ حتى يرى رأيه فى ذلك الحدث المخيف كما أشار القرآن الكريم الى ذلك . وقد حدا بهم الخوف من الزنى أن وأد بعضهم بناته فى الجاهلية .

غير أن ذلك ليس شاملا كل العرب ، فقد كان منهم من رأى الزنى قبيحة يترفع الكريم بنفسه عنها ، وكان الحرائر من النساء يرين ذلك ، وقد ورد فى مجامعة النبى - صلى الله عليه وسلم - للنساء بعد فتح مكة عندما ذكر أن من شروط المباينة أن لا يزنین . فقالت : هند بنت عتبة - زوج أبى سفيان - أو تزنى الحرة ؟^(١)

وذكر الطبرى عند تفسيره لقوله تعالى " ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن " أنهم كانوا يرون الزنا حلالا فى السر هراما فى العلن^(٢) .

ويروى أن عبدالله بن عبد المطلب - والد النبى صلى الله عليه وسلم - دعت امرأة الى نفسها ، ولكنه أبى ذلك عليها ، وزعموا له شعرا فى ذلك .^(٣)

(١) تفسير الطبرى : ٥١٢ / ٨ .

(٢) الانعام : ١٥١ .

(٣) انظر السيرة النبوية : ١ / ١٥٥ - ١٥٧ .

(١) ومن شعرهم في تحريم الزنى قول عفيف بن معدى كرب.

وَقَائِلُهُ هَلُمَّ إِلَى التَّصَابِيِّ .. فَقُلْتُ عَفْتُ عَمَّا تَعْلَمِينَا

ويذكر مقيس بن صبابه^(٢) تركه للخمر مع تركه للزنى ان حرمه على نفسه كما قال :^(٣)

رَأَيْتُ الْخَمْرَ طَيِّبَةً وَفِيهَا .. خَصَالٌ كُلُّهَا دَنَسٌ دَمِيمٌ

فَلَا وَاللَّهِ أَشْرَبُهَا حَيَاتِي .. طَوَالَ الدَّهْرِ مَا طَلَعَ النَّجُومُ

إِذَا كَانَتْ عَلَيْكَ مِنْ هَوَائِي .. أَحَالِغُهَا فَحَالَغَنِي الْهُنُومُ^(٤)

سَأَتَرْكُهَا وَاتْرَكَ مَا سِوَاهَا .. مِنَ اللَّذَاتِ مَا أَرْسَى يَسُومُ^(٥)

ويذكر لنا " عنتره العبسي " ابتعاده عن الفاحشة ، وأنه لا يأتي النساء خيانة وباطلا

بل بنكاح بائن يدفع فيه مهرًا لوليها لقاء معاشرتها ، ويتعدى ذلك إلى ذكر بعض

أخلاقه النبيلة التي تنبئ عن الطهر والعفاف . فهو لا يزور النساء إلا بحضور أزواجهن

عندهن ، فمتى غزوا وتركوهن أطلع عن تلك الزيارة . وهو حيي يحفظ حرمة جاره فلا

يرسل بصره في تتبع نساء جيرانه حينما تبتدو منهن فرصة تمكنه من استمتاع نظره بهن

عند ما يخرجن أو يدخلن في البيوت ، يقول عنتره :^(٦)

مَا شِئْتُ أَنْتَنِي نَفْسَهَا فِي مَوْطِنٍ .. حَتَّى أَوْقَى مَهْرَهَا مَوْلَاهَا

أَغَشَى فِتَاةَ الْحَقِّ عِنْدَ حَلِيلِهَا .. وَإِذَا غَزَا فِي الْجَيْشِ لَا أَغْشَاهَا

وَأَغْشَى طَرْفِي إِنْ بَدَتْ لِي جَارَتِي .. حَتَّى يُوَارِيَ جَارَتِي مَا وَاهَا

إِنِّي أَمْرٌ سَمِعَ الْخَلِيقَةَ مَا جِدْتُ .. لَا أُتْبِعُ النَّفْسَ اللَّجُوجَ هَوَاهَا

(١) أمالي القالي : ٢٠٥/١ ، عفيف هذا اختلف فيه فقيل : عفيف (بالتصغير مع

الشدّة) وقيل عفيف (على وزن أمير) ، واشتبه بينهما في الصّحة ، وقيل أنه

ليس صاحبها . وانظر الاصابة : ٥١٥/٤ - ٥١٧ - ٥٥٩٠ ، ٥٥٩١) ، تاج

العروس : ٢٠٣/٦ (عَف)

(٢) مقيس بن صبابه الكنانى من بنى سهم ، قيل أنه أسلم ثم ارتد فأهدر النبي - صلى

الله عليه وسلم دمه وقتل يوم فتح مكة . وانظر سيرة ابن هشام : المجلد الثانى

٢٩٣ ، ٤١٠ ، معجم الشعراء : ٤٦٧ .

(٣) المحبر : ٢٤٠ ، معجم الشعراء : ٤٦٧ .

(٤) مليكة : بغنى كانت تأتبه فتركها ، كما فى المحبر .

(٥) يسوم : جيل فى بلاد هذيل ، وقيل قرب مكة ، وانظر معجم البلدان : ٥/٣٧٢

(٦) ديوانه : ٣٠٧ ، ٣٠٨ .

التنزه عن أكل الميتة :

يفهم من القرآن الكريم فيما ورد عن الميتة أن هناك من كان يأكلها من عرب الجاهلية وقد صرح بذلك في قوله تعالى " وقالوا ما في بطون هذه الانعام خالصة لذكورنا ومحرم على أزواجنا وان يكن ميتة فهم فيه شركاء " . (١)

(٢)

ثم أن الاسلام حرمها كما نص القرآن " حرمت عليكم الميتة " في غير ما موضع .
بيد أننا نجد من الرواة ما يدلنا على أن في العرب من كان لا يأكل الميتة (٣) ، وليس في ذلك ما ينقض بعضه بعضا ، اذا العرب لم يكونوا على صورة واحدة في جوانب حياتهم الدينية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية في مختلف أصقاع بلادهم . فمن ذلك حصل التباين بينهم في بعض الامور والأحكام والعادات وغيرها .
وفي نقد يرى أن من عافوا أكل الميتة أخذوا ذلك من حنيفية " ابراهيم " التي هي أصل دينهم ثم بقيت في بعضهم .

ولعل الذي دفع بعضهم الى أكلها الفاقة والعدم ، وقد كانت موارد الجزيرة قليلة في كثير منها ، وغير بعيد أن تزيدهم أيام عصية وربما سنون عجاف يطلبون فيها اسماك الرمق فلا يحصلون عليه .

(٤)

وقد ورد عن شعرهم في ذلك قول حارثة بن أوس الكلبي :

(٥)

لَا أَكُلُ الْمَيْتَةَ مَا عَمَّيَّرَتْ . . . نَفْسِي وَإِنْ أَبْرَحَ امْتَلَأَ قَرْبِي

ويهجو " أعشى قيس " علقمة بن علاثة (٦) وقومه بأكلهم الوقائع وهي الميتة ، كما

(١) الانعام : ١٣٩ .

(٢) البقرة : ١٧٣ ، المائدة : ٣ ، النحل : ١١٥ .

(٣) المحبر : ٣٢٩ .

(٤) هو حارثة بن أوس كما في المحبر ، شاعر جاهلي ، وقيل ابن شراحيل بن كعب

الكلبي ، قيل انه والد زيد بن حارثة الصحابي الجليل وقيل انه أسلم . المؤلف

والمختلف : ٩٩ ، الاصابة (١٥٢٨) / ١ (٦١٥ ، ٦١٦) .

(٥) البيت في المحبر : ٣٢٩ ، أبرح : أقام وبقي .

(٦) علقمة بن علاثة العامري من الصحابة ، كان من أشرف قومه في الجاهلية ، ومنافرة مع عامر بن الطفيل كفروفا ، وقيل أنه ارتد بعد اسلامه ثم عاد لاسلامه =

يذكرهم بمخالفتهم سنن آبائهم ، فقد كانوا رجال شجاعة وبأس ينلكون بعدد وهـم ، ولعله يرمى من وراء هذه الشجاعة الى حصولهم على المغانم التى سيأكلونها من سائمة وغيرها في حروبهم ، ويريهـم بذلك فضل فرق ما يأكل كل منهم . يقول الأعشى : (١)

هُمُ الطَّرْفُ النَّاكُو العُدُوَّ وَانْتَسُمُ . . بِقُصْوَى ثَلَاثٍ تَأْكُلُونِ الْوَقَائِصُ (٢)

ومن المناسب أن نشير أيضا الى ما كان يفعله العرب من فصد الحيوان وشرب دمه ، وذلك بأن يشق عرق البعير أو غيره فيسيل منه الدم فيأخذوه لضيفهم وربما أضافوا عليه غيره ، وأحيانا يضمون الدم فى معي فيشربونه ويأكلونه ، وكان فعلهم هذا فى الأزمنة الشديدة ، وربما فعلوه ضرورة ويسمى ذلك الفصيد (٣) .

وقد كان الاشراف وأجواد الجاهليين يأنفون من ذلك ويذمونه ، فيروى عن "حاتم طي" أنه طلبت منه امرأة من عيس أن يفصد ناقته استبقا لها فحمرها وقال هكذا فصدى (٤) ، وقد قال فى ذلك (٥) :

كَذَلِكَ فَصَدَى أَنْ سَالَتْ مَطِيَّتِي . . دَمُ الْجَوْرِ أَنْ كُلَّ الْغَصَادِ وَخَيْمٍ

وروا له فى ذلك - أيضا - قوله : (٦)

لَا أَفْصُدُ النَّاقَةَ فِي أَنْفِهِ . . لَكُنْتِنِ أَوْجَرَهَا الْعَالِيَةَ (٧)

إِنِّي عَنْ الْفَصْدِ لَفِي مَقْهَرٍ . . يَكْرَهُ مَنِّي الْمَفْصَدُ الْآكِلِيَةَ (٨)

= وولاه عمر على حوران . ومن مراجع ترجمته : الاصابة : (٥٦٢٩) ، ٤٠ / ٥٥٣ ،

(١) ديوانه : ١٩٩٠ .

(٢) نكا العدو : قتل فيهم وجرح وأتخن ، الناكون جمع ناكى . فصى ثلاث : أقصى الشئ آخره وأبعده ، أى بيوتكم آخر ثلاثة بيوت من بيوت قومكم ، الوقائص : هي التى سقطت فكسرت عنقها وماتت دون ذكاة .

(٣) لسان العرب (فصد) : ٣٣٦ / ٣ .

(٤) ديوانه : ٢٨٨ .

(٥) السابق : ٢٨٨ . (٦) السابق : ٢٩٠ .

(٧) أوجرها : انحرها

(٨) الآلية : يريد الألية ، وهي العجيزة للناس وغيرهم ، وفى اللسان (٤٢ / ١٤) كانوا يجتنبون أليات الغنم أحياء ، جمع ألية وهى طرف الشاة ، والجب القطع . وقيل مارتكب العجز من اللحم والشحم ، والجمع أليات وألايا .

الجنایات :

هى الأفعال التى قد يعتدى بها الانسان على غيره مما يستوجب العقاب والقصاص، وتعد جرماً يؤخذ به صاحبه ، وأنواع الاعتداءات كثيرة غير أن ما يعنيننا من ذلك حسب ماتوفر لنا من مادة أدبية هو الحديث عن السرقة والقتل .

أما السرقة فقد دلت الاخبار على قطع يد مقرر لها عند قریش ^(١) ، ولعل من العرب من أخذ بذلك ، وقد عزوا سننها الى قریش ثم اختلفوا فى أول مشرع لها ^(٢) ، غير أن علمهم هذا فيما يبدو كان لا يخلو من المحاباة ، فاذا كان الجانى شريفاً جاءه ومكانة تركوه ، وإن كان ضعيفاً أقاموا عليه الحد ، وقد ذكرت حادثة من ذلك ^(٣) .

وقد جاء فى المحبر ^(٤) : " قطعت قریش رجالاً فى الجاهلية فى السرقة منهم (وابصة ابن خالد بن عبدالله بن عمر بن مخزوم) سرق فى الجاهلية فقطعت يده . . . وقطع (عوف بن عبيد بن عمر بن مخزوم) قطع مراراً ثم سرق فرجم حتى مات . و" الخيار ابن عدى بن نوفل بن عبد مناف) و (عبيد الله بن عثمان بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم) قطع فى سرقة ابل . و (مدرك بن عوف بن عوف بن عبيد بن عمر بن مخزوم) و (مليح بن شريح بن الحارث بن أسد) . و (قيس بن قيس بن عدى السهمى) / وكانا سرقاً ^(٥) / حلى الكعبة فى الجاهلية " .

أما ما روى من شعر فى ذلك فقد روى عند ما قطعت قریش يد مليح بن شريح ويد مدرك ابن عوف السابقين حين اشتركا فى سرقة كنز الكعبة وحليها أن مالك بن عميلة ^(٦) قال

(١) تفسير ابن كثير : ٣ / ١٠٠ ، ١٠٢ .

(٢) المعارف : ٥٥٢ ، صبح الاعشى : ١ / ٤٣٥ .

(٣) انظرها فى الاوائل للعسكرى : ١ / ٨٨ ، ٨٩ .

(٤) ص ٣٢٨ .

(٥) كذا فى المحبر وصوابه وكانوا اذ هم ثلاثة كما فى السياق ، وذكر مقيس أيضاً منهم فى

الاوائل : ١ / ٨٨ .

(٦) فى معجم الشعراء : ٣٥٧ مالك بن عميلة بن السباق بن عبدالدار بن قصي القرشي جاهلى . وذكر له شعرا يخاطب به هشام بن المغيرة المخزومي ، ويفتخر بعشيرته .

في ذلك مخاطبا " حميد بن زهير " ، وكان ابن عم طريح : (١)

تَنَحَّى حَمِيدٌ أَنَّهُ كَانَ حَيْضَةً .. لِيَالِي بَانَتْ مِنْ مُلَيِّحٍ أَصَابِعُهُ
 لِيَالِي بَانَتْ كَفُّهُ مِنْ زِرَاعِيهِ .. فَاصْبَحَ لَا يَدُنْ لِقَرْنٍ يَنَازِعُهُ
 وَدِرَاسٍ مَخْزُومٍ تَرَكَنَا مُجَدَّلَا .. بِمَا قَدَّمَتْ أَظْفَارُهُ وَأَشَاجِعُهُ (٢)
 فَأَمْسَى تَلِيلًا لِلسَّبَاعِ تَنَوُّبُهُ .. تَسِيلُ دَمَا آرِيهِ وَكَرَاسِعُهُ (٣)

أما القتل فقد كان كثيرا بين العرب كثرة غاراتهم ، ولم يكن هناك من يقتص من المعتدى الا قرابة المقتول متى ماتمكوا من ذلك . غير أن العرب مع ذلك كانت تحاول ارضا قرابة الميت بقدر غير يسير من المال حتى يتركوا ثأرهم في مقابل ذلك المال ، وهذا ما يعرف بالديات .

وقد ذكر الرواة أناسا جعلوا الدية مائة من الابل واختلفوا فيهم . (٤) غير أن الديات لم تكن على قيمة محددة فيما يبدو وان تختلف الدية باختلاف درجات القبائل ومنازل الناس ، فقد تكون عشرة من الابل وقد تبلغ ألفا . فاذا كان القتل من سواد الناس ومن القبائل الصغيرة الضعيفة ، كانت ديته قليلة ، أما اذا كان من أشرف القبيلة زادت ديته عن ذلك تبعا لمنزلة القتل ولمكانته . واذا كان القتل ملكا ، كانت ديته ألفا من الابل ، وتسمى هذه الدية (ادية الملوك) (٥)

وقد كثر في الشعر الجاهلي حديثهم عن الديات ، وقد كان الاشرف والاجواء

(١) المحبر : ٣٢٨ .

(٢) درواس : لقب مدرك بن عوف كما في المحبر .

(٣) تليلا : مصروعا ملقى على الارض ، تنوبه : تتناوب عليه تأكله . آرابه : واحدها إآرب ، وهي أعضاه ، أى أعضاء الجسم . كراسعه : جمع كرسوع : وهو العظم الناتق عند الرسغ من اليد ، وكرسوع القدم : فصلها من الساق .

(٤) الروض الأنف : ٤٣/٢ وجعله أبا سيارة ، صبح الأعشى : (١/٤٣٥) ، جعله عهد المطلب . لأبي العباس أحمد القلقشندى ، نسخه مصورة عن الطبعة الاميرية .

(٥) بلوغ الارب : ٢٢/٢ ، الفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام : ٣٩٢/٥ .

يتحملون دفع الديات عند ما يسعون بالصلح بين المتقاتلين ، وربما أتاهم من عليه الدية يسألهم فيتحملوها عنه . ووساطة * الحارث بن عوف * و * هرم بن سنان المري ^(١) بين قبيلتي عس وذبيان في الصلح واحتملها ديات القتلى مشهورة ذائعة ، وقد خلد لنسأ زهير بن أبي سلمى هذه المفخرة لهذين الرجلين اللذين أشار بهما زهير وجعل فيهما غرر مدائحهم .

(٢)
يقول زهير :

سَعَى سَاعِيَا غِيْظَ بِنِ مَرَّةٍ بَعْدَ مَا . . تَبَزَّلَ مَا بَيْنَ الْعَشِيرَةِ بِالْدَمِ ^(٣)
فَاقْسَمْتُ بِالْبَيْتِ الَّذِي طَافَ حَوْلَهُ . . رَجَالُ بَنُوهُ مِنْ قُرَيْشٍ وَجُرْهُمِ
يَمِينًا لِنَعْمِ السَّيِّدِ أَنْ وَجِدْتُ مَا . . عَلَى كُلِّ حَالٍ مِنْ سَحِيلٍ وَمُبْرَمِ ^(٤)
تَدَارَكْتُمَا عَسَاً وَذَبْيَانَ بَعْدَ مَا . . تَفَانَوْا وَدُقُّوا بَيْنَهُمْ عِطْرَ مَنْشَمِ ^(٥)

ويبين زهير كيف قام السرجلان بحمل هذه الديات الكثيرة وأنهم وفوا بها لأهلها ، وقد

(١) الحارث بن عوف بن أبي حارثة المري ، من مشاهير الجاهلية وفسانها ، أدركه الاسلام فأسلم ، وقيل ان الرسول - صلى الله عليه وسلم - وضع يده عليه من ديات القتلى التي حملها في الجاهلية . وانظر الاستيعاب : ٩٧٨ ، الاصابة ١٤٦٢ / ١ ٥٩٠ .

هرم بن سنان ابن أبي حارثة المري ، مدوح زهير وأحد أجواد الجاهلية ، مات هرم قبل الاسلام ، وهو ابن عم الحارث السابق الذكر ، وانظر : امثال الميدانسي ١٨٨ / ١ ، الاغانى : ٣٠٤ / ١٠ وما بعدها .

(٢) ديوان زهير " الأعم " : ١٤ ، ١٥٠ .

(٣) الساعيان : الحارث بن عوف وهرم بن سنان ، وقيل خارجة بن سنان وغيظ بسن مرة . تبزل بالدم : أى تشفق بالدم الذى كان بينهما .

(٤) السحيل : الخيط المفرد ، العبرم : المفتول . والمعنى على كل حال من شدة الامر وسهولته .

(٥) تداركنا عسا وذبيان : أى بالصلح بعد ما تفانوا بالحرب . منشم : امرأة يضرب بها الشؤم ، زعموا انها كانت عطارة ، فتخالف قوم وأخذوا من عطرها ، ومعنى ذلك عند هم أن يتعاهدوا على القتال حتى الموت ، وزهير يضرب بها المثل هنا .

كانت غرامة أولئك القتل أبلا صحيحة تامة من خير المال :^(١)

فَكَلاَ أَرَاهُمْ أَصْبَحُوا يَعْقِلُونَهُمْ .. عَلَلَةَ الْفِ بَعْدَ الْفِ صَتْنَمَ^(٢)

تَسَأَى إِلَى قَوْمٍ لِقَوْمٍ غَرَامَةً .. صَحِيحَاتِ مَالٍ طَالَعَاتِ بِمُخْرَمِ^(٣)

والدية هي العقل كما تسمى أحيانا وجمعها عقول ، وسميت بذلك لأن الدية كانت عند العرب في الجاهلية ابلا لانها كانت أموالهم ، وكان القاتل يكلف أن يسوق الدية الى ورثة المقتول فيعقلها بالعقل ويسلمها الى أوليائه.^(٤)

وقد خاطب "عوف بن الأحوص" قوما دفع اليهم ابنه مكان رجل أخذوه فأبوا ذلك كأنهم لم يروه كفؤا له في قصة يروى منها ذلك ، فبين لهم أنهم ليسوا ملوكا فيشتطوا في ديتهم ولكنهم من أجل واحد سواسية اذا وجبت عليهم الديات أذوها ابلا وعبدا كما قال :^(٥)

أَبُوكَ بُجِيدٌ وَالرَّءُ كَعُتْبٌ .. فَلَمْ تَنْظِلْ بِأَخْذِكَ مَاتَشَاءُ^(٦)

وَلَكِنْ مَعْشَرٌ مِنْ جِذْمٍ قَيْسٍ .. عَقُولُهُمُ الْإِبَاعُ وَالرَّعَاءُ^(٧)

(١) ديوان زهير : (الاعلم) ٢٤٠

(٢) يعقلونهم : يفرغون دياتهم ، العلالة : الشيء بعد الشيء ، صتم : أى صحيح تام . صحيحات مال : قال الاعلم : أى ليست بعده ولا مطل . يقال مال صحيح : اذا لم تدخله علة من عدة ولا مطل . والذي يظهر أنه أراد أنها من خيار المال وليست من مهازيله . المخرم : التثنية في الجبل أو الطريق والمعنى أنهم لم يشعروا بالابل ، حتى طلعت عليهم فجأة ، يشير الى وفاء الذين أذوها وتحملوها .

(٤) لسان العرب (عقل) ١١ / ٤٦١ .

(٥) الفضليات ١٧٥ .

(٦) بجيد : تصغير بجاد وهو كساء مخطط من أكسية الاعراب . فلم تنظلم بأخذك ماتشاء : أى لم تضع الشيء في غير موضعه ، وهو هنا يهزأ به ويتهمكم .

(٧) الجذم : الأصل . العقول : الديات . والمعنى نحن معشر من قيس اذا وجبت علينا الدية أذيناها أبعرا وعبدا ، لسنا بملوك فلا تشتطوا علينا ، وانظر

شرح التبريزي : ٢ / ٦٤٩ .

وتسمى الدية الحمالة أو الفرامة وإذا كانت الدية على رجل قيل تحمل حمالة^(١)، وقد مدحت العرب الرجال الذين يحملون الديات ويضمنون لأهلها دفعها لهم عند عجز الجاني عن أدائها. وقد عيّر الأعرابي أحد خصومه بأنه ليس ممن يحمل الديات في القتلى فقال: ^(٢)

ولا كخارجة السدي .. ولي الحكالة والصبارة^(٣)
ويقول معون الحكماء: ^(٤)

حملت حمالة القرشي عنهم .. ولا ظلما أردت ولا اختلابا^(٥)
ومع ما سلف من أخذ العرب بالدية كان بعضهم يكره ذلك، بل ويراه فعلا مشينا، ويمعيرون أخذ الدية بآكل الدم، لأنه أخذ دية أخيه مالا فأكله فكانه أكل دم قريبه، ولا شك أنهم كانوا يأنفون من قبولها إلا فيما ندر، ولم يكن يقبلها إلا الضعفاء الذين لا يستطيعون حيلة في أخذ ثأرهم.

هذا الأفوه الأودي يفخر بأنفة قومه من أخذ الدية فيقول: ^(٦)
وأنا لنعطى المال دون دماينا .. ونأبى فما نسام دون دم عقلا
ويبرهن أحدهم ^(٧) على عدم أخذ العقل لسرعة فناءه وبقاء العار لا يذهب عنهم أن قبلوا

(١) تاج العروس (حمل) : ٢٨٩/٧ : ٢٩٠.

(٢) ديوانه : ٢٠٧.

(٣) خارجة : هو خارجة بن سنان العبسي من مشاهير رجال بني عبس، واشترك مع الذين تحملوا ديات القتلى في حرب داحس والفجرا، وانظر الاشتقاق : ٢٨٨، الإصابة : ٥٩٠/١.

الحمالة : الفرامة والدية التي يحملها قوم عن قوم، الصبارة : الكفالة، أي تحمل الديات وتكفل بها لأهلها.

(٤) هو معاوية بن مالك بن جعفر بن كلاب، وسعى معون الحكماء لقوله في القصيدة التي منها البيت الذي معناه : (أعود مثلها الحكماء بعدى ..) وهو فارس وشاعر مشهور، من أسرة عرفت بالسيادة والمروءة، ومن مراجع ترجمته : سبط

اللائك : ١٩٠ - ١٩١، والروض الآنف : ١٧٥/٢.

(٥) البيت في المفضليات : ٣٥٨، اختلابا : أي خديعة.

(٦) الطرائف الأدبية : ٢٣. عبد العزيز الميمنى . ط : دار الكتب العلمية - بيروت.

(٧) في شرح الحماسة للمرزوقي : ٢١٣/١ منسوبة لبعض بني فقمس.

(١) ذلك :

فلا تأخذوا عقلاً من القوم أننسى .. أرى العارَ يبقَى والمعاقلُ تذهبُ
ويروى ان امرأة من ضبة قالت لقومها : لا تأخذوا نوثاً ولكن أرووا سيوفكم من دماء
أعدائكم ، فان لم تتأروا فلا درت بناقكم لبنا :

الا لا تأخذوا لبناً ولكـن .. أنيقوا قومكم حدَّ السَّـلاح
فان لم تتأروا عمراً بزئيد .. فلا درت لبون بني رـساح^(٢)
وقد أشار الكمي^(٣) فى شعره مفتخراً بأجداده الى سنهم الدية مائة من الابل ،
فيقول :^(٤)

أبونا الذى سنَّ المئينَ لقومـه .. ديات وعداها سلوفاً منيها
فسلّمها واستوثق الناس للذى .. تعلل لنا سنّ فيها حروبها
غنائم لم تُجمع ثلاثاً وأزبعها .. ساعل بالاحاف شتى ضروبها

-
- (١) الحماسة بشرح المرزوقي : ٢١٥ / ١ .
(٢) حماسة البحتري : ٧٣ . ابو عبادة البحتري . بعناية كمال مصطفى ، ط ١٩٢٩ م . المطبعة الرحمانية - مصر .
(٣) الكمي بن زيد الاسدى من شعراء العصر الاموى ، كان يتشبع لآل البيت ، وقال فى ذلك شعراً كثيراً ، ولد سنة ٦٠ هـ وتوفى ١٢٦ للهجرة ، ويبدو أنه لم يكن من غلاة الشيعة لأنه مدح بنى أمية . وانظر : طبقات نحول الشعراء : ٣١٨ / ١ وما بعدها ، ٥٣٩ / ٢ ، الاغانى : ١ / ١٧ ، وما بعدها .
(٤) ديوان الكمي : ج ١ ق ١ ص ١١٣ ، ١١٤ . جمع وتقديم د . داود سلوم ط مكتبة الاندلس - بغداد .

نلحق القسامة بالحديث عن الدِّية ان هـى من أحكامها التى أخذ بها الجاهليون وهى من القسم ، ويراد بها * أن يقتل رجلا فلا تشهد على قتل القاتل اياه بينة كاملة ، فيجىء أولياء المقتول فيدعون قبل رجل أنه قتله ويدلون بـلوث^(١) من البينة غير كاملة ، وذلك أن يوجد المدعى عليه متلطخا بدم القتيل فى الحال التى وجد فيها ولم يشهد رجل عدل أو امرأة ثقة أن فلانا قتله ، أو يوجد القتيل فى دار القاتل وقد كان بينهما عداوة ظاهرة قبل ذلك ، فإذا قامت دلالة من هذه الدلالات سبق الى قلب من سمعه أن دعوى الأولياء صحيحة فيسـ حلف أولياء القتيل خمسين يميناً أن فلانا الذى ادعوا قتله انفرد بقتل صاحبهم ما شركه فى دمه أحد ، فإذا حلفوا خمسين يميناً استحقوا دم قتلهم فان أبوا أن يحلفوا مع اللوث الذى أدلوا به حلف المدعى عليه ويرى* ، وان نكل المدعى عليه عن اليمين حُيِّر ورثة القتيل بين قتله أو أخذ الدية من مال المدعى عليه^(٢).

وقد دلت المصادر على أخذ بعض الجاهليين بها ، وأن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أقر القسامة على ما كانت عليه فى الجاهلية وحكم بها أيضاً^(٣).

وقد ورد فى الصحيح أن الجاهلية حكم بالقسامة فيها ، ذلك أن رجلا من قريش استأجر أحد بنى هاشم فى أحد أسفاره فجدفه بعضا كان فيها أجله فمر بالهاشمى رجل أوصاه بأبلاغ بنى هاشم خبره ، فلما عاد القرشى زعم أن صاحبه مات فى سفرهم فلما علموا بفدده أتوه لثأرهم وخيروه بين دفع مائة من الابل أو يحلف خمسون رجلا من قومه أنه لم يقتله أو يقتلوه به فحلف ثمانية وأربعون رجلا واستفدى الباقيان من الخمسين بأبـل فقبلوا حلفهم ثم كانت عاقبة الذين أقسموا أنه لم يحل عليهم الحول وفيهم عين تطرف^(٤).

(١) اللوث : شبه الدلالة ولا يكون بينه تامة ، مأخوذ من التلوث وهو التلطخ .

(٢) لسان العرب (قسم) : ٤٨١ / ١٢ .

(٣) جامع الاصول من أحاديث الرسول : ٢١ / ١١ وما بعد ها .

(٤) انظر فتح البارى شرح صحيح البخارى : ١٥٥ / ٧ .

وقد سجل لنا أبوطالب هذه الحادثة في شعر يروى له في ذلك فيقول :^(١)

أَفَنِي فَضْلَ حَبْلٍ لَا أَبَاكَ صَرَّيْتَهُ .. بِمَنْسَأَةٍ قَدْ جَاءَ حَبْلٌ وَأَحْبَلُ^(٢)

هَلُمَّ إِلَى حُكْمِ ابْنِ صَخْرَةَ أَنْسَهُ .. سَيَحْكُمُ فِيمَا بَيْنَنَا ثُمَّ يَعْدِلُ^(٣)

كَمَا كَانَ يَقْضِي فِي أُمُورِ تَنْوِينَنَا .. فَيَعْفِدُ لِلْأَمْرِ الْجَمِيلِ فَيُقْصِلُ

ويروى أن أبا الوليد أحد بني عامر بن لؤي خاطب أبا طالب في ذلك بقوله :^(٤)

أَتَدْعُو إِلَى حُكْمِ بَنِ صَخْرَةَ أَنْفَا .. أَبَاهُ لِحُكْمِ الْعَبْدِ وَالْعَبْدُ أَنْذَلُ^(٥)

خِدَائِي إِذَا مَا هَاجَتِ الْحَرْبُ فَارِئُ .. وَعِنْدَ بَنِي سَجْعٍ بِمَكَّةَ يَعْمَلُ

أَبَا طَالِبٍ مَا كُنْتَ تَعْلَمُ أَنْسَهُ .. خِدَاشُ إِذَا مَا كَانَ يَوْمُ مُحَجَّلُ

(١) المحرر : ٣٣٧ ، البيان والتبيين : ٣ / ٤٠ ، وبه البيت الاول فقط ، لسان

العرب : ١٦٩ / ١ (نسا) .

(٢) لا أباك : أى لا أبالك وانظر من أمثلة ذلك البيان والتبيين ٣ / ٤٠ ، ٤١ .

منسأة : هى العصا . وفى القرآن الكريم " فما دلهم على موته الا دابة الارض تأكل منسأته " .

(٣) ابن صخره : هو الوليد بن المغيرة ، وصخره أم المغيرة ، بنت الحارث بن

عبدالله بن قسر كما فى المحبر .

(٤) الاوائل للمسكرى : ١ / ٧٨ - ٨٠ .

(٥) أنفا : جمع أنف ، أى يأنف أن يضام ويكره ذلك حمية وعزة .

الحكم في المنازعات :

تقع الخلافات بين الناس عند تباين آرائهم حول أى شأن من شؤون حياتهم ، وكل من المتنازعين يخال الحق معه فيما يبدوله ، وقد يكون أحدهم معتديا لكنه يصبر على ذلك ، وقد كان المتنازعون في الجاهلية عند ما يتمادى بينهم الخلاف ، وتخشى الفتنة أو يقع النزاع يبحثون عن يحسم ذلك الخلاف ويحكم بين المتنازعين . وربما ذهبوا الى أحد الحكماء المشهورين ليحكم بينهم ، وقد يحكمون شيوخ القبائل ورؤساء العشائر وأصحاب الرأي والحنكة في هذه الخلافات .

والذى يعنينا من حكمهم في المنازعات ما نراه يدخل في أحكام الحنيفية ، ذلك أنهم أخذوا بحكم (البينة على المدعى واليمين على من أنكر)^(١) . ويقتضى هذا الحكم فيمن ادعى أى أمر أن يأتي ببينة تدل على صدق ما يدّعيه والا حلف له المدعى عليه بيمينا يبعد بها ما ادعى عليه .

وقد حكم الاسلام بذلك وأقره وقضى به الرسول - عليه الصلاة والسلام - في بعض من تخصصوا اليه .^(٢)

وقد أشار " زهير " الى ذلك بقوله :^(٣)

فَإِنَّ الْحَقَّ مَقْطَعُهُ ثَلَاثٌ .. يَمِينٌ أَوْ نِفَازٌ أَوْ جَلَاءٌ
فَذَلِكُمْ مَقَارِطُ كُلِّ حَقٍّ .. ثَلَاثٌ كُلُّهُنَّ لَكُمْ شِفَاءٌ

فالذى يبين الحق واحدة من ثلاث خصال عند زهير ، فأولها اليمين التى ان حلف بها رضى الخصمان بها ، أو المنافرة الى رجل ليحكم بينهم ويعلم حجج كل منهم ويرى رأيه في ذلك ، أو باظهار بينة تجلو الامر وتبين وجه الحق فيه .
ويبدو أنهم كانوا يؤدون هذه الايمان في الاماكن المقدسة عندهم ، وذلك ممن

(١) مجمع الاسال : ١ / ١١١ .

(٢) جامع الاصول من أحاديث الرسول : مبارك بن محمد " بن الاثير " ٢٩٦ / ١٢ ،

٢٩٧ . ط ٢ (١٤٠٠) دار احياء التراث العربى - بيروت .

(٣) ديوانه : (الأظم) ١٣٨ ، (ثعلب) ٧٥ .

تمعظيهم للإيمان وحتى يستشعر الحالف عظمة الأمر والمكان فلا يحلف الا على حق ،
 كأنَّ يحلفوا عند أصنامهم ، وقد ورد أن قريشا كانت تأتي عند الحطيم وهو ما بين
 الركن والباب ^(١) وتحلف عنده ^(٢) وربما فعلوا أمورا أخرى غريبة عند عقد احلافهم
 كلعق الدم ^(٣) أو من الطيب ^(٤).

وقد أشار "زهير" الى عقد أيمانهم في الأماكن المقدسة ، فذكر أنهم سيحلفون
 في مكة ان هي موضع القسم فيقول : ^(٥)

فَجَمَعَ أَيْمَنُ مِنَّا وَمِنْكُمْ . . . بِمُقَسَّمةٍ نَوْرُهَا الدَّمُ ^(٦)

وتدل المصادر على أنهم ربما أوقدوا نارا أو تحالفوا أو حلفوا عندها ، ويدعون الله
 بحرمان الخائن من منافعها ، ويهولون ذلك عليه ، وربما دنوا منها حتى يجدوا حرها
 وتكاد تحرقهم ، وقد سموا هذه النار بنار التحالف والحلف ^(٧) أو نار المهول ^(٨).

وقد ذكر لنا أوس بن حجر هذه النار في شعره يذكر عيرا قائما فوق نشز :
 إِذَا اسْتَقْبَلَتِ الشَّمْسُ صَدَّ بِوَجْهِهِ . . . كَمَا صَدَّ عَنْ نَارِ الْمُهُولِ حَالِفٌ ^(٩)

(١) هذا المشهور وقيل غير ذلك ، وانظر لسان العرب (حطم) ١٣٩/١٢ ، ١٤٠ .

(٢) السابق ، تاج العروس (حطم) : ٣٥١/٨ .

(٣) جاء في السيرة : المجلد الاول ١٩٦ ، ٩٧ في اختلاف قريش فيمن يضع الحجر
 الاسود : " فاختصوا فيه كل قبيلة تريد أن ترفعه الى موضعه دون الاخرى ، حتى
 تكاؤزوا وتحالفوا ، وأعدوا للقتال ، فقربت بنو عبد الدار جفته ملوئة دما ، ثم
 تعاقدواهم وبنو عدى ابن كعب بن لؤى على الموت ، وأدخلوا أيديهم في ذلك
 الدم في تلك الجفنة . . . "

(٤) انظر (حلف المطيعين) في السيرة النبوية : المجلد الاول ١٣٠ وما بعدها .

(٥) ديوانه : ١٤١ (الاعلام) .

(٦) تنور : تسيل ، يشير الى نحر البدن بمكة .

(٧) الحيوان : ٤٧٠/٤ وما بعدها .

(٨) ايمان العرب في الجاهلية : ٣٤ - ٣٧ ، بلوغ الارب : ١٦٢/٢ .

(٩) ديوانه : ٦٩

ولا شك أن للايمان عند العرب شأنًا عظيمًا في حياتهم ، وقد يسمونها الانفال^(١) ،
ولذلك وجدنا من أفرد لها مؤلفا عامًا^(٢) ، وربما خصصوا لكل قبيلة نوافلها كنوافل
قريش ، ونوافل كنانة وغيرها^(٣) .
وقد كانت للعرب ايمان كثيرة بيد أنهم لما كانوا يؤمنون بالله - جل وعلا - جعلوا
القسم به أعظم ايمانهم^(٤) ، ولذلك قال النابغة^(٥) .
حلقت فلم أترك لنفسك ريبة . . . وليس وراء الله للمرء مذهب

(١) لسان العرب : ٦٧٣ / ١١ (نفل) .

(٢) كالبجيرى في كتابه ايمان العرب في الجاهلية .

(٣) الفهرست : ١٤١ (أخبار هشام الكلبى) . ط . دار المعرفة - بيروت .

(٤) ايمان العرب في الجاهلية : ١٢ ، ١٣ .

(٥) ديوانه : ٥٥ .

أحكام النساء :

يشارك النساء بجهد بارز في المجتمعات ، وللمرأة أعمال تختص بها في أغلب البيئات ، وكان نساء الجاهلية يساعدن أزواجهن ومن يعولهن في كثير من الأعمال التي تقتضي ذلك حسب ثراء الأسرة وما جرت به العادة بينهم ، وقد كان العربي يأنف من الاعتداء على النساء ، ويرون ذلك عارا كبيرا لحق بهم ، وربما قاد إلى حرب أضربت نارها عددا من الأيام . ونرى أن المرأة في الجاهلية كانت مهيضة الجناح مهضومة الحقوق في الغالب ، وربما عدوها ضمن متاعهم .

وتحتل المرأة في الشعر الجاهلي ^(١) حيزا لا بأس به مما كانت عليه من مكانة في الأسرة والمجتمع أما وزوجه وبناتها وقريبه ، ودورها في الحياة العامة في السلم والحرب وأعمالها وثقافتها وغير ذلك .

وقد تبين لنا أن من أحكام بعض الجاهليين مانعة من أحكام الحنفية فيما يخص النساء ، وسنأتي على بيان ذلك في ضء ماورد من شعرهم في ذلك .

(١) انظر كتاب : المرأة في الشعر الجاهلي للدكتور : أحمد محمد الحوفي .

النكاح :

ونعنى به الزواج ، والنكاح هو العقد فى الأصل ، ثم استعير للجماع ^(١) . ويكون ذلك باتصال الرجل بالمرأة بخطبتها من والدها أو من يتولى أمرها ثم يرضى الطرفان ويتفقان على ذلك ويعمل له ما اعتاد الناس فعله فى هذا الشأن حسب عادة كل قوم .

وقد كان النكاح شائعا بين سائر العرب ، فهو أمر تقضيه الفطرة وتتوق اليه النفوس ، وقد أشار القرآن الكريم الى نكاح الجاهليين فى بعض الآيات ، ومنها تحريم نكاح الآباء كما قال تعالى : " ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء إلا ما قد سلف " ^(٢) الى غيرها من الآيات التى تعرضت لشئون النكاح وترك ما كان للجاهليين فيه من عادات ^(٣) .

وقد بلغ من أمر نكاحهم أن أباحوا لأنفسهم تعدد الزوجات ، فروى " أن قريشا كان الرجل منهم يتزوج العشر من النساء والاكثر والاقل ^(٤) ، وجاء الاسلام ومن العرب من له عشر من النساء فأمروا باسك أربع وتسريح ما عداهن ^(٥) .

وجاء فى الحديث الصحيح " أن النكاح فى الجاهلية كان على أربعة أنحاء : فنكاح منها نكاح الناس اليوم يخطب الرجل الى الرجل وليته ، أو ابنته ، فيصدقها ، ثم ينكحها . ونكاح آخر : كان الرجل يقول لامرأته ، اذا طهرت من طمها : أرسلنى الى فلان فاستبضعى منه . ويعتزلها زوجها ، فلا يمسه حتى يتبين حملها من ذلك الرجل الذى تستبضع منه . فاذا تبين حملها أصابها زوجها اذا أحب . وانما يفعل ذلك رغبة فى نجابة الولد . فكان هذا النكاح نكاح الاستبضاع . ونكاح آخر : يجتمع الرهط من دون العشرة . فيدخلون على المرأة ، كلهم يصيبها ، فاذا حملت ووضعت ، ومريال بعد أن تضع حملها أرسلت اليهم فلم يستطع رجل منهم أن يمتنع حتى يجتمعوا عندها فتقول لهم : قد عرفتم الذى كان من أمركم . وقد ولدت ، وهو ابنك يا فلان - تستسى

(١) المفردات للراغب : ٥٣٥ .

(٢) النساء : ٢٢ .

(٣) انظر المعجم المفهرس لالفاظ القرآن الكريم : ٧١٨ .

(٤) تفسير الطبرى : ٤ / ١٥٦ ، ١٥٧ .

(٥) المحبر : ٣٥٧ .

من أحببت باسمه - فتلحق به ولدها . لا يستطيع أن يتمتع الرجل . ونكاح رابع : يجتمع الناس الكثير . فيدخلون على المرأة لا تمتنع ممن جاءها - وهن البقيات - كن ينصبن على أبوابهن الرّيايات ، وتكون علما فمن أرادهن دخل عليهن . فإذا حملت أحداهن - ووضعت حملها جمعوا لها ودعوا لها القافة ، ثم ألحقوا ولدها بالذي يرون . فالتا طبه^(١) ودعى ابنه ، لا يتمتع من ذلك . فلما بعث النبي صلى الله عليه وسلم بالحق هدم نكاح الجاهلية كله الا نكاح الناس اليوم^(٢) .

ونجد الاعشى يشير لنا الى تمتعه بالنساء اما نكاحا أو زنى فيقول :^(٣)

وَأَقَرَّرْتُ عَيْنِي مِنَ الْفَانِيَا . . . تِلْمَا نِكَاحًا وَلِئِمَّا أَزَنَ

وقال أحدهم^(٤) مشيراً الى عدم الوفاق في الزواج والفشل فيه بعد أن تقدم وخطب ثم

صرفت الزوجة لغيره فتزوجها :

سَلَا رِيَّةَ الْحِدْرِ مَا شَأْنُهَا . . . وَمِنْ أَيِّ مَا فَاتْنَا تَعَجَّبُ
فَلَسْنَا بِأَوَّلٍ مِنْ فَاتَتْهُ . . . عَلَى رَفِقَةٍ بَعْضُ مَا يَطْلُبُ
فَكَائِنْ تَصَرَّعَ مِنْ خَاطِبٍ . . . تَزَوَّجَ غَيْرَ الَّتِي يَخْطُبُ
وَزَوَّجَهَا غَيْرَهُ دُونَكَ . . . وَكَانَتْ لَهُ قَبْلَهُ تُحَجَّبُ

(١) التا طبه : التصق به .

(٢) رواه أبو داود . مختصر سنن أبي داود للحافظ المنذرى : ١٧٩ / ٣ .

(٣) ديوانه : ٦٧ .

(٤) هو رجل من اليهود كما في المفضليات : ١٧٩ .

تحريم المحارم :

وهن النساء اللاتي يحرم على الرجل الزواج منهن كالبنيات والأمهات والخالات والعمات والأخوات وغيرهن . والذي دلت عليه المصادر أن أهل الجاهلية كانوا يحرمون ما حرم الله إلا امرأة الأب والجمع بين الأختين لقوله تعالى " ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء إلا ما قد سلف . " ، وان تجمعوا بين الأختين^(١)

ومع وجود الزواج بأمرأة الأب والجمع بين الأختين . . كانوا يرونه قبيحا مكروها وهو أشنع ما كانوا يفعلون ويسمون الذي يخلف على امرأة أبيه (الصَّيْن) ، وقد يسمون هذا النكاح بنكاح المقت.^(٢)

وقد جاء أن البرج من مسهر الطائي^(٣) انتبه في الليل وكان شارباً فسمع أخته (الغفاطة) تبول . فقال : اني لأسمع شخه^(٤) لا بد من أن أزخها^(٥) زخة . ثم واثبها فقالت : ويلك ! أنا أختك . فلم يلبث أن افترعها^(٦) . فلما أصبح هرب على وجهه إلى الشام ، فأقام هناك وتنصر . ثم ان " الحصين بن الحمام "^(٧) هجاه وذكر فعله بأخته ، ولو لم يكن ذلك قبيحا ومنكرا لما شتم عليه وسبه بذلك :^(٨)

(١) سورة النساء : ٢٢ ، ٢٣ . وانظر تفسير الطبري : ٤ / ٢١٧ .
(٢) المحبر : ٣٢٥ ، لسان العرب : ٢ / ٩٠ (مقت) ، ١٣ / ٢٥٤ (وزن) بلوغ الأرب : ٥٢ / ٢

(٣) هو البرج بن مسهر بن الجلاس أحد بني جديله ، ويعد من الشعراء ، ومن شرب الخمر صرفا حتى مات ، وانظر المحبر : ٤٧٠ ، المؤتلف والمختلف : ٦١ ، ٦٢ .

(٤) شخه : صوت البول عند نزوله .

(٥) أزخها : أي أجأى بها .

(٦) أي علاها وواقعها .

(٧) الحصين بن الحمام بن ربيعة بن مساب بن حرام المزي ، كان سيدا شاعرا وثيا ، وكان سيد قومه ، وقد ذكر في الصحابة وهو من المتفق على أنهم أشعر العقليين في

الجاهلية ، ومعه المتلمس والمسيب بن علس . وانظر : الشعر والشعراء : ٢ / ٦٤٨ ، المؤتلف والمختلف : ٩١ ، الأغاني : ١٤ / ١ ، وما بعدها .

(٨) المحبر : ٤٧١ ، ٤٧٢ .

لا تحسين ، أبا الغفافة أننى . . رجل يخبرك لست بالعمّال
استنزلوك وقد بللت نطاقها . . من بنت أمك والرمال دواسى (١)

وهذا "أوس بن حجر" يهجو خصومه ويعيرهم بأنهم كالمجوس يتزوج الرجل منهم امرأة أبيه ويخلفه عليها ، وهذا من فعل الفرس فيقول : (٢)

وَالْفَارِسِيَّةُ فِيهِمْ غَيْرُ مَنْكَرَةٍ . . فَكُلُّهُمْ لِأَبِيهِ صَيَّرَ سَلِيفُ

وقد روى أن "حاجب بن زرارَةَ التميمي" (٣) تزوج ابنته (دختنوس) نظرا لتأثره بالمجوسية. (٤) غير أن هذا الخبر تردده بعض المصادر التي أوردت ذلك ، وأن الخبر مصنوع فيما يبدو ، وقد ذكرت أن زوجها "عمرو بن عمرو بن عدس" وليس حاجبا ، وأما ما روى من شعر زعموه لحاجب فهو للقيط بن زرارَةَ والد دختنوس قاله عند موته ، وهو قوله : (٥)

يَا لَيْتَ شِعْرِي عَنْكَ دَخْتَنُوسِ . . إِذَا أَتَاكَ الْخَبْرُ الْمَرْمُوسُ (٦)

أَتَخْلِقُ الْقُرُونُ أَمْ تَمِيسُ . . لَا بَلْ تَمِيسُ إِنَّهَا عَمْرُوسُ

(١) الاغانى : ١٤ / ١٢ .

(٢) ديوانه : ٢٥ .

(٣) حاجب بن زرارَةَ بن عدس الدارمي التميمي : من سادات العرب في الجاهلية ، رهن فرسه عند كسرى على مال عظيم ووفى به وبعثه النبي على صدقات بني تميم

الاغانى : ١١ / ١٥٠ ، الاصابة : ١ / ٥٦١ ، (١٣٦٠)

(٤) الجامع لاحكام القرآن : ٥ / ١٠٤ ، بلوغ الارب : ٢ / ٥٢ ، ٢٣٥ .

(٥) الاغانى : ١١ / ١٤٤ ، تاج العروس : ٤ / ١٤٧ ، ١٤٨ (دختنوس) .

(٦) المرموس : اسم مفعول من رَس ، رَس له الخبر : أى أخبره به .

المهر :

والزواج الشائع عند الجاهليين ما كان بمهر يتفق عليه ، ويدفعه الزوج الى أب زوجته أو من ينوب عنه ، وهو الصداق الذي تستحقه المرأة عند زواجها ، ولا يتم الزواج إلا به ، فهو علاقة صدق ذلك وصحته .

ولاشك أن منهم من كان لا يعطى النساء من مهرهن شيئا فنهاهم الله عن ذلك بقوله : " وآتوا النساء صدقاتهن نحلة . " (١) وجاء أن " أهل الجاهلية إذا زوج الرجل ابنته استجعل لنفسه جملا يسمى الحلوان ، وكانوا يسعون ذلك الشئ الذى يأخذه النافجة ، كانوا يقولون بارك الله لك فى النافجة " (٢) . والحلوان : " أن يأخذ الرجل من مهر ابنته لنفسه ، وهذا عار " عند العرب " (٣) ، وأما النافجة فقد " كانت العرب تقول فى الجاهلية للرجل إذا ولدته بنت : هنيئا لك النافجة أى المعظمة لمالك ، وذلك أنه يزوجه فىأخذ مهرها من الأبل فيضمها الى ابله فينفجها أى يرفعها ويكثرها " (٤)

وقد عرف الجاهليون نكاحا لا مهر فيه وذلك فى حروبهم ، فإذا أسروا نسائهم تزوجوهن بلا مهر لانهم أخذوهن بالقتال ، وقد اشار الاعشى الى ذلك بقوله : (٥)

وَمَنْكُوحَةٍ غَيْرَ مَهْمُورَةٍ . . . وَأُخْرَى يُقَالُ لِمَهْ فَأَرِهَا (٦)

ويختلف مقدار المهر عند الجاهليين (٧) باختلاف الناس فى الشراء والعادة والمكانة

وغيرها . وقد روى أن عبد المطلب بن هاشم مهر فاطمة بنت عمر ومائة ناقة ومائة رطل من الذهب (٨) ، ومهر الحارث بن سليل الاسدى الزباء بنت علقمة بن حفصة الطائسى

(١) النساء : ٤ ، تفسير ابن كثير : ١٨٦/٢ .

(٢) لسان العرب : ٦٥٠/١١ (نحل) .

(٣) السابق : ١٤/١٩٣ .

(٤) السابق : ٣٨٢/٢ (نفج) .

(٥) ديوانه : ١٢٥ .

(٦) فادها : أى يفقدها ممن أسرها بمال ونحوه .

(٧) انظر المرأة فى الشعر الجاهلى : ١٩٢ - ١٩٦ .

(٨) السيرة النبوية : ٥٠/١ .

مائة وخسين من الابل وألف درهم وربما وصل المهر الى مائة ناقة أو أكثر^(١) وكان أهل
كندة مشهورين بالتفالى في مهورهم.^(٢)

ونجد الابيرد بن هرثة العذرى^(٣) يفتخر بسماحة نفسه ان ساق خمسين من الابل
مهرا لزوجته وقال :^(٤)

إِنِّي لَسَمَّحٌ إِنْ أَفْرَجَ بَيْنَهَا .. بِأَكْثَبِ الْبَقَّارِ يَا أُمَّ هَاشِمٍ^(٥)

فَأَفْتَى صَدَاقُ الْمُحْصَنَاتِ إِفَالَهَا .. فَلَمْ يَبْقَ إِلَّا جِلَّةٌ كَالْبِرَاعِ^(٦)

وقال خالد بن جعفر بن علي هوأزن بفعله^(٧)

وَجَعَلْتُ مَهْرَ بَنَاتِهِمْ وَنَسَائِهِمْ .. عَقَلَ الطُّوكُ هَجَائِنًا إِبْكَارًا^(٨)

ونذكر من المهر القليل رقاع الجلد التي أجبر المهلهل^(٩) على أخذها من قبيلة جنب،

(١) المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام : ٥٣١/٥ .

(٢) البيان والتبيين : ٢٨/٢ .

(٣) الابيرد بن هرثة العذرى ، شاعر قد يقال "الأزير" ، وقد يسمى : أريد بن
هرثة وانظر المؤلف والمختلف : ٢٥ ، تاج العروس : ٣٠٠/٢ (برد) .

(٤) المؤلف والمختلف : ٢٥ ، معجم البلدان : ٤٧٠/١ .

(٥) أفرج : أفرق بينها . أكثبه البقَّار : موضع برمل عالج وقيل واد وقيل غير ذلك
انظر معجم البلدان : ٤٧٠/١ (بقار)

(٦) إفالها : أى صفار الابل كبنات مخاض ونحوها . جلَّة : هي من الابل المسنة .
البراع : شعارخ الجبال . وهي رؤس الجبال المستديرة الطويلة الدقيقة .

(٧) خالد بن جعفر بن كلاب من بنى عامر بن صعصعة ، فارس شجاع ، واشتهر
بقتله زهير بن خزيمة العبسى سيد عمس ورئيسهم ، وقد قتل خالد الحارث
ابن ظالم العرى . وانظر الاغانى : ٨٢/١١ ، ٨٣ ، ٩٤/١١ وما بعدها
والبيت في الاغانى : ٩٠/١١ .

(٨) عقل الطوك : دياتهم وكانت عندهم ألف بعير . هجائن : وهى البهائم
الابل وتعدّها العرب أكرمها .

(٩) المهلهل : اسمه عدى بن ربيعة ، سعى بذلك لأنه أول من أرق الشعر وهلهله
وهو أخو كليب بن وائل الذى هاجت بمقتله حرب بكر وتغلب ، كما أنه خال
امرى القيس ، وانظره فى الشعر والشعراء : ٢٩٧/١ - ٢٩٩ ، خزائن الادب
١٦٤/٢ وما بعدها .

وكان قد اعتزل قومه بعد حروبهم مع بكر ، ايقا* عليهم أن تغنيهم الحرب بسبب الشار
لأخيه كليب ، وسار الى اليمن ونزل في جنب وهم حي من مذحج فخطبوا اليه ابنته
فمنعهم ، فأجبروه وأصدقوها جلودا من آدم ، فتحسروا وتألم بقوله :

اعَزَزْ عَلَى تَغْلِبٍ يَمَا لَقَيْتُ . . . اخْتَبَنِي الْأَكْرَمِينَ مِنْ جُشَمِ
أَنْكَحَهَا فَقَدْهَا الْأَرَاقِمَ فَي . . . جَنْبٍ وَكَانَ الْحَيَاءُ مِنْ أَدَمِ (١)

(١) الشعر والشعراء : ٢٩٨ / ١ ، ٢٩٩ . الأرقام : هم كما في المعارف : ٩٦ ،
جشم ، ومالك ، وعمر ، وشعلبة ، والحارث ، ومعاوية ، بنو بكر بن حبيب بن
عمر . وقد ذكرهم من اغتم بن تغلب . الحياء : هو المهر .

الطلاق :

وقد عرف العرب الطلاق وعطوا به في حياتهم ، وتدل الروايات على أن الطلاق كان عند هم ثلاثا ، فكان الرجل يطلق زوجته مرتين ثم يراجعها فإذا أوقع الثالثة حرمت عليه . (١)

غير أن ما ذكره المفسرون أن أهل الجاهلية لم يكن عند هم للطلاق عدد ، فيطلق الرجل ثم يراجع مرات كثيرة حتى حذر الله لهم الطلاق بثلاث . (٢)

ويبدو أن من الجاهليين من كان يتحایل للحصول على امرأته إذا طلقها ، وذلك أن يتزوجها غيره مدة قصيرة ثم يطلقها حتى تحل له ، وعرف هذا المتزوج للفترة القصيرة بالمحلل وسى أيضا التيس المستعار وقد حرم ذلك في الاسلام . (٣)

وقد أخذ الطلاق صورا عند الجاهليين منها طلاق الثلاث الذى يفترق به عدد الزوجان وقد ذكر ذلك الأعمش عندما تزوج امرأة من هزان ثم لم يرضها ولم يستحسن خلفها فطلقها وقال : (٤)

يَا جَارَتِي بَيْنِي فَأَنْتِ طَالِقَةٌ .. كَذَلِكَ أُمُورُ النَّاسِ غَابَ وَطَارِقَةٌ (٥)
وَبَيْنِي فَإِنَّ الْبَيْنَ خَيْرٌ مِنَ الْعَصَا .. وَالْأَتْرَالُ فَوْقَ رَأْسِكَ بَارِقَةٌ (٦)
وَمَا ذَاكَ مِنْ جُرْمٍ عَظِيمٍ جَنَيْتِهِ .. وَلَا أَنْ تَكُونِي جِئْتَ فِينَا بَيَّائِقَةٌ
وَبَيْنِي حَصَانُ الْفَرْجِ غَيْرَ ذَمِيمَةٍ .. وَمَوْمُوقَةٌ فِينَا كَذَلِكَ وَوَامِقَةٌ (٧)
وَذَوْقِي فَتَى قَوْمٍ فَإِنِّي ذَائِقٌ .. فَتَاةٌ أَنَاسٍ مِثْلَ مَا أَنْتِ ذَائِقَةٌ

(١) المحبر : ٣٠٩ ، الاغانى : ٩ / ١٢١ ، ١٢٢ .

(٢) تفسير ابن كثير : ١ / ٣٩٩ ، ٤٠٠ ، الجامع لأحكام القرآن : ٣ / ١٢٦ .

(٣) سنن ابن ماجه محمد بن يزيد القزويني : ١ / ٣٥٦ . تحقيق محمد مصطفى

الاعظمى . ط (١٤٠٣) شركة الطباعة العربية - الرياض .

(٤) ديوانه : ٣١٣ .

(٥) الجارة هنا زوجته . غاب : الذى يأتى غدوة فى الصباح . طارق : أى يأتى ليلا .

(٦) بارقة : أى لائحة يريد العصا .

(٧) موموقة : محبوبة ، وامقه : محبة .

فَقَدْ كَانَ فِي شَبَّانٍ قَوْمِكَ مَنَّحٌ . . . وَفَتَيَانِ هَزَانِ الطَّوَالِ الْغَرَانِقِ (١)

ومن صوره الخلع ، وهو أن تقتدى المرأة نفسها ويطلقها زوجها مقابل مبلغ من المال

تدفعه المرأة أو أقاربها الى الزوج ، وقد ذكر أن " عامر بن الظرب " فعل ذلك . (٢)

ومن صور طلاقهم أيضا الظهار ، وذلك أن يقول الرجل لزوجته أنت على كظهر أمي

وقد أشار القرآن الكريم الى ذلك بقوله " الذين يظاهرون منكم من نسائهم ما هن أمهاتهم

إن أمهاتهم إلا اللائى ولدنهم . (٣) . كما دلت المصادر على أن الإيلاء كان من طلاق

اهل الجاهلية الذى يضارون به النساء ، وهو الحلف على ترك قربان المرأة مدته ، وكان

إيلاؤهم السنة والسنتين وأكثر ، فوقت الله لهم فى الاسلام أربعة أشهر (٤)

وقد أبانت أشعار الجاهليين عن وقوع الطلاق فى بيئاتهم ، فهذا " طرفة بن العبد "

يجعل رماح قومه تطلق النساء ، وذلك أنها تقتل أزواجهن فى الحرب وتفرق بذلك بين

الزوجين وكان حال هذه المرأة كالمطلقة فيقول : (٥)

وَكَا رِهَةً قَدْ طَلَّقَتْهَا رَمَاحُنَا . . . وَأَنْقَذْنَاهَا وَالْعَيْنُ بِالْمَاءِ تَذُرُّ (٦)

تَرَدُّ النَّحِيبُ فِي حَيَازِيمِ غَصَصٍ . . . عَلَى بَطْلِ غَاوَرَةٍ وَهُوَ مُزْعِفٌ (٧)

ويذكر النابغة الذبباني حاله عندما علم بوعد " النعمان " له كالذى لدغته الافعى ، فلا

يخف عنه الالم حتى يرجع اليه ، وكأنما هو ذلك الرجل الذى يطلق زوجته ثم يراجعها : (٨)

فَيْتُ كَأَنِّي سَاوَرْتَنِي ضَيْلًا . . . مِنَ الرُّقْشِ فِي أَنْيَابِهَا السَّمُّ نَاقِعٌ (٩)

(١) غرائقه : جمع غرنوق : وهو الشاب الجميل .

(٢) عيون الأخبار : عبد الله بن مسلم " بن قتيبة " : ٧٦ / ٤ . نسخة مصورة عن

طبعة دار الكتب المصرية .

(٣) المجادلة : ٢ . وانظر قصة خولة بنت ثعلبة مع زوجها فى تفسير ابن كثير : ٦٠ / ٨ - ٦٢

(٤) الجامع لأحكام القرآن : ٣ / ٣ ، بلوغ الأرب : ٢ / ٥٠ .

(٥) ديوانه : ١٣٢ ، ١٣٣ .

(٦) كارهة : أى امرأة كارهة . تذرف : تدمع .

(٧) ترد النحيب : أى ترد الزفير والبكاء على زوجها . وفى حيازيم غصة : أى تردد

النحيب فى صدر ذى غصه ، والحيازيم : جمع حيزوم وهو الصدر .

(٨) ديوانه : ١٦٤ .

(٩) ساورتني : وثبت على . ضئيلة : أى حية دقيقة ، وذلك اذا أسنت فكان سمها

أشد فتكا . نافع : ثابت .

يَسْهَدُ مِنْ لَيْلِ التَّمَامِ سَلِيمًا . . . لِحُلَى النِّسَاءِ فِي يَدَيْهِ قَعَا قَع (١)
تَنَازَرَهَا الرَّاqُونَ مِنْ سَوْءِ سَمْعِهَا . . . تُطَلِّقُهُ طَوْرًا وَطَوْرًا تُرَاجِعُ (٢)

ونجد "عمر بن شاس" كان له ابن أسود من أمه سوداء ، يقال له عرار ، وكانت امرأته
تؤذيه وتستخف به فهددها بالطلاق ان لم تعالجه بخير : (٣)

فَإِنْ كُنْتُ مَتًى أَوْ تُرِيدِينَ صُحْبَتِي . . . فَكُونِي لَهُ كَالسَّمَنِ رُبَّتْ لَهُ الْأَدَمُ (٤)
وَالَا فَسِيرِي مِثْلَ مَسَارِ زَاكِبٍ . . . تَمَجَّلْ خُمًا لَيْسَ فِي سَيْرِ أُمِّ (٥)

وقد يتوسم الرجل في المرأة التي خطبها شابا وجملا ، فلما يتزوجها لا يحظى بشىء

(١) يسهد : أى يكلف السهد أى السهر ، كانوا لا يتركون السموم ينام لأنه اذا كان
يقظان أرجى للسلامة من تأثير السم فيه ، ولذلك كانوا يجعلون في يديه أسورة
ليوقظه صوتها اذا تحرك كيلا ينام وكانوا يجعلون الحلى فارغ الداخل فتكون
وسوسته أقوى ولذلك قال (لحلى النساء في يديه قعاقع . سليمها : السليم
الطدغ يقولون له السليم تفاؤلا كما سموا الركب المسافرين قافلة . من ليل التمام :
من بمعنى في ، وليل التمام أطول الليل وهو ليل الشتاء .

(٢) تنازرها الراقون : أى أئذ ريعضهم بعضا ، يقول بعضهم أنا أشفيه منها
ويقول بعضهم أنت لا تستطيع ذلك . والراقون : جمع راق وهو الذى يرقى
أى يعوز المريض بأقوال تشبه نفثات السحر عندهم . من سوء سمعها : من
للتعليل ، سوء سمعها : عدم تأثيرها بالرقى كأنها صماء لا تسمع تلك الاقوال .
تطلقه : أى تارة يتنفس عنه الالم ثم يراجعها (وكل ماسبق من شرح الديوان
أخذناه) .

(٣) طبقات فحول الشعراء : (١٩٩/١) ، ٢٠٠ .

(٤) ربّت له الأدَم : الادَم جمع أدَم وهو الجلد المدبوغ تتخذ منه الرقاق والأوعية
ونحوها ، وربّ الوعاء : دهن . بالربّ وهو خلاصة التربيد طبخه وعصره ليمنع
فساد السمن ، والمعنى عامليه برعاية كما تستلحقين السمن بدهن وعائه .

(٥) الخمس : ورد الابل في اليوم الرابع بعد اليوم الذى وردت فيه فهى حينئذ
ظماء فيعجل بها صاحبها الى شريعة الماء أشد عجلة ، الأم : المقاربة
واليسر .

ما رجاء فيها فيطلقها ، وحدث ذلك لرجل خطب امرأة وباع ابلا له ومهرها ، فلما دخل بها وجدها عجوزاً مولىة فطلقها وقال :

وَمَالَتْ نَفْسِي مُدًّا فُطِمْتُ بِلَحْيَتِي .. كَمَا لُتْتُ نَفْسِي فِي عَجُوزِ بَنِي شَعْسِ
فَبَانَتْ وَلَمْ أَغْبِنْ غَدَاةَ اشْتَرَيْتُهَا .. وَبِعْتُ ثَلَاثَ مَالٍ بِالْثَمَنِ الْبَخْسِ^(١)

وقد لا تأنس المرأة الى زوجها فتطلب الطلاق منه ، ومنه ما حدث * لعبيد بن الأبرص مع زوجته وقد قل ماله وكبر سنه فزهدت فيه فقال :^(٢)

تِلْكَ عُرْسِي فَضَيَّتْ تَرِيدُ زَيْالِي .. أَلَيْسَ تُرِيدُ أُمَّ لِرَدِّ دَلَالِ^(٣)
إِنْ يَكُنْ طُبُكُ الْفِرَاقِ فَلَا أَحْ—فَلْ أَنْ تَعْطِفِي صُدُورَ الْجِمَالِ

والمعروف أن الطلاق بيد الرجل غير أن هناك نساء كن يشترطن على أزواجهن أن يكون الطلاق بيدهن ، وقد وردت أسماء نساء كانت احداهن اذا أصبحت عند زوجها كان أمرها اليها ان شاءت أقامت وان شاءت تركته وذلك لشرفهن وقد رهن^(٤) . وقد كان لهن طريقة تدل على طلاقهن^(٥) . ومنهن سلمي بنت عمرو بن زيد أم عبد المطلب بن هاشم ، وأم خارجة التي ضرب بها المثل (أسرع من نكاح أم خارجة) ، وفاطمة بنت الخرشب الانمارية وغيرهن ، وقد روى من الشعر ما يدل على ذلك^(٦) .

ومما يلحق بالطلاق العدة ، وهي الفترة التي تمكثها المرأة بعد وفاة زوجها بلا نكاح ، وقد كانت من المشهورات السلفة في الجاهلية . وكانت مما لا يكادون يتركونها^(٧) . بل قد تشددوا وأهملها ، ففي الصحيح أن * أم سلمة تقول : جاءت امرأة

(١) عيون الاخبار : ٤٧ / ٤ .

(٢) ديوانه : ١٠٦ .

(٣) زياي : أي فراقى .

(٤) المجبر : ٣٩٨ .

(٥) الاغانى : ٣٨٧ / ١٧ (أخبار خاتم الطائي) ، ذيل الامالى : ١٥٣ .

(٦) انظر المرأة في الشعر الجاهلي : د . أحمد محمد الحوفي : ٢٦٨ ، ٢٦٩ ، ط ٢ ، دار الفكر العربي . القاهرة .

(٧) حجة الله البالغة : أحمد شاه ولي الله الدهلوى : ١٠٦ / ٢ . ط (١٣٢٢)

الى الرسول صلى الله عليه وسلم . فقالت يا رسول الله : أن ابنتى توفى عنها زوجها ، وقد اشتكت عينها ، أفكحلها ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا - مرتين أو ثلاثا كل ذلك يقول : لا - ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنما هي أربعة أشهر وعشر ، وقد كانت احداكن فى الجاهلية ترمى بالبعرة على رأس الحول .

قال حميد فقلت لزَيْنَب (رواية الحديث عن أم سلمة) : وما ترمى بالبعرة على

رأس الحول ؟

فقال : زينب : كانت المرأة اذا توفى عنها زوجها دخلت جُفْشاً وليست شـرَّ ثيابها ولم تَمْسُ طيباً حتى تمر بها سنة ، ثم توءتى بداية - حمار أو شاة أو طائر - فتفتض به (أى تمسح به جلدها) فقلما تفتض بشئ الا مات ، ثم تخرج فتعطى بعمرة فترمي بها ، ثم تراجع بعد ما شاءت من طيب أو غيره* . (١)

وقد أشار* لبُيَيد بن ربيعة الى ذلك فى مدحه قوماً بقوله : (٢)

وَهُمْ رِيْعٌ لِلْمَجَاوِرِ فِيهِمْ . . . وَالْمُرِيْلَاتِ إِذَا تَطَاوَلَ عَامُهَا

وذلك فى الجاهلية ، ولما جاء الاسلام أبطل ذلك وأنزل الله بيان المدة فى قوله * والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجاً يتربصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشراً* (٣) وأما المطلقات فلم يكن لهن عدة يعتد بها . (٤)

والذى يفهم من الحديث السابق أن المتوفى عنها زوجها كانت تترك الزينة ولا تقربها وتبقى على حالة سيئة لا تمس ما* ولا تقلم ظفراً ولا تزيل شعراً حتى تخرج بعد الحول بأقبح منظر ثم تخرج من ذلك ،* وتفعله المرأة حداد وحزناً على فقيدها .

(١) فتح البارى شرح صحيح البخارى : ٤٨٤/٩ ، ٤٨٥ .

(٢) ديوانه : ٣٢١ .

(٣) البقرة : ٢٣٤ .

(٤) الجامع لأحكام القرآن : ٨١/٣ .

(٥) بلوغ الارب : ٥٠/٢ ، ٥١ .

وقد أشار " عامر بن الطفيل " الى قيام نساء بنى أسد بذلك عندما قتلوا أزواجهن
فقال : (١)

وحيّا من بنى أسد تركنا . . . نساء هم سلبه أيامى (٢)

(١) ديوانه : (رواية أبي بكر الأنباري عن أبي العباس شعلب) : ١٠٩ ط (١٣٨٣)

دار صادر ، دار بيروت .

(٢) سلبه : أى تركت الزينة وهى السلوب ان سلبتها من جسمها فأصبحت بلا زينة
وذلك كالصبيغ والكحل حدادا على هبتها .

تجنب الحائض :

بيد وأن العرب في هذا لم يكونوا على أمر واحد ، فأما العرب في المدينة وما والاها فقد استنوا بسنة بنى اسرائيل في تجنب مؤاكلة الحائض وساكنتها ، وروى أن منهم من كان يأتيهم في ادبارهن فترة ذلك .^(١) ويتراءى أن من لم يؤاكلها لم يكن ليأتيها في دبرها ، ولعل ذلك في غير أهل يشرب .

وقد أشار الاعشى الى اشتغال مدوحه بالغزوات حتى فاته طهر نسائه فقال :^(٢)

وَفِي كُلِّ عَامٍ أَنْتَ جَاشِمٌ غَزْوَةً . . . تُشَدُّ لَأَقْصَاهَا عَزِيمٌ عَزَائِكُ^(٣)

فَوَزْنُهُ مَالٌ وَفِي الْحَدِّ رَفْعَةٌ . . . لَنَا ضَاعَ فِيهَا مِنْ قُرُورٍ نِسَائِكَا^(٤)

وقال الربيع بن زياد العبسى^(٥) يحرق قومه في طلب دم مالك بن زهير العبسى ، وكانت^(٦)

(١) الجامع لأحكام القرآن : ٣ / ٨١ .

(٢) ديوانه : ١٤١ .

(٣) جاشم غزوة : أى متكلفها وقائم بمصاعبها ، العزيم : العزم والجهد . عزائك : أى صبرك .

(٤) قرو : جمع قرء ، وقد قيل هو الحيض قبل الطهر . والذي بيدولى من هذا البيت أنه أما أن يريد بالقرو فترة غيابه بما فيها من حيض أو طهر معا وهذا بعيد ، وأما أن يريد أحدهما ، فإن قلنا انه الحيض أى لا يأتى نساءه الا فى حالة حيضهن فقط فهذا لا يعقل ، وبذا يظهر أنه يقصد الطهر والله أعلم .

(٥) الربيع بن زياد العبسى ، ويسمى الكامل لكمال نفسه فى الاعمال والاخلاق الجليلة وأمه (فاطمة بنت الخرشب) أحد المنجيات الشهيرات يقال لبنيتها الكلمة وهم الربيع وعماره وأنس ، والربيع شاعر جاهلى شهد داحس والغبراء ، وكان يلقب دالقا لكثرة غاراته . الاغانى : ١٧٩ / ١٧ - ٢٠٩ ، شعراء النصرانية :

٧٨٧ - ٧٩٣ .

(٦) مالك بن زهير بن جذيمة بن رواحة بن ربيعة بن مازن العبسى ، وأمه من المنجيات

فى العرب تماضر بنت الشريد السلمية ، وأخوته قيس ومالك والحارث وورقلاء ووهب وشأس ، وكلهم ذو شأن وشهرة فى قومهم عبس ، وقد درس له حذيفة بن

بدر من قتله لتزوجه بامرأة ، وقد كان مقتله من أسباب اشتعال حرب داحس =

(١)

فزاره قتلته لما قتل حذيفة بن بدر الغزاري :

أَبْعَدَ مَقْتِلَ مَالِكِ بْنِ زُهَيْرٍ (*) .. تَرْجُو النَّسَاءُ عَوَاقِبَ الْأَطْهَارِ (٢)
 مَا إِنِّي أَرَى فِي قَتْلِهِ لَذَوِي الْقُوَى .. إِلَّا الْمَطَى تَشَدُّ بِالْأَكْوَارِ (٣)
 وَمَجْنِبَاتٍ مَا يَذُقْنَ عَذُوفَنَا .. يَقْذُقْنَ بِالْمُهْرَاتِ وَالْأَمْهَارِ (٤)

= والغبراء . وانظر : المحبر : ٤٦١ ، الاغانى : ١٧ / ١٩٥ ، ١٩٦ ، المعارف
 ٦٠٦ ، ٦٠٧ .

(١) حذيفة بن بدر بن عمرو الغزاري ، كان في عصر المنذر بن ماء السماء ، ومن سادات فزاره وكان قائدا لبني فزاره في حربهم ، وقتل في حرب داحس والغبراء ويضرب به المثل في سرعة السير ان قيل سار في ليلة مسيرة ثمانى ليال . وانظر المحبر : ٢٤٩ .

(٢) الابيات في الحماسة بشرح المرزوقي : ٩٩٢ / ٢ - ٩٩٤ .

(٣) إلط المطى تشد بالاكوار : الامتطاء الابل وتجنيب الخيول (كما في شرح المرزوقي ، تشد بالاكوار : يريد تشد الاكوار عليها ، وهى رحالها التى توضع على ظهورها .

(٤) مجنبات : أى خيلا تصاحب تلك الابل لا تركب ، وكانوا يركبون الابل ويجنبون الخيل الى أن ينتهوا الى موضع الغارة فينيخون الابل ويركبون الخيل وهى وادعة لم يلحقها كبير تعب فيعملونها كما يشاءون ، مَا يَذُقْنَ عَذُوفًا : أى أدنى ما يؤكل ، يَقْذُقْنَ بِالْمُهْرَاتِ وَالْأَمْهَارِ : أى لما يلحقهن من الكلال يلقين مافى بطونهن من أولاد .

(*) فى هذا الشطر من البيت وعثله صدر البيت الثالث المقطع ، وهو حذف نون متفاعله وإسكان ما قبله فى آخر تفعيله من الشطر الأول ، وانظر شرح

ديوان الحماسة : ٩٩٣ / ٣

الحجاب :

ونعنى به ما تستره المرأة عن الرجال الاجانب ، ويغلب فيه ستر لوجه ، ومنه ما يسترها عن الرجال . والمرأة من طبيعتها الحياء ، ولا تأنس الى من لا تعرفه كالرجل ، ولما كانت المرأة شهوة الرجال ، وهى مظنة الجمال والدلال خيفت عليها الفتنة ، وتوقع عليها الاعتداء ، وكان من الخير لها الا يراها الرجال ، ولا تغتنم بدواعيها الكثيرة المفرية .

وليس غريبا أن نجد من العرب من عرف الحجاب ، فقد كان شائعا منذ أقدم العصور فى " بابل " و " آشور " و " فارس " و " الروم " و " الهند " (١) .

وقد وجد السفور والحجاب بين العرب ، ونظن السفور أكثر تغشيا بينهم ، فلم يزل الرجال يتحدثون مع النساء فى الجاهلية والاسلام حتى ضرب الحجاب على نساء النبي صلى الله عليه وسلم خاصة (٢) . ثم كانت الشرائع من النساء يقعدن للرجال للحديث ، ولم يكن النظر من بعضهم الى بعض عارا فى الجاهلية (٣) . وقد أشار القرآن الكريم الى ما كان يفعله النساء فى تبرجهن بقوله " ولا تبرجن تبرج الجاهلية الاولى " (٤) ، وقد قيل إن تبرجهن هذا هو التبختر والتفنج والتكسر فى المشية واطهار الزينة والمحاسن للرجال (٥) .

وقد ورد أن سبب حرب اليوم الثانى من أيام الفجار الاول ان شهابا من قريش وبنى كنانة رأوا امرأة جميلة من بنى عامر بسوق عكاظ ، وسألوها أن تسفر فأبت ، فامتنها أحد هم بحيلة فاستغاثت بقومها فشبت الحرب (٦) ، وقد حلفت أم مصعب الا تلبس

(١) المرأة فى الشعر الجاهلى : ٣٧٧ وما بعدها . وبين هذا الرأى على اطلاقه فقد كتبت لمرأة من بعض هذه القبائل

(٢) هكذا فى الاصل ، والصحيح أنه على نساء النبي ونساء المؤمنين ، وانظر تفسير

الامام ابن كثير : ٤٠٢ / ٦ .

(٣) رسائل الجاحظ (رسالة القيان) : ١٤٩ / ٢ .

(٤) الاحزاب : ٣٣ .

(٥) تفسير ابن كثير : ٤٠٦ / ٦ ، الجامع لاحكام القرآن : ١٨٠ / ١٤ .

(٦) الاغانى : ٥٦٠ ، ٥٥ / ٢٢ .

(١)

خمارا عند ما اسلم لترده عن دينه .

وقد حفل الشعر الجاهلي بذكر الحجاب وذلك دليل انتشاره بينهم ^(٢) ، بل ربما كان ذلك في خيارهم وساداتهم ^(٣) ، كما قال " امرؤ القيس " ^(٤) :

وَبَيْضَةُ خَدْرٍ لَا يُرَامُ خَبَاؤُهَا . . . تَمَتَّعْتُ مِنْ لَهْوِهَا غَيْرَ مُعْجِلٍ

ويصور لنا " النابغة الذبياني " ما حدث لزوجة النعمان بن المنذر عند ما سقط حجابها وذلك في قصيدته التي يقال ان النعمان عاداه من أجلها ^(٥) فيقول ^(٦) :

سَقَطَ التَّصْفِيفُ وَلَمْ تَرَنْ اسْقَاطَهُ . . . فَتَنَاوَلْتَهُ وَاتَّقَنَّا بِالْيَكْدِ

وهذا " الشنفرى " معجب بزوجه التي لا تترك قناعها فيقول ^(٧) :

لَقَدْ اعْجَبْتَنِي لِاسْقُوطِ قَنَاعِهَا . . . إِذَا مَا مَسَّتْ وَلَا يَذَاتِ تَلَقُّتِ

وكانت العروس ترخي خمارها على وجهها كما قال " عوف بن عطية " في وصف جيش قومه ^(٨) :

وَجَلَلْنَ دَمْعًا قِنَاعَ الْعَرُوسِ . . . سِ ادْنَتْ عَلَى حَاجِبَيْهَا الْخِمَارُ ^(٩)

والنساء مخبات في شعر " زهير " عند ما هجا بنى حصن من كلب فقال ^(١٠) :

وَمَا أَذَرَى وَلَسْتُ إِخَالُ أَدْرَى . . . أَقَوْمُ آلِ حِصْنِ أُمِّ نِسَاءٍ

فان قالوا النساءُ مَخْبَاتٌ . . . فَحَقَّ لِكُلِّ مُحْصَنَةٍ هَرْدَاءُ

وعرف عائذ بن محصن العبدى بالمشقب العبدى لقوله في البيت المشهور يصف طعمن

(١) غريب الحديث للخطابي : ٢ / ٢٩٢ ، ٢٩٣ .

(٢) انظر المرأة في الشعر الجاهلي : ٣٧٥ .

(٣) الاسلام وتقاليد الجاهلية : ١٥١ ، ١٥٢ .

(٤) ديوانه : ١٣ .

(٥) على ما يرويه بعضهم وهناك غير ذلك وانظر ديوان النابغة الذبياني : ٩٢ .

(٦) ديوانه : ٩٦ .

(٧) الفضليات : ١٠٩ .

(٨) المصدر السابق : ٤١٦ .

(٩) دمخا : اسم جبل .

(١٠) ديوانه : ١٣٦ (الأعلام) .

(١) النساء :

(٢) طَهَّرْنَ بِكَلْبَةٍ وَسَدَلْنَ أُخْرَى . . وَثَقَبْنَ الْوُضَاوِصَ لِلْمَعِيُونَ

(٣) ويدلنا "أبودغاد الايادى" على سترهن الوجوه وهن فى رحلة وسفر فيقول :

(٤) وَيَصَنَّ الْوُجُوهَ فِي الْمَيْسَنَانِ . . حَىٰ كَمَا صَانَ قَرْنٌ شَمْسِيَّ عَمَامٍ

(٥) وَتَرَاهُنَّ فِي الْهَوَادِجِ كَالْفُجَرِ . . لِأَنَّ مَا أَنْ يَنَالَهُنَّ السَّهَامُ

ويبدو أن الهوادج التى كانت تركبها النساء تسترهن عن الرجال وذلك من الحجاب ،

وقد دخل "أمرؤ القيس" على عنيزة فى خدرها وصور ذلك بقوله : (٦)

(٧) وَيَوْمَ دَخَلْتُ الْخِدْرَ خَدِرْتُ عَنِّيْزَةَ . . تَقُولُ لَكَ الْوَيْلَانِ إِنَّكَ مُرْجَلِي

تقول وقد مَالَ الْغَبِيْطُ بِنَا مَعَا . . عَقَرْتُ بَعِيْرِي يَا مَرُؤَ الْقَيْسِ فَأَنْزَلَ

ويبدو أنهم كانوا يضعون لنسائهم فى البيوت مجلسا يبعد هن عن الرجال ، وقد يسمى

الخدرا أو الخباء كما قال "زهير" فى أبياته التى أشرت اليها منذ قليل ، ومنه قول راشد

(٨) ابن شهاب اليسكري (٩) فى تعبيره أحد خصومه :

(١) ديوانه : ١٠٥٦ .

(٢) الكلة : الستر الرقيق ، سدلن أخرى : أرسلتها ، الوضاوص : البراقع الصفار

وأحدها وضاوص ، أراد أنهن حديثات الاسنان فبراقعهن صفار .

(٣) الاصمعيات : ١٠٨٦ .

(٤) الميسناني : ضرب من الثياب ، نسبة على غير قياس الى "ميسان" وهى كورة بين

البصرة وواسط .

(٥) السهام : الضر وتغير اللون وذبول الشفتين .

(٦) ديوانه : ١١١ .

(٧) مرجلى : أى ستجعلنى أمشي على رجلى .

(٨) هو راشد بن شهاب بن عبدة ، شاعر جاهلى ، كان سيد قبيلته ، مدحه نصري

عاصم فى قصيدة فى الحماسة . وانظر : الحيوان : ٢٦٦/١ ، ٣١٥ . سـ مـ طـ

اللاكى : ٨٢٩ .

(٩) المفضليات : ٣١٠ .

وَنَحْنُ حَمَلْنَاكَ الْمَصِيفَةَ كُلَّهَا . . عَلَى حَرْجٍ تُؤَسِّي كُلُّوْمَكَ فِي الْحِدْرِ (١)

وأخيرا فقد تحدث حالات كانت تلقى النساء فيها الحجاب، وذلك كما في الفرار من الحرب، أو عند ما يموت قريبها وغير ذلك. (٢) وقد صور لنا ربيع الحفاظ بن زياد العبسي حال نسائهم عند ما قتل سيد هم مالك بن زهير العبسي، وقد تركن الحجاب لهول الكارثة وعظم الرزء، فقال: (٣)

مَنْ كَانَ مَسْرُورًا بِمَقْتَلِ مَالِكٍ . . فليأتِ ساحتنا بوجهٍ تَهَارِ
يجدُ النساءَ حَوَاسِرًا يَنْدَبْنَ . . يَلْطِمْنَ أَوْجُهَهُنَّ بِالْأَسْحَارِ
قَدْ كُنَّ يَخْبِئْنَ الْوُجُوْهَ تَسْتُرًا . . فاليومَ قَدْ أُجْرِزْنَ لِلنُّظَّارِ
يَضْرِبْنَ حُرَّ وُجُوْهَهُنَّ عَلَى قَتَى . . عَفَّ الشَّمَائِلَ طَيِّبَ الْأَخْبَارِ

وقد جاء الاسلام باقرار الحجاب وأمر به، ولا سيما ستر الوجه ان هو جمال المرأة ومجمع حسنها، وحرم على النساء أن يبدن زينتهن الا ماظهر منها، وأمر الرجال والنساء بغض البصر، كما أنه سد الذرائع على كل ما يؤدى الى افتتان الذكر والانثى بعد أن أوجد خير الطرق وأنجح الحلول. (٤)

(١) المصيفة: الصيفة، أى أوقعنا بك، فجرحناك جراحات بقيت منها فى خدر صيفتك تدويها. الحرج: السرير الذى يحمل عليه الموتى، الخدر: حاجز يقطع فى البيت تستتر فيه الجوارى.

(٢) انظر المرأة فى الشعر الجاهلى: ٣٧٢ - ٣٧٤.

(٣) الحماسة بشرح المرزوقى: ٩٩٥/٢ - ٩٩٦.

(٤) راجع اعضاء البيان فى ايضاح القرآن بالقرآن: ١٩٣/٦ - ٢٠٠، ٥٨٩ - ٦٠٢ ط المطابع الاهلية - الرياض.



الفصل الثالث :

النثر

بلغ العرب شأوا عظيما من قدره على البيان ، وكانوا في درجة عالية من البلاغة واللسن في جاهليتهم ، وقد بالغوا في العناية ببيانهم النثرى مبالغة تكاد تضارع اهتمامهم بالشعر ، وحرصوا على تدبيجة بالكلمات الجزلة ، وتوشيته بالحكم والامثال السائرة ، حتى يتم له البيان الذي يأخذ بسامعيه الى سائرة القائل وموافقته فيما يذهب اليه من حديث .

وقد اتخذ النثر الجاهلي عددا من الصور ، فمنها الامثال التي استأثرت بهما كتبهم ، ومثلها الحكم التي أطلقها من عركتهم الحياة ونفذت ابصارهم في كثير من أمورهم ، ومنها الخطب الكثيرة ، التي تختلف دواعيها ، وتطول وتقصر على حسب اقتضاء المقام ، ومن ذلك تلك الوصايا التي تعتمد على النصح والتوجيه وتتسم بالحدزر والاشفاق ، كما يعد من نثر الجاهليين سجع الكهان ، وقد كان الكهان على مكانة رفيعة بين كثير من العرب ، يرجعون اليهم في منافراتهم ويسألونهم عن كثير مما يخشونه من أمورهم ، ويرون لهم اطلاعا على ما تخبئه الأيام في ما يستقبل من الزمان ، ومن صور نثرهم ذلك القصص الذي كانوا يتحدثون به ، سواء عن اسلافهم أم غيرهم من الامم الاخرى ، وربما شاب قصصهم شئ من الاساطير وكثر من التهويل شأن ما يعتري القصص من حيك وكهارة وتخيل .

والذي نريده من هذا النثر الجاهلي ما يتوخاه هذا البحث من اشارات نعد لها تمت الى الحنيفية بسبيل ، وتخضع لمظاهرها العامة . وسنمر بها على صورة تماثل سابقتها في الشعر على ما توفر لنا من مادة نثرية .

وأحب أن أنبه هنا الى ما سلفت الايماء اليه في فصل الانتحال من أن هذا النثر ليس على صورته التي وضعها قائلوه ، وإنما هي تقليد ومحاكاة لها ، ذلك أن الفترة الزمنية التي فصلت بين قولها وتدوينها كغليظة بضياع أصلها ، وروايتها بمعناها الذي ينسب عن أصلها . ولا شك أن النثر الجاهلي ضاع أكثره ، وما روى لنا منه قليل ، ويأتى الشك في بعضه فيطرح جزءا آخر من هذه القلة الباقية مما يضيق مجال هذا النثر

ويحصر نماذج ، وبذلك يتقلص القول في كثير من الاتجاهات الدينية والاجتماعية
 وغيرها من خلاله ، وبذلك نرى النشر يقصر كثيرا عن الشعر ولا يدانيه وان كان
 لا يخلو من بعض الاشارات والتوضيحات التي تعين على معرفة الحياة الجاهلية
 وتفسيراتها .

(١) المعتقدات

أولها الايمان بالله تعالى ، وقد أسلفنا ذكر الآيات القرآنية الدالة على ذلك ، وقد كانت آيات الكون الكبرى ، وما يحدث على وجه الارض من تقلبات ، وما يرى من الأعاجيب التي تخضع لنا موسى منظم دقيق في هذا العالم تدفع بالعقول وتأخذ بالأبصار الى الايمان بالخالق العزيز الذي أعطى كل شيء من خلقه روعة واتقاناً .

هذا قسمين ساعدة يذكر لنا كثيرا من هذه الآيات الكونية ، ثم يتأمل في مصير الاقوام السابقين فيقول : ^(١) "أيها الناس اجتمعوا واسمعوا وعوا . من عاش مات ، ومن مات فات ، وكل ما هو آت .

آيات محكمات ، ومنظر ونبات ، وآباء وأمهات ، وزاهب وآت ، ضوء وظلام ، وبسر وأنام ، ولباس ومركب ، ومطعم ومشرب ، ونجوم تمور ^(٢) ، ويحور لا تغور ، وسقف مرفوع ، ومهاد موضوع وليل داج ، وسماء ذات أبراج ، مالي أرى الناس يموتون ولا يرجعون أرضوا فأقاموا أم حسبوا فناموا .

يا معشر إياي ، أين ثمود وعاد ، وأين الآباء والاجداد ، أين المعروف الذي لم يشكر ، والظلم الذي لم ينكر . أقسم قسّ قسما بالله ، ان لله ديننا هو أرضى له ممن دينكم هذا " .

وخطبة قس هذه مشهورة وله مثلها ^(٣) ، وقد روى لغيره ما يشابه قوله ^(٤) ، وحسبنا ذلك من تأملاتهم .

ومن مظاهر هذا الايمان بالله عند الجاهليين قسمهم به سبحانه ، ولا شك أن القسم له أهمية كبيرة عندهم ، وانما يلجئون اليه لتأكيد قول أو فصل حكم في بعض

(١) البيان والتبيين : ٣٠٨ / ١ ، ٣٠٩ ، مجمع الامثال : ١ / ١١١ . أحمد محمد

الميداني ، تحقيق محي الدين عبد الحميد ط السعادة بمصر ١٣٧٩ هـ .

(٢) تور : أي تذهب وتجيء .

(٣) انظرها في اعجاز القرآن : ١٥٣ .

(٤) مثل خطبة المأمون (المأمور) الحارثي في أمالي القالي : ١ / ٢١٣ ، وخطبة وكيع ابن سلمة الايادي في البيان والتبيين : ٢ / ١٠٩ ، ١١٠ .

خلافاتهم .

ومن تلك الايمان التى أقسموا بها قولهم : " لا ومقطع القطر ، ولا مهب الرياح ، ولا منشرا الارواح ، لا والذى جلد الابل بجلودها ، لا والذى شق الجبال للتشّيشل والرجال للخيل ، لا والذى شقهن خسا من واحدة ، يعنون الأصابع . . (١) "
 والقسم بالله عندهم أعظم الايمان ، ويقولون : " والله فانها تملأ الغم ، وترقى الدم ، اى تبرى الظنين بالدم من الدم فيرقأ دمه ، اى يسكن محقونا فى مسكه فلا يراق (٢) ومنه قولهم (٣) : لا والذى يرانى من فوق سبعة أرقعة " اى من فوق سبع سماوات (٤) ، ومنها لا والذى لا يوارينى منه خمر (٥) ، ومنها لا والذى لا يتقى بوجاح (٦) ، ولا والذى أخرج العذق من الجريفة (٧) ، ولا والذى فلق الحبة وبرأ النسمة (٨) . وغير ذلك من كثير من أيمانهم .

ويتخذ ايمانهم بالله صورة أخرى تتمثل فى دعائهم ، فقد دعوا الله فى أكثر حالاتهم ، ولجثوا اليه فى دفع الضر عنهم ، ولا ريب أنهم مَدَعَوْه - جلا - علا - الآ رجوا الاجابة وطمعوا منه بالعطاء .

وقد ورد دعاءه - سبحانه - فى بعض أمثالهم فقالوا : " عرفتني نساءها الله " ،

(١) ذيل الامالى : ٥٠ ، ٥١ .

(٢) أيمان العرب فى الجاهلية : ١٣ ، ١٤ .

(٣) السابق : ١٥ .

(٤) وقيل سميت بذلك لأنها مرقعة بالنجوم ، وقيل لان كل سماء رقيق للأخرى .

(٥) الخمر : ما وارك من غيرك من أى شئ ، والمعنى لا يوارينى منه شئ .

(٦) وجاح : كل ما حال بينك وبين شئ من ستر ونحوه .

(٧) العذق : كل غصن له شعب ، وقيل النخلة وهو المراد هنا . الجريفة :

التمر المجرومة أى المصرومة والمراد النواة . أى أخرج النخلة من النواة .

(٨) فلق الحبة : أى شقها فى الارض حتى تنبت ، ثم اثمرت فكان منها حب كثير ،

وكل شئ شققته باثنين فقد فلقته . النسمة : كل نفس ذات نفس نسمة ، سميت

نسمة لتسمها الهوا .

و"بلغ الله بك أكلا العمر" (١) ، و"جدّع الله مسامعه" (٢) ،
 وروى من دعائهم قولهم : "رماه الله بالأمية والعمية" (٣) ، "وأشّل الله عشره" (٤) ،
 وأبرد الله غبوقه" (٥) ، ورماء الله بفاشية" (٦) .
 ومن دعائهم (٨) : رماه الله بليلة لا أخت لها (٩) ، وققم الله عصبه (١٠) ، ولا تترك
 الله له هاربا ولا قاربا (١١) ، وشتت الله شعبه (١٢) . . الى غير ذلك من كثير من دعائهم
 وكان من العرب من علم بظهور نبي من عند الله ، واستبشروا بذلك ، وفطس
 بعضهم كالحنفا الى فساد دينهم وأنه لا يرضاه الله ، فأخذوا يسألون عن الدين
 الصحيح .

وقد أشاروا الى ذلك في خطبهم ، ونسبوا له أقوامهم ، فهذا "كعب بن لؤى"

(١) نسأها الله : أى أخر الله أجلها وأطال عمرها ، وقال أبو عبيد فى أصل
 المثل : أن رجلا كانت له فرس ، فأخذت منه ، ثم رآها بعد ذلك فى ايدي
 قوم ، فعرفته فحممت حين سمعت كلامه ، فقال ذلك ، أكلا العمر : قال
 أبو عبيد : أقصاء ، وقال عن الزبير : أحفظ العمر . وانظر كتاب الامثال لابن
 عبيد : ٦٨ .

(٢) أمثال أبي عبيد : ٧٧ ، ومعناه القطع ، يريدون الأذنين .

(٣) ذيل الامالى : ٥٥ .

(٤) الأمية : أى ماتت زوجته ، يقال رجل أيم وامرأة أيم اذا كان بغير امرأة وكانت
 بغير رجل . والعمية : هى اشتهاء اللبن والمعنى يدعوك بهلاك ماشيته حتى
 يشتهى اللبن فلا يجده .

(٥) شّل الله عشره : أصابه الشلل فى يديه لأن بها عشرة أصابع .

(٦) أى لا كان له لبن حتى يشرب الماء .

(٧) الفاشية : وجع يأخذ على الكبد يكوى منه .

(٨) ذيل الامالى : ٥٧ .

(٩) أى ليلة موته .

(١٠) أى أيس عصبه فاجتمع .

(١١) أى لا تترك الله له لاصارا عن الماء ولا واردا يريد مواشيه .

(١٢) أى أباد أهله .

- الجد السابع للنبي صلى الله عليه وسلم - يستبشر بذلك فيما يروى له فيقول: ^(١) "لم زينوا حرمكم وعظموه ، وتمسكوا به ولا تفارقوه ، فسيأتى له نبأ عظيم ، وسيخرج منه نبي كريم". ولما ظهر سيف بن ذى يزن على الحبشة واستولى على اليمن ، أته وفود العرب وأشرفها للتهنئة بذلك ، وكان "عبد المطلب بن هاشم" قد اصطحب معه بعض رجال قريش وفدوا عليه فيمن وفد ، وبعد بقائهم فترة استدعى "سيف بن ذى يزن" عبد المطلب على ما روى وقال له : "يا عبد المطلب" ، انى مفض اليك من سر على أمرا لغيرك يكون لم أبح به ، ولكنى رأيتك معدته ، فأطلعتك عليه ، فليكن عندك مخبأ حتى يأذن الله عز وجل فيه ، انى وجدت فى الكتاب المكنون ، والعلم المخزون الذى ادخرناه لأنفسنا ، واحتجناه دون غيرنا ، خيرا عظيما ، وخطرا جسيما ، فيه شرف الحياة ، وفضيلة الوفاة للناس عامة ، ولرهطك كافة ، ولك خاصة ، فقال عبد المطلب : مثلك أيها الملك سرور ، فما هذا فداك أهل الوتر زمرا بعد زمر ؟ قال : اذا ولد بتهامة غلام بين كتفيه شامة ، كانت له الامامة ، ولكم به الزعامة ، الى يوم القيامة ، قال عبد المطلب : أيها الملك لقد أبت بخير ما أب بمثله وافد قوم ، ولولا هبة الملك واجلاله واعظامه ، لسألته من بشارته اياى ما أزداد به سرورا ، . . . ثم يذكر له أنه جده ويوصيه به حذرا من اليهود ، ويتمنى أن يخضع له العرب لو طال به العمر حتى يظهر. ^(٢)

ويروى أن أكرم بن صيفى التميمى لما ظهر النبى - صلى الله عليه وسلم بمكة ودعا الى الاسلام بعث أكرم ابنه حبيشا فأثابه بخبره ، فجمع تميم وأمرهم باتباع الرسول ومعاونته ، وأن يكونوا من أول الناس دخولا فى طاعته. ^(٣)

(١) صحيح الاغشى : ١/١١٢ .

(٢) هذه القصة وردت فى دلائل النبوة للبيهقى : ١/٢ ، تحقيق عبد المعطى قلعجى والهداية والنهاية : ٣/ ٣٢٩ وما بعدها ، نهاية الأرب : ١٦/ ١٣٧ وما بعدها . ولعل أصل هذه القصة صحيح ، غير أنه يولغ فيها ودخلها ما لا يطمان الى صحته ، كعلم سيف بجده صلى الله عليه وسلم ، ثم علمه بوفاة نفسه قبل أن يبعث والله اعلم .

(٣) الفاخو : لابی طالب بن سلمة : ٢٤٩ ، ٢٥٠ . تحقيق عبد العليم الطحاوى . ط ١ (١٣٨٠ هـ) ، وزارة الثقافة والارشاد القومى - مصر .

وقد كان من معتقدات بعضهم الايمان بالبعث ، والتسليم بالدار الآخرة ، والثواب والمعقاب ، فذكروا ذلك في أقوالهم وأن اعوه في خطبهم .

هذا قس بن ساعدة يقول : " . . . كلا ورب الكعبة ليعودن ما بدا ، ولكن نهب يوم ليعودن يوم . " (١)

وقال " وكيع بن سلمة الا يادى " (٢) : " . . . زعم ربكم ليجزين بالخير ثوبا ، وبالشر عقابا ، وان من فى الارض عبيد لمن فى السماء . . . " .

ويقول " كعب بن لؤى " (٣) : " . . . والا ولون كالأخرين ، كل ذلك الى بلا " ، فصلوا أرحاكم وأصلحوا أحواكم ، فهل رأيتم من هلك رجع ، أو ميتا نشر ، الدار أمانكم ، والظن خلاف ماتقولون . . . " .

وأخيرا نجد " عامر بن الظرب " يؤكد ذلك أيضا فيقول : (٤) " ما رأيت شيئا قط خلق نفسه ، وما رأيت موضعا الا مصنوعا ، ولا جائيا الا ناهبا ، ولا نعمة الا ومعها بؤس ، ولو كان يميت الناس الداء لأحياهم الداء " ، سيرجع الميت حيا ، ويعود لاشئ شيئا " .

(١) اعجاز القرآن : ١٥٣ .

(٢) البيان والتبيين : ١٠٩ / ٢ ، ١١٠ ، مجمع الامثال : ١٤٢ / ٢ ، ١٤٣ .

(٣) أنساب الاشراف للبلاذرى : ٤٠ ، صبح الأعشى : ١١٢ / ١ .

(٤) الاوائل للعسكرى : ١١٢ / ١ .

(ب) العبادات

ليس مانعني بالعبادات التي تذكرها أن تكون ما يفعله الجاهليون بنية العبادة ،
أو ما يعدونه من شعائر الدين ، وانما سميها عبادات لأنها في الحنيفية كذلك ،
كما تبين لنا من دين الاسلام ، وربما كان منها ما بقى عند الجاهليين ما يتعمدون به
كالحج والعمرة ، وقد يكون منها ما جعلوه بعد ذلك كالعادة والمألوف بينهم من غير
أن يقصدوا به التعبد .

وما أتيج لنا من العبادات في البشر الجاهلي انما هي تنف مبعثرة لا تنفي بكثير مما
تدخل فيه من أنواع العبادات ، وحسبنا أن تذكر ذلك بقدر ما أتيج لنا فيما اطلعنا
عليه من مصادر .

أما سنن الغطرة فقد وجدنا ما يدل على عنايتهم باللحية ، بل وافتخارهم بها ، حتى
أنهم أطلقوا مثلاً في لغة خلقها فقالوا : " فلم خلقت اذا لم أخدع الرجال (١) " وهم
يعنون بذلك اللحية ، وخدع الرجال ليس باليسير ، ولا يقدم عليه الا المحنكون
الشجعان ، وربما عدوه ضرباً من الشجاعة والدها .

وقد عرفنا أنهم عرفوا الغسل من الجنابة ، وقد كان أحد اغسالهم ، وشاع ذلك
في أحد أمثالهم فقالوا : " لا ماءك أبقيت ولا درنك أنقيت " وذكروا سبب ذلك أن رجلاً كان في
سفر ومعه امرأته وكانت عاركة (٢) فحضر طهرها ومعه ماء يسير ، فاغتسلت به ، ثم لم
يكفها لغسلها وقد أنفدت الماء ، فبقيت هي وزوجها عطشانين ، فعندها قال لها
هذه المقالة (٣) .

وكان من عباداتهم الاستسقاء ، وذلك أنهم اذا حبس عنهم القطر ، وأجدبت
الارض وأصابتهم الغافة وشارفوا على الهلاك لجئوا الى ذلك . وقد علمنا أنهم كانوا يأتون

(١) الامثال : لابي عبيد القاسم بن سلام : ٨٣ . تحقيق : عبد المجيد قطاش . ط ١ ،

(١٤٠٠) مركز البحث العلمي - جامعة أم القرى .

(٢) العاركة : الحائض .

(٣) الامثال لابي عبيد : ٢٩٩ ، مجمع الامثال : ٢/٢١٧ ، ٢١٨ وبه قصة أخرى غير

ما ذكر .

في ذلك بأفعال غريبة كعقد الحطب في أناب البقر ثم حرقه ، وما سموه بنسار الاستمطار^(١) ، غير أنهم كانوا يلجئون الى دعاة الله عند ذلك ، فقد ورد أن قريشا تابعت عليهم السنون وقحطوا ، فاجتمعوا عند " عبد المطلب " ثم تطيؤوا وطافوا بالبيت ثم ارتقوا جبل أبي قبيس ، ومعهم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وهو غلام قد أيفع أو دنا ، فقام عبد المطلب فقال : " اللهم ساد الخلة ، وكاشف الكربة ، أنت عالم غير معلم ، وسئول غير ميخل ، وهذه عداؤك واماؤك عذرات^(٢) حرملك ، يشكون اليك سنتهم التي قد أحتلت الظلف^(٣) والخف ، فاسمعن اللهم وامطرن غيثا مريفا مفدقا " فما راموا البيت حتى انفجرت السماء بهائها وكظ^(٤) الوادي بشجيج^(٥)ه ، فلمسمعت (أى الراوى) شيخان قريش وهى تقول لعبد المطلب : هنيئا لك أبا البطحاء هنيئا . أى بك عاش أهل البطحاء^(٦) .

وقد جاء أن عبد المطلب استسقى لهذيل ومن معهم بعرفات ودعى لهم على نحو من استسقاؤه هذا^(٧) .

أما ما يتعلق بالحج وهو أشهر عباداتهم فقد كان النثر نزرا به وفقيرا منه ، والذي رأيناه منه ، ما يدل على تعظيمهم للحرم واجلالهم له ، وتواصيهم بذلك ، فمـ هذا " كعب بن لؤى " يوصي قومه فى خطبته فيقول : " . . . زينوا حرملك وعظموه ، وتسكوا بسـه ولا تفارقوه ، فسيأتى له نبا عظيم ، وسيخرج منه نبي كريم . . . " ^(٨) .

(١) انظر هذا البحث ص ٢٧٤ ،

(٢) عذرات حرملك : العذرة فناء البيت ، يريد أهل بيته .

(٣) الظلف : أى ذوات الظلف من الماشية كالبقرة والغنم .

(٤) كظ : أى امتلأ

(٥) شجيجة : أى سيلان الماء .

(٦) دلائل النبوة للبيهقى : ١٦ / ٢ ، ١٧ ، نهاية الارب فى فنون الادب : شهاب

الدين أحمد بن عبد الوهاب النويرى " نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب . وزارة

الثقافة والارشاد القومى . مصر .

(٧) انظر نهاية الارب : ٤٨ / ١٦ - ٥٠ .

(٨) صبح الاعشى : ١ / ١١٢ ، جمهرة خطب العرب ط ١ : ١ / ٣٣ .

وقد جاء ذكر لما كان يقومون به عند الاجازة من مزدلفة الى منى ، وكان يلي ذلك رجل معروف ، فلا يذهب منها أحد حتى يكون ذلك الرجل أول من يخرج منها ، وقد كان أشهر من ولي ذلك رجل يسمى " عميلة بن الأعزل العدواني " وكان له حمار أسود أجاز الناس عليه من المزدلفة الى منى أربعين سنة ، فضربوا المثل في الصحة والسلامة بعميره هذا فقالوا : " أصح من غير أبي سيارة " ^(١) ، وأبوسيارة كنيته ، ويروون أنه كان يقول : " اللهم حبب بين نساءنا ، وبفض بين رعائنا ، واجعل المال في سمحائنا " .

وكانوا يسمون الليلة التي يخرجون فيها من منى عند انتهاء حجهم " ليلة الصدر " وضربوا بها المثل بالخلو بعد الامتلاء فقالوا : " تركته على مثل ليلة الصدر " ^(٢) ان يصدر الناس من حجهم ، وينفر الناس من منى فلا يبقى منهم أحد بها .

(١) الامثال لابي عبيد : ٣٢٣ ، مجمع الامثال : ١ / ٤١٠ .

(٢) الامثال لابي عبيد : ٣٣٩ .

(ج) التشريعات

كان للجاهليين أحكام أخذوا بها في حياتهم ، وهى تشمل أكثر جوانب حياتهم السياسية والاجتماعية وغيرها ، وقد ألما بطرف منها فيما ورد من أشعارهم ، وسنرى الآن ما كان من هذه التشريعات على ما ورد فى نثرهم ، ولا يضير بعض هذه الأحكام تكررها هنا وهناك ، بل ذلك مما يؤكد بعضه بعضا ، ويميز ما نذهب اليه من وجود هذه التشريعات بين أولئك الجاهليين .

وأول ما يواجهنا فى هذا الصدد ما يدل على معرفة بعضهم للحرام ، وتمييزه من الحلال ، وقد ورد من ذلك ما يدل على أخذهم به ، ففي حادثة هدم قريش للكعبة وبنائها ، لما أجمعوا ذلك ، " قام أبو وهب بن عمرو بن عائذ . . . فتناول من الكعبة حجرا فوثب من يده ، حتى رجع الى موضعه ، فقال يا معشر قريش ، لا تدخلوا فسى بنائها من كسبكم الا طيبا ، لا يدخل فيها مهر بفي ، ولا بيع ربا ، ولا مظلمة أحد من الناس " وفي رواية ، أخرى : " لا تجعلوا فى نفقة هذا البيت شيئا أصبتموه غصبا ، ولا قطعتم فيه رحما ، ولا انتهكتم فيه ذمة أحد بينكم وبين أحد من الناس " (٢)

ولا ريب أن حكمهم هذا فى المال الذى تبني منه الكعبة كان من وراء تقصيرهم فى بنائها كاملة على أصولها الصحيحة فاكثفوا بنائها جزئيا وتركوا جزءا بلا بناء عند ما عدوا ذلك المال الحلال الذى بنوا منه الكعبة ، وفي الصحيح عن عائشة انـ صلى الله عليه وسلم قال : " لولا حادثة عهد قومك بالكفر لنقضت الكعبة ولجعلتها على اساس ابراهيم فان قريشا حين بنت البيت استقصرت ولجعلت له خلفا " (٣)

(١) أبو وهب ابن عمرو ابن عائذ ابن عبد بن عمران بن مخزوم ، من رجال قريش

والمعدودين وشروفاً ، وهو خال أبى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - .

سيرة ابن هشام : ١ / ١٩٤ .

(٢) سيرة ابن هشام : ١ / ١٩٤ .

(٣) رواه مسلم : باب نقض الكعبة وبنائها بشرح النووي : ٩ / ٨٨٠ .

الخلف : المراد به بابا من خلفها فيكون لها بابان .

ويروى من ذلك أن هاشم بن عبد مناف حث قريشا على إكرام زوّار بيت الله الحرام
فإذا كان اليوم الاول من ذى الحجة خطب قريشا ، ومما يقول " . . يا معشر قريش أنتم
جيران بيت الله إكرمكم بولايته ، وخصّكم بجواره ، دون بنى اسماعيل ، وحفظ منكم
أحسن ما حفظ جار من جاره ، فأكرموا خميغه ، وزوّار بيته ، فانهم يأتونكم شعشا (١)
غبرا من كل بلد ، فورب هذه البنية (٢) ، لو كان لي مال يحمل ذلك لكفيتكموه ، الا واني
مخرج من طيب مالي وحلاله ، مالم يقطع فيه رحم ، ولم يؤخذ بظلم ، ولم يدخل فيه
حرام ، فواضعه ، فمن شاء منكم أن يفعل مثل ذلك فعل ، وأسألکم بحرمة هذا البيت
الا يخرج رجل منكم من حاله ، لكرامة زوّار بيت الله ومعونتهم الا طيبا . . (٣)

أما أحكامهم الاخرى فقد وجدنا منهم من ترفع عن الزنى ، وعده فجورا ، بل وغير به
خصمه ، وذلك من ترفع كثير من ذوى المروءة والسؤدد منهم عن ذلك .

ففى منافرة " عامر بن الطفيل " مع " علقمة بن علاثة " يروى ان " علقمة " تافره بقوله :
" والله انى لبروانك لفاجر ، وانى لولود وانك لعاقر ، وانى لعق وانك لعاهر ،
وانى لوفى وانك لفادر . . (٤) " واذ افتخر علقمة بذلك ، فقد رأينا منهم من كان
يوصى ابنائه بالحذر من الزنى ويضرب لهم من نفسه المثل فى احدى وصاياه . (٥)

أما الدّية فشأنها معروف بينهم كما سبق الحديث عنها ، وكانت تتفاوت بينهم
فالصريح دية كاملة ، والهجين (٦) له نصفها ، وأما الطوك فلم يشر ديات كاملة .

(١) شعشا : جمع أشعث وهو ملبد الشعر مغبره .

(٢) البنية : الكعبة ، والبنية : (بكسر الباء وضمة النون) ما بنيته .

(٣) السيرة النبوية لابن هشام القسم الاول ١٣٥ ، ١٣٦ ، جمهرة خطب العرب :

٧٤ / ١ تأليف أحمد زكى صفوت مطبعة مصطفى البابى الحلبي سنة ١٣٨١ هـ .

(٤) الاغانى ٢٨٦ / ١٦ ، وجمهرة خطب العرب ٤٢ / ١ - ٤٣ .

(٥) انظر فى ذلك وصية الحارث بن كعب لبنيه . جمهرة خطب العرب ١ / ٢٢ - ١٢٣ .

(٦) الصريح من الرجال : الخالص النسب لم يخالطهم غيرهم .

الهجين : من ولد من أم غير عربية وأبوه عربى .

وقد ورد أن سبب الخلاف في الدية أدى الى تفاقم الفتنة بين حيين من أحياء العرب كان أحدهما يرى له زيادة عن الآخر. (١)

وقد جاء أن "قيس بن عاصم" قال في إحدى وصاياه لولده: "... واكمروا الابل، فان فيها مهر الكريمة ورقوء الدم". (٢) يعنى الديات التي يدفع بها القصاص والقود. (٣) أما احكام النساء فقد كانت أحسن حظاً من سابقتها ان توفر لنا بعضهم، وأولها فيما نرى تحريم المحارم وتعظيم شأنهن، ومنهن الخالة، وربما أضافوا اليها قريبات الأم، فقالوا في المثل: "كل ذات صدار خالة". (٤) أى أن الفيور اذا رأى امرأة عدّها من جملة خالاته لفرط غيخته. (٥)

والحجاب أمر يلزم النساء ومنهم من أخذ به، ان يخشى من تبذل المرأة امام الرجال الاجانب، وانما يتمتع بجمالها زوجها حتى كان من امثالهم السائرة: "خلع الدرع بيد الزوج" وقالوا: "التجرّد لغير نكاح مثله". (٦)

وقد تعود النساء الخمار وألفن الحجاب، فهن مجربّات لا يحتجن أن يعلمنّه أو يؤمن بأخذه كصغار الجوارى حتى قالوا: "ان العوان لا تعلم الخمرة". (٧)

وانما يهتمر النساء لشدة الغيرة عليهن من الرجال، فكانوا يتساهلون في الصعاب من الامور الا النساء وما يعرض لهن حتى شاع مثلهم "كل شئ مهه ما النساء" وذكروهن

(١) انظر ذلك في ما وقع من المفاخرة بين طريف بن العاصي والحارث بن ذبيان عن بعض مقال حمير. أمالى القالى: ٢٢/١ وما بعد ها.

(٢) رقوء الدم: ما يرقأ به أى يقفه ويحفظه من دية أو دوا حتى لا يسيل.

(٣) الامثال لابي عبيد: ١٩١.

(٤) السابق: ١١٠.

(٥) مجمع الامثال: ١٣٢/٢، وقال بعده ان المثل من "قول همام بن مرة الشيباني وكان أغار على بني أسد وكانت أمه منهم، فقالت له النساء: أتفعل هذا بخالاتك؟

فقال: كل ذات صدار خاله ولو لم يكونوا ممن يحرم الخالة لما كان في قولهن له ذلك معنى في تلك الحال، والله أعلم.

(٦) الامثال لابي عبيد: ٢٩٣.

(٧) الامثال لابي عبيد: ١٠٨، مجمع الامثال: ١٩/١، العوان: المرأة الشيب كما قاله أبو عبيد، الخمرة: اسم الهيئة والحالة من الاختمار.

أى أن الحرّ يحتمل كل شيء حتى يأتي ذكر هذا فيمتعض حينئذ ولا يحتمله (١).

والزواج أمر مشهور بينهم ، بل كانوا يجمعون بين أكثر من واحدة ، وربما وصلن إلى العشر ، ولا ريب أن النساء عند الرجل الواحد لا يخلين من الإحسان والتبرم من بعضهن ، وهذا ما عرف عند الجاهليين بداء الضرائر ، حتى كان من أمثالهم " بينهم داء الضرائر " (٢).

والزواج تسبقه الخطبة ، وفيها يتم الأمر للناس ويتضح ، وربما اتخذوا من يخطب باسم الزوج عند من يزوجهم ،

يقول الجاحظ : " كانت خطبة قريش في الجاهلية - يعني خطبة النساء - : باسمك اللهم ، لك ما سألت ، ولنا ما أعطيت " (٣) ويقول : كان من عادة العرب في هذه الخطبة أن يطيل الخاطب ويقصر المجيب (٤).

وحسبنا أن نورد خطبة " أبى طالب " في زواج رسولنا محمد صلى الله عليه وسلم إذ قال : " الحمد لله الذى جعلنا من ذرية إبراهيم ، وزرع اسماعيل ، وجعل لنا بلدا حراما ، وبينا محجوبا ، وجعلنا الحكام على الناس .

وان محمد بن عبد الله بن أخى لا يوازن به فتى من قريش إلا رجح به : بركة وفضلا وعدلا ، ومجدا ونبلا ، وان كان في المال مقصلا ، فان المال عارية مسترجعة ، وظل زائل ، وله فى " خديجة بنت خويلد " رغبة ، ولها فيه مثل ذلك ، وما أردتم من الصداق فعلي " (٥).

(٦) وقد ذكر لنا العقد الفرید مزيدا من أقوال العرب وما كان في مناقبهم .

(١) الا مثال لابی عبید : ١٠٩ ، مجمع الا مثال : ١٣٢/٢ ، المهمة أى اليسير الهين .

(٢) الا مثال لابی عبید : ٣٥٤ .

(٣) البيان والتبيين : ٤٠٨/١ .

(٤) السابق : ١١٦/١ .

(٥) اعجاز القرآن : ١٥٣ .

(٦) انظره ٨٣/٢ وما بعدها .

ولا يكون النكاح المعروف الا بمهر تفاوتوا في مقداره وعينه ، ومن أراد الزواج تأهب
 لاحضار المهر ، وقد كثر في امثالهم ذكره حتى قالوا " من ينكح الحسناء يعط مهرًا " (١)
 وقالوا في الذى امتن على زوجته مهرها وقد أخذه من أبيها : " كالمهورة من مال أبيها " (٢)
 وقالوا في الحق : " أحق من المهورة احدى خد متيها " (٣) .
 وقد يكون المهر عقارا أو ابلا ، وربما دفعه الاب ان آتاه فقير من أشرف القوم ،
 وربما استشاروا النساء فيمن سيتزوجونهن ، وكانوا يوصون المرأة عند زواجها بمـ
 ينبغي عليها لزوجها من حقوق وما يرشدها لصلاح ما تستقبل به من حياة زوجية
 جديدة . (٤)

وأخيرا فاننا نجد في النثر ذكرا للخلع ، وهو فراق الزوجة على مال مأخوذ ، وأخذه
 زوجها ، وكان من صور الطلاق في الجاهلية ، وتفقدى به المرأة من زوجها بمالهـ
 وتختلع منه اذا أساء عشرتها . (٥)
 ومن ذلك أن " عامر بن الظرب " زوج ابنته ابن أخيه ، وبعد أشهر جاءته مشجوجه ،
 فقال لابن أخيه : " يابني ارفع عصاك عن بكرتك ، فان كانت نفرت من غير أن تنفـ
 فذاك الداء الذى ليس له دواء ، وان لم يكن بينكما وفاق ففراق ، الخلع أحسن من
 الطلاق ، ولن تترك مالك وأهلك " ورد عليه صداقه وخلعها . (٦) وقد زعموا أن ذلك
 أول خلع كان . (٧)

(١) الأماثل لابی عبيد : ٢٤٣ .

(٢) السابق : ٦٧ .

(٣) السابق : ٦٧ ، ٣٦٥ . وسبب ذلك فيما زعموا ان رجلا كانت له امرأة حـ
 فطلبت مهرها منه ، فنزع أحد خـ خاليتها من رجلها ، وهما الخدمتان ، ودفعه
 اليها وقال : هذا مهرك فرضيت به .

(٤) انظر قولهم في المناكح في العقد الفرید ٦ / ٨٣ وما بعدها .

(٥) المرأة في الشعر الجاهلى : ٢٦٤

(٦) عيون الاخبار : ٧٦ / ٤ ، بلوغ الارب : ٤٩ / ٢ .

(٧) الاوائل للعسكري : ١ / ١١٩ .

وقد أُمَرَ الخلع في الاسلام ، وذلك لما تقتضيه مصلحة الزوجين وما قد يكسبون من مضارة كل منهما صاحبه ، قال تعالى " ولا يحل لكم أن تأخذوا مما آتيتوهن شيئا الا أن يخافا الا يقيما حدود الله فان خفتم الا يقيما حدود الله فلا جناح عليهما فيما افتدت به " . (١)

كما أن الاسلام توعد المرأة بالعقاب الشديد والحرمان من الجنة ان طلبت فراق زوجها من غير ضرورة ولا حاجة تدعو لذلك . (٢)

هذا ما وقع لي من صور النشر ، وما وقعت عليه ، مما يرقى في تقديري الى " النشر " الذي بيدو كالماتر ، ولم أشأ أن أكون - في هذا الجانب - كحاطب ليل ، يجمع الدرر الى الفرر كما يقولون ، فاذا جاء الكلام عند " النشر " في هذا النطاق الضيق فعذري في ذلك أمران :

أولهما : أن " النشر " الجاهلي أيا كان موضوعه لم تؤطره الرواية في مادته " الخام " ان صح التعبير في هذا المقام وهو ما أشرت اليه في صدارة الحديث .

ثانيهما : أن الكَذْرَ والحِيطَةَ أو قل " حاسة النقد " هدتني الى الانعطاف الى بعض صور النشر التي تتسق مع الموضوع الذي تدور مباحث هذه الرسالة حوله ، فجاءت في ذلك العرض ، على أن القضية لا تكن أساسا في الاكثار من النماذج والصور بقدر ما نلصق معنى من المعاني يكشف عن بعد من أبعاد " الحنيفية " ، ولا سيما اذا جاء هذا البعد مؤيدا لما نطق به الشعر ، أو ملاسأله ، فحينئذ لا مناص من التعويل عليه بعد أن أكون قد احتكمت فيه الى الاسس التي تدفع هذا النص النثري أو غيره الى مقام " الصحة " .

ولم يكن أمامي معدى من ذلك ، أو فكاك عنه فيما يتصل بهذا الجانب ، وأرجو أن أكون - بهذا - قد وفقت في عرض الجانب النثري الذي يتشابه مع الموضوع الاصلى للحنيفية .

(١) سورة البقرة : ٢٢٩ . وانظر تفسير ابن كثير : ١ / ٤٠٠ وما بعد ها .

(٢) انظر في ذلك ما ذكره ابن كثير في تفسيره : ١ / ٤٠١ ، ٤٠٢ .

الفصل الرابع

تحليل وتقويم

(أ) الاشارات الدينية في شعر الجاهليين :

لمسة فنية

يواجه الدارس لادب العرب في العصر الجاهلي بعض الاشارات التي قد تنم عن شعور ديني ، او تدل على معتقد من المعتقدات ، وقد تستوقفه وتزيد من تأملاته ، ثم تدعوه الى التساؤل عن مدى الافادة من هذه الاشارات في رسم صورة تكشف بعض قسمايتها عن دين هؤلاء السابقين .

ولعل الدافع الى مثل هذا السؤال هذه النثرات المترامية الينا من اشعارهم ، فوق ان القضية تتعلق بأمر جوهري في حياتهم اذ القطع بالحكم عليهم امر ليس من اليسير تلمسه ، لما سبق ان اشرت اليه في مواطن من هذا البحث كما ان من المفارقة او الجرافية ان نقطع على شاعر باليهودية او النصرانية بمجرد اشارة او اشارات توافقت في ابيات قلائل ، دون ان نعقب على تفاصيل حياته ، او نلم بما يروى له من شعر ان كان شاعرا .

ولا شك اننا نخرج بفائدة كبيرة عندما نكشف ما يدين به الشاعر الجاهلي ، اذ ان ذلك سيساعدنا كثيرا في تحليل وايضاح جانب كبير من حياته وافعاله وما يروى له ، وكلنا يعلم ما للدين من سلطان على الناس في عصرنا الحاضر وما تقدمه من احقاب زمنية طويلة ، فالنفوس تستجيب لأوامره وتتبعدها نهى عنه ، وتحاول السير في حياتها عامة وفق ما يستنه لها من تشريعات وما يصوره لها من شتى المعتقدات .

وقد رُمي الادب الجاهلي بعدم تصويره لحياة العرب الدينية تصويرا واضحا ، واتهم بضعف الشعور الديني ، وعدم ظهور العاطفة الدينية القوية ، وقلة تعرضه لمسائل الدين وشرح شعائر العبادات وما يمارسونه من طقوس وما يؤدونه من ابتهالات ، وقد ادى كل ذلك الى ظن بعض الباحثين بضعف الروح الديني عند الجاهليين وقصورها ،

وضحالة الدين الجاهلى نفسه (١) .

وقد علل هذا الضعف الدينى بأسباب مقبولة ، ومنها ان الشعر الذى قالته العرب لم يصلنا الا اقله ، اذ فقد أكثره خلال رحلته الى عصر التدوين ، وقد نبه الرواة الى ذلك ، فقيما يروى عن عرب بن الخطاب - رضى الله عنه - أنه قال : (كان الشعر علم قوم لم يكن لهم علم أصح منه .

فجاء الاسلام ، فتشاغلت عنه العرب وتشاغلوها بالجهاد وغزو فارس والروم ، ولهيئت عن الشعر روايته ، فلما كثر الاسلام وجاءت الفتوح واطمأنت العرب بالامصار راجعوا رواية الشعر فلم يثقلوا الى ديوان مدون ولا كتاب مكتوب ، فألقوا ذلك وقد هلك من العرب من هلك بالموت والقتل ، فحفظوا أقل ذلك وذهب عنهم منه كثير (٢) .

وهذا التحليل يستشف منه صورة عامة ، يعطى بعدا من الابعاد حول هذه القضية الا اننا لم نعدم ما هو أخص منه فيما نحن بصدده كما سيرد ذلك .

فمن المعلوم ان تدوين الشعر لم يتم الا فى الاسلام ، ومعد أن مضى عليه قرن من الزمان تقريبا ، ولا غرو ان يغلب على من دونه النزعة الاسلامية ، والكره لتلك المعبودات والاحتقار لما كانوا يؤدونه نحوها ، فأغضبوا عن كثير من مظاهر تلك الوثنية أنفة منها ، واعتزازا بما انعم الله به عليهم من دين الاسلام ، وكرهوا تلك الحالة الدينيّة التى كان عليها هؤلاء ، فكرهوا ايضا ان يسجلوا ما يدل عليها ، ولعلنا لا نستبعد أن يغلب على اولئك الرواة الحرص على دينهم وذلك بعدم اشاعة الجاهلية وصور وثنياتها والاقلال من ذكرها ، الا فيما قد يرد تحذيرا منها أو تنبيها .

أو استخفافا بها .

(١) تاريخ الادب العربى ٤٦٧/١ وانظر الادب الجاهلى : ٢٠ وكذلك المفصل

فى تاريخ الادب العربى : ١/٣٣٠ احمد امين واخرون ط ١٣٥٢ ، مطبعة

مصر - القاهرة .

(٢) طبقات فحول الشعراء : ٢٤ ، ٢٥

والشعراء فى أى عصر مضى لا بد وأنهم قد تحدثوا عن الدين وأشاروا إليه ، ولكن الحديث عن الدين فى الغالب لا يأتى فى ذلك موضحا لشئى عقائده وذاكرا لعبادته وتشريعاته وإنما يتعرض لذلك تعرضا خفيفا ، والشعر هنا لا يتصور منه أن يتحدث عن الدين حديثه عن الغزل والهجاء والمدح وغير ذلك من الأغراض المتعددة . وقد أحسن أحد الباحثين عندما نظر فى ذلك وقال :

((ليس من الطبيعى أن نرتقب من كل شاعر جاهلى أن تكون له فى الدين جولة ، فسان كثيرا جدا من الشعراء المسلمين على فحولتهم وعظم مكانتهم لم يقصروا على الدين بعض شعرهم ، حتى ليصعب على الباحث أن يستشف من خلال قصائد هم عقائد دينية متميزة كالمثنبى والبحتري وابن الرومى)) (١) .

ويضاف الى ذلك قلة احتفاء الشعراء بالدين ، ان يطربون وتهفو ألسنتهم الى الخوض فيها سوى ذلك من أغراض ومعان قد تدخلها الرغبة أو الرغبة أو الهبة أو الطرب الى انشاد الأبيات وعقد القوافى ، وفى ذلك تسمع لهم القرائح وتلين المعانى حتى تفيض علس ألسنتهم وتهش لذلك نفوسهم أكثر من انقيادها فى حديث الدين ومعتقداته وآرائه (٢) وفى ضوء هذه النظرة يمكن أن ننظر الى الشعر الجاهلى ، وقد كان الحديث فيه مستبحرا عن أدیان متعددة . . تحدثنا عنها خلال الفصول الماضية ، بعد أن عرفنا وجود أكثر من دين بينهم كالوثنية المرتكزة على عبادة الأصنام ، واليهودية والنصرانية والحنفية وغيرها .

والشعر الذى روى عن عبادة الأصنام يصور لنا كيف حال هذه العبادة ، ويرسم طقوسها ، ويبين ما يتقرب به اليها .

فطرقة يقسم عند النصب أنه هالك (٣) :

فَأَقْسَمْتُ عِنْدَ النَّصَبِ أَنِّ لَمِيسْتُ
بِمُتَلَفَةٍ لَيْسَتْ بِغَرْبٍ وَلَا خَفِضٍ (٤)

(١) الحياة العربية من الشعر الجاهلى : ٣٧٣ .

(٢) راجع نظرية الانتحال : ١١٩ ، ١٢٠ .

(٣) ديوان طرفة : ١٢٤ .

(٤) الغرب : الوهدة المنخفضة كذا بالديوان وقيل " ليست بطلع ولا حض "

وفي هذا القسم تظهر لنا قوة ثقتهم بالآيمان ، وحدوثها عند الاصنام أكد لها
واعظم أن لا يدخلها الكذب أو يشوبها الفجور .

ويقسم "التملس" باللات والانصاب أن لا ينجوعده جهه (١) .

أطردني حذر الهجاء ولا واللات والانصاب لا تشيل (٢)

وغير القسم يذكر لنا الشعر الكيفية التي كانوا يقدسون بها أصنامهم ويعظمونها
ومن ذلك طواف النساء بها وقد ارتدين الملاء المذيل عند دوار كما قال أمروء القيس (٣) :

فيعن لنا سرب كأن نعاوجه عذارى دوار في ملاء مديسل

" والنايعة الذبياني " مثله يشبه النساء بقطيع غدا ما رآهن يطفن حول دوار (٤) ،

كما نرى الحادرة يرجو أن يلقي أحبته يوم الدوار حين يقدمون للطواف به (٥) .

وما يعمل عند الأصنام الذبح غداها والتقرب بذلك اليها ، ويلطخونها بدماء
ما تقربوا به ، وقد وجد سلامة بن جندل في شكل النصب وقد سفح عليه الدم وجه شبه
مناسب لتشبيه أعناق خلية لما علق بها من دم بهذه الأنصاب غدا ما قال (٦) :

والعاديات أسابى الدماء بها كأن أعاقمها أنصاب ترجيب (٧)

وذكر الجاحظ أن الرجل كان ينذر أن يذبح عند الأصنام كذا عتيرة ، إذ بلغت
أبله أو غنمه كذا ، فإذا اكتم العدد استعمل التأويل ، وقال : إنما قلت إنني أذبح
كذا شاة ، والظباء شاهكما أن الغنم شاء ، فيجعل قربانه شاء كله مما يصيده ممن

(١) ديوانه : ٤٢ . يخاطب عمرو بن هند .

(٢) تثل : تنجو ، وفي القرآن الكريم (لن يجدوا من دونه موثلاً) .

(٣) ديوانه : ٢٢

(٤) ديوانه : ١٢٠

(٥) ديوانه ، تحقيق : د ناصر الدين الأسد . ط ١٣٩٣ (دار صادر - بيروت) .

(٦) ديوان سلامة ابن جندل : ٩٨

(٧) العاديات : الخيل ، أسابى : واحدتها أسبابة ، وهو الدم المراق ، ويقال

الوان الدم . ترجيب : أي الذبائح التي تذبح في رجب وقد تسمى العتيرة .

الطباء ، و لذلك يقول الحارث بن حلزة :

أَمْ عَلَيْنَا جُنَاحُ كَدَّةٍ أَنْ يَنْقُصَ سَمَّ غَازِيَهُمْ وَمَنْ سَا الْجَزَاءُ
عَتَا بَاطِلًا وَظُلْمًا كَمَا تُعْ — تَرُعْنَ حَجَرَةَ الرَّيْفِيِّ الطَّبَّاءُ (١)

وبعض الأصنام له أهمية خاصة عند العرب إذ لا يهلون بحجهم الا من غده فيه
بيد أن ويستحقون في شعائر حجهم ولا يتم حجهم الا بالمرور به ثانية ، وهم يحلقون
رؤسهم عند ذلك الصنم وبذلك يتحللون من حجهم وينتهون منه على ما قال شاعرهم
عن مناة أشهر صنم يعمل له ذلك (٢) :

إِنِّي حَلَفْتُ يَمِينٍ صَدَقٍ بِسِرِّهِ بِمَنَاةَ غَدَّ مَحَلِّ آلِ الْخَزَرِجِ

وقد كانوا يضربون القداح عند أصنامهم ، ويستشيرونها في أمورهم فان خرج الأمر
منها اقدموا على ما يريدون ، وان خرج الناهي تركوا ذلك . وقد دل طرفة بن العبد
على ذلك في حادثة الصلح بين بكر وتغلب عند ما قال (٣) :

فَسَعَى الْفَلَاقُ بَيْنَهُمْ سَعَى خَبَجٍ كَاذِبٍ شِيمَةٍ (٤)

أَخَذَ الْأَزْلَامَ مُقْتَسِمًا فَأَنَّى أَغْوَاهُمَا زَلْمُهُ (٥)

• غَدَّ أَنْصَابٍ لَهَا زُفَرٌ • فَيُصْعِقُ حَمَّةَ أَدْمُهُ (٦)

وقد افترخوا برئيسهم الذي لا يستشير سوى الأزلام ويمضى على رأيها حتى قيل (٧) :

(١) الحيوان : ١٨/١ •

(٢) الأصنام : ١٤ •

(٣) ديوان طرفة بن العبد (شرح الشنقيطي) : ١٢ — ١٨ • ط • القاهرة •

(٤) الفَلَاقُ وفي الديوان المحقق : ٧٨ الفلاق ، وهو اسم رجل من بني تميم واسمه

العلاق ابن شهاب كان النعمان بن المنذر راء عمرو ابن هند بعثه ليصلح بين

بكر وتغلب • خَبَجٌ : خادع •

(٥) الْأَزْلَامُ : القداح واحدها زلم •

(٦) زُفَرٌ : المراد به هنا الدماء الغزيرة مما يذبح عند النصب ، حَمَّةٌ : سودته بظلمها

أدمه : جلود ما حملة الى الانصاب ليذبحه عليها •

(٧) البيان والتبيين : ١٠٤/٣ •

رئيس ما ينازعه رئيس .. سوى ضرب القديح اذا استشارا

و اذا نظرنا بالمثل الى الديانة النصرانية وجدنا جانبها طيبا من الشعر الذي يصور

بعض ما كان يقوم به أصحاب هذه الديانة من شعائر أو عبادات .

فالنصارى لهم عيد يحتفلون به و يسمى الفصح و هو يوم فطرهم بعد أن أنبوا صومهم ،

و من احتفالهم بذلك العيد أن يوقدوا الشرج ، و يبالبغوا يومئذ في شدة اشتعالها

بما يملأونها به من الذبال المقتول . يقول أوس ابن حجر (١) :

عليه كمصباح العزيز يشبثه .. ليصيح ويحشوه الذبال المقتل (٢)

و النصارى يقرءون الانجيل فهو كتابهم المقدس ، و لا شك في اعتنائهم به و محافظتهم

على قراءته كما قال النابغة الذبياني يمدح ملوك الغسان (٣) :

مجلتهم ذات الالود ينهم .. قوم فما يرجون غير العواقب (٤)

و يستخدم النصارى النواقيس في كنائسهم ، و يضربون بها لعبادتهم تذكيرا بها ،

و يتخذ ذلك الاعلام ما يشبه وقتا محمدا ، و يشبه المرقش الأكبر صباح اليوم في الاماكن

المقبرة بتلك النواقيس التي ضربت بعد هدوء (٥) :

و تسمع تزقاة من اليوم حولنا .. كما ضربت بعد الهدوء النواقيس

و علاوة على ذلك فان الناظر في شعر امرئ القيس يرى كثيرا من المظاهر النصرانية

التي فاق في ذكرها شعراء الجاهلية ، و لا شك أن ذلك يوحي باطلاع امرئ القيس

(١) ديوانه : ٨٤ .

(٢) عليه : أى على الريح الذي وصفه في الأبيات قبله ، العزيز : فى الديوان " الملك

و سراجة أشد ضوءا " ، الذبال : القتائل التي توضع فى استراج ليضئ ،

يحشوه : أى يحشوه موضع القتائل .

(٣) هذا على رواية أبى عركما فى ديوان النابغة — بشرح ابن السكيت : ٥٦ . تحقيق

د . شكرى فيصل . ط . دار الفكر — بيروت . و يروى (محلتهم) و المعنى على

ذلك بلادهم .

(٤) مجلتهم : يريد كتابهم الانجيل ، و كانوا نصارى ، و كل كتاب عند العرب مجلة ،

قوم : أى مستقيم

(٥) المفضليات : ٢٢٥ .

على احوالهم واتصاله بهم ان لم يكن خالطهم وعاش معهم .

ففى شعره ذكر للحرج (١) وهو نعل النصارى الذى يحملون عليه متاعهم ، وربما ذكره بالأران (٢) ، وذكر هيكل النصارى وشبه فرسه به (٣) ، وذكر مصابيح الرهبان (٤) وصارتهم التى تضئ ليلا وقد انقطع الراهب الى عبادته (٥) ، وذكر ما كان يحدث من اجتماع الصبيان حول الراهب وما كانوا يقومون به من تخريق ثيابه وتمزيقها وهم يتمسحون به تعظيما وتبركا (٦) .

ونجد مع امرئ القيس (الاعشى) يتمحضر لوصف هذه المظاهر ، ولا غرابة فى ذلك من الاعشى ، وقد كان جوابا للافاق يلتمس المال من الهلوك والاشراف ، ولا يضرب رحلة الا ليستريح برهة كي يخرج فى رحلة جديدة ، وقد عرف عنه كثرة تردده الى العباديين (نصارى الحيرة) ونادم بنى عبد المدان فى نجران حيث توجد النصرانية ، وقد اشار الى ذلك عند خطابه الى ناقته وقد نوى الرحيل الى نجران (٧) :

وكعبة نجران حتم عليـ
كحتى تنساخى بابوابها
نزور يزيـد وعبد المسيح
وقيساً هم خير اربابها

ومن اشاراته فى هذا الصدد أن مدد وجهه اتقى من الراهب المعتكف فى هيكله أمام الصليب دائماً فى صلاته (٨) ، وذكر لنا يوم الفصح (٩) ، وقسم بعمل الراهب الصالح (١٠) ، وشير الى دقهم للنواقيس (١١) .

(١) ديوان امرئ القيس : ٩٠

(٢) السابق : ٨١

(٣) السابق : ٣٦ ، ٩١ ، ١٢٢

(٤) السابق : ٢٠ ، ٢٤ ، ٣١

(٥) السابق : ١٧

(٦) السابق : ١٠٤

(٧) ديوان الاعشى : ٢٢٣

(٨) السابق : ١٠٣

(٩) السابق : ١٦١

(١٠) السابق : ١٧٥

(١١) السابق : ٢٢٧

وإذا اكتفينا بهذين النموذجين من عادات الجاهليين من خلال تلك الصـور
والإشارات التي لمستها في الشعر الجاهلي بعامة ، ثم نظرنا إلى بعض شعرائهم من
خلال ما روت لنا المصادر من شعر له ، ثم حاولنا أن نستخلص من ذلك دين الشاعر
وتعديته ، فإن ذلك ممكن وجائز ، وخاصة عند من حفظت لنا المصادر كثيرا من شعرهم ،
ومعلوم أن هذا الأمر لا يمكن القطع فيه بسهولة ، ولا الحكم فيه من خلال القراءة السريعة
بل لا يحصل فذلك إلا لمن يمعن النظر كثيرا في كل ما قيل وروى عنهم يدرسه ، مع دقة
فهم للنصوص وربط بين كثير من الظواهر والأحداث التي يلمسها في سيرته حتى يقف
على رأى مقبول في ذلك .

والذين تعمقوا في دراسة بعض الشعراء الجاهليين استطاعوا أن يخرجوا بانـبـاح
عن معتقداتهم ، واجتهدوا في ذكر ما كانوا عليه من دين ، ولا شك أنهم أفادوا من
أشعارهم فائدة كبيرة ، و اتكأوا عليها في استنباط نتائجهم : .

ولما كانت مسألة الدين من المسائل التي لا ينبغي المبادرة إليها : إلا بعد ريث
في الشعر الجاهلي ،

أذهى من المسائل الدقيقة جاز أن يخرج دارسوها بنتائج مختلفة ، وبخاصة من
تعجل النظرة وفاته الاحاطة بجوانب القضية .

فأمروء القيس قيل بنحمرانية (١) ، وظن أنه على المزدكية المجوسية (٢) ، ورأى أحد
الباحثين بعمق في دراسته أنه كان وثنيا كبقية قومه ، وقد أحسن في عرضه لذلك مع
مناقشة الآراء المخالفة ، ثم أيراده للأدلة التي رجحت ما ذهب إليه (٣) .

" وزهير بن أبى سلمى " يقترب منه ، فهناك من قال بوثنيته ، وثمة من رجح تحنقه (٤)

(١) لويس شينخوفى شعراء النصرانية : ٦/١ .

(٢) أمروء القيس أمير شعراء الجاهلية . د طاهر أحمد مكى : ٩٦ ، ٩٧ ط ١ -

= ١٩٦٨ م ، دار المعارف بمصر .

(٣) السابق : ٩٧ - ١٠٣ .

(٤) انظر ما سلف عن " زهير " في باب الحنفاء من هذا البحث ،

كما سلف ، و " النابغة " الذبياني قيل عنه انه كان كبقية العرب يعتقد في الله واحد ، وان كان يعظم الأوثان ويحلف بها ، وليس ثمة داعٍ للتعسف وتحميل الأبيات (الستى تشير لمظاهر النصرانية) مالا تحتل من معانٍ تلمسا لا دعاء النابغة كان نصرانياً ، وان بيتا كالد ي قوله النابغة :

فلا عَهِدَ الذى أثنى عليه ٠٠ ومارغَ الحَجِيسَ الى الال

لأدل على دينه من تلك الأبيات التى مدح بها الفخاسة على نصرانيتهم ، و وصف فيها أعيادهم ، أو التى ذكر فيها اسم الله فى مقام الحلف أو الدعاء ٠٠٠ وماشاكل هذا وهم على وثنيتهم ، لأنها وثنية وراءها توحيد يكمن فى قرارة نفوسهم " (١) من خلال هاتين النظرتين الى بعض عبادات الجاهليين (الأصنام و النصرانية) فى الشعر الجاهلى ، و الى ما يروى لبعض شعرائهم يمكننا أن نعرف جواب ذلك التساؤل عن فائدة هذه الأشعار الدينية وأهميتها ، و يمكننا القول : ان الشعر وان كان غير مطالب بتسجيل الأحداث و تدوين الحقائق ليعين على استنباط كثير من الأمور و الأحداث و الظواهر فى حياة الأمم ، و هو يوضح جوانب فى الحياة السياسية و الاقتصادية و الاجتماعية و الدينية ، و نحن نلاحظ ذلك فى الدراسات الأدبية كثيرا ، و التى تنبثق مما يروى من أدب يحمل أى ظاهرة ما ، و كمثال لذلك من العصر الجاهلى - الذى تنفوى تحته دراسة هذه - أن نرى من ألف فى الحياة العربية فى جوانبها المختلفة من اجتماعية و خلقية و دينية ، و عادات و أساطير كل ذلك - من الشعر الجاهلى (٢) ، و بذلك ليس غريبا أن نجد من دارسى هذا الأدب ينقول : " الشعر الجاهلى وثيقة تاريخية فى دراسة المعتقدات الدينية " (٣) .

(١) د . عمر الدبوقى : ٢٠٦ ، ٢٠٥ (النابغة الذباني) ط ٦ - ١٩٧٤ - ١٩٧٥م

دار الفكر العرس - القاهرة .

(٢) " الحياة العربية من الشعر الجاهلى " للدكتور : أحمد محمد الحوفى .

(٣) دراسات فى الشعر الجاهلى : د . نوري حمود القيسى : ٣٠ ط بمساعدة

جامعة بغداد - العراق .

(ب) منهج فى قراءة

الاشارات الدينية وما يتصل بها فى الشعر الجاهلى

الشعر الجاهلى الذى كشف لنا جوانب كثيرة عن دين الباهليين من عبادة أخصام وحنفية وغيرها يحمل فى ثناياه دلالات غير مباشرة على الدين ، وهى تختلف عن الصور التى يمكن أن نرطبها باحدى تلك الديانات مباشرة كقولنا عن بيت امرئ القيس (١) :

أَتَتْ حِجْجٌ بَعْدَى عَلَيْهَا فَأَصْبَحَتْ . . . كَخَطِّ زُبُرٍ فِى مَصَاحِفِ رَهْبَانٍ

وهو يصف قدم الدار وبعد عهده بها حتى تغيرت رسومها ، ودرست آثارها ، فأصبحت كخط الكتب فيما تقادم من مصاحف الرهبان ، ان هذا البيت يدل على مظهر نصرانى هو وجود كتاب يأخذه الرهبان ويقرءون منه وهو الانجيل والذى سماه الشاعر زبورا ، وتبدت هذه الدلالات غير المباشرة من الفكرة التى يتحدث عنها ومانراه من عاطفة دينية من وراء ذلك ، ونمضى بهذا ما يرد فى هذا الشعر من معان كالتزم وحب الجوار واغاثة الملهوف وصلة القرى والتقوى والحق والعدل وما شابه ذلك .

ولا ريب أن هذه المعانى وأضرابها مما يدخل فى مكارم الأخلاق ومحاسن العادات غير أن ورودها فى هذا الشعر وتصويره نظرتهم مفاخرين ومتنافسين فيها يومئذ من طرف خفى — فيما يبدو لى — الى ارتباط ذلك بمعتقد دينى فى نفوسهم ان لم يكونوا بنوا ذلك عليه .

ولا أزمع بذلك أن هذا هو السبب الوحيد لانتشار ذلك بين العرب ، ان قد تفسر القضية بغير تلك الرؤية ومن الجائز ان يقال ان مثل ذلك لا تخلو منه أمة من الأمم مهما كانت فلا بد أن يكون من بين أبنائها من يعمل بهذه الأعمال الخيرة ويحمل تلك المعانى النبيلة ويتمنى انتشارها فى بيئات قومه ، ولكنى أرى ارتكاز هذه المعانى وجودها ينبع من أصل دينى كان أهم عامل دعا اليها وساعدته عوامل أخرى كالتجارة وحب الخير وسواهما .

ومن المعلوم ان هذه الامور انتشرت بين العرب في ذلك العصر ، ومع اننا لا ننسى وجود مثل ذلك عند غيرهم من الشعوب لكنهم بسذوا غيرهم في مضمارها ، وبالفـسـوا واعقدوا بهذه المزايـا وحرصوا على التسابق اليها والفـار بها رغم فساد الاديان وانحطاط بعض الاخلاق والعادات .

وانا ما ذكرنا هذه الامور فلا حرج أن نورد ما يدل عليها من شعرهم في نماذج يسيرة من كثير مما حوى ذلك الشعر منها (١) .

فالكرم خلة افتخروا بها واحبوها ، وهو غير مخصوص بفتة دون اخرى ، بل يدعون عامة الناس الى طعامهم ولا يميزون فيه قريبا عن بعيد او ضيعا عن شريف ، يقول طرفة (٢) :

نَحْنُ فِي الْمَشَاةِ نَدْعُو الْجَفْلَى لَا تَرَى الْآدِبَ فِينَا يُنْتَقَرُ (٣)

ومن حرصهم على الكرم ان اتخذوا ما يهدي الاضياف اليهم في مراتبهم ، فالكلاب تدل المارة عليهم ، وهم لا يحاولون اسكاتـها ، امارـة منهم على أصالة هذه التشجيرة عندهم ، اليس شاعرهم يقول :

فَإِنْ يَلِكُ شَابَ الرُّأْسِ مَنَى فَاَنْتَى أَبَيْتُ عَلَى نَفْسِي مَنَاقِبَ أَرْعَمَا
فَوَاحِدَةٌ أَلَّا أَبَيْتُ بِغَمْرَةٍ إِذَا مَا سَوَامُ الْحَيِّ حَوْلِي تَضَعُوعَا (٤)

(١) لمزيد من ذلك راجع : المعتقدات والقيم في الشعر الجاهلي . محمد الشيباني محمود صيام . الباب الثالث (٣٠٦ - ٤٠٣) رسالة دكتوراء - جامعة أم القرى - مكة المكرمة - ١٤٠٢ هـ

(٢) ديوانه : ٦٥

(٣) المشتاة : زمن الشتاء والبرد ، الجفلى : ان يعم بدعته الى الطعام ، ولا يخص واحدا دون آخر ، الادب الذى يدعو الى المادبة وهى الطعام ، ينتقر : يخص بدعته اناس دون آخرين عكس الجفلى .

(٤) القرة : الغفلة ، السوام : الابل السائمة ، نصوع : تفرق ، والمعنى أنه لا يغفل عن حماية قومه اذا نزعوا .

وثانيةً أَلَا أَصَمَّتْ كُلُّنَا إِذَا نَزَلَ الْأَصْيَافُ حِرْصًا لِنُودِ عَسَا (١)

واجتهدوا في اضمرام النار في ليالي الشتاء الباردة حتى يستهدي بها الناس
فينزلون بساحاتهم كما قال حاتم طي لفاتمه (٢) :

أَوْقِدْ فَإِنَّ اللَّيْلَ لِيَلُّ قُرُ

والريحُ يا مَوْثِدُ رِيحُ صِرْ (٣)

عسى يرى نَارَكَ مَنْ يَمُرُّ

إِنَّ جَلْبَتَ ضَيْفًا فَأَنْتَ حَرَرُ

ومن اكبر ما يدل على اهتمامهم بالكرم وتعبيرهم من قصر فيه ما روى ان الاعشى لما
هجا علقمة بن علاثة بقوله (٤) :

تَبَيَّنُوا فِي الْمَشْتَى مَلَأَ بَطُونَكُمْ وَجَارَاتُكُمْ غُرْشِي يَبْتَنُ خُمَائِصًا (٥)

فلما سمع علقمة ذلك رفع يديه الى السماء وقال : اللهم العنه إِنَّ كَانَ كَاذِبًا ، ابحن
نفعل هذا بجيراننا ، ثم بكى وقال : ما هجاني بشئ هو أشد على من هذا .

وكانوا يتبادرون الى اجابة الداعي ونداء المستغيث ، وذلك معدود من الشجاعة
وحب النجدة واغاثة الصريح ، يقول عروبن معدى كرب (٦) :

أَعَاذُ لِي إِنَّمَا أَفْنَى شَبَابِي رَكُوبِي فِي الصَّرِيخِ إِلَى الثَّنَادِي (٧)

ومتسابق لنجدة الضعيف من تقدمت به السن غير حافل بحاله عوناً لمن آتاه ، كما

(١) الاصمعيات : ٦٤ ، من قصيدة لمالك ابن حريم

(٢) ديوان حاتم : ٢٧١

(٣) هجر : أى شديد البرد ، صر : أى ربح باردة

(٤) ديوان الاعشى : ١٩٩

(٥) المشتى : يريد في الشتاء وهو مظنه الحاجة ، غرشي وخمائيص : أى جائعات
ضواير البطون من الجوع .

(٦) ديوانه : ٦١ ، صنعها اسم الطعان ، ط . وزارة الثقافة والاعمال
- العراق .

(٧) الصريح : يطلق على المغيث والمستغيث والمراد الاول في البيت .

يطيش الفتیان فی تلك الحالة بخفة لا یسبأ معها بما تكون العواقب ، وقد ———
بشر بن ابی خازم ذلك بقوله (١) :

صَحْنَاهُ لِلْبَيْسَةِ بِرُحْفٍ شَدِيدٍ الركن ليس له كفاء
بشيب لا تخيم عن المنادى مرد لا يروها اللقاء (٢)

والتعفف عن الشهوات وغى البصر عن الجارات وجد غد همهم ، ومن وقع فى ذلك نالتهم
المذمة واتهم فى اخلاقه ، حتى ان منهم من لا يعرف جارته حتى ترحل عنه على ما قال
قيس بن الخطيم (٣) :

وما لمعت عيني بفم جارتى ولا ودعت بالذم حين تبئس

اما الدخول على النساء ، وخيانة الازواج فهى خسة كبيرة ، وعار على من تحين
ذلك فى نساء الاقارب والجيران والبعداء غد النمر بن تولب (٤) :

ولا أخون ابن عى فى حليته ولا البعيد نوى عى ولا جارى
حتى يقال إذا ريت فى جدش لقد مضى لمصر عار من العار

والجار مرى الجانب ، لا يمس سوء وهو فى حماية جاره ، ومعيش عزيزا بين جيرانه
مكرما ، سعيدا باقامته لاغضاضه فى ذلك ولا كدر ، والجار محافظ على جاره وامواله ،
وكانما هو من آلهه حتى إذا ما رحل عنه ذكر بحسن الجوار وكرم العشرة ، وهم
يتواصلون بحس الجار فيما بينهم كما قال المثقب العبدى (٥)

أكرم الجار وأوى حقه إن عرف أن الفتى الحق كرم

وسعى العربى لمخالطة جاره ولين الجانب دائما له حتى ينسبه انه جار ، وكانه
رب المحل مادام مقيما عنده كما قال قائلهم (٦) :

(١) ديوانه : ٦٥٥

(٢) تخيم : تنكس وتجبن عن القتال ، مرد : جمع امرؤ وهو الشاب الذى طر شاربه
ولم تبد لحيته

(٣) ديوانه : ١٠٢

(٤) ديوانه : ٦٦ صنعه د . نهرى حمودى ط . مطبعة المعارف - بغداد

(٥) ديوانه : ٢٢٩

(٦) شرح الحماسة (للمرزقى) : ٣٠١/١ ليزيد بن حماسة السكونى

وَمَنْ تَكَرَّرَ فِي الْمَحَلِّ أَنَّهُمْ لَا يَشْعُرُ الْجَارُ فِيهِمْ أَنَّهُ الْجَارُ
 حَتَّى يَكُونَ عَزِيزًا مِنْ نَفْسِهِمْ أَوْ أَنْ يَبِينُ جَمِيعًا وَهُوَ مُخْتَارُ
 وَالصَّدَقُ نَجَاةٌ لَصَاحِبِهِ ، وَهُوَ سِيَاحٌ لَشَرْفِهِ مِنَ الْإِذَى ، وَقَدْ أَرْضَى زَهِيرٌ بِهِ
 عَدَمًا قَال (١) :

وَفِي الْحِلْمِ إِدْهَانٌ وَفِي الْعِفْرِ دَرَبَةٌ وَفِي الصَّدَقِ مَنَاجَاةٌ مِنَ الشَّرِّ فَاصْدُقْ (٢)
 وَالْوَفَاءُ بِالْعَهْدِ وَالْمَوَاتِيقِ وَتَوْبِهَا مَا يَتَّفِقُ عَلَيْهِ مَا يَجِبُ الْوَفَاءُ بِهِ وَالْمَحَافَظَةُ عَلَيْهِ
 وَعَدَمُ الْخِيَانَةِ فِيهِ ، فَإِذَا قَرْنَ بِالْيَمِينِ كَانَ أَشَدَّ لَزَامًا وَمَحَافَظَةً عَلَيْهِ ، وَقَدْ فُخِرَ عَرُوبِينَ
 كُلُّهُمْ بِذَلِكَ فِي قَوْلِهِ (٣) :

وَنُوجِدُ نَحْنُ أَمْنَهُمْ ذِمَارًا وَأَوْفَاهُمْ إِذَا عَدُوٌّ وَابْتِمْنَانًا
 يَقُولُ الْمُثَقَّبُ الْعَبْدِيُّ فِي قَصِيدَتِهِ الْمَشْهُورَةِ (٤) :

لَا تَقُولَنَّ إِذَا مَا لَمْ تَرُدِّ أَنْ تُنِمْ الْوَعْدَ فِي شَيْءٍ نَعَمٌ
 حَسَنٌ قَوْلٌ نَعَمٌ مِنْ بَعْدٍ لَا وَبَيِّحٌ قَوْلٌ لَا بَعْدَ نَعَمٍ
 أَنْ لَا بَعْدَ نَعَمٍ فَاحِشَةٌ فَلَا قَابِدًا إِذَا خَفَتِ النَّسَبُ
 فَإِذَا قُلْتَ نَعَمٌ فَاصْبِرْ لَهَا بِنَجَاحِ الْوَعْدِ أَنْ الْخُلُوفَ دَمٌ

وَمِنْ تِلْكَ الْخِلَالِ الْحَمِيدَةِ حُبُّ الْحَقِّ وَالْعَدْلِ وَالْإِنصَافِ ، وَغَضُّ الْجَوْرِ وَالْبَاطِلِ
 فَتَنَى بَانَ لَهُمُ الْأَمْرُ وَعَرَفَ الْحَقُّ اتَّبِعُوهُ كَمَا فُخِرَ سَهْدُ بْنُ أَبِي كَاهِنٍ بِقَوْمِهِ
 عَدَمًا قَال (٥) :

عُرِفَ لِلْحَقِّ مَا نَهَى بِهِ عَدَمَ مَرَّ الْأَمْرِ مَا فِينَا خَيْرٌ (٦)

(١) ديوانه الاعلم : ٢٦٢

(٢) الادهان : المداهنة والمصانعة . الدربة : العادة واللجاجة

(٣) شرح القصائد السبع الطوال (لابن الانباري) : ٤٠٨

(٤) ديوان المثقَّب العبدى : ٢٢٧ ، ٢٢٨

(٥) المفضليات : ١٩٤

(٦) الخروع : الضعف واللين ،

ولعله يريد حسن تصرفهم وصبورهم في الطمات ..

يقول (الاعشى) وقد طلب بالحكم بين مختلفين (١) :

حَكَّمْتَهُنِي قَضَى بَيْنَكُمْ أُلْجُ مِثْلَ الْقَمَرِ الزَّاهِرِ
لَا يَأْخُذُ الرَّشُوءَ فِي حُكْمِهِ وَلَا يُيَالِي عُيُنَ الْخَاسِرِ

ومن الانصاف ان لا يتسرع الرجل في ذم من لا يعلم حاله ، فمتى ما جربه ولا معد نه
ساغ له المدح أو الذم كما قال اوس بن حجر (٢) :

لَا تُظْهِرَنَّ ذِمَّ امْرِئٍ قَبْلَ خُبْرِهِ وَمَعْدَ بِلَاءِ الْمَرْءِ فَادْنُمُ أَوْ احْمَدِ

والتقوى مما يتوارد من المعاني عند زهير بن ابي سلمى ، ومدد وجه لا تفارقه التقوى
فتحجزه عن الوقوع في سوء وتحميه من عفار حباثه :

وَمِنْ ضُرْبَتِهِ التَّقْوَى وَمَعِصِمَةٌ مِنْ سَيِّئِ الْعَثَرَاتِ اللَّهُ وَالرَّحْمَنُ (٣)

وقد حالت التقوى بين المدح وسلب اموال الناس بغير حق ، فلا يتكثر بمال باطل
ليس من خاصة ملكه ، ولا يطعم في انتباك اموال اقربائه او يسطو عليها :

تَقَى نَفْسِي لَمْ يَكْمُرْ غَنِيمَةً بَنَهَكَ ذِي قُرْبَى وَلَا بَحَقْلًا (٤)

ومما يحمل معاني التقوى قوله (٥) :

عُدَّتْ قَوْمَكَ أَنَّ كُلَّ مُبَرَّرٍ مَهْمَا يُعَوِّدُ شِمَةَ يُتَعَوِّدُ
حَزْمًا مِرًّا لِلَّهِ وَشِمَةَ تَعَفُّوْا عَلَى خُلُقِ الْمُسِيءِ الْمُفْسِدِ

ورمى * النابغة الذبياني * بالفجور من اشار عليه ان يأمر قومه بترك حلفهم مع
بنى اسد ومقاتلتهم ، فأنكر ذلك واستعظمه ، وهو مطاع في قومه لو اراده ، لكنه استنكف
عن ذلك ، ولما توعد على صنيعه هذا لم يابه لذلك حتى سئل لسانه بفتح به من سعى
في الفجور او تمناه (٦) :

(١) ديوانه : ١٩١

(٢) ديوانه : ٢٧

(٣) ديوانه (الاعلام) : ١١٢

(٤) السابق نفسه ١٩٠ ، التهكة : النقص والاضرار ، حقلد : البخيل السيئ الخلق

(٥) السابق نفسه : ٢٣٣ ، ٢٣٤ والمبرز السابق

(٦) ديوان النابغة الذبياني : ١٠٥

أَرَأَيْتَ يَوْمَ عُنَاظَ حِينَ لَقِيتَنِي تَحْتَ الْعَجَاجِ فَمَا شَقَّقْتَ غُبَارِي (١)
إِنَّا اقْتَسَمْنَا خُطَيْنَا بَيْنَنَا فَحَمَلْتُ بُسْرَةً وَاحْتَمَلْتُ فُجَارَ

كل هذه القيم السافية والمعاني النبيلة وما شابها مما ورد منها وهو كثير - تدفع المتأمل فيها ألا يفسرها بمظاهر حياتهم أو طبيعة جزيرتهم ، وأنها هي التي تدفعهم إلى ذلك * ولعل ما يقرب من ذلك ألا نقف بهذه الأمور عند ظواهرها المستعصية ، أو مغازيها القريبة ، كالكرم لأجل الذكر والشهرة ، أو حماية الجار خوفا من الهجاء والتعير واغاثة الصريح سلامة من سبهم بالجهن والخوف أو الضعف والمسكة .

ومع عدم انكارنا لوجود شيء من ذلك عند بعض العرب إذ النفوس تهفو إلى الشهرة وتتوق إلى حديث الناس بالسنة رطاب فان كثرة ورود هذه المعاني وما يروى من بعض المبالغات في كثير منها - مما يوحى إلى شيء من ذلك - لتدل إلى عرق كبير لهذه الأفكار في نفوسهم ، وأنها لم تكن سوانح سنحت بها خواطرهم ، أو عوارض «رأت في» أذهانهم أحيانا ، وفي تقد يرى أن مثل تلك التفسيرات غير كافية لتفسير وجودها وسعة انتشارها .

وفي تناول - على هذا النمط - ما يوهم ^{للمقتل} التعسف ، والشروع عن الجادة في فهم هذه الأبيات ، وما إليها لكن من يد رس شعر حاتم الطائي - وهو أشهر من عرف بالكرم بين العرب آنذاك - ثم يرتبط ذلك بما يروى من أخباره لا يظن أن ذلك الرجل الكريم قضى حياته وأفى تلاد ماله في كل الأحوال لينعم بثناء الناس ويزدهى بذلك عليهم ، وهو في مسيس الحاجة إلى تلك الأموال لينتفع بها في حاجات حياته ونوائبها .

ومفهوم الكرم لا يقتصر على سخاء النفس بكثرة بذل الأموال ، بل له روافد كثيرة يقوم بها ، وهو اجتماع خلال سامية وتنزيه لما يضع من منزلتها ، والكرم أكثر ما يكون

(١) يخاطب زرة ابن عمرو ابن خويلد بنى كلاب في الديوان . العجاج . .

لثناء ، فقد رأينا يعطى دون أن يسأل ، ورأينا لا ينتظر قصادة بل يبدأهم هو بالدعوة اليه ، تدعوهم ناره و كلابه ، ورأينا يبذل ماله حين يشتد الزمان ويشح القوت وينقص الناس بما فى حوزتهم ادخارا ليوم قاسى وغلا مجلسف ، وقد وقف ماله على ما يعين الناس ، وجعل همه أن يصل رحمه ويأخذ بأيديهم ، وجعل وكده أن يساعده الغرباء فيطعم جائعهم كريم المأكلى ، ويفك عانيهم من ذل الاسار ، حتى ولو بسبات وهو غرشان لا يجد قوت ليلته ، أو وضع نفسه فى قيد الأسير لاقتناره الى فكاه . هذا هو نهجه ، لا يهدى عنه ولا مذهب (١) .

والى مثل هذا التفسير لظاهرة كرم العرب ممثلا فى حاتم طى أميل الى تفسير تلك الأخلاق الحميدة والعادات الصالحة لأقول — كما أسلفت — ان هذه الأمور انما انتشرت ذلك الانتشار الواسع — كما صورتها كثرة أشعارهم فى التغنى بها — وتسابقوا فيها وتفاخروا بها لمعتقد رسخ فى أذهانهم بالايان بهذه الأمور ، وبقي العرب يتوارثونه جيلا بعد جيل حتى بعث الله فيهم رسوله الأمين " محمدا صلى الله عليه وسلم " ونسم على ذلك .

ولعلنا لا نبعد عن الصواب اذا قلنا : إن تلك المحاسن والمناقب أتت بها ديسن " ابراهيم " و " اسماعيل " — عليهما السلام ، ولما انتشرت الحنفية فى العرب نشرت بينهم هذه المكارم وأخذوها منها ، وبقيت بينهم مثل ما بقى من تلك الحنفية بن بقايا بين العرب كعظيم الأشهر الحرم وخج البيت وغيرها كما قرنا خلال هذه الدراسة ولا شك أن الحنفية أتت بمكارم الأخلاق وجميل الصفات والعادات وأمرت بها على ما نجاه فى أقواله صلى الله عليه وسلم (انما بعثت لأتم صالح الأخلاق) (٢)

أو لقوله عليه الصلاة والسلام :

(من نفس عن مؤ من كربة من كرب الدنيا نفس الله عنه كربه من كرب يوم القيامة ، ومن يسر

(١) ديوان شعر حاتم الطائى وأخباره : ٢٠ ، ٢١ .

(٢) رواه أحمد فى المسند : ٣٨١ / ٢ . وفى بعض الروايات " مكارم الأخلاق " .

على محسر يسرا الله عليه في الدنيا والآخرة ، ومن ستر مسلما ستره الله في الدنيا والآخرة ، والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه . (١) وما شابه ذلك (٢) وكيف لا يكون العرب كرماء وقد كان خليل الرحمن كريما ، وقد قص القرآن من نبضه في ذلك وقد أتاه نفر من الملائكة في صورة استنكر بها معرفته بهم ، فماذا حدث ؟ قال تعالى : (هل أتاك حديث ضيف إبراهيم المكرمين . إذ دخلوا عليه فقالوا سلاما قال سلام قوم منكرون - فراغ الى أهله فجاء بعجل سمين فقربه اليهم قال الا تأكلون) (٣) . فهم نفر قليلون من الملائكة ظنهم أناسا لم يرهم من قبل ، فبادر اليهم بعجل يكتسى لعشرات من أمثالهم ، فالعرب أخذوا ذلك من دين إبراهيم وشبهوا به حتى صار عادة مألوقة بين أكثرهم لا غرابة في التناقص فيها ، واللئيم في عرفهم من خالف هذه العادات أو قصر فيها .

ومع محافظة العرب على تلك المكارم فقد كان هناك فارق بين نظرتهم اليها وعلمهم بها ^{مع} ما كانت تقصده الحنيفة منها ، فالهنية تأمر بذلك لوجه الله خالسا ، وتنهى عن الاسراف والمبالغة الزائدة في هذه الأمور ، أمّا ^{ال}مليون فهم على نقيض ذلك ، يحبون الشهرة والسمعة ، ويسرفون الى درجة تشبه أن تكون تهورا ونزقا وطيشا .

ولعل ذلك ما حدا بأحد الباحثين الى أن يقول :

(ليس من شك في أن العرب في جاهليتهم كانت فيهم بقية من ملة سيدنا " إبراهيم " عليه الصلاة والسلام ، من مثل تعظيم الصفات الحميدة ، كالصدق والوفاء والجود والحلم والعفة . ولم تخل أمة من الأمم في أي جيل من الأجيال من مثل هذه الفطرة السليمة التي فطر الله عليها الخلق ، والتي بعث الله بها رسله بين الفترة والفترة ، ٠٠٠ والذي

(١) رواه مسلم (بشرح) (١٠٧) : ٢١٧

(٢) انظر جامع العلوم والحكم : أبو الفرج عبد الرحمن بن رجب الحنبلي : ٢٢٦ -

٢٣٦ . طدار المعرفة - بيروت .

(٣) الذاريات : ٢٤ - ٢٧ .

أردنا أن نبينه هو أن بقية هذه الملة قد صرف عن وجهه وبعد عن مقاصده ، ولم تبسّق منه الا صور لو تدبرناها لوجدنا أنها قد أصبحت عند الجاهلى ترتد فى آخر الأمر الى الاعجاب بالقوة والمفاخرة بها (١) .

وحين بعث محمد صلى الله عليه وسلم الى العرب ، وكانت دعوته تأخذ بدعامة مكارم الأخلاق ونشرها بعد سلامة العقيدة ونقاء التوحيد (لم يفاجأ العرب بتفسيرات كثيرة فى ظاهر ما ألف الا فى القليل ، لأن التغير الجديد كان موجها الى روح العقيدة الذى فسد لا الى ظاهرها الذى بقى كثير من آثاره وأشكاله) (٢) .

لكن عميقة رسالته (ص) تتقضى بأن يقف " الجاهلى " على تشريعات لـم يألفها ، على أن ذلك الظاهر أو الشكل تغير فى جوهره ، لارتباطه بالعقيدة ، أرأيت الى قوله تعالى (ان تبدوا الصدقات فنمما هي ، وان تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم) (٣) ،

ثم نرى التغير واضحا فى قوله تعالى (ما جعل الله من بحيرة ولا سائبة ولا وصيلة ولا حام) ولكن الذين كفروا يفترون على الله الكذب وأكثرهم لا يعقلون (٤) .

(١) الهجاء والهجاءون فى الجاهلية ، د . محمد محمد حسين : ١٠ ط ٣ -

١٣٨٩ - دار النهضة العربية - بيروت .

(٢) السابق نفسه : ١٨١ .

(٣) البقرة : ٢٧١ .

(٤) المائدة : ١٠٣ .

(ج) شعر الحنيفة وحرم بعض الشهوات

ترد المعانى الدينية التى غيت بها تلك الدراسة عند أكثر شعراء الجاهلية بصفة عامة ، وبرغم تفاوت ذلك عند هم بين مكثر ومقل فاننا نرى هذه المعانى أيضا تتواءم من عند من عرف من شعرائهم بكثرة التبذل والاسراف فى المجون ، وقضوا حياتهم لاشئين فى التمتع باللذات ، مستغرقين فى ذلك كل ما أوتوا من مال وقوة وأزمان ، وتصيدوا كل فرصة سانحة للهوى والمجون حتى غدوا يسابقون الدهر الذى خافوا غوائله قبل أن يمتنعوا أنفسهم بما يشتهون .

وحسبنا أن نرى ذلك عند شاعرين من أشهر من عرفوا بالتبذل والمجون بين شعراء ذلك العصر - فيما أرى - ، وأعنى بذلك " امرأ القيس " و طرفة بن العبد " .
 "فأمروء القيس" تحتل المرأة فى شعره مكانا كبيرا ، يقف باكيا عند أطلال منازلها وقد غير الزمان حالها ولم تبق الا رسم توحى اليها ، ويتذكر ما كان من شأنه فى تلك الديار ويأس على أيامه الخوالى معها ، ويصف المرأة ويدقق فى ذلك ، فيصف أعضائها وقامتها ويشبه جمالها وحسنها ، ويصور كثيرا من مفاتن الإغواء عندها . ولم يقف عند هذا الحد بل تعداه إلى ذكر كثير من مغامراته ، وكيف يصل الى المرأة ، وما يكون من عقبات حتى يتم له ذلك ، ثم ما يكون من شأنه معها بعد ذلك ، ولعل مغامرته مع " غيزة " ابنة عمه وما كان منه يوم داره جليل جهيرة شائعة .
 والخمر مما غلب عليه وأفاض فى ذكره وشرب وارتوى منه ، وقد صور لنا شعره ما غلب على حياته من ذلك ، وقد دعا الى التمتع من الدنيا ، وما دنيه الا كأس وأمرأة (١)
 فى قوله :

تَمَتَّعْ مِنَ الدُّنْيَا فَإِنَّكَ فَاِن ۚ ۰ ۰ من النِّسْوَاتِ والنِّسَاءِ الْحَسَنَاتِ
 مِنَ الْبَيْضِ كَالْأَرَامِ ، وَالْأَدَمِ كَالْأَدْمَى ۰ حَوَاصِئُهَا وَالْمَبْرَقَاتُ الزَّوَانِسُ (٢)

(١) ديوانه ص ٨٧

(٢) الأدم - اللاتى يضربن الى السمرة ، الحواصى : الهفائف ، والمبرقات بن النساء اللواتى يبرقن للرجال أى يبرزن حليتهن ومحاسنهن الرواى : الدثات المتظفر

هذا الشاعر نجد في شعره بعض المعاني الإيمانية وخاصة الايمان بالله ، فكثيرا ما يقسم به ، ومن ذلك يعينه لاحدى النساء وقد دخل عليها فى احدى مغامراته أنسه سيقى عندها ، حتى لودفع حياته فى سبيل ذلك ، ثم يقسم لها يعينا فاجرة إن الناس ناموا ، فما أدرك أحدك مجيئه ولا شعروا به :

فَقُلْتُ يَمِينُ اللَّهِ أَبْسَحُ قَاعِدًا ٠٠ وَلَوْ قَطَعُوا رَأْسِي لَدَيْكَ وَأُصَالِي
حَلَفْتُ لَهَا بِاللَّهِ حَلْفَةً فَاجِرٍ ٠٠ لَنَا هَوَا ، فَمَا إِنَّ مِنْ حَدِيثٍ وَلَا حَالٍ (١)
فمع قسمه بالله يعلم أنه فاجر فى يعينه لها ، وماذا يبقى لليمين من داج ووزن ضد من تتحم الأهوال حتى وصل الى مخدج المرأة فى أقصى دارها .

ونراه تارة يحمد الله وقد سرته ابله التى رعت الأعشاب الكثيرة حتى سمت و اكتسزت لحما حتى ضاقت عنها جلدها ، وذلك فى جوار قيس و شمر ابنى زهير بن بنى ساهمان ابن ثعل ، كما قال (٢) :

أَرَى اِبْلَى وَالْحَمْدُ لِلَّهِ أَصْبَحَتْ ٠٠ ثَقَالًا إِذَا مَا سَتَقْبَلُنَا يُغَوِّدُنَا
رَعَتْ بِحِيَالِ ابْنِ زَهَيْرٍ كُلِّهِمْ ٠٠ مَعَ شَيْبٍ حَتَّى ضَامًا ضَمَّا جِلْدُهَا
وَيَوْمَ أَجَارَ رَجُلٌ يَدِ عِيْنٍ شَجْنَةً بَعْضًا مِنْ أَهْلِ " أَمْرِئِ الْقَيْسِ " خِلَالَ حَرْبِهِ
مدخه ، ومدح قومه بأن الله اختارهم وفضلهم بالعوير ، فكانوا أوفى الناس بميثاق لمن جاورهم أولا ذبهم .

فقد أصبحوا والله أصفاهم به ٠٠ أبر بميثاق وأوفى بجيران (٣)
والله جلا وعلا خير من يطلب وانجح ، فهو المأمول فى حصول ما ارتجى منه ، والبر خير ما يحمل الرجل فى القول والعمل :

وَاللَّهُ أَنْجَحَ مَا طَلَبْتُ بِهِ ٠٠ وَالْبِرُّ خَيْرُ حَقِيبَةِ الرَّحْلِ (٤)

(١) ديوانه ص ٣٢

(٢) السابق ٣٤٧

(٣) السابق : ٨٤ .

(٤) السابق : ٨٣٨ .

وفى الحوار الذى دار بين " امرئ القيس " مع عبيد بن الأبرص ، وعبيد يسأل امرأ القيس كما تروى المصادر (١) ،

ما الحاكون بلا سمع ولا بصر ولا لسان فصيح يعجب الناسا
فرد امرؤ القيس :

تلك الموازين والرحمن أنزلها رب البرية بين الناس مقياسا

فهو يذكر الله باسم الرحمن ، وهو الذى أنزل الموازين ، والناس يقيسون به المقادير فى تعاملاتهم ، والرحمن عند " امرئ القيس " رب البرية أجمعين يقول أحد الباحثين (وذكر امرئ القيس لكلمة " الرحمن " دون معاصريه من الشعراء يقوى الرأى فيه شاعرا يميل وتثيا ، لان الرحمن اسم لاله جنمى قديم ، أو وصف له فى الضعيف الحالات ، ثم تنويع اسم الاله ، وحلت بعض صفاته فى الدلالة عليه) (٢) .
وهذا كلام لا نوافق عليه . فظاهر مكى ، فالواقع أن الشعر الجاهلى تردد فيه كلمة " الرحمن " من ذلك قول " سلامة بن جندل " :

عَجَلْتُمْ عَلَيْنَا عَجَلْتُنَا عَلَيْكُمْ ومن يشأ الرحمن يعقد ويطلق (٣)

ثم ان كلمة " الرحمن " جاءت على لسان (الأعمش) فى قوله :

وما جعل الرحمن بيتك فى العلى بأجيار غرس الصفا والمحرم (٤)

كذلك وردت فى قوله .

وإن تقى الرحمن لا شئ مثله فصبراً إذا تلقى السطاق الغرائب (٥)

والعجيب أن الدكتور (محمد حسين) يعلق على القصيدة تعليقا يفهم منه أن

(١) ديوان امرئ القيس : ٤٦٢ .

(٢) امرؤ القيس : حياته وشعره (ظاهر أحمد مكى) ١٠٢ ، ١٠٣ .

(٣) ديوان سلامة بن جندل : ٨٤ .

(٤) ديوان الأعمش : ١٧٣ .

(٥) السابق : ٣٧٩ ، السطاق : السحق وهو البعد ، والسحقى البعيد ، والسحقى الغريب

إذا صبر وانضم ، ومنه استقى القتر إذا ذهب لبنه ، فكأنه أراد الضعفاء والعزباء

المعوزين . الغرائب : جمع غرائب وهو الخائض ، فصبراً : الصبر هنا الكفالة من قهرهم

صبر نفسه به صبراً أى كفله وعاله . والمعنى : ساعد هؤلاء الضعفاء والمحتاجين .

القصيدۃ التى تضمنت هذا البيت لا تصح للأعشى لأسباب منها •

ركاكة نظمها ، وتأثرها بالقرآن الكريم ، ولو جار بناءه فى ذلك فرضا فكيف يفسر

البيت الثانى ؟ ولا سيما والقصيدۃ التى تحمل ذلك البيت جاهلية لم يشك فيها ، أو

تساوره ريبة •• هذه واحدة •

وأخرى ، فان الشعر الجاهلى مما تروى فيه كلمة (الرحمن) على النحو الذى أوامنا

اليه فى شعر (سلامة بن جندل) •

وهذه المقولة — مقولة أن كلمة (الرحمن) لم ترد فى الشعر الجاهلى مدلقا ،

أو أنها وردت عند (امرئ القيس) فقط ، لا تقوم على الاستيعاب والاستقصاء ، وطريقه

تلقيها باحث عن آخر ، كذلك الذى نراه — مثلا — عند الدكتور (شوقى ضيف) من

قوله : " ولم تشع كلمة " الرحمن " بين الشعراء الا فى الاسلام أخذ ابن قولة تعالى

(بسم الله الرحمن الرحيم) (١) مع أنه لو عاد^{الى} تفسير (الامام الطبرى) لراى أن " الطبرى "

يرخص هذا الزعم ، ويعالقه به قائلا (٢) :

((وقد زعم بعض أهل الغباء أن العرب كانت لا تعرف (الرحمن) ولم يكن فى

لغتها ، ولذلك قال المشركون للنبي صلى الله عليه وسلم) وما الرحمن أنسجد لما تأمرنا (انكارا

منهم لهذا الاسم ، كأنه كان محالا عنده أن ينكر أهل الشرك ما كانوا عالمين بصحته ،

أو كأنه لم يتل من كتاب الله قول الله ((الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه (يعنى محمدا)

كما يعرفون أبناءهم)) ، وهم مع ذلك به مكذبون ، ولنبوته جاحدون ، فيعلم بذلك

أنهم كانوا يدافعون حقيقة ما قد ثبت عندهم صحته واستحكمت لديهم معرفته ، وقد

أنشد لبعض الجاهلية الجاهلاء :

ألا ضربت تلك الفتاة هجيتها •• ألا قُضِبَ الرحمنُ رضى يعينها

وهنا لابد من لفته على شائكة بما نقول ، تلك هى أن د • محمد حسين أغفل فى

(١) العصر الجاهلى : ٣٤٣ •

(٢) تفسير الطبرى : ١٣١/١ •

فهرست اللغة كلمة (الرحمن) الأولى التى تتمخص فى جاهليتها ، بينما ذكر الثانيه تلك التى شكك فيها . . . ولست أدرى سرا لذلك اللهم الا أن يكون ذلك قد صدر منه غفوا ولفظة اخرى كذلك تتعلق بتحقيق * الاصمعيات * التى اوردت قصيدة (سائمة بسن

جندل) ومطلعها :

لَمَنْ طَلَّلَ مِثْلُ الْكِتَابِ الْمُنْقِ
خَلَا عَهْدُهُ بَيْنَ الصُّلْبِ فَطُورِ
عَجَلْتُ عَلَيْنَا حَجَّتَيْنِ عَلَيْكُمْ
وَمَا يَشَاءُ الرَّحْمَنُ يَعْقِدُ وَخَلِّينِ

فقد وقع المحققان الفاضلان فيما وقع فيه المرحوم د . محمد حسين حسين أغفلا كذلك (ايراد هذه الكلمة) فى فهرست اللغة .

وفى تقديرى أن هذا الصنيع لعله هو الذى رسخ فى أذهان بعض الباحثين أنه من المستبعد — ان لم يكن من المستحيل — أن تأخذ كلمة (الرحمن) طريقها الى الشعر الجاهلى . . . مما يحفز الى ان نعيد النظر فى تلك الاحكام النقدية الجاهزة حتى يمكن تلخيص هذه الاشارات الدينية ومشاهاها فى الحكم على هؤلاء ، ووضعها فى اطارها الذى تستحقه (١) .

ومما ورد عنه من مظاهر الحنيفية تعجبه من ذلك التفرق العجيب الحزين ، وهو تفرق الحجاج بعد أن ادوا جهم وتفرقوا من المحصب :

فَلَلَّهِ عَيْنَا مَنْ رَأَى مِنْ تَفَرَّقِي أَشْتَى وَأَنْأَى مِنْ فِرَاقِ الْمُحَصَّبِ (٢)

ابن * طرفة بن العبد * فقد عاش فتى مغرما بالذات متسبالكا على الشهوات ، يفخر بنفسه وزهو بفتوته وبهاهى بشجاعته ، وسخر بمن سواه حتى الملوك . كان لا يجتمع مالا فى حوزته ، او يدخر لغده ، فما يأتبه المال حتى ينفقه فى الخمر والملاذات الاخرى . ولا يبقى منه شيئا ، وقد صاحب ذلك كله غرور الشباب وسبعة الصبا ، كما حفه الطير

* ١٣٢ . طالع مقال د . عبد العزيز المانع (قصيدتا الاعشى الاسلاميتان هل ترفعون نسبتهما

اليه مجلة كلية اللغة العربية — جامعة ام القرى — العدد الثانى ص ٧٩ .

(٢) ديوان امرئ القيس بهج ، المحصب : قيل انه موضع بين مكة ومنى وهو الى منى

اقرب ، وقيل هو موضع رمى الجمار .

والخفة وعدم النظر فى عواقب الامور ، وقد ادى به ذلك — كما يصور شعره — الى حالة نبذه فيها الناس ، وتخلى عنه اقراره ، واذا هو كالبعير الاجرب الذى افرد عن الابل ولم يعد بينها (١) .

وما زال تشربا بى الخمر ولذت
ومضى وانفاق طريفي وتلدى (٢)
الى ان تحامتنى العشيرة كلها
وافردت افراد البعير المعبد (٣)

ولقد ظهر لهو طرفه ومجونه جلجا عند دارسيه حتى قبل عنه : انه (اندفع فى فيه) صباه لتحقيق ذاته ، وابرار شخصيته ، وتميزه على لدانه واقارانه ، ولم يكن له من سبيل لتحقيق ذلك الا ان يبذل مافى يده من مال طارف وتلبد ، والتف حوله رفاق السوء وما اكثرهم حول يتيم طائش مندفع تياه بحسبه الرفيع وشبابه الغض ، واخذوا يزينون له حياة الفتنة والفساد ، فاندفع فى حياة اللهو والمجون والشراب ، واصبح همومه عبء كروس اللذات هاقا مترعة ، وتابية نزوات النفس الامارة بالسوء ، ولم يكن الى جانبه من يكفكف من غلواء اندفاعاته فى هذا الطريق الوعر ، وسمعه كلمة النصح والتوجيه والارشاد ، فكان كل يوم يمر عليه يزيد ايفالا فى طريق الفتنة والشرود والضلال ، حتى غدا هذا النمط من العيش الهاجن اللاهى المرف فلسفته التى لا يحيد عنها فى الحياة (٤) .

ولا شك أن هذه الحياة التى سلكها " طرفه " قد أبان عنها صريحا فى شعره ، ان لولا ملذات الخمر والنساء وزهو الفروسية والاعتداد بها لما حفل بحياته فى اى وقت يموت (٥) :

(١) ديوان طرفه ٣١

(٢) التشرب : الشرب ، الطريف : ما استحدثه من مال ، المتلد : ما كان قديما عنده
(٣) تحامتنى : اى احتموا منى وماعدونى كما يتحامس البعير الاجرب ، المعبد
المذل .

(٤) طرفه بن العبد — حياته وشعره . د . د . محمد على الهاشمى : ٤٥ ط ١ —

عالم الكتب بيروت — ١٤٠٠ هـ

(٥) ديوان طرفه ٣٢ — ٣٤

- فلولا ثلاث هَنَّ من حاجةِ القَتَى وجدَّك لم أحفلُ متى قامَ عَوْدِي (١)
 فمنهنَّ سَبَقُ العاذِلَاتِ بِشَرْبَةٍ كُئِيتُ متى ما تُعْصَلُ بالماءِ تُزِيدُ (٢)
 وكَرَى إِذَا نادى المضافُ محنَّباً كسيدر الغُصَا ، نبهته المتورِّدُ (٣)
 وتقصير يوم الدَّجَنِ والدَّجَنُ مُعْجِبٌ بهيكتة تحت الطَّرَافِ المُمَدِّدِ (٤)

وطريقة اللاهى هذا ليس غريباً ان نرى فى شعره شيئاً من الايمان بالله ، أو القسم به و وصفه ببعض الصفات أو شيئاً من المعانى التى تدل على الدين .

فهو يلوم أصحابه ويعاتبهم ويدعوا الله عليهم الا يبقى لأحد منهم سنا واحده يعيثر بها ، و ذلك عندما عذروا به وخذلوه فقال (٥) :

كُلُّ خَلِيلٍ كُنْتُ خَالَلتُهُ لا تَرَكَ اللهُ لَهْ واضِحَةً
 كُلُّهُمْ أَرُوغٌ مِنْ تُغْلِبِ ما أَشْبَهُ اللَّيْلَةَ بِالْبَارِحَةِ

و عندما تخلو يده من المال و تشتد عسرتة يتصبر حتى يأتيه اليسر من غير أن يدنس عرضه بالتخشع والدلة لمن سينم عليه بذلك ، و هو يعلم أن المال و أحوال الفقر و الشراء فيه من عطاء الله وقسمته ، و هو مع ذلك لا يترك شد حيازيم مطيته ليعمل حتى يسد

(١) عودى : قيل هم الذين يزورونه فى مرض مؤنه فاذا مات قاموا عنه . شرح القبياء

السبع لابن الانبارى : ١٩٤ .

(٢) العاذلات : أى النساء يلمنه ، كُئِيتُ : الحمراء تضرب المवाद ، تزيد : تعلوها رغوئها .

(٣) المضاف : المستغيث الذى دأبه سوء ، محنبا : أى فرسا محنبا ، أى فسى (رعاة انحناء ، مما يمدح به القوس ، السيد : الذئب ، الغضا : ضرب من الشجر ، ذيب العضا أخبث الذئاب ، المتورِّد : الذى يطلب الماء ويرده .

(٤) تقصير يوم الدجن : أى أقصره باللهولاء ، يوم الدجن : يوم غيم وضباب على الأرض . الهيكتة : أى المرأة التامة الخلق ، الطراف : البيت من آدم ، الممدد : أى الممدد بالحبال .

(٥) ديوان طرفة : ١١٨ .

خلته (١) .

وَأَعْسَرُ أَحْيَانًا فَتَشْتَدُّ عُسْرَتِي .. وَأَذْرِكُ مَيْسُورَ الْفَنَى وَمَعَى بَعْضِي
وَلَكِنَّ سَيْبَ الْآلَةِ وَحَرْفَتِي .. وَشُدَّ حَيَازِيمِ الْمَطِيَّةِ بِالْفَرْشِ (٢)
لَأَكْرَمَ نَفْسِي أَنْ أُرَى مُتَخَشَعًا .. لَذِي مِنْهُ يُعْطَى الْقَلِيلُ عَلَى الرَّحْضِ (٣)

وعاذ لته التي تحب الثراء والمال وتريده الا ينفقه حتى كأنها تظن الخلود نفسى
ذلك ، ينبهها أنه مهما جمع من مال وأحرز من ثروة فلا سبيل إلى الخلود حتى لو بسى
له قصر شامخ كالمشقر فى أعلى جبل من الجبال المنيعه التي تعجز العول الوصول إليها
مع ما عرفت به من قدرة على تسلق الجبال ، ويقول لها : أننى لابد أن تدركنى المنية
وتأخذنى لأنها من حكم الله وأمره الذى لا يشابهه حكم أحد كائن من كان (٤) :

وَلَكِنَّ بَنِيَّتِ لِسِ الْمَشْقَرِ فِى .. هَضْبٍ تَقْصُرُ دُونَهُ الْعُصْمِ (٥)
لَتَنْقِبَنَّ عَنِ الْمَنِيَّةِ إِنَّ .. اللَّهَ لَيْسَ كَحُكْمِهِ حُكْمٌ

وأخيرا نجد طرفة يقسم برب الابل التي جد بها السير متجهة الى منى ، وهى
رواحل الحجاج التي يتنقلون بها عند أداء الشعائر والنسك (٦) :

حَلَفْتُ بِرَبِّ الرَّاقِصَاتِ إِلَى مَنْى .. يَبَارِزُنَ أَيَّامَ الْمَشَاعِرِ وَالنَّهْضِ (٧)

(١) ديوان طرفة : ١٦٩ .

(٢) السيب : العطاء ، حيازيم : جمع حيزوم وهو الصدر من الدابة إذ يقع عليه الحزام
الغرض : هو حزام الرجل الذى يشد به على صدر الدابة .

(٣) الرحض : الجهد الكثير ، والمعنى يعطى القليل بعد الحاح لشدة بخله .

(٤) ديوان طرفة : ١٩٢ .

(٥) المشقر : قصر معروف بالبحرين ، الهضب : الجبل العصم : الوعول سميت
بذلك لبياض فى أيديها فى موضع المعصم من الانسان .

(٦) ديوان طرفة : ١٧٠ .

(٧) يبارين : يسرن بقوة و قدرة على السير ، النهض : البراح من المكان ولعل
أراد الانصراف من الحج .

وإذا ما انتهينا الى وجود بعض هذه المعانى الايمانية الدينية حتى عند هؤلاء الشعراء الذين غلب اللهو والمجون على حياتهم فمن المناسب أن نتساءل : هل نبعت هذه الافكار عند هذه الطائفة من قراتهم ومن أين أخذوها ، وكيف جرت عند من غلب الباطل على حياتهم ؟

و الجواب عن ذلك ما سبق أن أشرنا إليه ، وهو أن العرب قد أرسل الله إليهم عددا من رسله الكرام ، وكلهم جاءوا بعقيدة واحدة ترد فيها هذه المعانى الإيمانية وكانت حنفية " ابراهيم " و " اسماعيل " عليهما السلام هى التى انتشرت فى الجزيرة بين العرب بعد أن بنى البيت العتيق ، وذاعت بين العرب ودانوا بها ، فانتشرت بينهم معتقداتها وعبادتها وتشريعاتها ، وقد توارث العرب هذه الملة وبقيت فيهم حتى دخل عليها الشرك والتعريف ، وبقيت فى العرب بقايا من هذه الملة إلى أن بعث الله رسوله محمدا صلى الله عليه وسلم ، وذلك بالرغم من طول الزمان الذى كان بين " ابراهيم " و " اسماعيل " ومحمد عليهما الصلاة والسلام . وقد عرفنا أن تلك البقايا أيضا دخلها شئ من التحريف والزيادة وإن لم تخرج فى الغالب عن أصلها الذى جاءت عليه .

وبهذا فلا حاجة - فيما يبدو لى - إلى القول : بأن الجاهليين أخذوا هذه المعانى من اليهودية أو النصرانية ، وأن ذلك أثر من اثار هاتين الديانتين أو أحدهما . وهذا لا يخرج بنا الى تجريد هاتين الملتين من مثل هذه المعانى الايمانية أو خلوها منها فلا شك أن " موسى " و " عيسى " عليهما السلام قد جاءا بذلك الى بنى اسرائيل ومن بعدهم أدخلوا الشرك والتعريف الى ما جاءا به ، وتمادوا فى ذلك الى نسبوا لله الولد فى كثير من افتراءاتهم على الله ، تعالى عن ذلك علوا كبيرا .

أما كيف تيسر ذكر مثل هذه المعانى لمن غلب اللهو والمجون على حياتهم فذلك أمر ميسور ، فهؤلاء الشعراء وغيرهم كثير لا نجد لهم حديثا مستفيضا عن الدين والمعتقدات والشعائر ، مثل ذلك مما ظهر فيما بين المرء ومعبوده الذى يقصده بذلك إذ لا يتوجه به الى الناس ، وقد عرفنا أنه من الصعب التعرف على دين بعض

شعراء المسلمين من شعرهم (١) ، والاثار الدينية لا تظهر واضحة (لان الناس ما يزالون يختلفون في مبلغ تدينهم — كذلك لا تظهر المشاعر الدينية بنفس الدرجة من العمق في فترات حياة الشاعر المختلفة فهي خاضعة لنفصج الانسان وتقدمه في السن ، وهي خاضعة ايضا لظروف حياته فهي تتنبه عند المصاعب والكوارث وتبدو خاملة في احيان اخرى) (٢) ولذلك فيمكن تلمس هذه المظاهر في شعر الشاعر جملة ، فمن المحتمل ان ترد عند أى فكرة يطرقها أو في أى غرض يتناوله من الأغراض .

(١) انظر ما قلناه أول هذا الفصل .

(٢) الحياة والموت في الشعر الجاهلى : ١٤٠ ، ١٤١

(د) شعر بعض الحنفاء فى مواجهة الشعر الجاهلى

واذا كنا قد اطلعنا على جزء من افكار الحنيفة ومعانيها فى الفصل السابق — من هذا البحث رأينا قبل قليل بعضا من هذه المعانى عند امرئ القيس وطرفة فانتسنا نحب ان نرى بعض نماذج محدودة من ذلك عند بعض الشعراء الحنفاء لنرى ما يبيد و لنا بعد ذلك ، وحسبنا هنا ان نكتفى بما اوردناه " لطرفة " و " امرئ القيس " ليكون أنموذجا من هذه المعانى الدينية عند غير الحنفاء .

هذا " البيد بن ربيعة " يرى ان كل ما سوى الله باطل ، ولعله يذهب فى ذلك الى المعبودات الاخرى التى يتقرب اليها من دون الله فى ذلك الزمان ، فـ — — — يقول (١) :

الا كلُّ شَيْءٍ ما خَلا اللهَ باطِلٌ وكلُّ نعيمٍ — لا محالةً — زائلٌ

ورجع قوله هذا الى ما عرف عنه من تحنف كغيره من كفلاء الجاهلية الذين سخروا من عبادة الاصنام وحشوا عن دين قوم .

وأمية بن ابى الصلت يتساءل من رب السماء ؟ ثم يجيب بنفى هذه الربوبية عن كل ما سوى الله ، والناس معترفون بذلك بعمامة ان لو قيل بربوبية غيره لكذبته الناس (٢) :

اذا قيلَ من رَّبِّ هَؤُوى السَّما فليسَ سِواهُ له مُضْطَرِبٌ
ولو قيلَ رَّبٌّ سِوى رَبِّنا لقالَ العبادُ جميعاً كَذِبٌ

ولا ريب ان هذه الربوبية تنطوى على الخلق والتدبير والاحكام والهيمنة على هذه السماوات .

ونجد زهيراً قد بلغ به الاعجاب غايته من فعل " الحارث بن عوف " و " هرم بن سنان " وقد حملا ديات القتلى ليصلحا بين " عس " و " ذبيان " وقطعا دابر الحرب التى اودت بهما ، وقد علم الله فضل هذا العمل فجزاهما خير الجزاء ، ورفع أمرهم — — —

(١) ديوان البيد : ٢٥٦

(٢) ديوان أمية : ٣٤٣ و ٣٤٤

وشأنهم بين الناس (١) :

فرحت بما خُصرت عن سيدكم
 رأى الله بالاحسان مفعلا بكم
 وكانا امرأين كل أمرهما يغلو
 فأبلاههما خير البلاء الذي يبلو

ونجده يمدح " هرما " الذي ألفه الناس لكثرة كرمه ، فمنزله وسط البيوت يدخله
 كل محتاج يؤمل فيه حاجته ، وقومه أخذوا ذلك عنه وتعودوه حتى أصبح من مالوف
 عاداتهم ، وفعل هرم وقومه هذا جعلوه عبادة وطاعة لله ورا بالناس (٢) .

عَدَّ قَوْمَكَ أَنَّ كُلَّ مُبَرِّزٍ
 حَزْمًا وَبَرًّا لِلَّهِ وَشَيْمَةً
 مِمَّا يُعَوِّدُ شَيْمَةً يَتَعَوَّدُ
 تَعَوُّدًا عَلَى خُلُقِ الْمُسِيءِ الْمَفْسُودِ

وايمانه بقدره الله على الرفع والخفض يقوده الى الترفع عن الجهل والخنا أو مسايرة
 أهله فيه ، ذلك المعنى الكريم هو قوله (٣) :

وَلَيْسَ لِمَنْ لَمْ يَرْكَبِ الْهَوْلَ بُعْيَةٌ
 وَلَيْسَ لِرَحْلِ حَظِّهِ اللَّهُ حَامِلٌ (٤)

إذا أنت لم تقصّر عن الجهل والخنا أصبت حليماً أو أصابك جاهل

هذه المعاني الدينية عند الحنفاء وما ذكرناه من مثالياتها الى كثير منها مما هو
 موجود فيما روى للشعراء منهم في الدواوين وغيرها بعد تأمل مثالياتها عند غير الحنفاء
 تظهر لنا أن معاني الحنفاء ونظراتهم اكبر عقلاً واعظم دالة على الناحية الايمانية
 منها عند غيرهم ، مع وجود بعض النماذج التي قد تقترب من نظرة الحنفاء ، وهذه
 الظاهرة التي ذكرناها قد تقصّر النماذج التي مثلنا بها عند الطرفين في توضيحها
 أو الكشف عنها ، غير ان اطلاعي على اكثرها عند الطرفين — كما هو شأن الدارس — قد
 دل على ذلك وان لى ظاهراً واستنتاجاً .

والحنفاء بعمق نظرتهم الايمانية خير من مثلت عندهم المعتقدات الحنيفية ، كما
 أنهم اكبر نصيباً في عدد النماذج التي يتجلى عنها ذلك المعتقد الايماني .

(١) ديوان زهير (الاعلم) : ٤٠

(٢) السابق : ٢٣٣ و ٢٣٤

(٣) ديوان زهير (ثعلب) : ٢١٨ و ٢١٩

(٤) معنى البيت ان من لم يركب الهول في مدة اخيه لم يدرك بغيقته ، وليس لمن
 وضعه الله ارتفاعاً .

ولا يقف بنا الأمر في هذه النظرة الايمانية الى هذا وحسب ، بل اننا لم نأت بعدد الى ما هو أعظم وأهم من ذلك كله ، ذلك أن هذه النظرة الايمانية التي تجلت وانحسرت في بعض أشعارهم الايمانية تكاد لا تختفى في جوانب أشعارهم وأغراضها المختلفة ، فهي مرتبطة بها ان لم تكن مهيمنة عليها ، تصبغها بروح دينية ، وتظهرها مبنية على دين و ايمان . ولايضاح ذلك نعرض أمثلة قليلة من شعر أحد هم وليكن زهير ابن أبى سلمى . فمدوحة متصف بالتقوى التي تردعه عن الوقوع في الرذائل ، كما أنه يعرف للرحم حقها فلا ينس ما عليه لا قاره (١) :

وَمَنْ ضَرَبْتَهُ التَّقْوَى وَيَعْرِضُ ۞ ۞ مِنْ سَيِّئِ الْعَثَرَاتِ اللَّهُ وَالرَّحْمُ
ومدوحه عطوف على المحتاجين واليتامى ، حنون على من غشته السنون ، يبذل لحم الأموال كريمة بها محسنا اليهم (٢) :

أَلَيْسَ بِقِيَّاسٍ يَدَاهُ عَمَامَةٌ ۞ ۞ ثَمَالُ الْيَتَامَى فِي السِّنِينَ مُحْتَمِلٌ (٣)
والعدل والانصاف مما اهتم به زهير في مدوحه ، فمتى يقع النزاع وتظهر الفتنة ويخاف الشر ، يلتزم الناس من يحسم النزاع بحكم عادل يرضاه الخصوم ، ولا يخشون حيفه ان هو أهل للسطوة مرضى عندهم (٤) :

حَتَّى يَشْتَجِرَ قَوْمٌ تَقَلُّ سُرُورُهُمْ ۞ ۞ هُمْ بَيْنَنَا فِهِمْ رِضًا وَسَمٌ عَدْلُ
وفي هجائه يظهر ذلك في خلق وحلم وعفة ، ويدعو من اعتدى أو أخطأ الى التدبر في العواقب واستعمال العقل والمنطق السائد عندهم ، ذلك فيما يروى عن قول زهير عندما رحل رجل من بنى غطفان وكان زهير نازلا فيهم — الى بنى عليم — حتى مسن

(١) ديوان زهير (الاظم) : ١١٢

(٢) السابق : ١٨٨

(٣) الفياض : الكثير العطاء ، ثمال اليتامى : أى يطعمهم ويقوم عليهم ، السنين الشدايد منها .

(٤) ديوان زهير (الاظم) : ٣٨

كلب — ونزل في جوارهم ، فتقامروا معه ، وأخذوا ما عنده حتى امرأته وابنته عليهما
ما يقال ، فرحل الى قومه وزعم أنهم أغاروا عليه (١) :

جوارٌ شاهدةٌ عدلٌ عليكم .. وسَيَّانُ الكفالةِ والتَّسْلَاةِ (٢)
بأَيِّ الجيرتينِ أَجْرْتُمُوهُ .. فلم يَصْلَحْ لَكُمُ الْآادَاءُ

ويقول أيضا في ذلك :

فلم أَرْ معشراً أسروا هديّاً .. ولم أَرْ جازَ بيتٍ يَسْتَبَاءُ*
وجازَ البيتِ والرَّجلِ المنادى .. أمامَ الحقِّ عهدُهما سَوَاءُ
والكلام عن النساء الذي يتناول محاسن المرأة ومفاتنها عند كثير من البهاة نجلد
" زهيراً " ينصرف عنه الا في القليل النادر (٣) ، ونراه يقول عن سلمى (٤) .

صَحَا القلبُ عن سلمى وأقصرَ باطلُهُ .. وعزى أَفْرَاسُ الصَّبَا ورواحِلُهُ
وأقصرَتْ عَمَّا تَعْمَلِينَ وَسُدَّ دُتْ .. على سَوى قصورِ السبيلِ مَنَادِلُهُ
وقَالَ الْعَدُوُّ إِنَّمَا أَنْتَ عَنَّا .. وكانَ الشَّبَابُ كَالْخَلِيجِ نَزَائِلُهُ
فأصبحن ما يَعْرِفَنَّ إِلَّا خَلِيقَتِي .. والآسَواتِ الرَّاسِ والشَيْبُ شَامِلُهُ
وبجانب هذه الأغراض التي نكتفي بها لتمثيل ظهور النزعة الدينية على روح شعره فإن
حكمة زهير التي اشتهر بها تنطوي على كثير منها لمن تأمل ذلك .

وعلى هذا يمكن القول : ان هذه النزعة الایمانیة عند الحنفاء — كما بدت لنا عند
أحد شعرائهم — لم تكن مجرد خواطر قد ترد أحيانا وتغيب في أحيان كثيرة ، أو عوار

(١) ديوان زهير (الأعلم) : ١٣٩ — ١٤٢ .

(٢) التلاء : الذمة والضمان وأي شيء يأمن به الرجل مع غيره .

(٣) الفكرة والصورة في شعر زهير بن أبي سلمى : ٦٠ .

(٤) ديوان زهير (ثعلب) : ١٠١ .

* الهدى : الرجل ذو الحرمة ، وهو المستجير بالقوم ما لم يجبر ويأخذ عهدا ،

فإذا أخذ العهد وأجير فهو حينئذ جاز .

وسمى هديا على معنى أن له حرمة مثل حرمة ما يهدى الى البيت الحرام .

قد تمر بخلافهم ، فهي شعور قد رسخ في أذهانهم ، وامتأنت به نفوسهم ، واعتقدت به وانطوت عليه قلوبهم • يغلب في تفكيرهم ، ويهيج في كوامن نفوسهم ، ويعتشم على حب الحق والعدل والتقوى ، ويحب اليهم معالي الأمور ومكارم الأخلاق ، ويعظم في أعينهم من يأخذ بذلك في حياته أو يعرفونه عنه ، فتنتطلق قرائحهم بوافر الثناء عليه ، ويلهجون باطرائه بين الناس في صورة حسنة تدعو الناس إلى التأسي بخلقه والأخذ بمكارم الأمور ومعاليها ، كما أنها كرهت اليهم الشر ودواعيه ، ورأت بهم عن الدنيا وسقاسف الأمور والأخلاق • وقد تغلفك فيهم حتى فاضت على ألسنتهم ، وهيمنت عليهم فصبغوا بها شعرهم ، وتبدت في كثير من جوانبه مدعو إلى الخير وترقب فيسه وتكره الشر وتفتر منه •

و ليس عجيبا إذا أن ترى علماءنا الأوائل وقد لاحظوا ذلك أن يقولوا عن زهير بن أبي سلمى " ((وكان زهير يتأله ويتعففه في شعره ، ويدل شعره على إيمانه بالبعث)) (١) • ويقولون عن أمية بن أبي الصلت : (ذهب أمية في شعره بعمامة ذكر الآخرة) (٢) •

والذي تأمل شعر " زهير " وأفكاره يرى ذلك حتى قال أحد دارسيه : (ولعل وجود الفكر الديني في شعر زهير ظاهرة تلفت النظر وتستحق الدراسة ••• يدعونا إلى هذا ما يعكسه لنا شعر زهير من اهتمام واضح بالحساب والعقاب واليوم الآخر وغير ذلك مما لا يمكن أن يصدر إلا عن عقل متدين مفكر وفطرة سليمة مؤمنة بالله) (٣) • ولم يكن هذه المعاني الإيمانية مما يأفل في شعره ، فشعره بها وهاج ساطع ، ورسا جسد هذا المعنى الفرق بينه وبين غيره من الشعراء ••• أجل (أن هذه النزعة الدينية قد غلبت على شعر زهير بشكل واضح ، يدعونا إلى هذه النظرة ما يحتوي عليه

(١) الشعر والشعراء : ١٣٩/١

(٢) الأغاني : ١٢٥/٤

(٣) الفكرة والصورة في شعر زهير بن أبي سلمى : ٢١

ديوانه من أفكار دينية قوية وصائبة لا يمكن أن ترجع إلا إلى إيمان قوى وقلب شامع فسى
قد سبه ورهبة (١) .

وبهذا يتضح لنا كيف كان عمق هذه الحنفية — عند الحنفاء الذين مثلوا لنا ذلك
وكيف طفت السطحية التي لا تتم على عمق كبير بدین النصرانية عند من عرف من شعراء
الجاهلية بنصرانيته كعدي بن زيد العبادي وغيره (٢) .

(١) الفكرة والصورة في شعر زهير بن أبي سلمى : ٧٥ .

(٢) انظر تمهيد هذا البحث :

(هـ) الحنيفية فى المنطق الفنى لبعض الدارسين

" تفنيد و تعليق "

ان حنيفية " ابراهيم " و " اسماعيل " التى بقيت منها بقايا فى العرب مع مرور الأيام و تعاقب الأزمان لم يبق من شرائعها و أحكامها الواردة فيها ما يجعل العرب يعدونه كله ديناً ، فقد احرى التحريف بعضها و ادخلوا فى العبادات ما ليس منها ، و قد خرج بهم الأمر فى بعض منها أن ظنوه من مألوف حياتهم . و هذا يدل على عدم اعتداد الجاهليين ببعض ما مر بنا من مظاهر الحنيفية أنه ليس من الدين ، وربما خالوه من قبيل عاداتهم أو مكارم اخلاقهم أو غير ذلك ، و بعضها الآخر كانوا يعدونه مما يدينون به فى حياتهم .

ولتوضيح ذلك نرى ان اخذ العرب نسائهم بالحجاب مثلاً لم يكن ذلك تدينساً منهم بل صار أمراً مألوفاً بينهم ، وربما قوى ذلك ما عرف من شدة غيرة العرب على النساء واستماتتهم دون حرمانتهن وحفاظتهم عليهن . و قد يكون الختان والسواك مثل ذلك ، وربما ظهر ذلك فى بعض أحكامهم كالإيمان و أخذ الدية .

أما الحج والعمرة وان ادخلوا فيها بعض المبتدعات ، كتحریم العمرة فى أشهر الحج حتى عدوا ذلك من أفجر الفجر فى الأرض ^(١) ، فقد كانت مما يتعبدون به — ويتقربون به الى الله .

غير ان بعض احكام هذه الحنيفية وان بقى بينهم حرفوه عن أصله وانقلبت وجهته وأخذ معنى جديدًا ينطوى على شيء من الأصل وان خرج عليه ، ومع ما دخله من تبدل وتحريف لم يخرج عن اطار ما يدينون به .

ولبيان ذلك نضرب امثلة لما نريد ، فلقد عُرف عن العرب كثرة الغزوات والحروب فيما بينهم فالغارات لا تنقطع بينهم ، والقبائل فى تلاحن ومعارك لا تغنى فيها الايام عن الاشهر والسنين والرجال على اتم الاهبة للحرب فى أغلب اوقاتهم ، وأيام المعروب وغزواتها ، وفرسانها ورجالها الشجعان مما هو غنى عن البيان .

فقيم هذه الحياة الدامية وتلك الجروح التي لا تندمل وتلك الحياة التي لا مكان للضعيف بين أهلها ؟ لقد عرفنا ان الحنيفية أتت بتعظيم أربعة أشهر من السنة هي الأشهر الحرم وحرم القتال فيها ، وجعلته فيها أعظم جرما وأبلغ حرمة منه في سواها ، ومن هنا فقد انحصر فهم الحرام عند العرب في هذه الأشهر الحرم وجعلوها أشهراً محرمة لا يجوز فيها القتال والغارات حتى تنقضى ، وأما الأشهر الأخرى فهي حلال لهم ، فلا عليهم ان يأتوا فيها بما يشاءون وما يتركون ولم يكن الدين (بمعزل عن هذه الحياة الحربية فقد كان يعتبرها أمراً حلالاً بما فيها من قتل ونهب وقسوة بالغة ومثل اخلاقية تمجد القوة والاقدام وتحققر الضعف ولا تمنحه أى فرصة للبقاء ، ان الدين الذي حرم القتال في أشهر معينة احله في أشهر أخرى) (١) .

وقد سبق أن عرفنا تعظيمهم للأشهر الحرم ، واجتنابهم السلاح فيها ، وما كان من امر نعاتهم الذين يقدمون في هذه الأشهر مؤخرون ، وعلى ذلك نجد أن تلك الكثرة من الحروب والنزاع بين العرب انما نتج من تلك النظرة الحلال الى الثمانية الأشهر الأخرى وأن القتال مباح فيها ، وما تلاه من سلب أو غنم ونحوه فهو لأخيه وصحيح من حقه ، وقد جاء ان قيس بن زهير غزوا بني تميم فسيا فتاتين واستاق أبلًا لقروا عيس عوف ، فاتفق زهير مع الفتاتين ان يطلقهما وردّ الأبل بالفرس ، ولكن قرواها الذي كان غائباً لم يرض أن يؤخذ فرسه ففأغمر قيس بن زهير وحكم بينهما أن ترد الفتاتان والأبل لقيس والفرس لقروا (٢) .

ومثل ذلك نظرة العرب الى كراهية الحرب بين أبناء القبيلة الواحدة ، وعلى ذلك بين أفراد القبيلة في الغالب تنطوى على القرابة وصلة الرحم ، وصلة الرحم ومعرفته حقها مما اهتمت به الحنيفية وأمرت بصلة الرحم واکرام القرابة والاحسان اليهم ، ومن قطع رحمه وأقاربه فقد أثم ، وقد ورد كثير من شعرهم الذي يدل على اهتمام العرب بها

(١) الحياة والموت في الشعر الجاهلي : ١١٧

(٢) نقائض جرير والغزدي : = / ٨٥ تحقيق (بيفان) ط - ليسدن

حتى قال " الحارث بن ظالم " (١) :

فينا لله لم أكسب أنا مآ .. ولم أهتلك لذي رحم جبابنا

ويقول " النابغة " (٢) :

ضرباً بغض ابن ريث انتها رحم .. حبت بها فأننا ختكم بججاج (٣)

ويقول " طرفة بن العبد " (٤) :

وظلم ذوى القربى أشد مضاضة .. على المرء من وقع الحسام المهند

وعلى ذلك لم يستطيعوا الاعتداء والظلم على أقاربهم وعشائهم وأبناء قبيلتهم ،

أما أبناء القبائل الأخرى وأحياناً هؤلاء لا يهتمون عليهم من ظلمهم وأخذ أموالهم .

وما طرأ عليه التنوير ما جاء به الحنيفة موضوع الزنى . وهو محرم فيها ، وعلى

الرجل أن يتزوج بأمرأة يعف بها نفسه ، غير أن هذا المعنى اتخذ اتجاهها آخر غير

ذلك ، فقد ذكر عن العرب (أنهم كانوا يرون الزنى حلالاً فى السر حراماً فى العلن) (٥)

وبذا فقد يستحلونه إذا رضيت المرأة وأطاعت ، ويرونه حراماً إذا امتنعت منه وأجبرت

عليه ، والأصح عند ما يقول (٦) :

وأقررت عني من الغانيات .. أما نكاحاً وأما أزن

(١) المفردات : ٣١٥ .

(٢) ديوانه : ١٢٦ .

(٣) ضرباً : أى أضربوا ضرباً والمراد أعضوا ، بغض بن ريث : يريد عسا كما قال

الشارح ، حبت : أى أعتقت بقطع أو أضر الأرحام ، أنا ختكم بججاج : أى أنا ختكم

ووضعكم قطعكم رحمكم بمناف سوء . وهذا تمثيل لحالهم فى عداوة أقربائهم

بحال من انتقل من موضع خصب الى ججاج ، وهى الأرض المجدبة .

(٤) ديوانه : ٤٠ .

(٥) تفسير الطبرى : ٢١٩/١٢ ط (محمود شاكر)

(٦) ديوانه : ٦٧ .

يعلمنا أنهم كانوا يفرقون بين الحلال و الحرام فى اتصال الرجل بالمرأة .

إنّ ما وجد فى الشعر الجاهلى من نظرات ومعان دينية وما صاحبها من تأملات فى الحياة او مصير الانسان بما يشبه النظرات الفلسفية حدث ببعض من وقف عليها من الباحثين أن يهملوا فيها انه هى ظاهرة ماثلة تستحق ذلك . وكان من جراء ذلك أن ذهبوا فى دراسة هذه الظاهرة حتى خرجوا منها بمواقف وتعليقات مختلفة ، بذل كل منهم جهده و رأيه الذى اهتدى اليه و خرج به من ذلك .

وقد كان المستشرق " مرجليوت " ممن وقف على ذلك ، و رأى أن فى ذلك الشعر اشارات الى قصص دينى ورد فى القرآن الكريم ، كما أن فيه كلمات اسلامية . وان الشعراء لا يمثلون الدين الجاهلى ، و ليس فيه جو الآلهة المتعددة بل فيه توحيد ، و أن أولئك الشعراء يقسمون بالله الواحد وبالصفات التى ذكرها القرآن الكريم ، و هؤلاء الشعراء موحدون مطلعون على أمور لا يعرفها الا من قرأ القرآن و مر بمعانيه (١) . وقد سبق ذلك كأحد الأدلة الداخلية التى استدلت بها على عدم صحة الشعر الجاهلى .

وكان الدكتور طه حسين مسائرا لمرجليوت عندما ذهب الى الشك فى التبعثر الجاهلى ان زعم أن الدين أحد العوامل التى دفعت بالعرب الى نحل الشعر و التزبد فيه ، و كان هذا الانتحال الدينى قد اتسم بالوان و أخذ صورا مختلفة . فانه ما كان يقصد به اثبات صحة النبوة و صدق النبى ، و منه ما يتصل بتعظيم شأن النبى و نسبه نفس قريش ، و منه ذلك النوع الذى يلجأ اليه القصاص لتفسير ما يجدونه فى القرآن من أخبار الأمم القديمة البائدة ، و كان أعظم هذه الانواع عند الدكتور ما ظهر عندما استؤنف الجدال فى الدين بين المسلمين و أصحاب الملل الأخرى ، ان أراد المسلمون أن يثبتوا أن للإسلام أولية فى بلاد العرب . كانت قبل أن يبعث النبى ، و أن خلاصة الدين الاسلامى هى خلاصة الدين الحق الذى أوحاه الله الى الانبياء من قبل (٢) .

(١) أصول الشعر العربى (مرجليوت) : ٧١ .

(٢) فى الأدب الجاهلى : ١٣٢ و ما بعدها .

وقد سبق أن مر بنا ذلك عند قضية الانتحال ، وناقشنا ذلك بما أغنانا عن إعادة ذكره مرة أخرى .

ونرى المستشرق كارلو نالينو وقد رأى عدى بن زيد العبادى تحدث عن زوال الدنيا وفناء الانسان غير مرة كقوله فى احدى قصائده (١) :

مَنْ رَأَى أَنَا فليحْدَثْ نَفْسَهُ .. أَنَّهُ مَوْفٍ عَلَى قُرُونِ زَوَالِ
 وَصُورِ الدَّهْرِ لَا يَبْقَى لَهَا .. وَلَمَّا تَأْتَى بِهِ صَمُّ الْجِبَالِ
 رَبِّ رَكِبْ قَدْ أَنَاخُوا عِنْدَنَا .. يَشْرَبُونَ الْخَمْرَ بِالمَاءِ الزَّلَالِ
 وَالْأَبَارِيقُ عَلَيْهَا قُضِمَتْ .. وَجِيَادُ الْخَيْلِ تَرْدَى فِي الْجِلَالِ (٢)
 عَزَّوْا دَهْرًا بَعِيشٍ حَسَنِ .. آمَنُوا دَهْرَهُمْ غَيْرَ عَجَالِ
 ثُمَّ أَضْحَوْا عَصَفَ الدَّهْرِ بِهِمْ .. وَكَذَاكَ الدَّهْرُ يُودَى بِالرَّجَالِ
 وَكَذَاكَ الدَّهْرُ يَرْمِي بِالْفَتَى .. فِي طِلَابِ الْعَيْشِ حَالًا بَعْدَ حَالِ

وعلى ذلك وما شابهه يعد (نالينو) عديا من الشعراء الزهاد ، وان الزهد من موضوعات الشعر الجاهلى (٣) .

سقول معلقا على هذه الابيات (فظاهرها فى هذا الشعر من مشابهة زهديات بعض الشعراء الاسلاميين لا سيما ابى العتاهية ، فليس من البعيد أن شعر " عدى ابن زيد " ومن سلك منهجه من القدماء صار انموذجا للمتأخرين فى وصف فناء الامور الدنسية وذكر عواطف الزهد الناشئة عن اعتباره) (٤) .

والذى يبيد وان هذه الفكرة وأمثالها مما يدور حول فناء الناس وتعاقب الأزمان فيهم ، وتخسير أحوالهم من صورة الى أخرى ، وردت غير مرة فيما يروى من

(١) الاغانى : ١٣٤/٢

(٢) قدم : جمع فدام ، وهو ما يوضع على فم الابريق لتصفية ما فيه من شراب ، تردى : تعد و ترجم الارض بحوافرها .

(٣) تاريخ الآداب العربية - كارلو نالينو : ٢٨

(٤) السابق : ٧٤

شعر لعدى بن زيد ^(١) ، ونرى مثلها عند كثير غيره من شعراء الجاهلية ، ولا شك أن هذه الفكرة مما يستخدمه الزهاد مع غيرها فى وعظ الناس وتذكيرهم كى يأخذوا العبرة من ذلك ، غير أن القول : أن عديا كان زاهدا بسبب قوله ذلك أو ما يماثله لا يكفى للاقتناع بذلك أو النهوض به ، وأما القول بأن الشعراء المتأخرين الذين ذكروا الزهد كثيرا فى أشعارهم كابى العتاهية قد أخذوا ذلك عن عدى لانه سبقهم وصار أنموذجا حذوا فيه حذوه فغير صحيح ولا مقبول إذ شتان ما بينهما .

وهذا يجعلنى على وفاق مع الدكتور شوقى ضيف الذى أقر (أن الزهد نشأ نشأة اسلامية خالصة ، فقد دعا اليه القرآن الكريم ودعت اليه السنة النبوية ، على اننا لا نتقدم الى عهد الفتح حتى تدخل فيه عناصر أجنبية كثيرة على رأسها عناصر مسيحية من تلك التى كانت فى العراق والشام ومصر . وحركة الرهبنة فى المسيحية وما يتصل بها من زهد معروفة ، وقد كان لها أثر فى اتساع هذه النزعة لا فى وجودها ولا فى تنشئتها ولكن فى نموها وازدهارها) ^(٢) .

ولا استبعد أن يكون زهدا فى العصر الجاهلى ما كان عليه بعض الاحبار والرهبان من أهل الكتاب ممن كانوا يتقشفون فى حياتهم ، أو ينقطعون للعبادة فى الصوامع وغيرها ، والذى عرف من حياة " عدى " بن زيد انه لم يكن من هؤلاء العباد المتبتلين والعازفين عن الدنيا إذ عاش فى بلاط مناذرة " الحيرة " وعمل لهم .

ولما جاء الاسلام كان يدعو الى الزهد ، ولكنه زهد مختلف عن زهد الاحبار والرهبان من أهل الكتاب ، ورسولنا الكريم صلى الله عليه وسلم وخلفاؤه الراشدون وصحابته وكثيرا ممن اتى بعدهم أخذوا بالزهد الذى أمرهم به الاسلام ورغبوا فيما عند الله ، وحياتهم وسيرتهم خير دليل على ذلك ، ولكنها حياة مغايرة كثيرا لحياة زهاد أهل الكتاب قبل البعثة النبوية .

(١) انظر الاغانى : ١١٦/٢ ، ١٣٨

(٢) التطور والتجديد فى الشعر الأموى د . شوقى ضيف ص ٦٣ - ط ٢ - دار

وترى الدكتور " بنت الشاطي " أن هذه المعاني الدينية عند الحنفاء أو غيرهم
 إنما كانت تهيدا وارهاسا لأمر أتى بعد ذلك وهو الاسلام إذ من غير المقبول أن يأتي
 الاسلام فجأة وتقول :

(وإذا كان تاريخ الأديان يعترف بأن الاسلام لم يأت فجأة ، دون أن تكون الحياة
 إذ ذاك قد تهيأت له وظهرت حاجتها إليه ، فالأمر في الفن شبيه بهذا ، ولا بد أن
 يكون في شعر الفترة الأخيرة من الجاهلية ما يسجل التهيؤ لهذا الحادث الجليل
 والتطلع إليه .

وقد أفاضت كتب السيرة والتاريخ الاسلام في ذكر الارهاسات التي كانت تمهد
 الجزيرة العربية قبل البعث ، وفي أن تعنى الدراسة الادبية بجمع ما تطلع اليه شعراء
 الجاهلية من قيم غير التي كانت تسود وتحتكم ، وما أعطى تراثهم قبيل الاسلام ، من
 شعر التحنف والحكمة الذي يمثل في تلك الفترة الارهاس الفنى بالتطور المرتقب (١) .

ويزيد ذلك وضوحا عندما قالت : (وكما كان التهيؤ الاجتماعى عاما في الجزيرة
 كلها ، وكان التهيؤ الدينى مركزا في مناطق بعينها ، كذلك رأينا صدق ذلك في الشعر
 حيث بدأ الارهاس الفنى للتحويل الدينى عند الشعراء المتحنفين في مكة ، مثابة حجاج
 العرب ومركزتهم ، وعند المتطلعين من الحكماء ذوي الاتصال بالبيئات الدينية (٢)
 ولما كان شعراء الاسلام المخضرمون يظهر في شعرهم تأثير الاسلام مع بعض روااسب
 جاهلية عدت الباحثة من المخضرمين أولئك الذين عاشوا في أخريات الجاهلية وإن لم
 يدركوا الاسلام ، وإن خرجت بذلك عما هو المتعارف عليه في دلالة هذه الكلمة ، وكل
 ذلك مبنى على نظرتها الى التهيؤ العام في الحياة ككل للأمر الذي لا يحدث فجأة فسي
 الحياة حتى قالت :

" وهذا شعرهم في أخريات الجاهلية يؤيد وجهة نظرنا في الرجوع بفترة المخضرمية

(١) قيم جديدة لأدينا القديم والمعاصر ، د . عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطي) :

٨٥ ط - دار المعارف بمصر - ١٩٢٠م

(٢) السابق : ٨٨

الى ما قبل الاسلام ، مسجلة للارهاص الفنى بالحادث الجليل ، ومعبرة عن التهيؤ
 العالم الذى عرفناه سياسيا واجتماعيا ، فى تناسى العرب لعصبيتهم القبلية أمام
 الخطر الأجنبى ، وقتالهم مجتمعين فى ((يوم ذى قار)) . وعرفناه دينيا وخلقيا ففى
 مثل (حلف الفضول) الذى تداعت اليه قبائل من قريش وتعاقدوا على الا يجهلوا بكنية
 مظلوما من أهلها وغيرهم ممن دخلها من سائر الناس الا أقاموا معه ، وكانوا معه على
 من ظلمه ، حتى ترد عليه مظلمته)) (١) .

وهذا المعنى وما يمثله قد يدفع بمن لا علم ولا فهم له الى الظن بأن دين الاسلام
 قد أتى والطريق مهتد له ، والفرصة مواتية والظروف مناسبة حتى يدعن له الناس وسيطر
 على الحياة وتتقاد له ، وكيف يصح ذلك ونحن نعلم ما كابده الرسول صلى الله عليه
 وسلم ومعهم المسلمون فى مكة وفى المدينة وان كان أقل من ذلك حتى أنتشر الاسلام .
 ونحن لا نشك فى أن الباحثة تحلم أن ما جاء به الرسول عليه الصلاة والسلام من دين
 الاسلام وما آتاه الله من النبوة كان من تقدير الله وحكمته ، يؤتيها من يشاء ، ويعيشها
 الى من يختار .

وربما لو قرأ غير المسلمين هذه الفكرة لذهبوا الى الظن أن الاسلام انما هو أمر
 تطور . مهتد له فى ما سبقه من الزمان . وكثرة هذه الارهاصات فى الجاهلية ، ثم
 تمخض عنها الاسلام ، وفى ذلك نسيان للنبوة واغناء لدورها الكبير فى تبيين مجرى
 التاريخ .

ولعل من الأيسر — فيما أرى — أن نقول : ان مثل هذه المعانى الايمانية والتأملية
 هى مما عرف عند بعض الشعراء وخاصة من عرف بالتحنن منهم ان أن العرب قد تخللتهم
 عدد من النبوات حملت اليهم مثل هذه الأفكار ، ولعل هذا أيسر من القول بتقديم
 فترة الخضرمة الى ما قبل الاسلام ، وأن ذلك ارهاص وتطلع وتبشير بما سيأتى .
 ولعل هذا ما أوقع بعض المستشرقين مثل " كليمان هوار " الى الظن أن هذه

المعاني الايمانية والاسلامية شائعة بين الجاهلين قبل البعثة وقد استفاد منها الرسول عليه الصلاة والسلام - فجعلها مصدرا من مصادر القرآن الكريم (١) .

والحق أن العرب جاءهم الاسلام وفيهم الغزايا الحميدة التي لا يمكن التكرار لها ، ولكن طابع الشر والظلم وفساد المعتقدات والتصورات كان يطفئ على ذلك الخير فيهم ويغمره ، وكانوا بحاجة شديدة الى من يبين لهم سر حياتهم وماذا يعملون ، فبعث الله فيهم رسوله الكريم ، وأمره أن يبشر وينذر ، ويتحمل في سبيل ذلك ضروبا من التعب والمجادة والأذى .

(١) نشر هوار ذلك في المجلة الآسيوية - الجزء العاشر - القسم الرابع ص ١٢٥ سنة

(١٩٠٤م) كما ذكر في (العصر الجاهلي (شوقي ضيف) : ٣٩٦ .

(و) فى الخصائص الفنية لأدب الحنيفة

و أدب الحنيفة الذى قام عليه هذا البحث من شعر ونثر لا يخرج عن أصله من أدب العرب الجاهلى .

فالشعر الذى يمثل الحنيفة — كما هو ملاحظ — منتزع من بين كثير من شعر شعراء الجاهلية ، ومعانى هذا الشعر (تتسم بالحقيقة وتصوير الواقع وعدم الجنىح السى المبالغة أو المبالاة فى الخيال ، فهى معان لا تعرف التكلف ، والشاعر يعبر عنها فى صدق) (١) ، فالسهولة والوضوح المعنى المراد فى يسر حتى ان وجدت بسببه بعض الكلمات التى نعدّها غير مألوفة من خصائص الشعر ، فلا اغراق ولا بعد فى تصوير الاحاسيس أو تمثيل مظاهر الحياة .

و اذا كان هذا مما يتصف به الشعر الجاهلى بعامة ويظهر فيه فانه فى شعر الحنيفة أكثر ظهوراً وأقرب مأخذاً ، يتجلى المعنى ويتضح المراد فى أغلب النماذج وأكثر الصور التى اطلعنا عليها من خلال القصائد الشعرية .

و ليس هذا مثار الدهشة أو باعاً على غرابة ، فالحنفاء انما كانوا يصورون واقعا عاشوه وذلك مما دعاهم الى أن يطرحوه فى اطار بعيد عن النممة والزخرف من ناحية ، فوق أن شعرهم بمثابة الدعوة التى ورّوا — لو أتاحت الملابس — أن ينشروها على المساءل و يذيعوها على الأسماع من ناحية أخرى ، وما لم يكن شعرهم يمثل " الوضوح " والنماعة التى تلائم أقطار النفوس لا يؤدى مهمته ، أو يصانع الغرض المرجو منه ويتشبع بذلك عندما نرى بعض ذلك كقول " زهير بن أبى سلمى " (٢) :

حياضُ النسايا ليسَ عنها مرُحزجُ .. فنتنظرُ طمئناً كآخر وارد
خبّالٌ ، و سقمٌ مضنىٌّ و منيةٌ .. وما غائبٌ الا كآخر شاهدر
فلو كان حتى ناجياً لوجدتَه .. من الموتِ فى أحراسٍ ربّ ماردٍ

(١) أدب ما قبل الاسلام : ١٣٢ .

(٢) ديوان زهير (ثعلب) : ٢٤١ ، ٢٤٢ .

أو الخُسْرُ لم يمنع من الموتِ رَسَهُ •• وقد كان ذا مال طريفاً والتد
 ألم تر أنَّ الناسَ تخلُّوْهُ بعدَ هُم •• أحاديثهم والمرء ليس بخالس (١)
 فزهير يحد ثنا عن الموت وأنه مصير الأحياء جميعاً ، فلن ينجو منه أحد مما كان ،
 وما الأحياء في ورود خياضة الاكلك المائمة التي تعطش وتنتظر وورد الماء فهي لا بد
 واردة عليه ، وكان حياتهم في قصرها أيام معدودة كأيام الظم ثم تأخذهم المنسون •
 ومن يطل به العمر فلا يسلم من فساد الحياة في آخر عمره ان ينتابه الشحف وتهبط صحته
 الأسقام • ولو نجا أحد من الموت لكان السلاطين أو لو الحرس والخدم وأهل البذخ
 والثراء أحظى بذلك ولكن أنى لهم ذلك ، والأمرعد " زهير " مادام الحال كذلك
 أن يقدم المرء في خياله خيراً يحمد الناس به وان وارته عنهم الأيام •
 ونرى " طرفة بن العبد " وهو يغتر بفتوته وتعجه شجاعته ان يقدم على ما يخشاه
 غيره وقد كانوا يتطيرون من بعض الحيوان ، والطيور ويتشاءمون بها وتقعدهم عن
 الوجهة التي يريدون ولكن " طرفة " ليس من أولئك (٢) :

لعمري لقد مرّت عواطسُ جَمَّة •• ومَرَّ قَبِيلُ الصَّبْحِ طَبِيْ مُصْنَع (٣)
 وعجْزاً دَفَّتْ بِالْجَنَاحِ كَانَتْهَا •• مَعَ الصَّبْحِ شَيْخٌ فِي بَجَادٍ مُّقْتَنَع (٤)

(١) الظم : جبن الابل عن الماء الى غاية الورد • وهو يريد الذي ينتظره الموت بعد
 خبال : فساد الضئى : الذي يهد الانسان ويضعفه من الأسقام •
 الأحراس : جمع حارس ، رب مأرد : صاحبه من ملوك اليمن ، وما رد : قصر •
 التالد : القديم الموروث •

(٢) ديوان طرفة : ١٧٥ ، ١٧٦ •

(٣) العواطس : جمع عاطس ، وكانوا يتطيرون من العطاس ومنه قيل للطبي الناطع
 العاطس وهو الذي يستقبلك لكونه متطيراً منه مصمع : صغير الأذنين وقيل هو الأقرن
 (٤) عجْزاً : عقاب ، جعلها عجْزاً لبييض عرها ، وكانت مما يتشاءمون منه •
 دفت بالجناح : ضربت به وحركته •

فلن تمنع رزقا لعبد بنا لله .. وهل يعدون بساك ما يتوقع

انه يسخر من خشى على نفسه ذلك ولكن ما حدث لك لم يكثر له أيخشا على نفسه ، فالظباء أو غيرها تمر به ويسمع عطاسها ويرى فيها الأصم والأقرن ، والطير تمر به في الصباح سانحة وبارحة ، وهو ذاهب في شأنه ، مقدم على ما يريد لا يثنيه شيء من هذه المعتقدات الساذجة ، فلا سبيل لهذه الكائنات على رزق العباد أو منعه عنهم ، وإنما يرجع سوء عاقبة ذلك على من صدق به وارتضاه .

ومثل هذا الوضع نراه أيضا عند " بشر بن أبي خازم " اذ يعتذر عن هجاء بدر منه ويطلب غوا كعفو " يوسف بن يعقوب " عن اخوته وقد أوردوه الهلاك كما يعلم من قصته ويقول (١) :

وإني إلى أوسٍ ليقبل عذرتي .. ويعفو عني ما حُتيت لراغب

فهب لي حياتي فالحياة لقائهم .. يشرك فيها خيرا ما أنت واهب

فقل كaldi قال ابن يعقوب يوسف .. لاختوته والحكم في ذاك راسب (٢)

فانني سامحوبالذي أنا قائل .. بصدقا ما قلت اذ أنا كاذب

وعلى الدرب ذاته نلقى النابغة الذبياني " وقد شد رحله عن غسان عائدا إلى ديار قومه ويثنى عليهم بعد أن دعا الله أن لا يرزقه بفقد هم اذ هم كرام ذوو أفعال على الناس ، فهم الملوك وأنباء الملوك ذوو العقول البصيرة ، وأرباب الأخلاق والفعال الطاهرة ، من غير اثم ولا حقوق ولا فساد (٣) :

لا يُعبد الله جيرانا تركتهم .. مثل المصابيح تجلو ليلة الظلم

لا يبرمون اذا ما الأفق جلل .. برد الشتاء الأمحال كالآدم (٤)

(١) ديوان بشر بن أبي خازم : ٤٢ .

(٢) أوس هو بن حارث بن لأم كما في الديوان : ٤١ .

راسب : أي باق وثابت .

(٣) ديوان النابغة : ٢٣١ ، ٢٣٢ .

(٤) لا يبرمون : أي لا يكونون أبراما ، والبرم : الذي لا يدخل مع أصحاب العير فسي =

هم الملوك و أبناء الملوك لهم .. فضل على الناس في الأثوار والنعم
أحلام عاد و أجسام مطهرة .. من المعقة والآفات والأناس

و اذا كانت المعانى جليلة ماثلة لا تفرق في الخيال ، ولا تنجح الى الصور المعقدة
أو العرامى البعيدة فان العمل سهلة التركيب ، والألفاظ مما هو مألوف وذائع ، لا تكسر
فيها المفردات التى تعدها جاهلية ، أو تحتاج منا الى نظر فى كتب اللغة والمعاجم
ولا شك أن ذلك هو الغالب الذى لمستهه وان وجد ما قد يستدعن ذلك ويقتضى الايضاح
ومن هذا أيضا ما يذكرون من احدى نساء العرب ولدت من زوجها بنتا ، وكانوا
يكرهون البنات ويعززون الذكور ، فهجر زوجها بيته ، وكان يقبل ويبيت عند جيران له
بجنبه ، ومرة ذات يوم فسمع زوجته وهى ترقص ابنتها وتعاتب ذلك الزوج الذى غلب
وهجر داره من أمر لم يكن فى يد ها ابرامه وتقول (١) :

ما لأبى حمزة لا يأتينا .. يظل فى البيت الذى يلينا (٢)
غيبان إلا نل البينا .. تا لله ما ذلك فى أيدينا
وانما نأخذ ما أعطينا .. ونحن كالارض لزارعينا
نبئت ما قد زرعه فينا

وهذا " زيد بن عمرو بن نفيل " يترك عبادة الأوثان والتقرب الى الجن بعد أن عقل
ذلك وكيف تكون عبادة الفرب صحيحة ؟ وقد أهلك الله أمما كثيرة طفخوا وفجروا وعبدوا
غيره ، وأبقى أهل البر والتقوى ويقول (٣) :

= الميسر لوما وبخلا أو قللة حاله ، يريد أنهم كرماء على كل حال ، الأمحال :
جمع محل وهو الجذب ، كالأدم : الجلد الأحمر ، يريدون الأفسق
من الجفاف .

(١) البيان والتبيين : ١٨٦/١ .

(٢) أبى حمزة : الضبى كما فى البيان والتبيين .

(٣) الأغاني : ١٢٤/٣ ، ١٢٥ .

- عزلت الجنَّ والجنَّانَ عني ٠٠ كذلك يفعلُ الجِلْدُ الصَّبورُ (١)
 فلا العُزَّى أدِينُ ولا ابتيها ٠٠ ولا صنَى بنى غُصَمٍ أزو
 ولاهبلًا أدِينُ وكان رَسًا ٠٠ لنا في الدَّهرِ إذ جِلْمى صَنِيرُ
 أرتًا واحدًا أم الفَرَبِ ٠٠ أدِينُ إذا تُقُصَّتِ الأمُورُ
 ألم تعلم بأنَّ الله أفنى ٠٠ رجالًا كان شأنهم الفُجورُ
 وأبقى آخرينَ بيروهم ٠٠ فيروهمهم الطُّفلُ الصَّنييرُ
 وبيننا المرءُ يعثرُ ثابً يومًا ٠٠ كما يترجُ الغصنُ النغييرُ

على أن شعرهم لا يحتشد للتشبيه أو الاستعارة والكفاية كثيرا ، وما نراه من ذلك
 ان فى بيت واحد ، أو بضعة أبيات يعالان معنى نفسه . . .

ونظرة الى البيت الأخير من هذه الطائفة نرى أن التشبيه فيه لم يجعج الى التركيب كذلك
 البيت المعروف لامرئ القيس مثلاً :

- له أَيْطالُظيبي وساقا نعامية ٠٠ و أرخاءُ سرحانٍ وتقريبُ تنفلي (٢)
 وإنما جاء فى اطار برزاق لا أثر فيه للتركيب الذى ألفناه لدى بعض الجاهلين

وقد نرى بجانب ذلك الاستفهام التقريرى فى قوله منها :

- ألم تعلم بأن الله . . . الى آخر البيت . .

وهذا الاستفهام التقريرى مما يتناغم مع ما ألمحت اليه من شعرهم كانوا يتبنون أن
 تتجاوب به الحياة ولا ينهض بمثل هذه اللفظة الاستفهام زومسحة معينة ، قد يكون
 الاستفهام التقريرى من بينها وعلى شاكلة ذلك من سهولة الألفاظ ووضوح الدلالة نرى
 " ورقة بن نوفل " وقد سره ترك " زيد بن عمرو " عادة الأوثان وأنه أنقذ بذلك نفسه
 من النار ، وأن ربه الذى دان له ليس كمثله أى معبود زعمت ربهيته ، ومن بعد غير

(١) الجنان : جمع جن كما فى اللسان (جنن) ولعله أراد شياطين الانس

الذين يدعون الى الشر والفساد .

(٢) ديوان امرئ القيس : ٢١ ،

الله فانما يدعون لا يجيبه ولا ينفعه وان رجوا ذلك منه ، وأما الله فانه يسمع ويجيب وينفع ويضر ويملك الأمر كلها ، وقد دل على عظمته وقدرته كثرة مخلوقاته التي تدعوه وترجوه وكرمه .
يقول ورقة (١) :

رشدت وأنعمت بن عرو وانسا .. تجنبت تنورا من النار حاميا
بدنيك رسا ليس رب كمثلهم .. وتركك جنان الجبال كما هيا (٢)
أقول اذا ما زرت أرضا مخوفة .. حنانيك لا تظهر على الأعادي
حنانيك ان الجن كانت رجاء هم .. وأنت اهلي رنسا ورجائيا
أدين لرب يستجيب ولا أرى .. أدين لمن لا يسمع الذهر داعيا
أقول اذا صليت في كل بيعة .. تباركت قد أكثرت باسمك داعيا (٣)
وقد تلح في هذه الأبيات النبوة " الذاتية " التي تنأى عنها لغة الشعر الجاهلي بعاصمه ، فمعروف أن الشعر الجاهلي تزحف عليه النبوة الجماعية " نبوة الشاعر " فسي انتماء الى القبيلة والتعبير عنها وعدم الفكك منها في حين أن هذه الأبيات وما قبلها جاءت تعبيرا عن تجربة ذاتية ، وممارسة فعلية ، تهتف بالمسؤولية الخاصة التي ألقيها هذه الحنيفية " على كاهل كل منهم ، وهو معنى أكد الاسلام حين قال " ولا تنزروا وزر أخرى " وكأنما الذاتية التي تراها تغلف تلك الأبيات ايذنان بتلك التبعة الجسيمة التي تتقاضاها " الحنيفية " التي سلكها الشاعر

ويستري أنبأنا - في تلك الأبيات - الأساليب الانشائية التي تكررت فيها على نحو ملحوظ ، كما في قوله رشدت وأنعمت - حنانيك - تباركت قد أكثرت باسمك داعيا . . . وكل هذه الملاحظ مما يستجيب لها " شعر الحنفاء " على ما هو ماثل في تلك الأبيات

(١) الأغاني : ١٢٥/٣ .

(٢) جنان الجبال : هم الذين يأمرون بالفساد من شياطين الانس أو الجن ، وذلك

كما في لسان العرب (جنن) ٩٢/١٣ .

(٣) المعنى كما في الأغاني : أي خلقت خلقا كثيرا يدعون باسمك .

والشعر الذي دار عليه هذا البحث ، وأقام عاده عليه مع ما سبق له من خصائص
نَدَّت التشبيهات فيه مما استفاد به الشعر الجاهلي ، وتراوة فيه صور الحيوان والمنازل
والرحلات والنساء ، مما هو منتزَع من بيتهم ومثل أمام أعينهم يغدون عليه ويروحون
وعلى ذلك لن تر تلك التشبيهات حتى في صورها السهلة الواضحة ، أو في هيئاتها
التمثيلية المركبة ، ومن ثم فلم تقابلنا الاستعارات المختلفة ولا المجاز في أغلب الأحوال
ويظهر ذلك بلا لبس فيما مر بنا من هذه الأبيات الشعرية .

ولتطالع ذلك في بعض النماذج ، فذا قيس بن الخطيم يعلم أنه لن يلقى إلا ما أراد
الله له وإن ذهب به الأمانى فيما يريد (١) :

يُحِبُّ المرءُ أن يلقى مُنْشاءً .. ويأبى الله إلا ما يشاءُ

ومثله " الأعشى " الذي يؤمن أن المرء لا يسبق أجله ، فالله قد قضى ذلك وحدده
بعضه متى أراد (٢) :

وعلمتُ أن النَّفْسَ تَلْقَى حَتْفَهَا .. ما كان خالِقُها المليكُ قُنَى لها

وتقوى الله عند المتلمس الصنم من خير عباد المرء ، وإن كنا لا ندري بِتَدَاهِ هذا
لدنياه أو لآخرته أم لهما معا ، وذلك من جملة قصيدة حافلة بالحكم ويقول (٣) :

وأعلمُ علمَ حقٍّ غيرَ ظنٍّ .. وتقوى الله من خير العتادِ

ويقول دريد بن الصمة (٤) :

وفكَّ الرجالِ وكلَّ أمرئٍ .. إذا أصلَحَ الله يومًا صلَحَ

وهذه الملاحظات التي تلمسها في هذه الأبيات التي مثلنا بها وفي غيرها مما

(١) ديوان قيس بن الخطيم : ١٥٥

(٢) ديوان الأعشى : ٨٣ .

(٣) ديوان المتلمس : ١٧٢ .

(٤) ديوانه : ٤٢ .

سبق والتي اختص بها هذا الشعر من بروز المعانى و سهولة الألفاظ المعبرة عنها
وضوحها الى عدم احتفالها بالمعانى البليانية التى تمتلئ بالشبهات ويحفها المجاز
والاستعارات وتزدان بالمحسنات البديعة ، كل هذا يرجع فيما يبدو الى طبيعىة
موضوعات الحنيفة هذه ، فهى حقائق دينية ، ومعالم شرعية ، انما جاءت لتخاطب
العقل وتأمرة ، وهى توقظه وتوجهه . فهى أمر ولحظة ليست مما يستدعى من الشاعر
التزيين أو التهميل ، أو تدفعه الى الحب أو الكره المتطرفين .

والشعر من أهم خصائصه على ما يقول الباحثون : (انه المبني على الخيال ، المثير
للعاطفة ، ... والشعر فيضان من شعور قوى ينبع من عواطف تجمعت فى هدوء ، ...
وبعض الشعر يخاطب العقل لا المشاعر كـ بعض شعر المتنبى والمعري ، وكل شعر الحكم
وما يسميه العرب باب الأدب ، ولكن أكثر الشعر لا نسميه شعرا ما لم يحرك شعورنا
ويولد فينا كثيرا من الانفعال كالذى تولده الأغاني ، وتكون المنزلة الأولى في
للشعر للا للعقل ، أمّا ما يخاطب العقل كالذى ذكرنا فهو شعر فى المنزلة الثانية
أو الثالثة (١) .

وإذا كان المرحوم " أحمد أمين " يرى الشعر الذى يخاطب " العقل " يحتل
منزلة دون نظيره الذى يخاطب الشعور . فليس يعنى هذا أن شعر الحنفاء تختلف
فيه لوازم الجمال ، فلو كان خلاصة لتجارب ذاتية مضطحة انه قد استطاع أن يخلع على
تلك التجربة لمسات من الطلاوة الفنية ، بدليل أننا نراه يمتح من معين بعض الصور
التي تثير الوجدان ، كما أمأت الى ذلك من قليل ...

ويكاد يتجلى الفرق بين هذا الشعر . وشعر الحكم أو الأمثال " فى أن ذلك الأخير
قد يجنح فى معظمه الى طرح التجربة بمنأى عن الطلاوة .. وربما كان ذلك هو السر
فى المقولة الشائعة عند النقاد " أبو تمام والمتنبى حكيمان ، والشاعر البحتورى "

(١) النقد الأدبى : أحمد أمين : ٢٩ ، ٨٠ ط ١٣٢٨ - دار الكتاب العربى

ولما كان الشعر يخاطب العواطف مباشرة ، وذلك على حسب ما أوتى الشاعر من قوة
 الالهام والقدرة على تصوير الأحاسيس وكانت جوانب الحنييفة التي تراءت لنساء
 فيما رأينا من أبيات تميل الى مخاطبة العقل ، وهي مستدعية الى التأمل والنظر كانت
 هذه الأبيات فى عوصها سهلة واضحة لا تحمل سامعها أو الناظر فيها على ما يآلفه من
 جمال ومتعة شعريه ، وربما زاد فى ذلك استخراج هذه الأبيات من بين أخواتها
 مما قد يفقدها جانباً آخر من جمالها .

ولعل فى هذا ما يخفف ما قد يُظن من دخول الغشاء والاسفاف فى شعر من بمرزت
 فى شعرهم المعانى الايمانية والدينية ^(١) ، وبخاصة ما نظنه قد سلم من النحل ،
 وترجحت صحته الى قائله .

ولا يفوتنا أن ننبه الى قصور دراستنا هذه لمثل هذه الأبيات المفردة المقطوعة
 والتي اقام عليها البحث هيكله ، ولعل ما غرنا عليه من شعرهم من أبيات متفرقة ، لا يجمعها
 نظام واحد فى اغلبيه ، حيث لم نعثر على قصيدة كاملة - فى هذا الباب - أو جزء من
 قصيدة فيه ينهض برسم الخصائص الفنية ، أو الخط الذى كان يحتضيه هؤلاء الشعراء
 الحنفاء فى تناولاتهم وما يصدر عنهم مما يمثل منطلقهم الفنى خير تمثيل - لعل فى ذلك -
 القدر فيما نقدمه من لمس فنى نرجو ان يكون بصيصاً على تلك الابيات المبعثرة .

— هذا موقفى من الشعر الذى أنا بصددده أما موقفى من النثر الذى رأينا طرفاً منه
^{ورن طفت عليه الرنة الخطايب وطابع الموت}
 فى هذه الدراسة فهو الآخر يمثل النثر الجاهلى ، وتأمل قول عامر بن الظرب يوصى
 قومه :

” من جمع بين الحق والباطل لم يجتمعا له ، وكان الباطل اولى به ، وإن الحسن
 لم يزل ينفر من الباطل ، ولم يزل الباطل ينفر من الحق ، وأعدوا لكل أمر قسده
 قبل الرثاء تملأ الكائن ^(٢) ، ومع السفاهة الندامة ، والعقوبة نكال ، وفيها ذمامه ،
 فلا تدموا العقوبة ، واليد العليا معها عافية ، والقود ^(٣) راحة لا عليك ولا لك ،

(١) العصر الجاهلى (شوقى ضيف) : ٣٦٧

(٢) الرما : الرمس ، الكائن جمع كنة وهى جعبة السهام

(٣) القود : القصاص ، وأقيد القاتل بالقتيل اذا قتل به

وان شئت وجدت مثلك ، ان عليك كما ان لك ، وللكترة الرعب ، وللصبر الغلبة ، ممن
طلب شيئا وجد ، ، والا يجد ، يوشك أن يقع قريبا منه (١) .

فمعانيه تبد و واضحة ، وقد تحفها بعض التعليقات والابانات ، والجمل يغلب
عليها القصر وهي لا تخلو من المحسنات البديعة التي قد تكثر في بعض منها ، والخطيب
قد يغلب السجع بعضا منها ، والمعاني في اكثرها متناثرة غير مترابطة ، ومع ذلك فقد
دبجوا نثرهم بكثير من الحكم والامثال التي حفل بها نثرهم ، مصفة عامة فنثرهم تظهر
فيه الجزالة والقوة وشدة الأسر والوضوح ، والميل الى الذوق الادبي المطبوع ، ولعل
في ذلك ما يدل على اهتمام العرب بنثرهم الفني حتى بوء واصحبه مكانة رفيعة
بينهم .

(١) المعمرون والوصايا : ٥٩

والحمد لله رب العالمين

وصلى الله على نبيينا محمد وعلى آله

وصحبه أجمعين ، ، ،

الفحار

فہرست المراجع

فهرس المراجع

- القرآن الكريم .

(١)

- الأوائسل :

أبوهلال العسكري، تحقيق : محمد السيد الوكيل .- ١٩٦٦ م ،
دار أمل طنجة - المغرب .

- الاتقان فى علوم القرآن .

جلال الدين عبدالرحمن السيوطى .- دار المعرفة - بيروت .

- أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار .

أبو الوليد الأزرقى . تحقيق رشدى الصالح ملحق .- ط ٣ .- ١٣٩٨ هـ
دار الثقافة - مكة .

- آداب ما قبل الاسلام .

محمد عثمان على .- ط ١ .- ١٤٠٣ هـ ، المؤسسة العالمية للدراسات
والنشر والتوزيع . عالم الكتب - بيروت .

- أديان العرب فى الجاهلية .

محمد نعمان الجارم .- ط ١ .- ١٣٤١ هـ ، مطبعة السعادة - مصر .

- الأديان فى القرآن .

د . محمود بن الشريف .- ط ٣ .- ١٩٧٩ م - دار عكاظ - جدة .

- الاستيعاب فى معرفة الأصحاب .

أبو عمر يوسف بن عبدالله " بن عبد البر " ، تحقيق : على محمد البجاوى
مطبعة نهضة مصر - القاهرة .

- الاسلام وتقاليد الجاهلية .

آدم عبدالله الأكرورى .- ١٣٩٧ هـ ، المدنى - القاهرة .

- الاشتقاق .

أبو بكر محمد بن الحسين " بن دريد " . تحقيق : عبدالسلام هارون .
الخانجسى بمصر .

- الاصابة في تمييز الصحابة .
- أحمد بن علي " بن حجر العسقلاني " . تحقيق : علي محمد البجاوي .
دار نهضة مصر - القاهرة .
- الاصمعيات .
- عبد الملك بن قريب الاصمعي . تحقيق : أحمد شاكر ، عبد السلام هارون .
ط ٤ . - بيروت .
- الاصنام .
- ابن الكلبى . تحقيق : أحمد زكى باشا . - ط ٢ . - ١٩٢٥ م . دار
الكتاب المصرية .
- أصول الشعر العربى .
- مرجليوث . ترجمة : د . يحيى الجبورى . ط ٢ . - ١٤٠١ هـ ، مؤسسة
الرسالة - بيروت .
- اعجاز القرآن .
- أبى بكر الباقلاني . تحقيق : سيد أحمد صقر . - ط ٣ . - دار المعارف
بمصر .
- الاعلام .
- خير الدين الزركلى . - ط ٥ . - ١٩٨٠ م ، دار العلم للملايين - بيروت .
- الاغانى .
- أبى الفرج الاصبهاني " نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب " نشر :
دار احياء التراث العربى - بيروت .
- الاكلىل .
- أبى محمد بن أحمد الهمداني . تحقيق : محمد علي الاكوع الحوالى .
١٩٦٣ م ، السندة المحمدية - القاهرة .
- الأمالى .
- أبى على القالى . - ١٤٠٠ هـ ، دار الافاق الجديدة - بيروت .
- أمالى الزجاجى .
- عبد الرحمن بن اسحاق . تحقيق : عبد السلام هارون . - ١٣٨٢ هـ -
المؤسسة العربية الحديثة - القاهرة .

- آمالي الشريف المرتضى .
- "غرر الفوائد ودرر الغلائد" تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم .
- ١٣٨٧ هـ ، دار الكتاب العربي - بيروت .
- امتاع الأسماع .
- أحمد بن علي المقرئ . - ١٩٤١ م - مصر .
- الامثال : أبو عبيد القاسم بن سلام . تحقيق : د . عبد المجيد قطامش .
- مركز البحث العلمي - جامعة أم القرى - مكة المكرمة .
- امروء القيس "أمير شعراء الجاهلية" .
- د . طاهر أحمد مكى . - ط ١ . - ١٩٦٨ م - دار المعارف بمصر .
- أنساب الاشراف .
- أحمد بن يحيى البلاذري . تحقيق . د . محمد حميد الله . - معهد
- المخطوطات بجامعة الدول العربية مع دائرة المعارف بمصر .
- أيمان العرب في الجاهلية .
- أبو اسحاق إبراهيم بن عبد الله النجيري الكاتب . تحقيق : محب الدين
- الخطيب . - ط ٢ . - ١٣٨٢ هـ - المطبعة السلفية - القاهرة .
- الهداية والنهاية .
- أبو الغداء اسماعيل بن عمر بن كثير . - ط ٣ . - ١٩٧٩ م - مكتبة المعارف
- بيروت .
- البرصان والعرجان والعميان والدولان .
- أبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ . تحقيق : عبد السلام هارون . - ١٩٨٢ م
- وزارة الثقافة والاعلام - العراق .
- بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب .
- محمود شكرى الألوسى . شرحه وضبطه : محمد بهجة الأثرى . - ط ٣ . -
- دار الكتب الحديثة - القاهرة .
- بهجة المجالس وأنس المجالس .
- يوسف بن عبد الله "بن عبد البر" . تحقيق : محمد مرسى الخولى . - ط ٢
- ١٤٠٠ هـ - دار الكتب العلمية - بيروت .

- البيان والتبيين .
- أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ . تحقيق : عبدالسلام هارون . - ط ٤
- ١٣٩٥ هـ ، الخانجي بمصر .

(ت)

- تاج العروس من جواهر القاموس .
- محمد مرتضى الزبيدي . - ط دار مكتبة الحياة - بيروت .
- تاريخ آداب العرب .
- مصطفى صادق الرافعي . - ط ٤ . - ١٣٩٤ هـ ، دار الكتاب العربي - بيروت .
- تاريخ الآداب العربية .
- كلرلو نالينو . - ١٩٥٤ م - دار المعارف بمصر .
- تاريخ الأدب الجاهلي .
- د . علي الجندى . - ط ٣ . - ١٩٧٩ م - مكتبة الانجلو المصرية - القاهرة .
- تاريخ الأدب العربي .
- ريجيس بلاشير . ترجمة د . ابراهيم الكيلاني - دار الفكر .
- تاريخ الأدب العربي .
- عمر فروخ . - ط ٤ . - ١٩٨١ م - دار العلم للملايين - بيروت .
- تاريخ الاسلام وطبقات المشاهير والأعلام .
- الحافظ محمد بن أحمد الذهبي . تحقيق : حسام الدين المقدسي - المدني - القاهرة .
- تاريخ التراث العربي .
- د . فؤاد سزكين . ترجمة : د . محمود فهمي حجازي . - ١٤٠٣ هـ ، جامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية - الرياض .
- تاريخ ابن خلدون .
- " ديوان المتمدن أو الخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر " عبدالرحمن بن خلدون - ١٩٥٦ م - بيروت .

- تاريخ الطبرى .
- " تاريخ الأمم والملوك " أبو جعفر بن جرير الطبرى . تحقيق : محمد أبو الفضل ابراهيم . دار المعارف بمصر .
- تاريخ اليعقوبى .
- أحمد بن أبى يعقوب اليعقوبى . - ١٣٧٩ هـ - دار صادر ، دار بيروت . - بيروت .
- تاريخ اليهود فى بلاد العرب .
- اسرائيل ولفنسون . ١٩٢٧ م ، القاهرة .
- التطور والتجديد فى الشعر الأموى .
- د . شوقي ضيف . دار المعارف بمصر .
- تفسير البحر المحيط .
- أبو حيان محمد بن يوسف الأندلسى . - دار الفكر - بيروت .
- تفسير البيضاوى .
- " أنوار التنزيل وأسرار التأويل " عبد الله بن عمر البيضاوى . - مؤسسة شعبان - بيروت .
- تفسير الطبرى .
- " جامع البيان عن تأويل آى القرآن " أبو جعفر محمد بن جرير الطبرى
- تحقيق : محمود محمد شاكر . أحمد محمد شاكر . - ط ٢ . - دار المعارف بمصر .
- تفسير القرآن العظيم .
- أبو الفداء اسماعيل بن كثير الدمشقى . تحقيق : عبدالوہاب غنيم وآخرون . - دار الشعب - القاهرة .
- التفسير الكبير .
- الفخر الرازى . - ط ٢ . - دار الكتب العلمية - طهران .
- تفسير النسفى .
- عبد الله بن أحمد بن محمود النسفى . - دار احياء الكتب العربیة . القاهرة .

- التفكير الفلسفى الاسلامى .
- د . سليمان دنيا . - ط ١ . - ١٣٧٨ هـ ، الخانجى بمصر .
- تلبیس ابلیس .
- ابوالفرج عبدالرحمن بن الجوزى . - دار الكتب العلمية بيروت .
- " مصورة عن طبعة المطبعة المنيرية الثانية " - ١٣٦٨ هـ - القاهرة .
- التنبيه والاشراف .
- على بن الحسن السعوى . تصحيح : عبدالله اسماعيل الصاوى ،
- ١٣٥٧ هـ .
- تهذيب تاريخ دمشق .
- على بن الحسن " بن عساكر " . - ١٣٣٢ هـ ، روضة الشام .

(ج)

- الجامع لأحكام القرآن .
- محمد بن أحمد الانصارى القرطبى . " مصورة عن طبعة دار الكتب " .
- دار الكتب العربى ، ١٣٨٧ هـ - القاهرة .
- جامع الأصول من أحاديث الرسول .
- أبى السعادات مبارك بن محمد " ابن الاثير " . - ط ٢ . - ١٤٠٠ هـ ،
- دار احياء التراث العربى - بيروت .
- جامع الرسائل .
- أحمد بن عبدالحليم " بن تيمية " (المجموعة الاولى) تحقيق : د . محمد
- رشاد سالم - المدنى - القاهرة .
- جامع العلوم والحكم .
- أبو الفرج عبدالرحمن بن رجب الجنبلى . - ط دار المعرفة - بيروت .
- الجاهلية .
- " مقدمة فى الحياة العربية لدراسة الأدب الجاهلى " . د . يحيى
- الجبورى . - ١٣٨٨ هـ ، مطبعة المعارف - بغداد .
- جزيرة العرب منذ أقدم العصور .
- د . جمال عبدالهادى ، د . وفاء محمد رفعت . - ١٣٩٨ هـ .

- جمهرة أشعار العرب .
- أبو زيد محمد بن الخطاب القرشي . تحقيق : علي محمد الجاوي
- ط ١ . - دار نهضة مصر - القاهرة .
- جمهرة أنساب العرب .
- علي بن أحمد " بن حزم " الأندلسي . تحقيق : عبدالسلام هارون . -
- ط ٤ . - دار المعارف بمصر .
- جمهرة خطب العرب .
- أحمد زكي صفوت . - ١٣٨١ هـ ، مصطفى الحلبي - القاهرة .
- جمهرة نسب قريش وأخبارها .
- الزبير بن بكار . تحقيق : محمود شاكر . - ١٣٨١ هـ ، المدني - القاهرة .

(ح)

- حجة الله البالغة .
- أحمد شاه ولي الله الدهلوي . - ط ١٣٢٢ هـ - المطبعة الخيرية .
- حلية المحاضرة في صناعة الشعر .
- محمد بن الحسن الحاتمي . - ط ١٩٧٩ م - دار الرشيد - بغداد .
- حماسة البحترى .
- أبو عبادة البحترى . بعناية كمال مصطفى . - ١٩٢٩ م ، المطبعة
- الرحمانية - مصر .
- الحماسة البصرية .
- البصري . - ط عالم الكتب - بيروت .
- الحياة العربية من الشعر الجاهلي .
- د . أحمد محمد الحوفي . - دار القلم - بيروت .
- الحياة والموت في الشعر الجاهلي .
- د . محمد عبد اللطيف جاووك . - ١٩٧٧ م ، وزارة الاعلام العراقية .
- = الحيوان .
- أبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ . تحقيق . عبدالسلام هارون . - ط ٢
- ١٣٨٥ هـ ، مصطفى البابی الحلبي - القاهرة .

(५)

- خزانة الأدب ولبّ لباب لسان العرب .
 - عبد القادر بن عمر البغدادي . تحقيق : عبد السلام هارون .
 الخانجي - القاهرة .
 - الخطابة العربية في عصرها الذهبي .
 د . احسان النقي . ط ٢ . دار المعارف بمصر .

(۷)

- دائرة المعارف الاسلامية .
- ألفها جماعة من المستشرقين . ترجمة : ابراهيم زكي خورشيد وآخرون . (بدون طبع ولا تاريخ) - دار الشعب - القاهرة .
- دراسات في الشعر الجاهلي .
- د . نوري حمودي القيس . - مطبعة المعارف - بغداد .
- دروس ونصوص في قضايا الأدب الجاهلي .
- د . عفت الشراوى . - ١٩٧٩ م ، دار النهضة العربية - بيروت .
- الدعوة الى الاسلام .
- أنولند . ترجمة : د. حسن ابراهيم حسن وزميلاه . - ط ٣ . - ١٩٧٠ م ، مكتبة النهضة المصرية - القاهرة .
- دلائل النبوة .
- أحمد بن الحسين البيهقي . تحقيق : سيد أحمد صقر . - ط ٢ . - ١٣٨٩ هـ ، المجلس الاعلى للشئون الاسلامية - مصر ، - ط ١ . - ١٤٠٥ هـ ، دار الكتب العلمية - بيروت ، تحقيق : د . عبد المعطي قلعجي .
- الديــــــــــــن .
- د . محمد عبدالله دراز . - ط ٢ . - ١٣٩٠ هـ ، دار القلم - الكويت .
- ديوان الأعشى الكبير " ميمون بن قيس " .
- تحقيق : د . محمد محمد حسين . - ط ٧ . - ١٤٠٣ هـ ، مؤسسة الرسالة - بيروت .

- ديوان امرئ القيس .
- تحقيق : محمد أبو الفضل ابراهيم .- ط ٢ .- ١٩٦٤ م ، دار المعارف - بمصر .
- ديوان أميّة بن أبي الصلت .
- صنعه د . عبد الحفيظ السطلي .- ط ٢ .- ١٩٧٧ م - دمشق .
- ديوان أوس بن حجر .
- تحقيق : محمد يوسف نجم .- دار صادر - بيروت .
- ديوان بشر بن أبي خازم الاسدي .
- تحقيق : د . عزة حسن .- ١٣٧٩ هـ ، مديرية احياء التراث القديم - دمشق .
- ديوان الحادرة .
- تحقيق : د . ناصر الدين الأسد .- ١٣٩٣ هـ ، دار صادر - بيروت .
- ديوان الحطيئة .
- تحقيق : نعمان أمين طه . ١٩٥٨ م ، مصطفى الحلبي - القاهرة .
- ديوان دريد بن الصمة .
- جمع وتحقيق وشرح : محمد خير البقاعي .- ١٤٠١ ، دار قتيبة - دمشق .
- ديوان زهير بن أبي سلمى .
- ١ - " صنعة الاعلم الشنمري " تحقيق : د . فخر الدين قباوة .- ط ٣ .
- .. ١٤٠٠ هـ ، دار الآفاق الجديدة - بيروت .
- ٢ - " صنعه نعل " تحقيق : د . فخر الدين قباوة .- ط ١ .- ١٤٠٢ هـ ، دار الآفاق الجديدة - بيروت .
- ديوان سلامة بن جندل .
- تحقيق : د . فخر الدين قباوة .- ط ١ .- ١٣٨٧ هـ ، المكتبة العربية - حلب .
- ديوان شعر حاتم بن عبدالله الطائي وأخباره .
- عادل سليمان جمال .- المدني - القاهرة .
- ديوان طرفه بن العبد .
- تحقيق : درية الخطيب ، لطفي الصفال .- ١٣٩٥ هـ ، مجمع اللغة العربية - دمشق .

- ديوان طفيل الغنوى .
- تحقيق : محمد عبدالقادر احمد .- ط ١ .- ١٩٦٨ م ، دار الكتاب
الجديد - بيروت .
- ديوان عامر بن الطفيل .
- " رواية أبي بكر محمد بن القاسم الانباري عن أبي العباس ثعلب " .-
١٣٨٣ هـ ، دار صادر ، دار بيروت .
- ديوان العباس بن مرداس .
- جمع وتحقيق : د . يحيى الجبورى .- ١٣٨٨ هـ ، وزارة الثقافة
والاعلام - بغداد .
- ديوان عبيد بن الأبرص .
- تحقيق : د . حسين نصار .- ١٣٧٧ هـ ، مصطفى الحلبي - مصر .
- ديوان عروة بن السورد .
- (١٣٨٤ هـ) دار صادر - بيروت .
- ديوان علقمة الفحل .
- تحقيق : لطفي الصقال ، درية الخطيب .- ١٣٨٩ هـ ، دار الكتاب
العربي - حلب .
- ديوان عمرو بن معدى كرب الزبيدي .
- صنعه : هاشم الطعان .- وزارة الثقافة والاعلام - العراق .
- ديوان عنتر بن شداد العنسي .
- تحقيق : محمد سعيد مولوى .- ط ٢ .- ١٤٠٣ هـ ، المكتب الاسلامي
دمشق .
- ديوان أبي قيس بن الأسلت .
- تحقيق : د . حسن محمد باجودة .- دار التراث - القاهرة .
- ديوان قيس بن الخطيم .
- تحقيق : د . ناصر الدين الأسد .- ط ٢ .- ١٣٨٧ هـ ، دار صادر -
بيروت .
- ديوان لبيد بن ربيعة .
- تحقيق : د . احسان عباس .- ١٩٦٢ م ، الكويت .

- ديوان المتلمس الضبعي .
- تحقيق : حسن كامل الصيرفي . - ١٣٩٠ هـ ، معهد المخطوطات
بجامعة الدول العربية .
- ديوان المثقب العبدى .
- تحقيق : حسن كامل الصيرفي . - ١٣٩١ هـ ، معهد المخطوطات
بجامعة الدول العربية .
- ديوان النابغة الذبياني .
- تحقيق : محمد الطاهر بن عاشور . - الشركة التونسية للتوزيع ، والشركة
الوطنية للنشر - الجزائر .
- ديوان النمر بن تولب .
- صنعه : د . نوري حمودي القيس . - مطبعة المعارف - بغداد .

(ن)

- الذيل والنوادر .
- أبو علي القاسي " مؤيداً بالأمالى " . - ١٤٠٠ هـ ، دار الآفاق الجديدة ،
بيروت .

(ر)

- رسالة الففران .
- أبو العلاء المعري . تحقيق : د . عائشة عبد الرحمن " بنت الشاطي " .
ط ٧ . - دار المعارف بمصر .
- رسائل الجاحظ .
- أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ . - تحقيق : عبد السلام هارون . - ط ١ . -
١٣٩٩ ، الخانجي بمصر .
- روح المعاني .
- محمود شكري الألوسي . - ط ٢ . - دار احياء التراث العربي - بيروت .
- الروض الأنف .
- عبد الرحمن السهيلي . - ١٣٨٩ هـ ، دار الكتب الحديثة - القاهرة ،
تحقيق : عبد الرحمن الوكيل .

(ز)

- زهير بن أبى سلمى : حياته وشعره .
- د . احسان النصّ . - دمشق .
- زهير بن أبى سلمى : شاعر الحق والخير والجمال .
- د . سعد اسماعيل شلبى . - مكتبة غريب - القاهرة .
- زهير بن أبى سلمى شاعر السلم فى الجاهلية .
- د . عبدالحميد سند الجندى . - بدون تاريخ .

(س)

- سمط اللالكى شرح أمالى القالى .
- ابوعبيد البكرى . تحقيق : عبدالعزيز الميمنى . - ط ٢ . - ١٤٠٤ هـ ،
- دار الحديث - بيروت .
- السيرة الحلبية .
- " انسان الديون فى سيرة الأئمين والمأمن " على برهان الدين الحلبي
- ١٣٨٤ هـ ، مصطفى الحلبي - مصر .
- السيرة النبوية .
- أبو الحسن على الحسنى . الندوى . - ط ٣ . - ١٤٠١ هـ ، دار الشروق
- جدة .
- السيرة النبوية .
- عبدالملك بن هشام الحميرى . تحقيق : مصطفى السقا وآخرون . -
- مؤسسة علوم القرآن .

(ش)

- شرح أشعار الهذليين .
- تحقيق : محمود شاكر ، عبدالستار فراج . - المدنى - القاهرة .

- شرح ديوان الحماسة .
يحيى بن على الخطيب التبريزى . تحقيق : محمد محى الدين
عبد الحميد . - مطبعة حجازى - القاهرة .
- شرح ديوان الحماسة .
ابو على المرزوقى . تحقيق : أحمد أمين ، عبدالسلام هارون . - ط ٢ . -
مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر - القاهرة .
- شرح القصائد السبع الطوال .
أبو بكر محمد بن القاسم الأنبارى . تحقيق : عبدالسلام هارون . - ط ١
دار المعارف بمصر .
- الشعراء الحنفاء .
د . أحمد جمال العمري . - ١٩٨٢ م ، دار المعارف بمصر .
- شعراء النصرانية .
لويس شيخو اليسوعى . - مكتبة الآداب - القاهرة .
- الشعر والشعراء .
عبد الله بن مسلم بن قتيبة . تحقيق : أحمد محمد شاكر . - دار المعارف
بمصر .
- الشهاب الرائد .
محمد لطفي جمعة . ط ١ (١٩٤٤ م) ، لانتلف ولقلم / عصر

(ص)

- الصائبون حرائين ومندائيين .
- رشدى عليان . ط (١٩٧٦ م) دار السلام - بغداد .
- الصائبه المندائيون .
- ليدى دراوو . ترجمة : نعيم بدوى ، غضبان رومى . ط (١٩٦٩ م) مطبعة الارشاد بغداد .
- صبح الأعشى فى صناعة الانشا
- أبوالعباس القلقشندى * نسخة مصورة عن الطبعة الاميرية * .
- صحيح مسلم بشرح النووي .
- ط ٢ (١٣٩٢) دار احياء التراث العربى - بيروت .
- الصناعتين
- أبو هلال العسكري . ط ١ (١٤٠١) دار الكتب العلمية - بيروت .
- الصورة الغنية فى الشعر الجاهلى فى ضوء النقد الحديث .
- د . نصرت عبدالرحمن . ط (١٩٧٩ م) مكتبة الاقصى - عمان .
- (ط)

- طبقات الأمم
- ساعد الاندلسى . (طبعة الكلاؤيليكه) (١٩١٢ م) بيروت .
- طبقات فحول الشعراء
- محمد بن سلام الجمحى . شرح وتحقيق : محمود محمد شاكر . ط المدنسى القاهرة .
- الطبقات الكبرى
- محمد بن سعد . ط (١٣٧٧) دار صادر ، دار بيروت . بيروت .
- طبقات النحويين
- أبو بكر محمد بن الحسن الزبيدى . تحقيق : محمد ابوالفضل ابراهيم . ط ١ (١٣٧٣) الخانجى بمصر .
- الطوائف الأدبية
- تحقيق : عبدالعزيز الميمنى . ط دار الكتب العلمية - بيروت .

- طرفة بن العبد . حياته وشعره .
- د . محمد علي الهاشمي . ط (١٤٠٠) عالم الكتب - بيروت .

(ع)

- عدى بن زيد العبادي
- د . محمد علي الهاشمي . ط (١٣٨٧) المكتبة العربية - حلب .
- العصر الجاهلي
- د . شوقي ضيف . ط دار المعارف بمصر .
- العقد الفريد
- أحمد بن محمد " بن عديده " . تحقيق : أحمد أمين وآخرون . ط (١٩٤٦ م)
- لجنة التأليف والترجمة والنشر - مصر .
- عمدة القارى شرح صحيح البخارى .
- بدر الدين محسود أحمد المعيني . ط المطبعة العنبرية - بيروت .
- العمدة في صناعة الشعر وآدابه ونقده
- أبي الحسن بن رشيق القيرواني . تحقيق : الشيخ محمد محي الدين عبد الحميد
- " بدون تاريخ " .
- عون المعبود في سنن أبي داود .
- أبو الطيب محمد شمس الحق آبادي . ط (١٣٨٨) دار الفكر - بيروت . صورة
- عن طبعة المكتبة السلفية بالمدينة المنورة " .
- عيون الاخبار
- عبد الله بن مسلم بن قتيبة . " نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب " .

(غ)

- غريب الحديث .
- أبي سليمان الخطابي . تحقيق : د . عبد الكريم ابراهيم الغريباوي . ط مركز
- البحث العلمي . جامعة أم القرى - مكة المكرمة .

(ف)

- الفاخر .
- المفضل بن سلمة بن عاصم . تحقيق : عبد العليم الطحاوي . ط (١٣٨٠)
- وزارة الثقافة والارشاد القومي - مصر .

- فتح البارى شرح صحيح الامام البخارى
أحمد بن على بن حجر العسقلانى . ط (المكتبة السلفية - القاهرة

- فتوح البلدان
أحمد بن يحيى البلاذرى ، نشره : صلاح الدين المنجد ط مكتبة النهضة
المصرية .

- فجر الاسلام
أحمد أمين . ط ١١ (١٩٢٩ م) دار الكتاب العربى - بيروت .

- الغروسيه فى الشعر الجاهلى
د . نورى حمودى القيسى . ط ١ - بغداد .

- الفكرة والصورة فى شعر زهير بن أبى سلمى .
د . فتحية محمود فرج العقدة . ط ١ (١٤٠٣) دار العلوم - الرياض

- الفهرست
محمد بن اسحاق النديم . ط دار المعرفة - بيروت .

- فى الادب الجاهلى
د . طه حسين . ط ١٠ دار المعارف بمصر

- فيض الخاطر
أحمد أمين . ط ١ (١٩٥٥ م) مكتبة النهضة المصرية

- فى ظلال القرآن
سيد قطب . ط ٨ (١٣٩٩) دار الشروق .

(ق)

- قرّة عيون الموحدين
عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ . ط أنصار السنة المحمدية لاهور

- قس بن ساعدة الايادى . حياته - خطبه - اشعاره .
أحمد الربيعى . ط (١٩٧٤ م) مطبعة النعمان . بغداد .

- قصص الانبياء
أبو الفداء اسماعيل بن كثير الدمشقى . ط دار القلم - بيروت .

- قيم جديدة لأدبنا القديم والمعاصر .
د . عائشة عبدالرحمن " بنت الشاطي " ط (١٩٧٠ م) دار المعارف بمصر .

(ك)

- الكامل في التاريخ
أبوالحسن مجد الدين علي بن أبي الكرم " بن الاثير " ط ٤ (١٤٠٣) دار
الكتاب العربي - بيروت .

- الكامل في اللغة والادب .
أبوالعباس محمد بن يزيد المبرن . ط مكتبة المعارف - بيروت .
- الكشاف عن حقائق التأويل ومعاني التنزيل .
أبو عمر جار الله بن محمود بن عمر الزمخشري . ط دار المعرفة - بيروت .

- الكليات
أبي البقاء الكفوي . قابله : عدنان د رويش . ط (١٩٧٦ م) وزارة الثقافة
والارشاد القومي - مصر .

(ل)

- لبيد بن ربيعة
د . يحيى الجبوري . ط مكتبة الاندلس - بغداد .
- لسان العرب .
أبوالفضل جمال الدين محمد بن مكرم " بن منظور " . ط دار صادر - بيروت .

(م)

- ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين
لأبي الحسن علي الحسن الندي - ط الاتحاد الاسلامي للمنظمات الطلابية
(١٤٠١)

- مجاز القرآن
لأبي عبيد معمر بن المثنى - تحقيق : د . فؤاد سزكين ط (١٩٥٤ م) مطبعة
السعادة - مصر .

- مجمع البيان فى تفسير القرآن
- الفضل بن الحسن الطبرى - ط (١٣٨٠)
- مجمع الأمثال
- أحمد بن محمد الميدانى - تحقيق : محمد محى الدين عبد الحميد
- ١٣٧٤ . السنة المحمدية . القاهرة .
- محاضرات فى الاخطاء العلمية والتاريخية التى اشتمل عليها كتاب فى الشعر الجاهلى
- محمد الخضر حسين . (مستلأ من مجلة القضاء الشرعى المصرى)
- المحبر
- أبو جعفر محمد بن حبيب البغدادى . روايه الحسن بن الحسين السكرى
- تصحیح : ايلزه ليختن - ط . المكتب التجارى . بيروت .
- مختصر سنن أبى داود .
- للحافظ المنذرى - تحقيق محمد حامد الفقى - مكتبة السنه المحمدية . القاهرة
- مراتب النحويين
- أبو الطيب اللغوى - تحقيق : محمد أبو الفضل ابراهيم ط (١٩٥٥ م)
- المرأة فى الشعر الجاهلى :
- د . أحمد محمد الحوفى . ط ٢ . دار الفكر العربى - القاهرة .
- مروج الذهب
- تحقيق محمد محى الدين عبد الحميد ط . دار الاندلس
- المزهر فى علوم اللغة .
- جلال الدين عبد الرحمن السيوطى - تحقيق : على محمد البجاوى وآخرون
- ط . دار احياء الكتب العربيه - القاهرة .
- المستقصى فى الأمثال .
- جار الله محمود بن عمر الزمخشري ط (١٣٨١) دائرة المعارف العثمانية
- حيدر اباد - الهند .
- مسند الامام أحمد .
- للإمام أحمد بن حنبل الشيبانى . ط المكتب الاسلامى - بيروت .
- مصاد الشعر الجاهلى
- د . ناصر الدين الأسد . ط (١٩٨٢ م) دار المعارف بمصر .

- المعارف

لابى محمد عبدالله بن مسلم بن قتيبة - تحقيق : د . ثروت عكاشة ط .
دار المعارف بمصر .

- المعتقدات والقيم فى الشعر الجاهلى .
محمد الشيخ محمود صيام : رسالة دكتوراء - جامعة أم القرى (١٤٠٢)

- معجم ما استعجم
لابى عبيد البكرى - تحقيق : مصطفى السقا وآخرون ط (١٣٦٤) لجنة
التأليف والترجمة والنشر . مصر .

- معجم الادباء
ياقوت بن عبدالله الحموى - ط دار احياء التراث العربى - بيروت .

- معجم البلدان
ياقوت بن عبدالله الحموى - ط (١٣٩٧) دار صادر - بيروت .

- معجم الشعراء .
محمد بن عمران المرزبانى - تصحيح كرنكو ط . دار الكتب العلمية - بيروت .
معجم مقاييس اللغة .

لابى الحسين أحمد بن فارس - تحقيق : عبدالسلام هارون ط ٢ (١٣٨٩)
مصطفى البابى الحلبي - القاهرة .

- المعرب
لابى منصور الجوالقى - تحقيق : أحمد شاكر ط ٢ دار الكتب

- المعمرن والصاىا
لابى حاتم السجستانى . تحقيق عبدالمنعم عامر ط (١٩٦١ م) دار احياء
الكتب العربية - القاهرة .

- المفردات
للراغب : الحسين بن محمد الراغب الاصفهانى . تحقيق : محمد سبـ
كيلانى ط (١٣٨١) هـ مصطفى الحلبي . مصر .

- المفصل فى تاريخ العرب قبل الاسلام
د . جواد على ط ٣ (١٩٨٠ م) دار العلم للملايين . بيروت

- المفصل فى تاريخ الادب العربى .
أحمد أمين وآخرون . ط (١٣٥٢) مطبعة مصر - القاهرة .

- المفضليات

المفضل بن محمد الضبي . تحقيق : أحمد محمد شاكر ، عبد السلام هارون
ط ٦ - بيروت .

.. الملل والنحل .

محمد بن عبد الكريم الشهرستاني (على هامش الفصل في الملل والاهاـ)
والنحل لابن حزم ط ٢ (١٣٩٥) دار المعرفة بيروت .
وتحقيق : د . محمد فتح الله بدران ط الحلبي القاهرة .

- من قضايا الادب الجاهلي

د . محمد أبو الانوار ط . مكتبة الشباب القاهرة .

- موسوعة التاريخ الاسلامي .

أحمد شلبي ط ٨ (١٩٧٨ م)

- موسوعة العقاد الاسلامية * المجلد الاول * .

عباس محمود العقاد ط ١ (١٩٧٠ م) دار الكتاب العربي - بيروت .

- موقف النقد الادبي من الشعر الجاهلي

د . محمد رجب البيومي ط جامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية
الرياض .

- النايغة الذبباني

د . عمر الدسوقي ط ٦ (١٩٧٤ - ١٩٧٥ م) دار الفكر العربي . القاهرة .

- نشر الدر

للوزير الكاتب : أبوسعـد منصور بن الحسين الآبي

تحقيق : محمد على قرنه ط . الهيئة المصرية العامة للكتاب .

- النشر الفنى

د . زكى مبارك ط ٢ مطبعة دار السعادة بـصر .

- نسب قریش

المصعب بن عبد الله الزبيـرى - تحقيق - بروفـسال ط ٣ دار المعارف بـصر .

- نظرية الانتحال في الشعر الجاهلي

د . عبد الحميد المسلوت ط . دار القلم . القاهرة .

- النقائض بين جرير والغزدق .
- لابي عبيد معمر بن المثنى . تحقيق : المستشرق " بيقان) ط ١٩٠٥ م ليدن
- النقد الادبى
- أحمد أمين . ط (١٣٢٨) دار الكتاب العربى - بيروت .
- النقد التحليلى لكتاب فى الادب الجاهلى
- أحمد محمد الفمراوى ط (١٩٨١ م)
- نقد كتاب فى الشعر الجاهلى
- محمد فريد وجدى ط (١٩٢٦ م) ط : دائرة معارف القرن العشرين بمصر
- نقد النثر المنسوب لقدامة بن جعفر - ط . لجنة التأليف والترجمة والنشر بمصر .
- نهاية الارب فى فنون الادب .
- شهاب الدين أحمد بن عبدالوهاب النويرى
- " نسخة مصوره عن طبعة دار الكتب " وزارة الثقافة والارشاد القومى - مصر .
- النهاية فى غريب الحديث والاثر .
- للإمام مجد الدين : أبوالسعادات المبارك بن محمد " بن الاثير " ، تحقيق
- محمود محمد الطناحى ط . المكتبة الاسلامية .
- نوار المخطوطات
- تحقيق : عبدالسلام هارون ط (١٣٩٢) مصطفى الحلبي - مصر .
- (هـ)
- الهجاء والهجاءون فى الجاهلية
- د . محمد محمد حسين . ط ٣ (١٣٨٩) دار النهضة العربية - بيروت .
- (و)
- وثنية العرب وأثرها فى الادب الجاهلى
- على أحمد على الخطيب (رسالة ماجستير جامعة الازهر . ١٣٨٩)

(٤٤٢)
الدوريات

- مجلة آداب المستنصرية - جامعة المستنصرية - العدد الخامس - ١٤٠٠ ، ص ٥٣١
- مجلة الازهر - السنة (١٢) ١٣٦٠ ، ص ٣٦٥ ، ٤٤٠ ، ٦٣٠ ،
السنة (١٣) ١٣٦١ - ص ١٣٧ ، ٣٢٥ ، ٣٦٠ ، ٧٤٢
- مجلة التضامن الاسلامي - العدد السابع - محرم - ١٣٩٢ . ص ٢٩٦
- مجلة الشعر . العدد (٣٦) - اكتوبر (١٩٨٤م) ص ١٩
- مجلة كلية اللغة العربية - جامعة أم القرى . العدد الثاني : ١٤٠٤ ص ٧٩
- مجلة المشرق " انظر فهرسها " (١ - ٤٤) ص ٤٢

فهرس الموضوعات

فهرس الموضوعات

١	- المقدمة
١٣	- تمهيد :
١٤	"أ" الحنيفية
٢٥	"ب" جذور الحنيفية
٣٩	"ج" أديان الجاهليين
الباب الاول : الحنفاء	
الفصل الاول : حول معنى الحنفاء	
٦٨	"أ" حول معنى الحنفاء
٨٨	"ب" عقيدة الحنفاء وشريعتهم
الفصل الثانى : الحنفاء	
٩٤	"أ" المشاهير
١٥٠	"ب" المفسورون
الباب الثانى : أدب الحنيفية فى العصر الجاهلى	
الفصل الاول : الانتحال وأدب الحنيفية	
١٦٥	"أ" عند المستشرقين
١٧٧	"ب" عند الدكتور طه حسين
٢١١	النشر والانتحال

الفصل الثانى : شعر الحنيفية

٢١٩

" أ " المعتقدات

٢٦١

" ب " العبادات

٣٠٧

" ج " التشريعات

٣٤٨

الفصل الثالث : نثر الحنيفية

٣٦٤

الفصل الرابع : تحليل وتقويم

٤٢١

- فهرس المراجع

٤٤٤

- فهرس الموضوعات